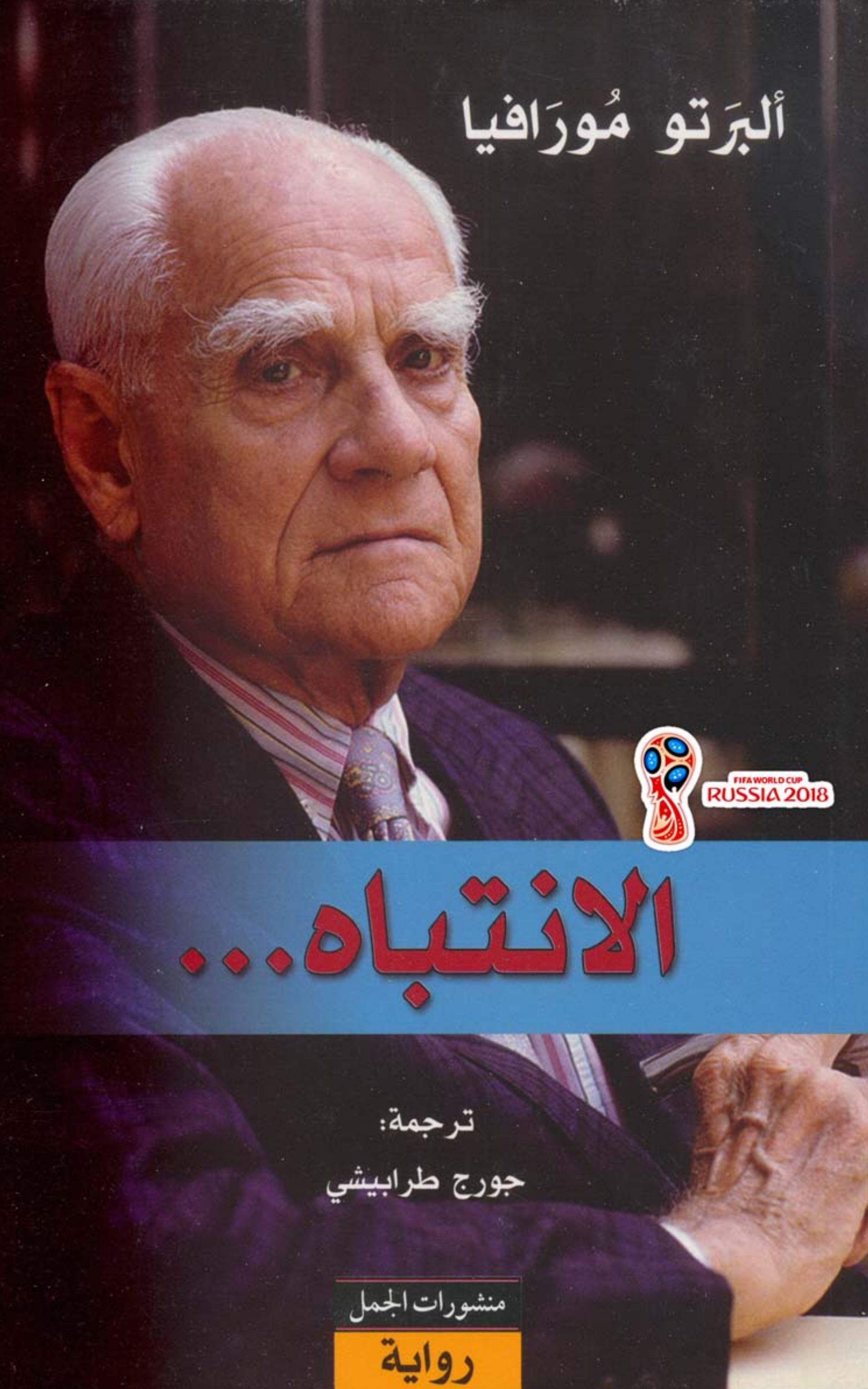

ألبرتو مُورَافيا

الانتباه...

ترجمة:

جورج طرابيشي

منشورات الجمل

رواية

ألبَرتو مُورَافيا

الانتباه...

رواية

ترجمة جورج طرابيشي

منشورات الجمل

ألبَرتو مُورَافيا: الانتباه...

ألبَرتو مُورَافيا: الانتباه... رواية، ترجمة جورج طرابيشي،
الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت ـ بغداد ٢٠١٧
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Alberto Moravia: L'attenzione, 1965
©1965-2015 Bompiani/RCS Libri S.p.A. - Milan

©*Al-Kamel Verlag 2017*
Postfach 1127. 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

تمهيدٌ

ينبغي عليّ قبل كلّ شيء أن أذكر لمَ كتبت يومياتي. عديدةٌ هي الأسباب التي تدفع بالمرء إلى كتابة يوميات: فقد يكونُ راغباً في تسجيل وقائع يعتبرها مهمّة، أو راغباً في المسارّة والمناجاة والاعتراف، أو راغباً في تلبية نداء غريزة التوفير والاقتصاد التي توحي أحياناً للكتّاب باستغلال تفاصيل أحداث حياتهم كيما يزيد عدد كتبهم المنشورة. وهناك أيضاً حوافز الغرور والعجب بالذات. أمّا هذه اليوميات فقد كتبت على العكس لتكون فيما بعد أساساً لرواية، أي كمجموعة مواد يمكن استخدامها فيما بعد في تحرير رواية. لكن لما كان من الممكن أن يخطر في بال البعض أن يتساءل لِمَ لَمْ أكتب الرواية مباشرة، من دون أن أسبّقها بيوميات ذاتية، لذا فقد لا يكون من العبث الذي لا طائل تحته أن أروي الأحداث والتأمّلات التي أوحت إليّ بكتابة يوميات قبل أن أقدم على تدبيج الرواية.

في البداية كان هناك شعور الخزي الذي يوحي به إليّ الماضي. خزي كان سيكون مفهوماً لو كان في ماضيَّ شيء مخزٍ موضوعياً. لكن ليس هناك شيء من هذا، وليس في ماضيّ ما يبعث فيّ حمرة الخجل. ليس فيه أي عمل يمكن أن أكون نادماً الآن على ارتكابه، أو يحرك فيّ شعور الإثم. كنت أشعر بالخجل، لكنّي، بمختصر الكلام، لم أكن أدري لماذا. وإنّي لأريد الآن أن أفصّل في طابع هذا الخجل. وسأقول، على سبيل التشبيه، إنّني عندما كنت أفكّر بالماضي كان يخامرني إحساس كالإحساس الذي يعتورني عندما أتذكّر، في صباح

اليوم التالي، سهرةً أكثرت فيها من الشرب وأطلقت فيها العنان لنزواتي تحت تأثير الكحول. فإذا بكل ما بدا لي في تلك السهرة، وأنا فريسة للثمل، مبرراً واقعياً، دالاً، ضرورياً، منسجماً، يتجلّى لي على حين غرّة لامعقولاً، زائفاً، غير واقعي، مجانياً. إذن، فقد كان هناك، في قرارة ذلك الخزي الذي يوحي به إليّ الماضي، فكرةٌ مكدرة معذبة، فكرة أنّني تركت نفسي أنقاد بلا روية، أنّني كنت لعبة في يد الوهم، أنّني انخدعت بسراب. ولم يكن السؤال الذي يرتسم في خلدي آنذاك هو «لِمَ فعلت هذه الأشياء» بقدر ما كان «هل أنا حقاً الذي فعل تلك الأشياء، هل كنت لحظتذاك أنا نفسي أم غيري؟».

من الممكن أن نجد تفسيراً جزئياً للخزي الذي يوحي به إليّ الماضي في مهنتي كصحافي. ولقد كان طابع مهنتي هذه عادياً بالأحرى في الظاهر: فبعد أن قمت بدراسات أدبية كتبت قصصاً قصيرة ومقالات لصحيفة يسارية. ولقد سنحت لي، من غير ما انتظار، فرصة للمساهمة في صحيفة يومية محافظة الميول. فلم أتردّد وقبلت العرض. ورغم أنّني لم أكن منتمياً إلى أي حزب من الأحزاب، فإنّ أفكاري السياسية كانت معروفة، وعديدون هم الناس الذين أصدروا حكماً قاسياً عليّ قائلين إنّني ورّطت نفسي وأسأت إلى سمعتي شأن الكثيرين من الطموحين الذين بعد أن برزوا في معسكر اليسار باعوا أنفسهم لليمين. لكن هذا لا ينطبق عليّ في الحقيقة.

الواقع أنّ انتقالي من صحيفة يسارية إلى صحيفة محافظة لا يمكن تفسيره برغبة، ولو غير واعية، في الربح والاستفادة، ولا بتبدّل في الرأي شاءت له الصدف، كما يحدث غالباً، أن يلتقي ومصلحتي الخاصّة. لم يكن لي في العملية من غرض أو فائدة، وقبل كلّ شيء لأنّني لم أكن طموحاً، ولأنّ المال لم يكن يعني كبير شيء بالنسبة إليّ لأنّني لم أكن فقيراً ولا جشعاً. أمّا عن أفكاري السياسية فلم أتحوّل

عنها. وإنّما اكتفيت بأن أضعها جانباً كما لو أنّها شيء لم يعد له من أهمية، مؤقتاً بلا شك، في حياتي. كلا، إنّ دافعي إلى الانتقال من صحيفة يسارية إلى صحيفة محافظة لا دخل له بالمرّة، عندي، بالمصلحة أو الطموح أو السياسة. تخيّلوا، على سبيل التشبيه، امرءاً يضرم النار في منزله حتّى يشعل سيجارته. بديهي أنّ لمثل هذا الرجل بعض المصلحة في إضرام الحريق. لكن الضرر يتجاوز الفائدة، والوسيلة غير متناسبة مع الغاية، إلى حد يمكن معه القول إن صاحبنا المدخن لا يهدف، بإحراقه منزله، إلى إشعال سيجارة، بقدر ما يهدف إلى إطلاق العنان لنزعة وبيلة فيه، أي لهوس إشعال الحرائق. وإذا لم تبدُ لكم هذه المقارنة كافية، فإليكم هذا المثال الذي يبدو لي واضحاً. لقد كان مسلكي، بانتقالي من صحيفة يسارية إلى جريدة يومية يمينية، أشبه بمسلك المجنون في تلك القصة المعروفة، أعني المجنون الذي أُعلن عن برئه التام بعد أن قضى حقبة طويلة في مصح عقلي.

بيد أنّ مدير المصح أراد، قبل السماح له بمغادرته، أن يخضع المجنون، الذي شفي، لامتحان. وبعد أن استدعاه سأله: هات يا صاحِ. هأنتذا قد عدت إنساناً سوياً. تخيّل أنّك ورثت عدّة ملايين، فماذا ستفعل بها؟

فأجاب المجنون بلهجة الواثق من نفسه: سأشتري في هذه الحال مقلاعاً، فألح المدير، وقد اختلط عليه الأمر، لكن من غير أن يستسلم بعدُ للهزيمة: هيّا، فكّر قبل الإجابة. لقد تكلّمت عن ملايين عدّة. والمقلاع لا يكلف سوى بضعة قروش. تريّث، فكّر قليلاً، ماذا ستفعل بهذه الملايين؟

فأجاب المجنون هذه المرّة: سأتزوج.

- آه! مرحى، لقد أحسنت الجواب. ستتزوج إذن، وماذا ستفعل بعد ذلك؟

- سأتزوج في الكنيسة ثمّ سأسافر مع زوجتي في شهر عسل.
- إلى أين؟
- إلى باريس.
- اختيار ممتاز. وماذا ستفعل عند وصولك إلى باريس؟
- سأذهب إلى أحد الفنادق مع زوجتي.
- حسناً. ثمّ ماذا؟
- سأغلق الباب علينا في الغرفة.
- وماذا ستفعل في هذه الغرفة؟
- سأعرّي زوجتي. سأجرّدها أوّلاً من ثوبها، ثمّ من قميصها الداخلي، ثمّ من مشدّها، ثمّ من سروالها، ثمّ من حذائها، ثمّ من جوربيها، وأخيراً من حمالات جوربيها.
- وآنذاك؟
- آنذاك، سأصنع من حمالاتها مقلاعاً.

ولا تذكر القصة إلامَ انتهى المجنون المسكين، هاوي المقاليع، لكن من اليسير تصوّر ذلك.

والحال أنّني تصرّفت إلى حد ما مثل هذا المجنون. فأنا لم أنتقل من صحيفة يسارية إلى صحيفة يمينية لا اهتماماً منّي بمستقبلي، ولا كسباً لمزيد من المال، ولا لأنّني بدّلت رأيي السياسي، ولا لأي دافع آخر معقول. وإنّما فقط لأسافر. فالصحيفة اليسارية كانت جريدة فقيرة ولا تستطيع أن تسمح لنفسها بترف تعيين مراسلين خاصّين في البلدان الأجنبية. ومن هنا كان تعاوني مع صحيفة محافظة.

قد يسألني سائل: ما دمت غير فقير فلمَ لم تقم بأسفار على حسابك الخاص؟ وسوف أجيبه بأنّني لم أكن أملك، بالرغم من أنّني لست بفقير، وسائل كافية للسفر على نحو متواصل. ثمّ إنّني كنت بحاجة، كيما أسافر، إلى ظاهر من تبرير مهني. وما دامت نتائج السفر

هي التي كانت تهمّني وليس السفر في حد ذاته، ولو لم أفعل ما فعلته، فلربما كنت سألجأ إلى وسائل أخرى أقل وداعة وسلمية للحصول على تلك النتائج نفسها.

لكن ينبغي أن أقول لمَ كان السفر ينال منّي بالغ الاهتمام. الحق أنّني إذا كنت قد أردت السفر كثيراً، فهذا لأنّني لم أكن أريد البقاء في روما. في روما التي عشت فيها ذلك الماضي الذي كنت، كما ذكرت، خجلاً منه. وليس ذلك لأنّ هذا الماضي، الذي كانت توقظه الذكريات التي كان يهيجها إطار أليف، كان يمثّل أمام ذاكرتي من غير أن أشاء ذلك في غالب الأحيان. كلا، فقد كان لماضيّ في روما اسم، مظهر مادي، عمر، جنس، وكان يقيم تحت سقفي: أعني زوجتي. وما كنت أسافر إلّا لكيلا أبقى مع زوجتي، أو كي أبقى معها أقل مدّة ممكنة، أي فقط في المدّة الفاصلة بين سفرتين.

لقد قلت إنّني بالرغم من خجلي من ماضيّ لم أكن أجد فيه ما يبعث على الخجل. ولقد كان هذا تناقضاً غريباً يستحق مجهوداً جدياً من الانتباه. لكن التفكير كان على وجه التحديد الشيء الذي لا أرغب فيه، أو بالأحرى الشيء الذي كنت أشعر بأنّني عاجز عنه. وهكذا توصّلت إلى الاستنتاج بأنّه من الأنسب لي، آنياً على الأقل، أن أقف من ماضيّ، أي من زوجتي، موقفاً هو بالضبط نقيض الانتباه، أي موقف اللاانتباه. ماذا يفعل الشخص غير المنتبه؟ إنّه ينظر إلى بعيد، ويرى على الأرجح، بفضل منظار قوي، واضح الرؤية، أنقاض المدينة التي هدمتها هزّة أرضية شديدة أثناء الليل. لكنّه لا يتبين في الوقت نفسه أنّ الأرض، تحت ناظريه، تنشقّ وأنّ بيته على وشك الانهيار. تلك كانت حالتي، فقد كنت أهتم، في تحقيقاتي عن البلدان الأجنبية، بحضارة المايا أو بتصنيع اليابان، لكنّني توصّلت بفعل إرادي أوّلاً ثمّ آلياً، إلى جهل كلّ شيء عن زوجتي، بل حتّى إلى جهل شخصها بالذات بالرغم من أنّها عاشت معي، تحت سقفي.

أعتقد، وقد وصلت حيث وصلت، أنّ من واجبي أن أعطي بعض معلومات عن امرأتي. كانت كورا ـ هذا اسمها ـ امرأة من الشعب، مهنتها الخياطة، ابنة غسالة وبستاني. أمّا كيف تزوج الفتى البورجوازي الذي كنته، ابن البورجوازيين، المثقف والميسور الحال، من كورا، فهذا قابل للتفسير بكلمات قليلة: كنت قد ولدت في مجتمع منقسم إلى تلك الدوائر التي يركب بعضها بعضاً والتي تبدأ من جحيم البؤس لتنتهي إلى غبطة فردوس الغنى والثروة، دوائر شاع اصطلاح تسميتها بطبقات، ولما كنت أعيش في الفردوس فقد شدهت للزيف المخيم عليه. كان هذا الزيف من نوع خاص ومحدد، كان اللاأصالة المميزة لكلّ مسرحية مقلدة هي، بالنسبة إلى ممثليها، غير مقلدة وإنّما غير إرادية ولا شعورية وكنقيض لهذه اللاأصالة ولدت فيّ على نحو بطيء لكن أيضاً بنفس الصورة الطبيعية التي يتم بها، داخل المحارة، تكوين نواة اللؤلؤة، أقول ولدت فيّ أسطورة الشعب ـ الذي ـ هو ـ وحده ـ محد ـ لكل ـ ما ـ في ـ العالم ـ من ـ أصالة. كنّا في عام ١٩٤٧، وكانت هذه الأسطورة قد وجدت توكيداً لها في الفاشية والحرب، هاتين الكارثتين المتولدتين (إذا ما أمعنا التفكير) عن اللاأصالة. هكذا يتّضح السبب الذي وقعت من أجله في حب كورا منذ أوّل لقاء لي بها. وخلاصة القول إنّ الأسطورة فعلت فعلها ككل الأساطير، أي آلياً وعلى نحو غامض. أمّا كيف عرفت كورا فهذا غير ذي أهمية ولا يستحق أن أسرده. وحتّى أقنع قارئي بأنّه كان حباً حقيقياً، يكفيني أن أقول إنّني، بعد أن استأذنت منها بالانصراف يوم لقائنا الأوّل، رحت أسير في الشوارع بمفردي أردّد بصوت عالٍ وبوجد ونشوة: «إنّها هي، هي التي كنت أبحث عنها منذ زمن طويل طويل... قد وجدتها أخيراً!».

بعد هذا النوع من الإشراق، لا تعدو في الحقيقة قصة علاقاتي

مع كورا أن تكون أكثر من قصة حب عادي بما فيه الكفاية. كنت نادراً ما أراها في البداية ولمدّة ساعة أو ساعتين فقط في غرفة كنت قد استأجرتها، ثمّ رحت أكثر من لقاءاتي بها وحتّى خارج الغرفة. كانت كورا، كما قلت، خياطة، أي أنّها كانت تعمل في ورشة خياطة لتتدارك أودها وأود طفلة صغيرة أنجبتها من جندي ألماني إبان الحرب. ولم تتأخّر عن أن تطلب منّي مساعدتها على تأسيس ورشة صغيرة لحسابها الخاص. ثمّ تلت ذلك مرحلة متوسطة كنت خلالها أعطي مالاً لكورا التي صرت أراها يومياً، من دون أن أكف عن العيش مع أسرتي. كانت كورا تقطن مع ابنتها في شقة صغيرة مرتبطة بالورشة. ثمّ اقترحت عليها، بدافع حبّي لها الذي كان ما ينفك ينمو، أن نعيش معاً. ولقد كانت مفاجأتي كبيرة عندما لم تبد كورا أي حماسة. فقد قالت إنّها تريد أن تبقى حرّة وألا تعاني من أي رقابة، وأنّ لها حياتها ولي حياتي. فما الحاجة لأن نعيش معاً؟ ثمّ إنّ الأمور كان تسير على الوجه المرام، أنا بين أسرتي، وهي في شقتها، مع ساعة أو ساعتي حب يومياً في الغرفة الملاصقة للورشة. وقد حسبت آنذاك أنّ كورا تنتظر منّي دليلاً على الحب أكمل من الحياة المشتركة، وبكلمة واحدة، الزواج. ولما كنت قد أمسيت حريصاً على التفاهم والانسجام، فقد سألتها أن تتزوجني. ولقد قبلت هذه المرّة، لكن من غير أن تبدي انفعالاً فائقاً ووضعت لقبولها الشروط ذاتها: إنّها مصممة، سواء أكانت خليلة أم حليلة، على أن تبقى حرّة، مستقلة بنفسها، لها حياتها الخاصة المنفصلة والمختلفة عن حياتي. ولقد كان أجدر بي أن أقف متكفراً أمام هذه التحفظات. لكنّي عزوتها على العكس إلى الروح الاستقلالية لامرأة في ريعان الشباب تدبّرت حتّى الآن، شأن كورا، أمرها واشتغلت دوماً وكسبت ما يقوم بأودها. وهكذا تزوجنا في النهاية وأصبحنا بعلاً وبعلة.

وفي العام نفسه توفى والدي الذي كان مترملاً، وتقاسمنا أنا وأخي الأوحد تركته. ولقد اشتملت الحصة التي كانت من نصيبي على شقة، قديمة بالطبع، لكن كبيرة ونشطة، في الطابق الأخير من منزل قريب من ساحة مازيني. وأقمت فيها مع كورا وطفلتها. ولقد فرشت الشقة، من غير أن أدري السبب وربما وفاء لاشعورياً منّي لذوق الطبقة التي أنتمي إليها، بالطراز الشائع آنذاك، طراز النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، طراز الإمبراطورية في عهد لوي فيليب. ولقد كنت أنوي، إذ أتيت لأقيم في ذلك البيت المفروش على طريقة بيوت أعيان الريف، أن أتفرّغ لتأليف رواية، وهو طموح قديم في حياتي. في تلك الرواية كنت سأروي قصة علاقاتي مع كورا، منذ لقائنا الأوّل حتّى قراننا. ولقد كان يخيّل إليّ بالفعل أنّ حياتي قد بلغت مرفأ السكينة بعد الكثير من العواصف. فقد كنت أتمتع بريع صغير يتيح لي أن أحيا من دون أن أعمل. وكانت لي زوج أحبها، وطفلة أعتبرها كابنتي. وكنت على وفاق مع نفسي، بمعنى أنّني لم أكن أشعر بالحاجة إلى تغيير أفكاري أو نمط حياتي. فهل بإمكاني أن أطلب أكثر من ذلك؟ مختصر القول إنّني كنت أحيا في شروط من الاستقرار كانت تبدو لي ضرورية لا غنى عنها للإقدام على تأليف رواية. لكن آنذاك طرأ طارئ غير متوقع: إذ لم أعد أحبّ كورا.

لا يكفي أن أقول إنّني لم أعد أحبّها. لا يكفي أن أقول إنّني لم أعد أشتهيها وإنّني أمسيت لا أجد أي جاذبية أو معنى في ذلك الجانب الشعبي الذي أوقعني في شراك الوله بها، بل ينبغي أن أضيف أنّه قد بدأ يخامرني تجاهها نفور غير معقول وجد تعبيره الأوّل في رفض جامح، مقلق، متشنج، لذاتي، ولقد تجلّى ذلك أوّلاً في العلاقات الجسدية، إذ لم تعد تلك البساطة أو بالأحرى تلك الخشونة في سلوك كورا وشخصها تعنيان شيئاً بالنسبة لي بل باتتا على العكس

تحرّكان أحاسيس النفور والاشمئزاز فيّ، مع أنّهما هما اللتان أثارتا في السابق إعجابي بكورا لأنّني وجدت فيهما تلك الأصالة التي كنت بأشد الحاجة إليها. وما عاد في وسعي، أنا أقف بلا حراك بجانبها، أن أهبها قبلة واحدة من شفتي، مداعبة واحدة من يدي، حضنة واحدة من جسدي. والغريب في الأمر أنّه لم يعد في روحي مكان حتّى للامبالاة التي تسمح للمرء بأن يكون، بعد كلّ شيء مجاملاً، أنيساً، بل حتّى عطوفاً، وبأن يظهر، بموجز الكلام، تلك المودة التي هي حق لجميع البشر لمجرد أنّهم موجودون. كلا، إنّما كان يشدّني ويهصرني على العكس عداء قاتم، دفين، يدهشني ويخيفني. ومنذ تلك اللحظة بدأ الماضي يثقل عليّ كما تثقل ليلة من السكر والتهتك عندما تجري محاكمتها، في صباح اليوم التالي، من قبل عقل عاد إلى رشده وتزمّته. وكانت كورا، التي كانت إلى جانبي في هذا الماضي، توحي إليّ على وجه التحديد بتلك النفرة التي قد يوقظها، في اليوم التالي، رفيق الفجور وشريكه في مثل تلك الليلة. ولقد كانت كورا، من غير ما إرادة أو اختيار منها، شريكي في الوهم الذي يخيّل إليّ أنّني وقعت في شراكه عندما شغفت بها وتزوجتها. وكنت أدرك أنّها لم تذنب في شيء. ومع ذلك لم أكن أستطيع أن أمسك نفسي عن كرهها كما يكره المرء السبب البريء لخطأ اقترفه.

لم يكن شعور العدائي يتترجم في رفضي ذاتي فحسب، بل أيضاً في إحساس بغربة متسلطة وقسرية. كان يحدث لي أن أفكّر وأنا على المائدة أثناء وجباتنا أو في الفراش بينما كورا تغط في النوم: «من هذه المرأة الجالسة تجاهي، والتي تكلمني وتبسم لي وتخاطبني بلا كلفة؟ التي تتمدّد بجانبي في الفراش وتدير لي ظهرها وتشخر؟ ما علاقتي بهذه المرأة؟ ما أتى بها، بحق الشيطان، إلى هنا؟».

ومن حين إلى آخر كنت أردّد في نفسي: «كورا مانشيني». وكان

يخيّل إليّ أنّني لا ألفظ اسم زوجتي بل اسماً وقع عليه بصري بالصدفة في دليل الهاتف أو في إعلان لمخزن من المخازن. وكنت أفكّر: «أي شيء مشترك يمكن أن يوجد بيني وبين الشخص الذي يدعى كورا مانشني؟».

وبلغ رفضي ذاتي حدّاً بتّ أتجنب معه تحويل ناظري إليها، ضاناً عليها بما لا يضن به أحد على أحد، بنظرة. كنت أتذرّع بأي ذريعة لأغيّر مكاني على المائدة حتّى لا تكون في قبالتي. ورفض آخر: إذا دخلت زوجتي إلى الحجرة التي أكون موجوداً فيها، كنت أتدبّر أمري لأتسلل خارجها بأقصى سرعة ممكنة. ولم أكن غير راغب في رؤيتها فحسب، بل لم أكن أريد أيضاً أن تراني. وخلاصة القول إنّ نوعاً من الشلل المتدرج كان يزيدني تصلّباً وتخشباً في موقف من عدم الاتصال التام: زهد، غربة، اشمئزاز.

طبيعي أنّ هذا الشلل نفسه كان يمتد إلى جميع أولئك الذين كانوا مرتبطين، بصورة من الصور، بكورا، وقد كان سهلاً عليَّ قطع كلّ صلة بأهلها الذين كانوا يعيشون في حيّ ناءٍ، لكنّي وجدت صعوبة في فعل الشيء نفسه مع غابرييلا، الملقبة بابا، ابنة كورا التي عاملتها واعتبرتها حتّى ذلك الحين كابنتي من لحمي. ولقد كنت أفضّل لو أنقطع بالمرة عن مشاهدتها، ولكن لما لم يكن ذلك ممكناً فإنّني لم أستطع إلّا أن أخفي عنها حرجي جزئياً. وفيما كانت غابرييلا تناديني ذات يوم بـ «بابا» أجبتها باندفاعة من غيظ أبله سرعان ما ندمت عليها «لا تناديني بابا، فأنا لست بوالدك، هل فهمت؟ لنتفق، ولا تسميني بعد الآن هكذا أبداً!». ورأيتها تنظر إليّ نظرة هادئة، شبه مستغربة، لم أعرف كيف أقابلها. لكن بدءاً من ذلك اليوم، اختفت التسمية المحبة من كلامها، ولاحظت بانشراح مشوب بشيء من تأنيب الضمير، أنّ الطفلة تتجنبني، أو على الأقل، لا تسعى ورائي كما في الماضي.

وكيما أعطي فكرة عن ذلك الشعور المسخط بالغربة الذي كانت توحي به إليّ الحياة المشتركة مع كورا وابنتها، سأضيف بأنّني، في قرارة نفسي، ما عدت أدعوهما باسميهما، وبتّ أعطيهما ألقاباً. فكورا هي «الخياطة». وكنت أقول بيني وبين نفسي: «ماذا تريد الخياطة؟ ما الذي يشغل الخياطة الآن؟». وكانت بابا (وأنا آسف بقول ذلك) هي «بنت الحرام». وكنت أتساءل «ما بها تصرخ، بنت الحرام هذه، متى ستكف بنت الحرام عن الصراخ في المشي؟». آه! لقد بعد العهد بذلك الزمن الذي كان ينقسم فيه يومي إلى قسمين متعادلين: الأوّل الذي كنت أرغب فيه في لقاء كورا، والثاني الذي كنت أتحسّر فيه على لقائنا. أو أيضاً ذلك الزمن الذي كنت أصطحب فيه بابا إلى الحديقة العامة، شاداً على يدها الرقيقة في يدي، ومصغياً إلى هذرها يخالجني شعور أبوي كما لو أنّها ابنتي فعلاً.

كان قد بقي لي عملي، أي تأليف روايتي. وقد وضعت فيها جميع آمالي بالنسبة إلى مستقبل كان يبدو لي في السابق أكيداً للغاية ويبدو لي الآن غير موثوق إلى حد رهيب. ولقد كتبت، دفعة واحدة، نصاً أولياً ـ ثلاثمئة صفحة ـ في ستة شهور ونيف، وأنا أتهيأ الآن لإعادة كتابته، أو بالأحرى لنسخه وتصحيحه. ولقد كتبته بتوفيق ويسر لا مراء فيهما، وكان إحساسي مع كلّ صفحة أنّني أصبح أكثر فأكثر كاتباً وروائياً. وعلى هذا فقد كنت أشعر، في هذا الجانب من حياتي، بأنّني موفور الحماية وواثق من نفسي. صحيح أنّني أخفقت في زواجي، لكنّه أفادني على الأقل في دفعي إلى تدبيج رواية. وعليّ أن أشير هنا إلى واقعة مهمة: فقد بدأت الرواية وأنهيتها قبل انهيار عواطفي العائلية، وفي وقت كنت ما أزال أعتبر فيه نفسي رجلاً موفقاً في زواجه. وبالفعل، تصف الرواية علاقاتي مع كورا بأنّها إيجابية وناجحة، وإن كانت القصة تقف عند عشية زواجي.

فتحت ذات يوم، وأنا جالس إلى طاولتي، مسودة روايتي لأباشر بضربها على الآلة الكاتبة. لكنّي لم أتجاوز الأسطر الأولى. فقد طوقني على حين بغتة شعور بالشك، فأزحت آلتي الكاتبة وشرعت أقرأ الكتاب من جديد. ولقد قرأت طوال بعد الظهر تقريباً، ثمّ أطبقت مخطوطي وأنا فريسة لإحساس مرعب بأنّ حياتي مفتوحة ومعروفة من الآن فصاعداً برمتها، بلا أي حماية، ولا حتّى حماية الأدب. كان وقع أكيد غير قابل للإنكار، وقع من الزيف واللاوقعية، واللاأصالة، يصدر عن كلّ كلمة في المخطوطة.

لا أريد أن يساء فهمي. فلا يمكن القول عن روايتي إنّها لم تكن ناجحة. ومن المؤكد أنّها لن تكون، فيما لو نشرت، بضاعة رخيصة بين الإنتاج القصصي في الأعوام الأخيرة. فالموقف والأشخاص والأسلوب والتركيب والبنية تساهم جميعها بصورة طبيعية بما فيه الكفاية في تكوين عضوية متينة تتمتع بكلّ ظواهر الحيوية. ومع ذلك كانت قصة البحث تلك عن الأصالة عبر حب فتاة من الشعب غير أصيلة بالمرّة. بيد أنّ اللاأصالة ما كانت كامنة في الصفحات المكتوبة، وإنّما ـ بلا شك ـ في الوقائع المسرودة فيها بالذات. كانت، إذا جاز لي التعبير، لا أصالة تكوينية، كما لو أنّ الأحداث التي سعيت إلى سردها هي في أصلها، وحتّى قبل أن أرويها، غير أصيلة بصورة لا علاج لها. لكن هذه الأحداث لم أخترعها من بنات مخيلتي، وإنّما استخلصتها من ماضيّ الأحدث عهداً. كنت أنا نفسي الممثل الأوّل فيها، وكانت ابنة الشعب التي أحبّها الممثل الأوّل وتزوّجها هي كورا وكان والد الفتاة ووالدتها هما أهل كورا. وكان أخو البطل الأوّل هو أخي. وكان أهله أهلي. وكانت بنت الأسرة الغنية التي آثر عليها البطل في النهاية كورا خطيبتي لمدّة سنة من الزمن. وكانت المدينة التي يحيا فيها الأشخاص ويتحرّكون هي روما

نفسها التي فيها أحيا وأتحرّك. إذن، ومن جديد أكرّر، لم يكن الكتاب هو العديم الأصالة وإنّما الواقع الذي استخلص منه.

لست واثقاً من قدرتي على التعبير عن الشعور الفظيع الذي أوحى به إليَّ هذا الاكتشاف. وإذا شئتم تشبيهاً فسأقول إنّني كنت كمن اكتشف على حين بغتة أنّ الله، عندما خلق العالم، قد استبدل هذه الخليقة بمواد بديلة، أي بعناصر لا يبدو عليها أنّها العناصر التي كان ينبغي أن تكون. أو سأشبه نفسي أيضاً بآدم وحواء، أوّل كائنين تحرّكا على هذه البسيطة، عندما خيّل إليهما أنّهما متحابان في حين أنّ دافع اتحادهما كان في الواقع غير ذلك تماماً. وقد تبعهما نسلهما، ومن ثمّ الإنسانية قاطبة التي سلكت سلوكهما، عبر قرون وقرون، مدفوعة بأسباب غير أصيلة، فضاعفت بذلك، بتقدّم هندسي، اللاواقعية المبدئية. وكان التاريخ، منظوراً إليه من هذه الزاوية، يبدو كمقبرة من أفكار زائفة يتبناها البشر تارة ويهجرونها تارة أخرى، كمخزن للملابس التنكرية لم يظهر فيه وجه الواقع بعريه الحقيقي ولا مرة واحدة. ولقد كان من الطبيعي أن تأتي الرواية التي تسرد وقائع حدثت في عالم كهذا فاسدة هي نفسها، تنخرها لا أصالة أصلية وراسخة الجذور.

كنت أشعر - فلنرجع إلى روايتي - بأنّ بطلي يحبّ ابنة شعبه لأسباب عارية من الأصالة، إلى حد يمكن معه التأكيد بأنّه ما كان يحبّها في الحقيقة قط. والحال أنّني عندما رحت أصوغ هذه الفكرة المثبطة للهمّة، كنت أعلم أنّ كورا هنا، على بعد خطوتين، في الغرفة المجاورة. وكنت أعرف أنّ المأمور الرسمي الذي عقد قراننا ما يزال حياً. وكنت أتذكّر المرّات العديدة التي ضاجعتها فيها وكيف فعلت ذلك. أجل، لقد أحببت كورا، تزوجتها، لكن هذه الأفعال تكشف، عند إعمال الفكر فيها، عن لا أصالتها التامة العضال. لا أصالة

كاملة، نهائية، إلى حد أنّني رحت أشك في أن تكون هذه الأشياء، التي كانت واقعية، قد حدثت فعلاً وواقعاً. وبالفعل، كيف يمكن لما لم يكن موجوداً، لما لم يكن كائناً، أي اللاأصيل، أن يكون أصل ما وجد، أصل ما كان، أي الحدث؟ ومع ذلك، فتلك هي القاعدة من العدم تولد الكينونة، ومن اللاواقعي الواقعي. وإذا شئتم العودة إلى التشبيه الذي سبق لي أن استخدمته، فسأقول: لكأن الله بخلقه العالم قد خلقه خطأً. ومع ذلك فالعالم هنا ليشهد على أنّه قد خُلق، سواء بصورة لا أصيلة أم لا. كذلك فإنّ كورا هنا في الغرفة المجاورة لتشهد، بالرغم من علاقاتنا اللاأصيلة من جذورها، على أنّنا قد تحابينا وتزوجنا فعلاً.

لا أريد أن ألحّ أكثر من ذلك على فاجعة روايتي. فقد حملتُ مخطوطتي ذات يوم، فجأة، بلا تفكير تقريباً، بحركة اليأس الآلية، وذهبت أتكئ على نافذة في الشقة تطل على واجهة جانبية متصلة بأرض معدّة للبناء محاطة بسياج. وكانت هذه الأرض تستخدم كمستودع للنفايات. وكانت أكداس من الأقذار تتراكم فيها هنا وهناك. وكان صبيان أشقياء ومتشردون وهررة يتسكعون بين حفر الأرض وأركامها. وأخذت أمزق مخطوطتي، وأرمي في الهواء بمزق الورق التي كانت تتطاير في الفضاء طويلاً قبل أن تحط على الأرض. إنّني لا أذكر أنّني، بينما كنت أقوم بهذه العملية، كنت أرنو إلى الجادة التي يرتفع فيها مسكني، والتي كنت ألمح، في نهايتها، أشجار الدلب تعانق كلّ منها أختها عند حافة النهر، والضفة المقابلة من التيبر بدورها المتصافّة. وعلى هذا الدور يطل تل صخري تتوجّه غابة من أشجار الصنوبر، وفوق هذه الصنوبرات السماء الزرقاء لنهار صيفي مشرق. وقلت في نفسي: إنّ الله، بعد أن خلق العالم، قد يكون أحسّ هو الآخر بأنّ هذا العالم عارٍ من الأصالة تماماً، وربما

راودته، لهنيهة لا أكثر، فكرة هدمه. لكنّه، بالنظر إلى أنّه أكثر شجاعة منّي أو أكثر إصراراً منّي على الخطأ، عدل عن تلك الفكرة. وهكذا استمرّ العالم في حياته، من زيف إلى زيف، ولا أصالته تترسخ أكثر فأكثر. وألقيت في الفراغ بالأوراق الأخيرة من مخطوطتي حتّى من دون أن أنظر إليها، ورحت أتأملها وهي تدور في الهواء متجهة قصدياً، إرادياً، كما لو بانشراح صدر، نحو كوم الأقذار في الأرض المعدّة للبناء. وعلى حين غرة خالجني شعور بأنّني، بهذه الحركة الفظة في رمزيتها، قد صفّيتُ، فضلاً عن طموحي الأدبي، كلّ حياتي الماضية.

وسرعان ما هويت، بعد ذلك، في خمول عميق. وكما يحدث أحياناً في الأحلام، كان يخيّل إليّ انّني معلق بحافة صقيلة وعمودية، وتحتي هوة لا قرار لها، عاجز عن الصعود أو النزول، أو البقاء حي أنا. فأنا متزوج بامرأة تتقدمني في السن، أصبحت من الآن فصاعداً أجنبية بالنسبة لي، وابنتها ليست طفلتي. ولم أعد أؤمن بالأشياء التي آمنت بها حتّى الآن، ولا أعتقد أنّ هناك أشياء أصحّ منها قابلة لأن تحل محلها. وأخيراً كان عليّ أن أستسلم لفكرة أنّ العمل الذي تهيأت له طوال حياتي قد فشل كلياً. والعنصر الإيجابي الوحيد على نحوٍ ما في وجودي هو أنّني ما أزال في الثلاثين. لكن وعيي هذا لشبابي كان يزيد من مرارة شعوري بحالة العجز المطلق التي سقطت فيها. كنت أشعر بأنّني، على امتلاكي لإمكانات لا محدودة، لا أملك أي وسلة للاستفادة منها.

إنّ إحدى مميزات تلك المرحلة من الانحطاط المعنوي أنّني لم أفكر قط بالانفصال عن كورا، كما كان سيفعل بلا شك أي شخص آخر مكاني. والحق أنّ الانفصال فعل، ولقد كنت أشعر أنّني عاجز عن العمل في هذا الاتجاه أو ذاك، ما دمت قد أقررت بأنّ العمل

يعني الكذب، أي خلق لاأصالة جديدة أدهى وأمرّ كلّما ولد عمل جديد وتطوّر. ولقد كانت كورا (التي ما كان يبدو عليها مع ذلك أنّها تشاطرني أفكاري عن لا أصالة العمل) هي التي بادرت إلى القطيعة التي ما كنت لأجرؤ على مواجهتها.

ففي عصر يوم من الأيام رقدت على ديوان غرفة الاستقبال، بعد تأمّل طويل وباطل في وضعي. وعلى حين غرة خالجني شعور، في نومي، بأنّ ثمّة شخصاً ما يجلس على طرف الديوان، ويرنو إليّ. ففتحت عيني وجلست فجأة ورأيت كورا تتأملني بصمت.

كان وجه كورا يذكر بعض الشيء، ببساطة تقاطيعه وفجاجة ألوانه، بوجه تمثال قديم مدهون على نحو بدائي لإله أو لبطل يوناني. فقد كان لون بشرتها شديد البياض، وشعرها بسواد الغراب، وكانت لها عينان واسعتان زرقاوان، وأنف طويل مستقيم، من النمط الجرماني، وفم لَحِم قاني الحمرة، جامح قاسٍ في التوائه، منفرج الثنايا كما لو أنّه دائم الابتسام. في تلك اللحظة كانت ساكنة بلا حراك كتمثال حقيقي، وعيناها شاخصتان إليّ، ووجهها الضيق محاط بخصلتين طويلتين من شعر أسود لامع، وجذعها مستقيمة، وصدرها نافر، ويداها متصالبتان على ركبتيها. هذا الوضع والصمت الذي كانت ما تزال تلزمه، رغم أنّني استيقظت وحطّ نظري عليها فلم يغادرها، أرعباني بعض الشيء. وهتفت بلهجة من تفاجأ:

ـ ما حدث؟ ما بك؟ لم تحدقين بي على هذا النحو؟

فأجابت من بين أسنانها من غير أن تحرّك شفتيها تقريباً:

ـ سأذهب إلى المحل. لكن عليّ قبل ذلك أن أقول لك شيئاً ما.

ـ ماذا؟

ـ أنت لم تعد تحبّني.

وبذلت جهداً لأتكلم، لكنّي لم أتمكن. فتابعت:

ـ قلت لي إنّه ينبغي أن نتقطع عن الجماع لأنّ عليك أن تقف نفسك كلّها على روايتك. وهذه الرواية أنت لا تكتبها. ماذا تظن إذن؟ أتحسب أنّني لم أدرك أنّك تمضي أيامك في هذه الحجرة تستمع إلى أسطوانات وتدخن؟ أنت لا تكتب رواية ومع ذلك ما عدنا نضجع معاً.

ومن جديد لم أحر بجواب. كان ذلك صحيحاً: فقد تذرّعت بعملي الأدبي حتّى أبرّر قطع علاقاتنا الجسدية. لكنّي أشعر الآن، بعد أن مزقت مخطوطتي، بالخجل وأنا أستمع إلى كورا تؤنبني على هذه الذريعة. كانت تنظر إليّ وفجأة سألتني:

ـ ما بك يا فرانشيسكو؟ أبإمكاني أن أعرف ما بك؟

فأجبت بشعور من يقول الحقيقة:

ـ ليس بي شيء.

ـ في السابق، كنّا نتحاب يومياً، بل مرّتين في اليوم، وكان عليّ أنا أن أوصيك بعدم المبالغة، حرصاً على صحتك. أمّا الآن فعلى العكس، وأنت ما عدت تنظر إليّ...

ـ إنّها مرحلة ليس إلّا... ولسوف تمضي.

ـ لم تعد تحمل أي عاطفة نحوي.

ـ هذا غير صحيح، ولكن...

ـ بلى، هذا صحيح.

كنت على وشك الاحتجاج من جديد، وليس ذلك لأنّني أخاف من الإقرار بهذه الحقيقة الخاصة التي لمّحت إليها، بل لأنّني أحسّست، كعادتي، بأنّ الإقرار بها يعني بشكل ما إضافة زيف جديد إلى الزيف القائم أصلاً. لكنّها بادرتني بحركة، حركة خاصّة بها، حركة امرأة من العامّة وامرأة غانية في آن واحد: فبدون أن تحرك جذعها أو وجهها مدّت ذراعها القوية وجاءت يدها البيضاء الطويلة

لتمسك بفرجي[1] وتشد عليه بينما كانت تحدجني بنظرة ثاقبة فيها نوع من أمل، لنقل تكنيكي. وعانقتني لهنيهة من الزمن بجماع جسدها ثمّ أبعدت يدها بازدراء وقالت:

- أرأيت، في الماضي كان يكفي أنّ أنظر إليك حتّى تأخذك المتعة. أمّا الآن فعلى العكس، فكأنّه ليس عندك شيء هنا. أنت في الثلاثين. فلا تقل لي إنّك أصبحت عنيناً.

فقلت:

- من يدري. لعلي قد أصبحت كذلك فعلاً.
- أجل، معي.
- أليس هناك غير هذا بين الرجل والمرأة؟
- وماذا غيره؟
- الحنان.
- بين الرجل والمرأة إذا لم يكن هناك هذا الشيء، فلا شيء بينهما البتة.

لم أجرؤ على مناقضتها. فتابعتْ:

- أعرف ما بك.

فسألتُ بفضول:

- ما بي؟
- ما بك هو أنّك ما عدت تطيقني.
- من قال ذلك؟
- هذه أشياء يشعر بها المرء شعوراً.

ومن جديد لم أشأ أن أكذبها. وتابعت كورا، لكن بلهجة ساخرة بعض الشيء هذه المرّة:

---

(١) هو في العربية للمذكر والمؤنث.

- لقد انقضى بسرعة شغفك بي، أليس كذلك يا فرانشيسكو! كنت تقول إنّك ستحبني مدى الحياة. أفتعرف أنّه لم يكد يمضي عام على زواجنا؟

صمت جديد من جانبي. كورا تنظر إليّ الآن بتعبير لا يمكن تحديده، تعبير إنسان ينظر إلى قطعة أثاث أو أي شيء آخر ملبّك، متسائلاً عن مكان يستطيع أن يضعه فيه. وأخيراً قالت:

- هل تريد أن ننفصل؟

وأشرت برأسي أن لا. فأسرعت عندئذ كورا تضيف وكأنّها خشيت أن أقاطعها:

- أتريد أن نبقى معاً؟
- أجل.
- في هذا البيت؟
- أجل.

وصمتت لحظة ثمّ استأنفت:

- كما تريد. لكن إليك ما أقترحه عليك. من الآن فصاعداً ستعيش لحسابك الخاص. إنّني لا ألزمك بشيء، لا بفعل الحب ولا بالجلوس معي إلى المائدة، ولا بالاهتمام بي ولا بالصغيرة. إنّني أكسب ما فيه الكفاية من المال، وهذا معناه أنّك ستعطيني بالضبط ما ينبغي لنفقات تدبير البيت. سأضع سريراً في الحجرة المجاورة للمدخل، وسيكون لك الاستديو للعمل، والصالون للاستقبال. أمّا نحن فسنكتفي بحجرة النوم والمطبخ. وسيمكنك الذهاب والمجيء كما لو أنّني غير موجودة. لكنّي سأهتم أنا بكل ما يتعلق بتدبير المنزل وبالمقابل، أسألك فقط البقاء هنا. أيلائمك الأمر هكذا؟

فوافقت بإشارة من رأسي. كنت قد شدهت بالدقة التي عرضت

بها برنامجها، ولا ريب في أنّها كانت تفكّر بذلك منذ مدّة. وأضافت على سبيل الختام:

ـ الخلاصة أنّ كلّ شيء سيبقى كما في الماضي، ما خلا أنّنا لن نمثّل بعد الآن أحدنا على الآخر. والآن، ينبغي أن أتركك لأنّ عندي زبونة تنتظرني.

ونظرت إليَّ ملياً، وداعبتني على خدي مداعبة خفيفة، ثمّ سألتني وهي تنهض:

ـ أما زلت راغباً في المزيد من النوم؟

فأجبت بدمدمة توكيدية. فرأيتها آنذاك تتجه نحو النافذة، وتسدل الستائر، ثمّ تنسل كالشبح من الغرفة التي أعتمت.

بعد بضعة أيام رنّ جرس الهاتف صباحاً في غرفتي. فتناولت السماعة وسمعت صوتاً يقول:

ـ صباح الخير، أنا جيانا.

ـ جيانا؟ من؟

ـ جيانا، صديقة كلارا.

ـ ومن هي كلارا؟

ـ صديقة رينا.

ـ لكن من هي رينا؟

ـ رينا، ألا تعرف رينا؟

ـ كلا.

ـ مع أنّها هي التي أعطت رقم هاتفك لكلارا التي أعطتني إيّاها بدورها إذن، هل أنت مشغول؟ ألا تستطيع أن نتقابل؟ هل تريد الآن أن آتي إليك؟

ولبثت لحظة من الزمن متردّداً. كنت قد فهمت ما المسألة. وعلى حين غرة، ويا لمفاجأتي، أحسست باضطراب عميق فاجع بدا لي

وكأنّه يستمد قوّته وتبريره من فكرة أنّ الفعل الجنسي هو العدم، وأنّه لم يبق أمامي، وأنا على ما أنا عليه من شدّة، إلّا أن أرمي بنفسي خبط عشواء في هذا العدم. وأجبت جيانا بأنّها تستطيع أن تأتي وبأنّني أنتظرها في الساعة الخامسة بعد الظهر من اليوم نفسه.

وصلت في الموعد المعين. لن أصفها لكم، ربّما لأنّني لن أستطيع ذلك حتّى ولو كنت راغباً فيه، نظراً إلى أنّ لها، في ذاكرتي، جسداً، لا وجهاً. ولم تكن جيانا، صديقة كلارا، صديقة رينا، سوى المرأة الأولى في سلسلة طويلة. فبعدها عرفت لويزا، صديقة جيانا، ثمّ بينا، صديقة لويزا، ثمّ سيلفيا، صديقة بينا، ثمّ أيضاً ميريلا، صديقة سيلفيا، وهكذا دواليك، من يوم إلى يوم، من مكالمة هاتفية إلى مكالمة هاتفية، من زيارة إلى زيارة. فلقد وجدت، من غير مشيئتي، خيط الكبة، فرحت أسحبه وراحت الكبة تنحل بانتظام. في البداية، اكتفيت بزيارة واحدة في الأسبوع، ثمّ استقدمت أولئك المومسات مرّتين في الأسبوع، ثمّ ثلاث مرّات، وأخيراً يومياً تقريباً. وطوال عام أو يقارب العام تكالبت على هذه الملذات، أي سلمت نفسي لما سبق لي أن عرّفته بأنّه العدم. كان يمكنني، في ظرف غير هذا الظرف، أن أعتبر زيارات المومسات تلك إشباعاً لطاقة ثرة طافحة. لكن العلاقة الجنسية كانت تبدو لي، في عطالتي الكاملة المتسلمة، الاختيار الوحيد حيال لاأصالة سائر أنماط العمل. ومن هنا، ما كان في وسعي أن أخفي على نفسي أنّني، بمضاجعتي هؤلاء المومسات، أنطلق من رغبة واعية في إفساد شيء ما ثمين، شيء ما كان يسعني مع ذلك أن أرغب فيه أو أن أستفيد منه. وإنّي لأقرّ بالأصل بأنّ هذا ينطبق على الشعور الكئيب الذي يخالجني في كلّ مرّة أسفح فيها، بلا حب، زرعي على تلك الأجسام المجاملة والمجهولة. فقد كنت أهوي منهكاً على المرأة وأنا أفكّر: «إنّني

أموت، أموت. . . إنّني سأعيش، لكنّي لن أكون حياً، أبداً. . . إنّني في سبيلي إلى الموت، ولسوف أموت ولن أعي ذلك، وسأستمر في الذهاب والمجيء، حياً في الظاهر، لكن ميتاً في الواقع».

في عصر يوم من الأيام كنت أنتظر كعادتي واحدة من أولئك الموسات العديدات، واحدة تدعى جينا كان قد سبق لها أن قدمت مراراً. لكنّي عندما فتحت الباب وجدت نفسي تجاه امرأة لا أعرفها. وسألتني عمّا إذا كنت أنا فرانشيسكو، فأجبتها بالإيجاب، فدلفت عندئذ بصلف شخص واثق ممّا يستطيع أن يسمح لنفسه به، من غير أن تنبس ببنت شفة، بخطى وئيدة، مزهوة، واثقة، وهي تميس وتتخلع. نظرت إليها وهي تتقدّمني كانت في ريعان العمر، في العشرين لا أكثر. وكان لها رأس مدور مرصع بخوذة من شعر أسود صقيل تتمرد خصلة منه فوق عينين صافيتين، ربما كانتا رماديتين. وكان وجهها مستديراً، بضاً ونضراً كوجه طفلة، وكان أنف صغير وفم كبير يؤكدان هذه السيماء الطفولية. ولاحظت أنّها ترتدي تنورة اسكوتلندية، فضفاضة وكثيرة الثنايا، تتدلى إلى ما تحت ركبتيها. وبينما كانت تذهب وتجيء في المدخل، متظاهرة بتفحص الرسوم المعلقة على الجدار، كانت ثنايا هذه التنورة، عند كلّ خطوة تخطوها، تتماوج على نحو مثير بدءاً من خصرها حتّى ربلاتها المتينة. وفكرت بأنّ لها، ولا بد، جسماً متكوراً، لدناً، مليئاً بعض الشيء كجسم طفل نما بسرعة كبيرة، وسألتها وأنا أمسك بخصرها:

ـ ما اسمك؟

وبدورة منها حول نفسها تحرّرت منّي وقالت بلهجة مرحة:

ـ يا سيد فرانشيسكو، بالنسبة إليك، لا اسم لي. فجينا متوعكة الصحة، وقد طلبت منّي المجيء بدلاً منها، هذا كلّ شيء.

وعلى إثر هذه الكلمات التي تفوّهت بها بلهجة حاسمة، سألتني بنفاد صبر:

- لكن أين الغرفة؟

فأشرت إليها، فسبقتني وفتحت الباب بحركة أوحت لي وكأنّها هي المالك. وبدأنا نتعرّى بالقرب من السرير، هي من جانب، وأنا من الجانب الآخر. وأبقيت رأسي مطأطئاً بينما كنت أخلع ثيابي، ثمّ رفعت عيني ورأيت الفتاة ممددة، عارية، على السرير. ولبثت هنيهة من الزمن في مكاني أنظر إليها، بلا حراك، مذهولاً.

لم يكن ممدداً، أمام ناظري، الجسد الأنثوي اللدن، المليء، الطفولي، الذي تخيلته، وإنّما هيكل عظمي مكسو بالجلد. ولم يكن تكوّر عُجزها الذي خيّل إليّ أنّني أحزره تحت تموجات التنورة سوى خداع بصري أوحى به إليّ تثنّي التنورة وسعة الحوض. كان الوجه والعنق والربلات هي وحدها اللحمة، أمّا باقي الجسم فلم يكن غير عظام. وكانت الفخذان، المعلقتان كقضيبين بالحوض على شكل زاوية قائمة، ترقدان متوازيتين على اللحاف، وبينهما فراغ كبير تلوح منه، مثل رأس الوليد، العانة المغطاة بكشّة من شعر أسود طويل رخو. وكان القفص الصدري البارز فوق البطن المجوفة والصقيلة يكشف عن جميع الأضلاع تحت الجلد المشدود. ولم يكن الثديان أكثر من طيتين مسطحتين، كما كانت عظام الذراعين ترتبط بعظام الكتفين بتخشّب يشبه تخشّب اللوحة الشريحية. ونظرت إليها بصمت، وكانت تنظر إليّ هي الأخرى بلا حياء، بل بنوع من تحدٍ راضٍ عن نفسه. وأخيراً سألتْ:

- ما بك؟ لِمَ لا تأتي إلى السرير؟

فلم أجب. كنت ألمح، بين عظمي الفخذين، تحت كشّة العانة، شق فرجها بحافتيه المنتفختين، كثمرة فلقها النضج، لكنّها بقيت معلقة، كما لو بمعجزة، بالغصن. وقلت أخيراً بجهد:

بمثل هذه النحافة؟

فأجابت بعدم مبالاة:

- ليس لذلك من سبب. لقد كنت هكذا دوماً. إنّه تكويني.

فقلت:

- فاهم. لكن كيف تفعلين... أقصد: ألا يضرّك، في مهنتك، أن تكوني بمثل هذه النحافة؟

فضحكت وهي تصقل فخذيها بيدها الصغيرة الممتلئة، ثمّ أجابت:

- تصوّر، إنّ نحافتي بالذات هي التي تنال الإعجاب! في البداية يقف الآخرون مذهولين، مثلك، ثمّ يعجبهم ذلك. كثيرون هم الذين يريدون أن يروني ثانية. والأجانب بوجه خاصّ يعودون إليّ دوماً.

وأمسكت عن الكلام لهنيهة. ثمّ تابعت مثرثرة مزهوة:

- وقعت في أحد الأيام على ألماني ما كان لينتهي. كان يقول إنّني أعجبه أكثر من سائر الفتيات اللواتي التقى بهن في إيطاليا. كان يتمتم بشيء ما بالألمانية... انتظر حتّى أجده، آه! أجل: Totentanz ما معنى هذه الكلمة؟

فترجمت آلياً:

- معناها رقصة الموتى؟

- لمَ رقصة الموتى؟

- إنّه رسم كان يرسم في الماضي على جدران الكنائس. ويمثّل الموت وهو يرقص مع هذا، ثمّ مع ذاك، مع الملك، مع المتسول، مع الشاب الفتي، مع الشيخ، مع الفقير، مع الغني، وهكذا دواليك.

ـ ثمّ ماذا؟

ـ هذا يعني أنّ الموت لا يحترم أحداً، وأنّه سيحملنا جميعاً، مهما كنّا. إنّ كلمته تلك لم تكن تقريظاً لك...

ـ لماذا؟

ـ لأنّ ذلك الألماني كان يصفك بأنّك هيكل عظمي، ويشبهك بالموت.

فصقلت من جديد بزهو وبدون حياء باطن فخذيها وقالت وهي تهز كتفيها:

ـ هذا عندي سواء، فليسمّوني كما يشاءون، شرط أن يدفعوا لي. لقد أعطاني ذلك الألماني، بالرغم من الـ «totentanz»، مبلغاً صغيراً لا بأس به. حسناً؛ على رسلك، أنا الموت... أي أهمية لذلك؟ هيّا، تعال، فلنفعل الحب.

ينبغي أن أعترف بأنّه ما كادت مفاجأتي تنقضي حتّى أخذتني شهوة، لنقل فكرية. فقد رحت أفكّر في نفسي: أجل، هذه المرأة هي الموت، رقصة الموتى المصوّرة على جدران الكنائس، لكنّها أيضاً العدم الذي أدور حوله منذ أمد بعيد والذي تجلّى لي أخيراً في مظهره الحقيقي. وتسلقت السرير وألقيت بنفسي على تلك العظام بشيء من الحميا. ورحت أفكّر بينما كانت تلتصق بي، وتطوق خصري بفخذيها، وتدفع بعظام حوضها على بطني، بأنّه إحساس جديد وغريب بالنسبة إليّ أن أمتلك هيكلاً عظمياً وأنا ألج في الفرج المتوتر والحي الذي بقي معلقاً فيه مثلما يبقى عش الطير الدافئ معلقاً بين الأغصان اليابسة والباردة لشجرة أماتها الشتاء.

بعد الجماع لبثنا برهة من الزمن معاً، ممدّدين أحدنا بجانب الآخر. ثمّ أغفت، فنظرت إليها وهي مستسلمة للرقاد. كانت هذه

المرأة هيكلاً عظمياً حقيقياً، وكانت طريحة على الفراش في غير انتظام كهيكل عظمي مؤلف من زوايا قائمة وحادّة ويوحي لمن يراه بأنّ هزة واحدة ستكفي لتنفصل عظامه عن بعضها بعضاً، الصغيرة منها والكبيرة، وتتساقط متناثرة على اللحاف. وفي النهاية استيقظت، وتركت السرير، وذهبت إلى غرفة الحمام، وجلست على مقعد المرحاض وبالت طويلاً. وراقبتها من خلال الباب الذي لم تهتمّ بإغلاقه، وبدا لي أنّه شيء لا يصدق أن تخرج مثل تلك الكمية من السائل من هيكل عظمي هزيل كهذا جفّ ماؤه. وبعد أن اغتسلت، عادت إلى الغرفة وارتدت ثيابها وهي تتمشّى عارية حول السرير، وكانت عظامها تتحرّك حركة خفيفة كما لو أنّها مخلعة لكن بصورة منطقية مع ذلك ومتناغمة. وحين انتهت من ارتداء ملابسها أعطيتها مالها ثمّ رافقتها. عند العتبة قالت لي: «إذن، هل أعجبتك الـ «Totentanz»؛ إذا شئت أن تعيد الكرة، اتصل هاتفياً بجينا ودبّر المسألة معها». نظرت إليها تبتعد في المشي: فَلانْ، فَلانْ، فَلانْ، كانت التنورة المثناة تتماوج، مثيرة محيبة تكور الكشحين. لكنّي أعرف الآن أنّها تتماوج لا فوق إليتين مليئتين وإنّما فوق عظام معروفة.

وتوقف المصعد الكهربائي عند الطابق، وحيّاني الموت بيده واختفى.

كانت زيارة تلك المومس ـ الهيكل العظمي نهاية هذه المرحلة من حياتي. فقبل أيام من هذه الزيارة كانت قد بدأت تدور مفاوضات بيني وبين صحيفة ميلانية. إذ كانت بعض مقالاتي عن ساردينيا، والتي نشرت في الصحيفة اليومية اليسارية، قد نالت إعجابهم وكانوا يفكرون بأن تعاوني معهم يمكن أن يبدأ بإرسالي في مهمة إلى البلدان الأجنبية

كمبعوث خاص. وما كادت الفتاة ترحل حتّى جلست بصورة شبه آلية أمام مكتبي وكتبت رسالة بقبول العرض المطروح عليّ. ووضعت رسالتي في مغلق وخرجت قاصداً البريد.

بهذه الصورة بدأت حياة مغايرة تماماً للحياة التي كنت قد عشتها حتّى ذلك الحين. وصرت أسافر ستة أو ثمانية أشهر من أصل اثني عشر شهراً، وبمعدل رحلتين أو ثلاث سنوياً. وما عادت إقامتي في روما تدوم أكثر من شهرين أقضي فيهما القسم الأعظم من وقتي في كتابة المقالات المتعلقة برحلتي الأخيرة حتّى أكون قادراً على معاودة الرحيل في أقرب وقت. ١٩٥٣، ١٩٥٤، ١٩٥٥، ١٩٥٦، ١٩٥٧، ١٩٥٨، ١٩٥٩، ١٩٦٠، ١٩٦١ ١٩٦٢: خلال هذه السنوات زرت تقريباً جميع البلدان التي كانت أسماؤها مسجلة حسب الترتيب الأبجدي على جواز سفري. وربما تساءل البعض كيف نجحت في مثل هذا الزمن القصير في أن أصبح مبعوثاً خاصاً نشيطاً ومطلوباً إلى هذا الحد. وأعتقد، عندما أفكر بالأمر، أنّ باستطاعتي أن أقدم سببين: فأوّلاً لم أكن أسافر لأستفيد أو لأحقق طموحاً مهنياً، وإنّما، كما بيّنت آنفاً، لكيلا أبقى في روما بالقرب من كورا. ولقد خدمني هذا التجرّد، فالمرء يحصل بسهولة أكبر على الأشياء كلّما بدا أقل حرصاً عليها. وثانياً، كان لتعلّقي بالأدب الذي لم يكلف ليجعل منّي الروائي الذي كنت أحلم بأن أكوّنه، دوره على الأقل في امتلاكي القدرة على التعبير التي لا غنى عنها في مهنة الصحافي.

لكن السبب الرئيسي في نجاحي يجب أن يعزى بلا ريب إلى طابع مقالاتي. فنجاحي يرجع إلى الدوافع التي كانت تحفزني على السفر. أي إلى حاجتي إلى نسيان ماضيّ. وفي مثل هذه الشروط ما كان ممكناً أن يكون السفر تجربة، لأنّ كلّ تجربة كانت ستعيدني إلى نفسي، أي إلى الماضي، وإنّما كان الترحال نوعاً من مخدر بالنسبة

إليّ. عمَ يبحث عادة أولئك الذين يتعاطون المخدرات؟ إنّهم يجهدون للانتقال من الواقع المعتاد إلى واقع أفضل، في رأيهم، وعلى كلّ حال، مختلف. وهذا بالضبط ما كنت أسعى إليه بترحالي.

تملك اللغة الفرنسية كلمة تعبّر أكمل تعبير عن الإحساس الذي تبعثه فيّ أسفاري: «Dépaysement»[1]. فما كان هذا الإحساس؟ سأحاول تفسيره. إنّه إحساس المسافر الذي حطّ، بعد بضع ساعات من الطيران فوق المحيط أو فوق قارة من القارات، في مطار مدينة مجهولة، واحتل مقعده في الأوتوبيس الذي يقوده إلى الفندق وراح يراقب الشوارع التي يجتازها.

المسافر متعب وعاجز بسبب الدوار عن تركيز انتباهه. إنّه يجهل كلّ شيء عن البلد الذي هو فيه، غير متهيئ له، ليس عنده أي فضول أو نية للمكوث فيه مدّة طويلة من الزمن. بل لعله يمر به مجرد مرور. وأخيراً فإنّه لا يعرف اللغة التي كتبت بها لافتات المخازن والتي يتكلمها المسافرون الآخرون الذين يحيطون به. في مثل هذه الشروط لا يعدو المنزل أن يكون أكثر من منزل، والشجرة مجرد شجرة، والمرأة والطفل والساحة والغيمة مجرد امرأة وطفل وساحة وغيمة. كان هذا «التغرّب» يفرغ، إن جاز لي التعبير، البلدان التي كنت أزورها من كلّ معنى، ولا يترك لها غير سطحها. كنت إذن مسافراً سطحياً. بيد أنّه ينبغي أن نعطي هذا الخبر لا معنى اللااهتمام الذي له عادة، بل معنى أدبياً. فقد كنت سطحياً بمعنى أنّني، في ملاحظتي الأشياء، لم أكن أذهب إلى أبعد من سطحها، وليس لأنّ طبيعتي الصميمية كانت سطحية.

وإذا كانت هذه «السطحية» قد أبقتني من جهة في حالة خفيفة من

(١) تغرّب، تغيير الجو المعتاد أو البلد.

خدر التغرّب، فقد أتاحت لي من الجهة الأخرى أن أتكلّم بلغة التجريد عن البلدان المزارة فأرجعها إلى مجرد مخططات وصيغ ومفاهيم من غير أن أشعر بأنّني ملزم بالتحقّق ممّا إذا كانت المخططات والصيغ والمفاهيم المذكورة تتطابق بشكل من الأشكال مع الواقع. كنت أسافر كثيراً كما ذكرت وكنت أسافر كما ينبغي، أقصد أنّني كنت أقطع البلدان التي سأتكلم عنها في مقالاتي من أقصاها إلى أقصاها، مستخدماً جميع وسائل النقل، ولا أهمل أي طرف أو ناحية فيها مهما نأت وكانت عديمة الأهمية. لكنّي لم أكن أسافر من أجل مهنتي الصحافية إلّا في الظاهر فقط. أمّا في الواقع فقد كنت أسافر لأخدر نفسي. وبعد ذلك كنت أكتب مقالاتي في روما، في مكتبي، مستعيناً بكتب الصحافيين الآخرين والموسوعات والأدلة. وكانت مقالاتي بالرغم من دقتها الظاهرية، غير واقعية وعارية من كلّ تجربة مباشرة. وقد كان لذلك نتيجتان هامتان: من الجهة الأولى، سهولة بالغة في قراءتها وفهمها، إذ إنّ مقالاتي، بفضل ابتعادها عن كلّ واقع كان يمكن لفكري أن يكبو فيه ويتيه، كانت محكمة الصياغة كما لو أنّها آلات قارئة صغيرة، موحدة، سهلة، شفافة، تنساب انسياباً. ومن الجهة الثانية، وبفضل انعدام أي مشاركة عاطفية، كانت الطريقة الحيادية واللامبالية التي أتبعها في تقديم الموضوع توحي بوهم التجرد والموضوعية الذي يحرص عليه الكثير من صحافيي الإعلام. ولقد عرفت تحقيقاتي عن البلدان الأجنبية، هي المقروءة والموضوعية ككتب مبادئ القراءة، نجاحاً مرموقاً. حتّى إنّ عدداً من زملائي ـ لم أتأخر عن ملاحظة ذلك ـ قد راح يسعى إلى تقليدي، لكن بلا نجاح. والحقيقة أنّهم، هم، كانوا يسافرون فعلاً ليكتبوا تحقيقاتهم، لا ليخدروا أنفسهم شأني. ولم يكن لهم ماضٍ يريدون نسيانه. وعندما

يؤوبون من رحلتهم لم يكن هذا الماضي ينتظرهم في بيوتهم في شخص زوجة لا يوجّهون إليها الكلام ويريدون تجاهل وجودها.

لقد خلفت لي هذه السنوات العشر (من ١٩٥٣ إلى ١٩٦٢) ذكرى مبهمة كذكرى الأشياء التي يشاهدها المرء أو يفعلها وهو في حالة دائمة من اللاانتباه. إنّي لأرى من جديد القطارات التي أقلتني عبر مناظر ومشاهد دائمة التغيّر، وطائرات تقلع وتحلق وتحطّ في مطارات، وسفناً خارجة من المرافئ أو داخلة إليها، وسيّارات تجري في شوارع المدن وطرقات الأرياف. وتبدو لي غرف الفنادق التي كنت أبيت فيها متماثلة جميعها، بسيمائها المغفلة الموحدة. كما تتجلّى لي شواطئ البحار والجبال والغابات والأرياف والمدن وكلّ المناظر الأخرى وكأنّها منضدة بعضها فوق بعض مثل نسخة لصورة فوتوغرافية طبعت خطأ أكثر من مرّة. وتخرج وجوه جموع العالم التي لا يحصى لها عد من ذاكرتي وتتناثر في الفراغ بنفس العنف المفتت الذي تنقذف به حبات القمح خارج فوهة الدراسة. وبكلمة واحدة، لم يكن هذا اللاانتباه يكلفني أي مجهود، بل كنت أشعر بأنني مدفوع إليه بميل فيّ. والواقع أنّ رأسي كان قابلاً للتشبيه بمخزن للبلور والبورسلين انفجرت فيه قنبلة فمزقت شر تمزيق كلّ الأشياء التي كانت مكدسة فيه. لقد انفجرتْ قنبلة في رأسي، لا أدري متى، وربما عندما تبينت أنّني لم أعد أحب كورا. قنبلة جعلتني غير منتبه، غير مبالٍ، شبيهاً بمن يسير في نومه. وبعبارة أخرى، لعلّني كنت أنام واقفاً كما يُقال، أي إنّ فكري كان مخدراً. كنت أنام وأحلم بأنّني مستيقظ، بأنّني مبعوث خاص لجريدة، أسافر من بلد إلى آخر، ما دمت أرجع إلى روما لأكتب مقالاتي ثمّ أسافر من جديد في رحلة أخرى. بيد أنّ حالة السبات هذه كانت تبدو لي مفضلة على حالة الهجود، ولهذا لم أكن أفعل شيئاً لأستيقظ.

ينبغي أن أقول الآن إنّه كان لهذه السنوات العشر من الترحال، علاوة على نتيجة اللاانتباه التي تكلمت عنها، نتيجة أخرى غير متوقعة هي العفة. إنّني لم أقرّر بملء إرادتي الامتناع عن الصلات الجنسية، وإنّما تمّ ذلك بصورة طبيعية، وعلى كلّ الأحوال تدريجية. فبعد عدّة لقاءات ببغايا أو بنساء عابرات في البلدان التي كنت أسافر إليها، انقطعت رويداً رويداً، من غير أن أنتبه تقريباً، هذه العلاقات العارضة التي لم أكن بعد أنتظر منها شيئاً، ولا حتّى التحقق (الذي سبق أن أجريته في روما بعد انهيار حبّي لكورا) من أنّها تمثّل العدم، أقول انقطعت تلك العلاقات شيئاً فشيئاً، نهائياً. وذات يوم، لا أدري كيف، وجدت نفسي أفكر في ذلك، فاكتشفت آنذاك، بذهول، أنّني لم أضجع مع أي امرأة منذ حوالي عام. وتساءلت عمّا إذا كانت بي رغبة في ذلك، ولقد وجدت نفسي مضطراً إلى الاعتراف بأنّني لا أملكها. هذا البرود الذي أحسست به دفعني إلى التفكير، وإليكم نتيجة تفكيري.

لقد أحببت كورا، أو على الأقل كنت مقتنعاً بأنّني أحبّها. ثمّ تداعى هذا الحب، تداعى من جذوره، فجرَّ في سقطته كلّ الأشياء التي كانت تشكّل في الماضي مبرّرات وجودي. وقد تلت هذا الانهيار حقبة غير طويلة، عام أو أقلّ، من الغراميات المرتزقة. لكنّ الحب المرتزق تكشف لي عن أنّه شيء لا يمكن للمرء أن يعيش به إلّا بشرط أن يموت به، أي عن أنّه العدم المتمثل على وجه التحديد في الموت. وأنا الآن لا أريد العودة إلى العدم، وليس لي امرأة عليَّ أن أحبّها. وخلاصة القول إنّ عفتي كانت تنطوي على فكرة أنّ الحب وحده، ذلك الحب الذي خيّل إليّ لحظة من الزمن أنّني أشعر به تجاه كورا، هو الذي يستطيع أن يخرجني من عفتي تلك. لكن إذا لم يكن لهذا الحب وجود، فمن المفضل في هذه الحال أن ألتزم العفة. وقد

يستغرب البعض أنه يمكن لرجل في عنفوان الرجولة أن يستنكف بمثل هذه السهولة عن إشباع يعتقد الكثير من الناس أنّه ليس بالإمكان الاستغناء عنه. لكن هذا غير صحيح. فالفعل الجنسي هو من تلك الأشياء التي إذا أكثر الإنسان من فعلها، فعلها أكثر فأكثر، لكن إذا أقلَّ من فعلها، فعَلها أقل فأقل إلى أن يمتنع عنها نهائياً. وقد كنت على وشك أن أفعل هذا الفعل أكثر فأكثر، بعد أن انفصلت عن كورا. أمّا الآن، وبعد أن بتّ أفعله أقل فأقل، فإنّني أرى أنّه في وسعي الاستغناء عنه كلياً.

بديهي أنّني لم أستنكف عن الحب. لكن يبدو لي من الصعوبة بمكان أن أتصوّر أنّه قد يأتي زمن أحب فيه من جديد. فوهم الأصالة الذي ملأ ذلك الماضي الذي بتّ أشعر بالخجل منه الآن، أقول: جعلني هذا الوهم أحبّ كورا. لكن بعد ذلك؟ لقد بتّ مقتنعاً، بعد انهيار حبي لكورا، بأنّني لن أعرف من وهم أبداً بعد اليوم. والحال، يبدو لي أنّه من المستحيل أن يحبّ المرء بلا وهم. صحيح أنّ التجربة قد علمتني أنّ أشك في أن تكون قناعتي بألا أقع بعد الآن في الأوهام هي نفسها وهم، وإن كان وهماً مغايراً وجديداً. لكنّي ما كنت أتوصل إلى تخيّل أي نوع من النساء يمكن أن يحبّ الرجل عندما يكون قد أمسى بلا أوهام وبات لا يؤمن بشيء ويشعر بأنّه منجذب، مثلي أنا، نحو العدم. إنّها لن تكون أكثر من امرأة أحبّها على وجه التحديد لأنّني ما عدت قادراً على الحب.

بيد أنّني كنت ما أزال دائباً على السفر من أجل صحيفتي، وكنت أفعل ذلك بهمّة وانتظام، مضيفاً، كلّما حال الحول، حجرة جديدة إلى بناء لانتباهي. لقد سبق وبيّنت الطريقة التي كنت أسافر بها. ويبقى عليَّ أن أصف العلاقات التي قامت أثناء وجودي في روما بيني وبين ما كنت ما أزال أعتبره عائلتي. وإذا أردتم الإيجاز فسأقول إنّني كنت كالنزيل.

وهل النزيل غير شخص لا يخصّ الناس الذين يقيم عندهم بأي انتباه؟ إنّ النزيل يدخل، يخرج، ينام، يأكل، يعمل، يحيا تحت سقف واحد مع أشخاص آخرين يتوصل على نحوٍ ما إلى تجاهلهم. أو يبقى بالأحرى، مع تجاهله إياهم، واعياً لوجودهم على نحو مبهم بعيد وغير محسوب. وإذا شئتم تشبيهاً آخر، فسأقول إنّ لاانتباهي تجاه أسرتي كان يشبه بعض الشيء اللاحساسية التي تنتج عن التخدير. فعند التخدير لا يعود المرء يحسّ بشيء لكنّه يحسّ في الوقت نفسه بأنّه لا يحسّ بشيء، وهذا بدوره نوع من الإحساس في الواقع. وهذا ما كان يحدث في منزلي. فأنا لم أكن أتجاهل كورا كما تتجاهل شخصاً لا وجود له بالنسبة إلينا، وإنّما كنت أتجاهلها كما قد نتجاهل شخصاً نعي وجوده باستمرار ونكون واعين بالتالي لتجاهلنا له. إذن، فلم يكن لاانتباهي مجرد نقص في الانتباه، وإنّما كان شعوراً بأنّ انتباهي معلق. كنت أشعر بأنّني غير منتبه، وكلّما زاد شعوري بذلك، ازددت لاانتباهاً.

من المؤكد أنّه لو قيل لي في الماضي إنّني سأعيش في النهاية في بيتي كغريب مستأجر غرفة في شقة لدى أسرة معوزة، لاحتججت بأنّ هذا مستحيل. وما أعظم مفاجأتي الآن إذ أتبين أنّ هذا ليس ممكناً فحسب، بل أيضاً أسهل وأنسب، بالنسبة إليَّ على الأقل.

وعلى كلٍ كانت كورا تساعدني في هذا اللاانتباه الذي كان يناسبها، والحق يقال، أكثر ممّا كان يزعجها. فمع مرّ السنين، نما فيها حسّ عملي، أصبح، بالإضافة إلى تكتم وتحفظ فائق العادة، إن لم أقل بالإضافة إلى موقف غامض، أصبح إحدى صفاتها الرئيسية. وتحوّلت فتاة الماضي العامية الصموت والشهوانية إلى ما يشبه امرأة أعمال تجد الوسيلة، في أوقات الفراغ التي يتركها لها محل الخياطة، لتكون ربّة بيت ممتازة. وبغريزتها الواثقة من نفسها عرف كيف ترسم حدّاً فاصلاً واضحاً دقيقاً بين العناية التي تدين لي بها بوصفها

مؤجرتي، وبين العناية التي كان ينبغي أن تبذلها كزوجة، أو بالأحرى زوجة سابقة قرّرت ألا تكون زوجة. ولما كنت أنظر بالمنظار نفسه إلى علاقاتنا، فقد سارت الأمور بيننا على أروع وجه، وبكمال، ربّما كان مبالغ فيه، قد يبدو باعثاً على القلق بالنسبة إلى من ليس لديه أسباب سلوكي ذاتها.

كنت أسافر ثمّ أرجع إلى روما لمدّة شهر أو شهرين، لأعاود الرحيل بعد ذلك. وقد بتّ أقيم في الحجرة الملاصقة لمدخل البيت، فأنام وأعمل فيها، تاركاً باقي الشقة لكورا وابنتها. كنت أعلم أنّهما تنامان في غرفتين منفصلتين، وأنّ بابا، المسجلة في كلية الآداب بالجامعة، تشتغل في غرفتها الخاصّة، وأنّهما تتناولان طعام الغداء في غرفة الاستقبال حيث تخدمهما عامل منزلية، وتأكلان مساء في المطبخ حيث تعدّان طعامهما بنفسهما، وأنّ مكتبي، حيث توجد كتبي وأوراقي، مقفل، وأنّه ما من أحد يدخل إليه ما خلا كورا التي كانت تذهب إليه من حين إلى آخر لتنفض الغبار ولتتحقق من أنّ كلّ شيء مرتب كما ينبغي. كنت أعلم هذا كلّه، لكنّني كنت أكتفي بأن أعلمه لا أكثر، لأنّني لم أدخل، طوال عشر سنوات، إلى بقية غرف الشقة أكثر من بضع مرّات تعدّ على أصابع اليد. صحيح أنّه كان يخامرني أحياناً شعور غريب يصعب تحديده، شعور بأنّني أستطيع، إذا شئت، أن أصبح الزوج والأب المثالي الذي أعلم أنّني ما كنت قط. فقد كان يكفيني أن أفتح أحد الأبواب وأن أجلس على المائدة مع كورا وبابا لأجد نفسي من جديد وسط عائلتي. وكان هذا الشعور هو حلم الانتباه في أوج اللاانتباه المطلق. وكنت أدرك أنّ هذا لن يتعدّى أن يكون أكثر من حلم. فأنا، وإن أكن قد أمسيت أعرف ما معنى اللاانتباه، لم أتوصّل بعد إلى أن أفهم ما يمكن أن يكوّنه الانتباه.

شيء واحد فقط بقي فيّ على حاله لم يتبدل بين كلّ هذه التغيّرات التي طرأت: تعلّقي بالأدب، وبوجه خاص طموحي إلى أن أكتب ذات يوم رواية. فمع مرّ السنين أصبحت الرواية بالنسبة إليّ شيئاً أهم بكثير من مجرد نوع أدبي. أصبحت طريقة في فهم الحياة. وبالفعل، كنت أعرف أنّه يستحيل عليّ أن أقيم على صعيد الواقع علاقة أصيلة مع نفسي، ومع الآخرين، وكنت مقتنعاً بأنّ الرواية تقدّم الإطار الوحيد الذي ليست فيه الأصالة ممكنة فحسب، بل محتمة أيضاً، إذا جاز القول، إن كانت هذه الرواية رواية حقاً. وغالباً ما كنت أتساءل: كيف أمكن والحالة هذه، أن تنكشف لي روايتي عن مثل تلك اللاأصالة بمجرد أن انتهيت من كتابتها؟ وعلى وجه التحديد تلك اللاأصالة المميزة للعمل، أي التي لا تكمن في الكلمات وإنّما في طبيعة الأحداث بالذات التي ترمز إليها هذه الكلمات؟

ولقد كنت أدرك أنّ الجواب على هذا السؤال يكمن في الرواية نفسها، أو بالأحرى في الأشياء التي حاولت أن أسردها. ولكم مرّة عدت بفكري إلى كتابي، وحللت مظاهره كافة الواحد تلو الآخر، مفتشاً بعناد محموم عن الصدع الخفي الذي كان السبب في انيهار البناء كلّه. ولقد كان في وسعي، بالطبع، أن أحل المشكلة بأسرع وأبسط طريقة بإقراري بأنّ الدافع الوحيد لفاجعتي، بعد أن قلت كلّ شيء، قد يُفسّر بأنّني لم أكن روائياً. لكن على وجه التحديد لأنّني كنت ما أزال أتعلل بأمل تمكّني ذات يوم من كتابة رواية، أي بأمل الوصول إلى الأصالة الوحيدة التي أشعر بأنّني قادر عليها، كان ذلك الجواب هو الجواب الوحيد الذي لا أجرؤ على الإقرار به. وذلك أنّني ما كنت أطمح إلى كتابة رواية هي آية الآيات، وإنّما كنت أطمح فقط إلى التعبير عن نفسي بأصالة بالوسائل والموهبة التي أملكها. وكان تواضع هذا الطموح وشرعيته يدخلان في قناعتي أنّ عليّ أن

أفتش عن سبب انهيار محاولتي الروائية في الأشياء التي جهدت لسردها وليس في خبايا نفسي.

وفي النهاية خيّل إليّ أنّني ألمح هذا السبب. فلقد حاولت أن أروي قصة علاقاتي مع كورا منذ لقائنا الأوّل حتّى زواجنا. ولقد كانت هذه القصة تاريخاً؛ أي سلسلة من أحداث لا تنتمي إلى ميدان الحياة اليومية، ولا تدخل في عداد الأشياء التي يمكن أن تحدث لأي كان، في أي زمن كان. كانت عبارة عن دراما، أي تركيب لأعمال شتّى صادرة عن شخصيات شتّى. والحال أنّه ههنا تكمن عقدة المسألة: فلاأصالة الرواية تتأتّى من أنّ فيها أعمالاً، أفعالاً. ولقد تبيّنت، بالفعل، أنّه يستحيل في واقع الحياة - بالنسبة إليّ على الأقل - أن يعمل المرء بأصالة. وكانت نتيجة ذلك أنّ اللاأصالة قد انتقلت، كما ينتقل السم الفتاك الممتزج بالتراب إلى ألياف الشجرة الباطنة من خلال الجذور، أقول كانت النتيجة أن انتقلت اللاأصالة من الأشياء التي حاولت تصويرها إلى الكلمات التي استخدمتها لتصويرها.

إنّ مختلف هذه الأفكار لم تتكوّن وتنبجس في فكري بنفس الصحو والوضوح، اللذين أعرضها بهما الآن. وإنّما كانت على العكس ثمرة تأمّل طويل، دامس، غريزي إن جاز التعبير، نضج ببطء خلال سنوات عديدة من رحلاتي المهنية. فقد كنت أسافر، وأرجع إلى روما، ثمّ أعاود الرحيل، ومن حين إلى آخر كنت أفكر بروايتي، متابعاً التأمّل من نفس النقطة التي تركته فيها قبل شهر أو ربّما شهرين. وفي النهاية أخذ هذا التأمّل الأدبي شكل مشروع في منتهى البساطة يمكن تلخيصه على النحو التالي: «لقد أخفقتَ في كتابة روايتك من حيث إنّها قصة، مغامرة لها بداية وتطوّر ونهاية، وبكلمة واحدة من حيث إنّها دراما. حاول إذن أن ترى إذا ما كنت ستنجح في رواية بلا قصة، بلا مغامرة، بلا دراما. رواية لا يحدث فيها شيء. ما هو نقيض

العمل الدراماتيكي؟ إنّ نقيض العمل الدراماتيكي هو الشيء اليومي، سياق الحياة كلّ يوم بيومه. لقد أردت، في روايتك الأولى، أن تروي دراما وتركت اليومي جانباً. وعليك الآن أن تحاول كتابة اليومي متحاشياً بعناية الدراما. والأصالة التي لا يستطيع العمل إلّا أن يضنّ بها عليك، ستفوز بها في تصوير ينفي كلّ أنواع العمل».

وكنت أفكر أحياناً، وقد وصلت إلى هذه النقطة في تأملاتي، بأنّها نادرة بعد كلّ شيء الأحداثُ الدراماتيكية التي تحدث في حياة الإنسان، وبأنّ الهيمنة في هذه الحياة إنّما هي لليومي، لروتين الأيام. وكم هناك مقابل كلّ قصة، كلّ مغامرة، كلّ دراما لها بداية وخاتمة وليس لها بالطبع غير ديمومة محدودة للغاية، أقول كم هناك من سنوات طويلة مليئة بما هو يومي ورتيب، لا يعمل فيها المرء عملاً يذكر، سنوات طويلة يتحرّك فيها الإنسان من غير أن يتحرّك فعلاً إذا صحّ التعبير، وتنساب فيها الحياة عديمة الشكل والطعم، بلا رأس أو ذنب، ولا يحدث فيها شيء لا يمكن أن يحدث لأي إنسان آخر، في أي لحظة كانت. كنت أفكّر بحياتي وأستعرض على وجه الخصوص مراحل السياق اليومي الرتيب التي عشتها في روما أثناء نزولي بها بين سفرتين. وكما قلت سابقاً، لم يكن يحدث شيء خلال إقامتي هذه يخرج عن إطار الحياة اليومية. وبالفعل كان هدفي الوحيد من فترات إقامتي في روما هو كتابة مقالاتي ثمّ معاودة الرحيل بأسرع ما يمكن.

وهكذا قرّرت أن أقوم بنوع من تجربة. فلسوف أحرّر من الآن فصاعداً يومياتي أثناء فترات إقامتي القصيرة في روما. يوميات شهرين من حياتي. ثمّ سأحاول أن أستخلص، من هذه اليوميات، رواية إن جاز التعبير، أي قصة موضوعية مكتوبة بضمير الغائب وفي الزمن الماضي.

فبعد رواية اللاأصالة المميزة للعمل، ستكون رواية الأصالة المميزة لما هو يومي.

ثمّ تساءلت عمّا إذا كنت سأروي الوقائع في يومياتي بأمانة مطلقة، أم أنّني سأضيف إليها، على العكس، وكلّما تقدّمت في سردها، ما قد يبدو لي مفيداً للرواية التي أزمع استخلاصها منها. ولقد حزمت أمري ووقع اختياري على الطريقة الثانية. والواقع أنّه يستحيل، حتّى في اليوميات التي تكتب كلّ يوم بيومه، التقيّد بالأمانة المطلقة. فصحيح أنّ اليوميات الذاتية لا تستطيع أن تروى إلّا الأشياء التي انتبه لها مؤلفها، لكن من الصحيح أيضاً أنّ الكاتب يقوم بنخل الأشياء التي انتبه لها، فيغضّ النظر عن بعضها، وينوّه ببعضها الآخر، وهذا تبعاً لمعياره الخاص الذي يمليه عليه الهدف الذي ينشده. والحال أنّ هدفي، كما ذكرت، هو استخلاص رواية من يومياتي. فكان من الطبيعي إذن لا أن أختار بين المواد التي ستطرح على ملاحظتي كلّ يوم بيومه فحسب، بل أيضاً أن أكمّل هذه المواد وأطورها في كلّ مرّة أجد فيها ضرورة لذلك، بنفس الطريقة التي يعيد بها علماء المستحاثات بناء الهيكل العظمي الكامل لحيوان من حيوانات ما قبل التاريخ انطلاقاً من عظمة واحدة. وعلى كلّ، وعلى فرض أنّني تخلّفت عن إعادة بناء الواقع هذه، فسيتوجب عليّ أن أقوم بها عندما سأقدم على تأليف الرواية. وعلى هذا، فإنّني لن أكون قد فعلت من شيء سوى أنّني استبقتها جزئياً في وقت تكون فيه انطباعاتي ما تزال حارة حيّة. وعلى كلّ، وحتّى لا أخلق لبساً بين الأشياء التي حدثت فعلاً والأشياء التي أعدت بناءها، فقد أخذت على عاتقي أن أشير بشكل من الأشكال في يومياتي إلى الأماكن التي تكون فيها مخيلتي قد حلّت محل الملاحظة المباشرة.

كنت في إيران عندما قرّرت كتابة يومياتي. وقد كانت رحلتي

قصيرة لم تتجاوز الزمن اللازم لإجراء تحقيق عن مسألة النفط الإيراني. وكنت قد حسبت أنّه لن يكون عليّ أن أكتب أكثر من خمس صفحات، ثمّ يمسي وقتي كلّه شاغراً ليومياتي. وعلى طريق العودة من عبدان توقّفت لزيارة آثار مدينة فارس. ثمّ ركبت من طهران طائرة أعادتني في بضع ساعات إلى إيطاليا. واليوميات الذاتية ستبدأ على وجه التحديد مع عودتي إلى روما.

يوميات

الثلاثاء ١٣ تشرين الأوّل

تتم عوداتي إلى روما بالصورة ذاتها دوماً: فأنا لا أخطر أحداً بوصولي، وأنسلّ إلى بيتي خلسة كاللص، وأشرع على الفور، من غير أن أهتم بمعرفة إذا ما كانت كورا وابنتها في الشقة، بفعل نفس الأشياء التي أفعلها أثناء أسفاري عندما أصل إلى الفندق في مدينة أجنبية: أفض حقائبي، أخلع ثيابي، آخذ حمّاماً، أرتدي ملابسي من جديد، ثمّ أجري بعض المكالمات الهاتفية. والفارق الوحيد هو أنّني، في روما، في بيتي. أي أنّني أكون واعياً باستمرار، ولو على نحو مبهم وغير محسوب، لتلك الحالة النفسية الخاصّة التي سمّيتها باللاانتباه والتي تسمح لي بأن أعيش بين عائلتي كما لو في الفندق.

بعد أن أرتدي ثيابي، أجلس عادة أمام مكتبي وأفحص البريد الذي وصل أثناء غيابي. وتكون كورا، بوصفها مدبرة بيت مجدّة ومنظمة، قد وضعت البريد على مكتبي مرتّبة إياه في عدّة مجموعات: مجموعة للرسائل المسجلة والمستعجلة والبرقيات، ومجموعة للرسائل المرسلة بالبريد العادي، ومجموعة للمغلفات المفتوحة المشتملة على دعوات وبطاقات إعلانية وبطاقات نعي أو زواج، إلخ. . .

وهذا ما فعلته اليوم. فقد فتحت حقائبي، وخلعت ثيابي، وأخذت حمّاماً، وتجفّفت، ثمّ جلست إلى مكتبي، بعد أن عدت إلى غرفتي وارتديت ملابسي من جديد، وشرعت بفضّ البريد.

كانت الرسالة مُرسلة بالبريد المستعجل. وكانت ثالث رسالة فضضتها. كان المغلف من نمط عادي تماماً، من النمط المسمّى بالتجاري والذي يباع في أكشاك التبغ. وكان يحتوي على صفحة واحدة من ورق الآلة الكاتبة مطوية رباعياً. وكانت الرسالة مضروبة على الوجهين وغير موقعة. وقرأتها ومكثت ملياً بلا حراك، وصفحة الورق بين أصابعي، ونظري شاخص في الفراغ. ثمّ أعدت قراءة الرسالة. كانت مكتوبة بلغة سليمة، بل بشيء من الأناقة اللفظية المتكلفة. وكان يمكن الافتراض أنّها قد كتبت من قبل بيروقراطي أو مدرس، بل صحافي مثلي. لكن هذه الرسالة كانت سوقية إلى حد كريه، مبتذلة ابتذالاً خشناً ومرائياً. كما لو أنّها من تأليف شخص أطلق العنان، تحت ستار الأخلاقية، لنزعة دنيئة موحلة مكبوتة منذ عهد طويل.

وقد لاحظت أيضاً أسلوب الرسالة الخاص: ففي البداية أكثر المجهول، الذي قدّم نفسه إليّ على أنّه أحد قرائي، من بذل الإطراء لي، إطراء مبالغ فيه وكثير الإلحاح إلى درجة الاستهزاء. لكن على ظهر الصفحة، في أربعة أو خمسة أسطر سافلة وعديمة الشفقة، كان ينفجر الاتهام بعنف انتهاك الحرمات. وكان الوقع الذي يريد المجهول أن يحدثه واضحاً: أن ينال أوّلاً الثقة والاستسلام لغرور العجب بالتدريج، ثمّ يصل، على حين غرة، بكشفه المفاجئ عن الحقيقة الوحشية الساخرة المرّة، إلى تبديد فظ لشعور الارتياح الأوّلي.

أعدت قراءة الرسالة للمرّة الثالثة، وشعرت بغتة بالدم يتدفق من وجهي. كان الوقار الكاذب الذي صبغ به الإطراء في مطلع الرسالة، ثمّ الابتذال المتحرر من كلّ قيد أو حرمة في كشف الفضيحة، كان بالنسبة إليّ، من غير أن أدري السبب بالأصل، الدليل على أنّ هذه الرسالة تقول الحقيقة. وإذا كان يمكنني أن أعيد، انطلاقاً من بضعة

سطور، بناء الشخصية التي كتبتها، فسأقول إنّ المجهول كان شخصاً ذا طابع جاد، مدقق، بل مفرط في التدقيق. إنّ شخصاً كهذا لا يخترع شيئاً من بنات خياله. ولا يتقدّم خطوة إلى الأمام إلّا إذا شعر بالأرض متينة تحت قدميه. ولن أحجم عن القول بأنّه خيّل إليّ أنّني أراه، ذلك الشخص المغفل الاسم، جالساً أمام طاولته في مكتب يعجّ بالكتب، يضرب الرسالة على الآلة الكاتبة، ثمّ يعيد قراءتها، ويضعها في مغلف، ويلصق الطوابع عليها. وإنّي لأتساءل لمَ تصوّرته مديد القامة، نحيفاً، متوسط العمر، ذا وجه متطاول حزين صفراوي، وأنف رقيق، وشفتين مزموتين، وعلى عينيه نظارات. رجل مثقف، رجل دارس، رجل يطالع خيرة الكتب.

وأخيراً نفضت عنّي هذه الخيالات. ووضت الرسالة في جيبي وخرجت من الغرفة. والغريب في الأمر أنّه لم يخطر لي أن أصفي كلّ هذه القصة بهزّة من كتفي وبالتفكير: «إنّه شأنهما، بعد كلّ شيء، وليس شأني»، ولا بمشروع مصوغ باللهجة نفسها: «سأغادر فوراً البيت، وسأقيم في الفندق لمدّة شهر أو شهرين لأكتب فيه مقالاتي، ثمّ أرحل من جديد. . . وستبقى الأمور عند هذا الحد». كلّا، فقد ولدت، من الالتزام الذي أخذته على عاتقي بكتابة يومياتي لاستخلاص رواية، ولدت على نحو مثير للفضول وغير متوقع فكرةُ أنّني لن أستطيع بعد الآن أن أتصرف، كما في الماضي، كنزيل، وقد صمّمت على الانتقال من اللاانتباه إلى الانتباه. وما عاد في وسعي أن أعود إلى اللاانتباه، لمجرد أنّني تلقيت رسالة مغفلة.

لقد تعرّفت في الممر الذي بين الغرف، كما لو أنّني أراه للمرّة الأولى، أسلوب عام ١٨٠٠ المتناظر الممل الذي خيّل إليّ أنّ من واجبي تبنّيه عندما أثثت شقتي: الستائر بخطوطها العمودية الواسعة التي تحجب النافذتين المطلتين على الباحة، الطاولات الثلاث التي

من طراز الإمبراطورية والتي تعلوها مرايا، النقوش الأربعة المؤطرة بخشب داكن اللون والمعلقة على الجدران بين النافذتين. ولقد انتبهت إلى أنّني أنظر إلى هذه الأشياء المعروفة منّي تمام المعرفة بعينين جديدتين. لمَ فرشت هذه الشقة بمثل هذه الطريقة التقليدية؟ أظن أنّني أدرك ذلك الآن: فقد دفعتني بلا ريب صبوة لاشعورية إلى نظام ما، ولو كان النظام البورجوازي، نظام حقير دال زمانه، بشرط أن يحجب عنّي فوضى حياتي التي كنت ما أزال أجهلها. وكان الممشى، الذي يدور حول الباحة، منعطفاً على شكل زاوية قائمة. وبعد هذه الزاوية كان الباب الأخير، في صدر البيت، باب غرفتنا، غرفتي وغرفة كورا عندما كنّا نرقد معاً. واتجهت نحو هذه الغرفة.

إنّني لأتذكّر بصدد هذه الغرفة أنّها كنت أنأى غرف الشقة وأكثرها سكوناً وأقلّها ضياء، لأنّها لم تكن تطل على الشارع، وإنّما على الباحة من خلال نافذة صغيرة واحدة محفورة تحت إفريز الراجع الواسع البارز. وتجلّى لي على حين غرة الطابع الخاص لهذه الغرفة، ذلك الطابع الذي غاب عن أنظاري حتّى الآن: أكثر سرية وأشد عتمة ممّا كان يجب أن تكون غرفة النوم، فلكأنّها بلا ريب نوع من ملجأ، من وكر لكورا. وقرعت الباب، ولم يجبني أحد، فأدرت القبضة ودلفت.

كانت الغرفة فارغة، وتصاعدت، من الظلمة، رائحة واخزة باردة خدشت خياشيمي، رائحة دهان، مكان مغلق، غسيل وسخ، أدراج مملوءة بحلي اصطناعية قديمة، دخان سجائر، نوم. وبحثت عن مفتاح الضوء بجانب الباب فما وجدته. فخطوت عندئذ بضع خطوات وأنا أتجسّس طريقي تجسّساً فوق السجادة السميكة. ودرت حول السرير الكبير الذي يتّسع لشخصين حتّى وصلت إلى النافذة، وسحبت حبل الستارة. وبتؤدة، وكما لو بالإكراه، انتشر ضوء خافت هادئ في الحجرة من خلال الستار.

لمَ دخلت إلى الغرفة ما دامت كورا ليست فيها؟ لقد فهمت، فأنا جالس على السرير أجيل الطرْف فيما حولي، سبب هذا الفضول شبه الآلي.

بالفعل، وبعكس سائر غرف الشقة التي حافظت فيها كورا طوال سنوات على الترتيب الأصلي، بورع جدير بمحافظ متحف من المتاحف، من غير أن تمسّ أو تغيّر فيها شيئاً، ولو حتّى أصغر الصمديات، أقول بعكس سائر الغرف تركت كورا في هذه الغرفة ـ ربّما لأنّها تعيش فيها ـ طابعها وميسمها. صحيح أنّني تعرّفت قطع الأثاث الباردة والبسيطة التي من الطراز الإمبراطوري والتي اشتريتها بنفسي: سرير الجوز بأعمدته ذات التيجان البرونزية المذهبة، والخزانة المدرجة بسطحها الرخامي الأبيض، والمقاعد بمساندها التي على شكل قيثارة. لكن كما أنّ بعض الكنائس المبنية في عصر زاهر تتشوّه تشوّهاً كاملاً بفعل وخرافات ورسوم دين يؤمن بباطل الخرافات، كذلك بدت لي برودة هذا الأثاث وصلابته النيوكلاسيكية وكأنّهما تنوءان، ترزحان تحت وطأة حشد رابل من صمديات وآنية معدنية هجينة تبعث في الإنسان بلبلة صميمية.

فحول رأس السرير، الذي كنت جالساً عليه، عُلقت كمية من حيوانات مصنوعة من القماش ومنسوخة عن حيوانات الرسوم المتحرّكة. هرر، جرذان، ذئاب، أرانب، أسود، ثعالب، زرافات، أفيال، إلخ. وكانت معلقة بكلاليب أو بأشرطة ملوّنة، وتمسّ خشب السرير. وهكذا كان في وسع كورا، عندما ترقد بعد أتعاب يومها، أن تتصوّر أنّ جميع هذه الحيوانات بوجوهها التي تشبه على نحو ماكر مراوغ وجوه بني آدم تدب وتخب طوال الليل في رقصة عنيفة غريبة ساكنة حول رأسها. ولم يكن غطاء السرير هو نفس الغطاء القديم الكابي والداكن اللون، وإنّما كان من حرير منجَّد، لمّاع ومتقلّب

اللون ذو وميض أزرق وأخضر وبنفسجي. وكانت ثمّة دمية متنكرة في إهاب سيدة من القرن الثامن عشر، لها شعر مستعار من الشاش الأبيض، وصدرها عارٍ. كانت جالسة في رأس السرير مفتوحة الذراعين، منفرجة الساقين. وكانت دمية أخرى، إسبانية الزي، تستند في الوضع نفسه، إلى مؤخرة السرير. ونهضت واقتربت من الخزانة المدرجة. كان سطحها الرخامي الأبيض مغطّى بكلّ ما في الكلمة من معنى بلعب أطفال وترهات وجدتني أنحني فوقها بفضول: علب سكاكر مشبكة أو بلورية، من نوع علب ملبس الأعراس، علب موسيقية من سورينت، آنية صغيرة من الحجر اللبني أو من الزجاج الملون، تماثيل صغيرة من البورسلين تمثّل مشاهد غزلية، أباريق وكؤوس صغيرة وفناجين وأدوات مائدة صغيرة مخصّصة للدمى، كرات بلورية في داخلها زهرة، ثالوث أو كاتدرائية القديس بطرس، نفاضات من مختلف الأشكال، لفائف ذات دبابيس من المخمل الأحمر أو الأزرق، قوارير عطر أو سوائل صغيرة، أطفال من السيلولوئيد، إلخ. ووسط هذا الحشد الغريب، وكما تُعلق على المذبح صور القديسين الشفعاء بين الشموع وأصص الزهور، شاهدت بعض صور مؤطرة، مرتّبة على شكل دائري، لبابا ولي ولكورا ولفتاة أو فتاتين لهما وجه محبّب لم يسبق لي أن عرفتهما.

استدرت، وأسندت ظهري إلى الخزانة المدرجة، وتفرّست في الغرفة من جديد. كان هناك، بجانب السرير، على الطاولة الصغيرة، مصباح صغيرة له عاكس نور من الحرير الأرجواني، ونفاضة من الزجاج الأحمر مليئة بأعقاب السجاير الملطخة بأحمر الشفاه. وعلى طاولة السرير الأخرى، في الجانب من السرير، كمية من علب وقناني الأدوية مرتبة بعناية. واقتربت: كان هناك مخدرات، وفيتامينات، ومقويات، ومسكنات، وكان بين هذه الأدوية المتنوعة صحن غير

متوقع مليء ببطاقات سجلت عليها أرقام هواتف. ورفعت أنظاري: لقد علّقت كورا، فوق حشد الحيوانات القماشية المحوم فوق رأس السرير، وفي المكان الذي تحتله عادة صورة تقية، علقت رسماً من تلك الرسوم الزيتية التي تباع في الصالات التجارية، يمثل، على طريقة المدرسة الطبيعية، ثلاث نساء عاريات يستحممن في النهر على خلفية من الأشجار والشجيرات المزهرة.

ومكثت مدّة طويلة من الزمن ساكناً بلا حراك، من غير أن أفكّر بشيء، كأنّني لا أحرص على أن أفهم ما تعنيه هذه الغرفة بقدر ما أحرص على الاندماج بها عن طريق التأمّل المسحور المفتون بكلّ الأشياء الغريبة التي تعجّ بها. ثمّ أخذ الهاتف يرن على طاولة السرير الصغيرة بجرس مسارر، ملتبس، صميم، ملحّ ومتحفظ، كصوت لا يريد أن يُسمع إلّا من قبل الشخص الذي يتوجه إليه. وانتظرت أن ينقطع الرنين، ثمّ خرجت مطبقاً الباب ورائي.

كنت قد أزمعت العودة إلى غرفتي، لكنّني عندما أصبحت في الممشى سمعت موسيقى صادرة عن جهاز راديو خلف أحد الأبواب، فذكرتني بأنّ في الشقة، علاوة على كورا، ابنتها بابا. وبعد لحظة من التردّد طرقت الباب.

لست أدري أي موجة من السخط والغيظ أثارها فيّ الاطمئنان المدروس والمعجب بنفسه للصوت الذي هتف بي أن أدخل، كما لو أنّني وجدت فيه تكلفاً لا طائل تحته، مشكوكاً في ذوقه. وأدرت القبضة ودلفت. كانت الغرفة، بعكس غرفة كورا، عالية السقف، بيضاء، مضيئة، لها أرضية خشبية مشمعة بإتقان وغير مغطاة بسجادة. وكان جدار كامل تحتله خزانة كبيرة ذات مصاريع موشحة بزخرفات من الزهور وأوراق الأشجار المدهونة بألوان فاتحة. وكان الأثاث كلّه عبارة عن ديوان ـ سرير في إحدى الزوايا ومكتب في زاوية أخرى.

وكان الضوء الفج والبارد الذي يدخل من النوافذ العارية من الستائر يضفي سيماء من الترتيب والنظافة على هذه الغرفة شبه العارية، فلكأن الخادم غادرتها لتوّها بعد أن فتحت النوافذ ونفضت الغبار بعناية عن كلّ شيء. وكانت بابا، الجالسة جانبياً أمام مكتبها، تنظر إليَّ من فوق كتفها بفضول مصطنع شبه علمي من خلال نظارتيها الصدفيتين الغليظتين. وكان على المكتب كتب ودفاتر وجهاز الراديو المتنقل الذي سمعت موسيقاه وأنا أعبر الممشى.

توقفت عند العتبة وقلت بحرج:

ـ اعذريني إذ دخلت على هذا النحو، يا بابا. أنا فرانيشسكو، زوج والدتك.

فلم تحر جواباً، ولبثت بلا حراك ملتفتة نحوي. فألححت:

ـ لعلك لم تتعرفيني؟

فلم تخرج عن صمتها. فعبرت عندئذ الغرفة بخطى قصيرة متردّدة، وكأنّني أسير على سطح زلج، وذهبت حتّى مكتب بابا. كانت ما تزال تحدّق إليّ في صمت. فاستفدت من ذلك لأنظر إليها بدوري. كان جبينها يختفي وراء خصلة من شعرها، وكان لها أنف قصير، مشدود ومستقيم واسع المنخرين بعض الشيء، وفم مرسوم بشيء من الجفاء لكن بجموح وكأنّه قُدّ من خشب صلب إلى حد غير مألوف، يعلوه، عند نقاط اتصال الشفتين، غضنان رفيعان وعميقان. ثمّ رفعت نظارتيها ورأيت عينيها: عينين واسعتين جدّاً، خضراوين شفافتين بلون البحر، لهما نظرة خاصّة، ثابتة مبلبلة، تتميّز بها عادة العيون الحاسرة. وأخيراً قالت ببرود مقصود شعرت بأنّه مدروس أكثر منه ساخراً:

ـ أجل، أنت فرانشيسكو، لا تخف، لقد عرفتك. اجلس، يا فرانشيسكو، وقل لي...

في هذه اللحظة جاءتني فكرة كان ينبغي أن تخطر لي من اللحظة

الأولى: ربمّا لم يكن لي الحق في محادثة بابا عن الرسالة المغفلة. وجلست بنوع من الحرج وبدأت أقول بحذر:

- الحق أنّني كنت أبحث عن كورا لأنّ لديّ شيئاً أريد سؤالها عنه لكن كورا ليست هنا. وعندما كنت أعبر الممشى، سمعت موسيقى الراديو فدخلت.
- لقد أحسنت فعلاً.
- لعلّني أزعجتك؟
- إطلاقاً.
- أكنت تعملين؟
- لا تأبه لي. الخلاصة أنّك دخلت لتقول لي ما كنت تريد قوله لكورا.

كانت لهجتها، من فرط برودها الذي يقارب الوقاحة، تثير الغيظ فعلاً. وأجبت بعنف أو ما يشبه العنف، ناسياً فجأة حرصي على الحذر:

- أجل.
- وما الأمر؟
- الاستعلام عن موضوع، إذا صحّ التعبير؟
- أي موضوع؟
- وصلت لتوّي من إيران. فألفيت في بريدي هذه الرسالة.
- أتريد أن أقرأها؟
- أجل.

فتناولت الرسالة، ووضعت نظارتيها على عينيها من جديد، وسحبت الورقة من المغلف، وبسطتها، وقرأت الوجه الأوّل ثمّ الثاني، ثمّ أعادت الرسالة إليّ. وهذا كلّه من غير أن تبدي أي تفاجؤ أو إحساس، وإنّما بسحنة متناومة، مرائية، لكن ذكية. ثمّ رفعت نظارتيها، وحدقت فيّ ملياً، وقالت أخيراً:

ـ أتريد أن تعرف إذا ما كان هذا صحيحاً؟

ـ بالضبط.

ـ على رسلك! أجل، إنّه صحيح.

ومكثت صامتاً لحظة من الزمن، لا أدري ما يجب أن أقول، ثمّ سألت ببلاهة:

ـ هذا صحيح؟ وأنت تقولين ذلك بهذه الطريقة؟

ـ أي طريقة؟

ـ هادئة، مطمئنة.

ـ كيف كان ينبغي أن أقوله؟.. معولة، باكية؟

ـ كلا... ولكن، بعد كلّ شيء...

ـ بعد كل شيء، ماذا؟

ـ كورا هي أمّك، على كلّ حال.

ـ أجل، إنّها أمّي.

ـ إذن....

ـ إذن؟

ـ لكن بصراحة، أهذا صحيح؟

ـ قلت لك أن نعم.

ـ كيف أمكنك أن تعرفيه؟ منذ متى وأنت تعرفينه؟

ـ منذ عهد بعيد.

ـ ماذا تقصدين بـ: منذ عهد بعيد؟

ـ ست سنوات، على الأقل.

ـ ست سنوات؟

ـ أجل، ست سنوات.

ـ لكن كيف أمكنك أن تعلمي بالأمر؟

ـ بصورة مباشرة تماماً.

ـ ماذا تعنين بمباشرة؟
ـ مباشرة تعني مباشرة.
ـ أأمكنك أن تري شيئاً ما؟
ـ أشياء كثيرة. . .
ـ مثل ماذا، على سبيل المثال؟
ـ لكن، لمَ أنت مهتم إلى هذا الحد بمعرفة ذلك؟
ـ اعذريني، لكن هذا كلّه يعنيني بعد كلّ شيء.
ـ بِمَ يعنيك؟
ـ كورا زوجتي، وأنت ابنة زوجتي، وهذا البيت بيتي.
ـ أأنت واثق من ذلك؟
ـ ممَ أنا واثق؟
ـ من أنّ كورا زوجتك، ومن أنّني ابنة زوجتك، ومن أنّ هذا البيت بيتك؟
ـ إنّني واثق من ذلك بقدر ما يمكن للإنسان أن يثق من شيء ما.
ـ حسناً، في هذه الحالة يخيّل إليّ أنّني أستطيع أن أخبرك.
ـ إذن؟
ـ هاك: منذ ستة أعوام، قادتني كورا إلى ذلك المنزل.
ـ أي منزل؟
ـ المنزل الذي تتحدّث عنه الرسالة التي أريتني إيّاها.
ـ قادتك إليه؟
ـ أجل.
ـ ولكي تفعلي فيه أي شيء؟
ـ لأفعل فيه ما يُفعل عادة في هذا النوع من المنازل.
ـ عفواً، لم أفهم جيداً: كورا أخذتك إلى هذا المنزل، كي. . .
ـ كي تضعني تحت تصرّف زبائنها.

ـ وأنت تركتها تأخذك؟

ـ نعم.

ـ من غير أن تحتجّي؟

ـ ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ كنت في الرابعة عشرة.

ـ هذا صحيح، كنت في الرابعة عشرة، ولكن...

ـ لكن، ماذا؟

ـ لا شيء... لا أهمية لذلك. اسكتي لحظة، دعيني أفكر.

ـ على رسلك! افعل كما تشاء، فكّر...

ـ حسناً... لقد انتهيت. قولي لي، ماذا حدث فعلاً في ذلك الظرف؟

ـ فنظرت إليّ هنيهة من الزمن بصمت، ثمّ قالت:

ـ قبل كلّ شيء، ينبغي أن أقول لك إنّني لا أعرف شيئاً أو لا أعرف شيئاً تقريباً ممّا حدث.

ـ لا تعرفين شيئاً؟ كيف؟ لقد حدث الأمر لك ومنذ مدّة ليست بالطويلة، أليس كذلك؟

ـ لم يحدث الأمر لي...

ـ ماذا تعنين؟ ألست أنت التي أخذتْها كورا إلى هذا المنزل؟

ـ كلا، لم أكن أنا.

ـ لكن من كانت إذن؟

ـ بابا أخرى.

ـ بابا أخرى؟

ـ أجل، واحدة أخرى لا علاقة لي بها.

ـ آه! بابا أخرى؟ إنّني أفهم...

ـ كلا، أنت لا تفهم شيئاً.

ـ لا أفهم؟

ـ لا تستطيع أن تفهم. والأجدر أن أشرح لك، وبعدها ستفهم.

- حسناً! اشرحي.

فأخلدت إلى الصمت لحظة، ثمّ قالت بتعالم وسكينة وكأنّها معلمة تلقن تلميذها:

- إنّ بابا الرابعة عشر التي أخذتها كورا بيدها إلى بيتها هي بابا أخرى غير التي تقف أمامك، وبابا التي تقف أمامك لم تعد بابا التي اجتازت، منذ عامين، امتحان الإجازة الجامعية. أتفهمني الآن؟

- ربما...

- لنفترض أنّ حياتي مؤلفة من مقصورات محكمة الإغلاق. ففي كلّ مقصورة بابا مختلفة، وجميع هؤلاء البابوات لا يتصلن فيما بينهن، ولا يتشابهن، ولسن مسؤولات عن بعضهن بعضاً. أتفهمني الآن؟

- هذا مريح للغاية!

- لِمَ هو مريح؟

- لقد قلت أنت ذلك: فبابا هذه غير مسؤولة عن بابا تلك، وهكذا يمكن أن يحدث كلّ شيء.

فلبثت متفكرة برهة من الزمن ثمّ أجابت:

- أجل، لكن هذا مريح بوجه خاص بالنسبة إلى الآخرين.

- أي آخرين؟

- كورا، على سبيل المثال. لقد فعلت ما فعلته، لكنّي لا أستطيع أن ألومها عليه، لأنّ ما فعلته لم تفعله بي وإنّما ببابا أخرى.

- فهمت. والآن قولي لي ما حدث في ذلك اليوم.

- إنّها بابا الأخرى التي تعرفه!

- وأنت، ألا تستطيعين إخباري به؟

- بلى أستطيع، إذا كنت تصرّ على ذلك.

- لنفترض أنّني أصرّ عليه.
- على رسلك! لم يحدث شيء.
- كيف: لا شيء؟
- كما أقول لك: لا شيء.
- من المستحيل ألا يكون قد حدث شيء.
- ومع ذلك، هذا ما حدث: لا شيء.
- لكن لا بد أنّك رأيته، ذلك الرجل الأول، فمن كان؟
- بابا لا تعرف من كان.
- ولماذا؟
- لأنّها لم تره.
- لم تره؟
- كلا.
- تعنين أنّ بابا وذلك الرجل قد التقيا في العتمة، من غير أن يرى أحدهما الآخر؟
- كلا، إنّهما لم يلتقيا البتة.
ومعنى ذلك؟
- معناه أنّ ذلك الرجل لم يأتِ.
- لم يأتِ؟
- أو بالأحرى...
- بالأحرى؟
- أو بالأحرى أتى، لكنّه لم يظهر نفسه.
- ماذا تعنين؟
- أعني ما قلته.
- أي؟
- كورا أخذت بابا إلى الشقة وتركتها وحدها في إحدى الغرف بعد

أن أخطرتها بأنّ شخصاً ما سيأتي. لكن هذا الشخص لم يأتِ، أو، إذا كان قد أتى، رحل من غير أن يظهر نفسه. وهكذا عادت كورا ببابا إلى البيت من غير أن يحدث شيء، في تلك المرّة.

ـ فهمت. وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك؟

ـ بعد ذلك، أتكهّن بأنّ كورا أخذت من جديد بابا إلى هذا المنزل، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ كانت كورا إذن شديدة الحرص على أن تتردّد بابا على هذا المنزل؟

ـ أجل، على ما يبدو.

ـ ألا تعتقدين أنّه كان يمكنها أن تكتفي بتلك المرّة الأولى وأن تعدل عن مشروعها؟

ـ لماذا؟

ـ لأنّ الرجل لم يأت ولم يظهر نفسه، كان هذا تحذيراً، كما يقال، تحذيراً يقترح، يفرض عدم الإلحاح.

ـ كان ذلك بالنسبة إلى كورا، شيئاً آخر.

ـ ماذا كان؟

ـ فشلاً.

ـ كيف؟

ـ لقد أرادت أن تفعل شيئاً ما تبعاً لخطة معينة وأفكار معينة. لكن لم تنجح العملية.

ـ ومعنى ذلك؟

ـ معناه أنّه كان يجب معاودة الشيء طالما كان ذلك ضرورياً.

ـ ضرورياً لأي سبب؟

ـ حتّى ينجح الشيء في النهاية.

ـ ولهذا قادت كورا بابا مرّة ثانية إلى المنزل.

ـ أجل.

ـ وماذا حدث في تلك المرّة الثانية؟

ـ لا شيء تقريباً.

ـ لمَ: لا شيء تقريباً؟

ـ لأنّ بابا على ما يبدو لم تكن مفصَّلة لهذا النوع من المهن.

ـ مفصَّلة؟

ـ أجل: قابلة.

ـ من جاء في تلك المرّة؟

ـ رجل ما.

ـ كيف كان؟

ـ رجل متوسط العمر كان من الممكن أن يكون والد بابا.

ـ منفِّر؟

ـ كلا، غير منفر ألبتة: لطيف.

ـ لطيف؟

ـ أجل، ناعم ولطيف. .. أبوي.

ـ من كان؟

ـ تقصد: ما المهنة التي كان يمارسها؟ إنّ بابا لم تعرف ذلك قط.

ـ فهمت. وماذا جرى بين بابا وذلك الرجل البالغ اللطافة؟

ـ قلت لك ذلك: لا شيء تقريباً.

ـ كيف لا شيء؟

ـ لم تكن بابا تشعر بأي عاطفة، لا ترغب في أن تفعل أي شيء، ككتلة هامدة.

ـ كيف تصرف ذلك الرجل اللطيف مع الكتلة الهامدة؟

ـ تصرف كما يمكن للمرء أن يتصرّف حيال كتلة هامدة يعرف مع ذلك أنّها كائن إنساني.

ـ أي؟

ـ حاول أن يجعل الكتلة تشعر بشيء ما، أن يجعلها تتحرّك، ثمّ ملّ وعدل.

ـ أيسرّك أن تروي لي هذا كلّه؟

ـ لمَ؟

ـ لأنّي أراك تبسمين.

ـ إنّها أشياء مضحكة، أليس كذلك؟ إذا ما نظرنا إليها من الخارج...

ـ من الخارج؟ ما تقصدين بذلك؟

ـ حسناً! تصوّر أنّك تروي لصديق من الأصدقاء محاولاتك الفاشلة في مضاجعة فتاة من الفتيات، لم تنجح معها لأنّها كانت تفلت منك من كلّ مكان. تصوّر أنّك تروي ذلك هكذا، كما يُروى هذا النوع من الأشياء، فسترى أنّ في ذلك ما يبعث على الضحك بعض الشيء!

ـ بالتأكيد. وماذا حدث بعد المرّة الأولى أو بالأحرى بعد تلك المرّة؟

ـ أخذت كورا بابا إلى المنزل خمس أو ست مرّات.

ـ وفي جميع تلك المرّات، ماذا حدث؟

ـ نفس ما حدث في المرّة الأولى تقريباً.

ـ أي؟

ـ أي لا شيء تقريباً.

ـ لا شيء تقريباً؟

ـ أجل، لا شيء تقريباً. فقد بقيت بابا كما كانت، كتلة هامدة. وبذل

الرجال بعض الجهود ليجعلوها تشعر بشيء ما، ليجعلوها تتحرّك، وهم يقلّبونها ويعيدون تقليبها في مختلف الاتجاهات كما لو أنّها دمية يفتشون عن الآلية التي تجعلها تتكلم وتتحرّك. ثمّ كانت تثبط هممهم.

- كيف كانت تثبط هممهم؟
- كانوا ينامون أو يخرجون ويحتجّون لدى كورا.
- وبمَ كانت كورا تجيب؟
- لست أدري. لم تكن بابا حاضرة عندما كان الرجال يحتجّون!
- ألم يحدث شيء آخر؟
- بلى، آخر مرّة ذهبت فيها بابا إلى هذا المنزل، فقدَ أحد أولئك الرجال صبره، فصفعها وأهانها.
- ماذا قال؟
- دعاها: قاذورة.
- وماذا فعلت بابا؟
- لا شيء.
- أأبغضت ذلك الرجل؟
- ولا حتّى ذلك. فهو لم يكن بعد كلّ شيء على خطأ من وجهة نظره. إنّ بابا لم تشعر بالنفور إلّا من رجل آخر.
- أي رجل؟
- واحد آخر.
- لماذا؟
- أصرّ ذلك الرجل على سماع قصة بابا وقصة كورا، وأبدى تعاطفه، وحتّى سخطه، لكن هذا لم يمنعه من الرغبة في مضاجعة بابا مثله مثل الآخرين، وليست غلطة بابا إذا كانت قد تصرّفت، كعادتها، ككتلة غير حساسة.

- قلت لي إنّ بابا لم تذهب أكثر من سبع أو ثماني مرّات إلى منزل كورا لكن لمَ امتنعت عن متابعة الذهاب إليه؟
- غيّرت كورا فكرتها.
- كيف غيّرت فكرتها؟
- غيّرت فكرتها، أدركت أنّها أخطأت في فهم بابا.
- أخطأت؟
- أجل. فبعد المرّة السابعة أو الثامنة، أمكن لكورا أن تقتنع بأنّ بابا لم تخلق لهذا النوع من الأشياء.
- وماذا فعلت آنذاك؟
- ماذا يفعل أستاذ الموسيقى عندما يتبين أنّ تلميذه لا يتقدّم قطّ؟
- لا أدري. . . يوقف الدروس.
- بالضبط. فقد قالت كورا لبابا إنّها لن تأخذها بعد الآن إلى المنزل، وإنّ على بابا أن تنكبّ بعد الآن على الدراسة.
- على الدراسة؟
- أجل، عليها أن تدرس. وأضافت أيضاً شيئاً آخر.
- ما هو؟
- بأنّه إذا ما تكلمت بابا عمّا حدث فسوف تقتلها.
- أقالت هذا!
- أجل، تناولت سكيناً وهددتها به وهي تكلمها.
- سكين!
- سكين مطبخ، أجل.
- وبمَ أجابت بابا؟
- في تلك اللحظة بالضبط اكتشفت بابا للمرّة الأولى بأنّ ما حدث إنّما حدث على الأرجح لبابا أخرى تختلف عن بابا التي كانت كورا تهدّدها لحظتها بالسكين. وقالت ذلك لكورا.

ـ ماذا قالت لها؟
ـ قالت: المسألة بالنسبة لي وكأنّها حدثت لشخص آخر. لا أدري.
ـ وماذا قالت كورا؟
ـ لا شيء. أنت تعلم أنّ كورا لا تقول شيئاً أبداً.
ـ وبعد ذلك؟
ـ بعد ماذا؟
ـ بعد قرار كورا، ماذا حدث لبابا؟
ـ أواه! لا شيء يستحق الذكر. فقد واظبت على المدرسة ونجحت في جميع المواد. تدرّجت في صفوف التجهيز واجتازت امتحاناتها بأحسن علامات، ثمّ تسجّلت في كلية الآداب.
ـ وفيما عدا ذلك؟
ـ فيما عدا ذلك؟
ـ لنقل: من الزاوية العاطفية؟
ـ آه! العاطفية... لا شيء خارق للعادة. ما يمكن أن يحدث لأي فتاة في عمر بابا ووضعها.
ـ أي؟
ـ لَمَ تريد أن تعرف؟
ـ هكذا...
ـ لقد قلت لك. إنّ بابا من نمط عادي تماماً، إنسان كملايين الناس.
ـ بيد أنّ ما حدث لها وهي في الرابعة عشرة ليس عادياً إلى هذا الحد؟
ـ أجل، لكنّها كانت بابا أخرى.
ـ هذا صحيح، لقد نسيت. إذن؟
ـ إذن، سنقول إنّ بابا عرفت بعض المغامرات، ليس بكثرة، ثمّ شيئاً أكثر جدية، أو بالأحرى شيئين أكثر جدية. الأوّل وقد انتهى في

مدى بضعة شهور، ثمّ الثاني الذي ما يزال حتّى الآن. أنت ترى إذن أنّ بابا تنتمي فعلاً إلى نمط عادي جداً من النساء.

- هذا الشيء الأخير الأكثر جدية، ما هو؟ أخطيب؟
- أجل...
- من هو هذا الخطيب؟
- شخص عادي، هو الآخر. طالب طب.
- ماذا يدعى؟
- إنّ هذا الاستنطاق منظم! لكن ليس لدى بابا ما تخفيه. إنّه يدعى سانتورو.
- أتحبّه بابا؟
- كلا، إنّما تشعر بالودّ نحوه.
- وهو، هل يحبّها؟
- هو، أجل.
- وسيتزوجان؟

فأخذت تضحك:

- على كلّ الأحوال ليس قبل أن يوجد سانتورو لنفسه، كما يقال، مركزاً.
- لمَ تضحكين؟
- لأنّك فضولي، تريد أن تعرف كلّ شيء. وأنا لا أستطيع أن أقول لك غير أشياء عادية، في منتهى البساطة، الأشياء التي يمكن لأي فتاة في عمري أن تقولها لك.
- أتحرصين إذن إلى هذا الحد على أن تكوني عادية؟
- إنّني لا أحرص على ذلك، وإنّما أنا كذلك بطبيعتي.
- فاهم. لنغيّر الموضوع، أتريدين؟ حدثيني عن كورا.
- ماذا تريد أن تعرف عن كورا؟

ـ قولي لي، هل تحبينها؟
ـ أجل.
ـ كثيراً؟
ـ أجل، كثيراً!
ـ أتتكلمين بصدق؟
ـ أجل، إنّني أتكلم بصدق؟
ـ لكن، لماذا؟
ـ أتسأل لماذا؟
ـ لماذا تحبينها؟
ـ لأنّها أمي ولأنني ابنتها.
ـ ألهذا فقط؟
ـ يبدو لي هذا أكثر من كافٍ.
ـ بالرغم ممّا فعلته بك؟...
ـ لقد قلت لك: لم تفعل ذلك بي، وإنّما ببابا أخرى.
ـ آه! لقد نسيت، هذا صحيح. والآن قولي لي: لمَ فعلت كورا ما فعلته قبل خمسة أو ستة أعوام، في اعتقادك؟

ففكّرت بابا لحظة، ثمّ بهدوء وبدقة شبه علمية:

ـ لا تعتقد كورا بوجود رجال تجار أو أطباء أو محامين. كما لا تعتقد بوجود فتيات في الرابعة عشرة أو العشرين سواء أكن بناتها أم عاملات ورشتها. إنّها لا تؤمن إلّا بشيء واحد.
ـ ما هو؟
ـ بأنّ هناك أشخاصاً مختلفين في الجنس يتزاوجون.
ـ إنّها تؤمن بذلك لأنّه يناسبها.
ـ كلا، إنّها لا تؤمن به لأنّه يناسبها، بل لأنّها مقتنعة بأنّه لا وجود في العالم إلّا لذلك الشيء ولا شيء غيره.

- لا شيء غيره؟ حقاً؟ والمال؟
- المال ليس إلّا وسيلة. لكن الغاية تختلف تماماً.
- ما الغاية؟
- قلتها لك.
- الحب؟
- قطعاً.
- لكنّي اعتقدت بأنّك، عندما قلت إنّ كورا تؤمن بشيء واحد، كنت تلمّحين إلى الحب؟
- ذلك الشيء ليس هو الحب!
- ما هو إذن؟
- إنّه... ما هو.
- لِمَ تفكّر كورا على هذا النحو؟
- لا أدري.
- لكن المفروض فيك أن تكوني عارفة بذلك.
- سأقول لأنّ ذلك يبدو لها صحيحاً، ولأنّه يعجبها ويناسبها أن تعتقد ذلك، ولأنّه يبدو لها حقاً.
- إذا كان الأمر كذلك، فلم بدلت فكرها بصدد بابا، ولمَ فكرت، كما قلت أنت بنفسك، بأنّها أخطأت بصددها؟
- أتصوّر أنّ كورا تعيش في عالم خاص بها، يبدو لها العالم الوحيد الممكن والأفضل من كلّ عالم آخر. لكن من الممكن أحياناً أن تصطدم بعالم مختلف، وعندها تعترف - لكن بتهرّب كبير - بأنّ هناك عوالم أخرى خارج عالمها. لكنّها لا تعترف بذلك إلّا وهي تصرف على أسنانها.
- ماذا تعنين؟
- إنّها لا تعترف بذلك إلّا على الصعيد العملي، وهذا يعني أنّها لا

تعترف به حقاً. وخلاصة القول إنّها تقرّ بوجود. . . استثناء. ولقد كنت أنا أحد تلك الاستثناءات، لكن القاعدة هي واحدة دوماً.

وأخلدنا إلى الصمت على إثر ذلك هنيهة من الزمن. واستداركت بابا من جديد نحو مكتبها. وأدارت مفتاح الراديو لترفع الصوت، ووضعت نظارتيها على عينيها، وتابعت قراءتها كما لو أنّني غير حاضر. نظرت إليها: لم تكن تبدو طويلة، لكن لا بدّ أنّها ممشوقة القامة، قوية البنية، مليئة. كان ذلك واضحاً من الطريقة التي كانت تتربّع بها على مقعدها أمام المكتب بكشحيها المتوثبين، وساقيها المفتولتين اللتين لا تكادان تلامسان الأرض، الملفوفتين في بنطال أسود، وصدرها الثقيل والمتين المسحوق على حافة المكتب. وشعرت، وأنا أرنو إليها، بإحساس غيظ مفاجئ، كنفس الإحساس الذي أوحى به إلى قبل قليل برودها الخالع العذار. وقلت، بالرغم منّي تقريباً:

ـ اسمعي يا بابا، إنّ لكل لعبة، مهما كانت، نهاية. . .

فاستدارت، ورفعت نظارتيها، ونظرت إليّ:

ـ عفواً، لم أفهم. . .

ـ هذه الطريقة التي تنهجينها في تقسيم شخصيتك وإلغائها في عدد من باباوات تختلف كلّ واحدة منهن عن الأخرى، هذه الطريقة ليست إلّا لعبة، وأنت تعلمين حق العلم أنّها لعبة ليس إلّا. يقيناً، إنّ مثل هذه اللعبة تساعدك على الحياة. لكن هذه مسألة أخرى لا تخصّ أحداً غيرك. وأنت تستطيعين أن تشركيني في لعبتك، لكن لفترة محدودة للغاية.

فابتسمت ثمّ قالت بتودّد:

ـ أؤكد لك بأنّ الأمر ليس البتة كما تظن.

ـ كيف ذلك؟

ـ صعب عليّ أن أفسّره لك. إنّني أفهم تماماً ما تريد قوله، لكنّي أستطيع أن أقسم لك على شيء، أنّها ليست لعبة.

ـ ليست لعبة؟

ـ كلا، بالمرّة.

ـ لكن. . .

ـ إنّه شيء خطير. إنّني لست. . . لست البتة ما كنته قبل ستة أعوام. ولعلني لست ما كنته حتّى منذ ساعة، قبل أن تدخل إلى غرفتي. لا أدري كيف أفسّر لك ذلك، لكن هذه هي الحقيقة.

ـ الحقيقة تتطلب برهاناً.

ـ على رسلك! البرهان هو أنّه كان عليّ، لأتذكّر أشياء يعود تاريخها إلى ست سنوات، أن أبذل جهداً حقيقياً، جهداً لأتخيلها أكثر منه لأتذكرها: تماماً كما يحدث عندما يتكلم المرء عن شخص آخر استناداً إلى بعض معلومات وينشئ فرضيات عن الطريقة التي جرت بها بعض الأحداث.

ـ وهذا يعني؟

ـ كما قلت لك: إنّ بابا التي كانت تشتغل هنا بمفردها، منذ ساعة، لم تعد، بعد مجيئك، والمحادثة التي دارت بيننا، هي نفس بابا الحالية.

خامرني على حين غرة شعور مخيب للأمل وباعث على القلق بعض الشيء بأنّ هذه العبارة ليست إلّا واحدة من تلك العبارات المحكمة الصياغة، التقليدية، التي تفيد، في محادثة بين رجل وامرأة، وبعد المقدمات التمهيدية، كوسيلة لطرح الموضوع الرئيسي. وحدقت في عينيها، بنظرة متسائلة، لكن حدقتيها اللتين بلون البحر واللتين يضفي عليهما سحرهما تعبيراً ثابتاً شبه مخدر، لم تكشفا لي عن شيء. ثمّ ابتسمت ابتسامة بالغة العذوبة، حارة إلى حد محرق، وقالت وهي تمدّ يدها لتتناول يدي:

- لعل بابا جديدة قد ولدت مع زيارتك. هذا ما أحسّ به على كلّ حال أنا، وأنت؟

أطرقت بناظري. كانت اليد الصغيرة التي تشدّ على يدي بدينة وقصيرة، ذات لون يختلف عن لون الوجه. كانت بابا شاحبة، لكن يدها كانت مائلة إلى الحمرة، حمرة داكنة مصمتة تحدث فيها المفاصل حفيرات أشد دكنة. وكانت الأصابع القصيرة كثيرة اللحم حتّى إنّها لتبدو غير قادرة على الانثناء إلّا بصعوبة، ولم تكن الراحة توحي بأنّها قادرة على الانقباض إلى النهاية. كانت تشد على يدي بيدها اليمنى تاركة اليسرى مفتوحة على ركبتيها. وقد فاجأني باطن الإبهام بحجمه. ولم تكن حمرته مصمتة على نسق ظهر اليد، وكان كأنّه مطلي بالأبيض. وقد لاحظت الأظافر، وكانت صغيرة وبيضوية، غارزة في اللحم عميقاً، ومدهونة بالوردي. وفيما أنا أنظر إلى هذه اليد جاءتني فكرة لم أقدر على طردها: لعل جسم بابا كلّه شبيه بيدها اللَحِمة، ولونه في مثل حمرتها الداكنة، الخشنة بعض الشيء، المطلية بالأبيض. جسم هيولي ومطواع، خامد الحياة تقريباً، لا يذكر بالجسم بقدر ما يذكر بكمية معينة من اللحم. ثمّ تذكرت أنّني، فيما سبق من الزمن ويوم لم أعد أطيق العيش مع كورا، سمّيت بابا بيني وبين نفسي بـ «بنت الحرام»، وشعرت بوجود صلة بين هذا اللقب والصورة التي أتخيل بها جسمها، وفكرت بأنّها نفس الصلة التي توجد عادة بين كلّ ما لا يحظى بتقدير كبير وبين إمكانية التصرف والوصول إليه. وقلت في نفسي إنّ بابا نفسها تفكر، في أعماقها، بأنّها شيء زهيد القيمة، وأنّ ما ثبّتها على فكرتها هذه معاملة كورا لها، قبل ستة أعوام، كشيء يمكن بيعه وشراؤه. وهذا ما يفسّر ادعاءها، غير القابل للتفسير أصلاً بغير هذه الصورة، بأنّها لم تعد نفس الفتاة التي كانتها قبل ستة أعوام، أي ادعاءها بأنّها تشبه شيئاً قابلاً للتجديد أبداً أكثر ممّا تشبه

شخصاً له بالضرورة ماضٍ، وبالتالي تاريخ. وهكذا تُفسّر أيضاً حركة يدها الممدودة للشدّ على يدي: إنّها دعوة لكي أستخدمها، لكي أنال، إذا شئت، لذّتي منها، من غير ما تأنيب ضمير ما دامت مجرد شيء موضوع تحت تصرّف كلّ من يريد استخدامه. وعلى هذا، وإذا ما اضجعنا معاً، بالرغم من أنّنا ما نزال أشبه بأب وابنته، فلن يكون ذلك سفاحاً كما قد يخيّل للمرء للوهلة الأولى، وإنّما سيكون شيئاً تافهاً سيبقى هنا حبيس اللحظة التي يكون قد تمّ فيها مثلما تبقى الدعموصة الميتة حبيسة الشرنقة التي جفّت.

من المؤكد، أستطيع أن أقول ذلك، أنّني لم «أكتشف» كلّ هذه الأشياء إلّا فيما بعد، بصبر، عندما رحت أكتبها في يومياتي ورأسي بارد مستريح»، أمّا في لحظتها بالذات فقد عنّت لي على نحو غامض لكن آسر، في شكل دافع إلى العمل. وأدرت يدي في يدي بابا، وأخذت معصمها بين إصبعيّ كما لو في حلقة، وبحركة مفاجئة شمّرت كمّ سترتها حتّى مرفقها، كاشفاً عن ساعدها المكور الأبيض المتين، المظلل تظليلاً ناعماً بزغب أسمر خفيف. وفجأة تذكرت أنّني كثيراً ما فكرت، في السنوات الماضية، بأنّني لن أحبّ من جديد لأنّني ما عدت أستطيع أن أولع بغير العدم. وكيف يمكن للمرء أن يولع بالعدم؟ وفهمت على حين بغتة أنّني أمام العدم، أنّ بابا هي العدم، وأنّ اضطرابي ليس مبعثه عرضها نفسها عليّ وإنّما تمثيلها العدم. ذلك العدم الذي كان يمكنني أن أحبّه على وجه التحديد لأنّه العدم. وهكذا كان هذا الحب سيعني بالنسبة إليّ الحب للمرّة الثانية في حياتي: المرّة الأولى كان موضوعها أمّها، أمّها التي أحببت فيها كلّ الأشياء التي كنت أحبسها آنذاك هي الواقع والتي هتكت الستر عن لاأصالتها فنذرت نفسي للعدم، أي للعلاقات مع النساء السهلات اللاتي كنّ يأتين للقائي في بيتي. ثمّ انتزعت نفسي من ذلك العدم،

وها هوذا الآن يتجلّى لي بقوّة ووضوح أكبر في جسم بابا، في وجه بابا، في بابا. وشعرت بأنّ في وسعي أنّ أحبّها لأنّها تمثّل العدم الذي كان فيّ وحواليّ، كما أحببت كورا فيما مضى من الزمن التي بدت لي تجسّد كلّ الأشياء التي كنت أحسب أنّها فيّ وحواليّ. لكن كان لعدم بابا هذا اسم، وإنّما إلى هذا الاسم شعرت بأنّني منجذب لا إليها هي نفسها بلحمها ودمها: ذلك الاسم الذي يطلق على العلاقة الغرامية بين رجل وامرأة أواصرُ القربى بينهما هي كأواصر القربى بيني وبين بابا. والحال أنّني أدركت أنّه لو لم تقم بيننا فكرة أو بالأحرى اسم الحب السفاح، لما اشتهيتها في غالب الظن. وهكذا ثبت لي بالبرهان القاطع من جديد أنّه لا يمكن أن يوجد بالنسبة إليّ عمل أصيل حتّى عندما يكون الدافع إلى العمل صادراً على ما يبدو من أعماق ذاتي. وبالفعل، لم تتحرّك شهوتي إلّا على نحو آلي وعلى إثر رنين اسم، مجرد اسم، زائف أصلاً لأنّنا لم نكن بعد كلّ شيء أباً وابنة فعلاً. ورفعت عيني إليها، وتعرّفت هذه المرّة في حدقتيها، علاوة على التعبير الحزين الناجم عن حسر البصر، كآبة أعمق يشوبها حرج وقرف. وسحبت يدي وقلت:

- اعذريني!

وتهالكت من جديد على مقعدي.

وبحركة كلّها انفراج، سحبت كمّها حتّى معصمها كما تصلح المرأة وضع ثيابها بعد أن تكون قد تعرّضت لهجوم ما، ثمّ قالت باطمئنان ورصانة:

- لا ريب في أنّه وقع بيننا سوء تفاهم، ولم يحسن كلّ منّا فهم الآخر...

فأكدت بصراحة:

- أعتقد ذلك أيضاً.

ـ لقد شددت على يدك وقلت لك ما قلت لك لا للدوافع التي يبدو أنّك تصوّرتها، وإنّما لأنّي آمل أن نكون من اليوم فصاعداً أباً وابنة حقاً.

ـ أباً وابنة؟

ـ أجل. ما الغرابة في ذلك؟ فنحن في الواقع أب وابنة حتّى وإن لم نكن قد تصرّفنا كأب وابنة حتّى الآن. وبودّي لو نصبح كذلك حقاً من الآن فصاعداً.

فكّرت بأنّ هذا لا شيء يصعب قوله، لكنّها، قالته على أحسن وجه، وبقناعة مثيرة للفضول، وأكدته إن جاز التعبير بصورة تكنيكية كما لو أنّه شيء يتوجب علينا أن نصنعه معاً حسب خطة مقرّرة مسبقاً. وقلت بما فيه الكفاية من الصدق:

ـ هذا كلّ مطلبي ومناي.

ـ حسناً! إنّني لمسرورة بذلك كلّ السرور.

كان يبدو عليها السرور حقاً. فقد كانت تبسم، ومدّت من جديد يدها وشدّت على يدي بعناق مقتضب كلّه حنوّ. ثمّ أضافت:

ـ لن تتصرف بعد اليوم كما في الماضي.

ـ ماذا تعنين؟

ـ أعني أنّك لن تكون كرجل يعيش غريباً في بيته ولا يريد أن تكون له علاقة ما بعائلته.

ـ ما عليّ أن أفعل إذن؟

ـ اسكن معنا، مع كورا ومعي، كسائر الأزواج والآباء.

ـ أسكن معكما؟

ـ أجل! تأكل معنا، وتخرج معنا، وتعيش معنا.

ـ لكن... هذا مستحيل!

ـ لماذا؟

- لأنّني أعرف ما أعرفه، ولأنّ الحياة العائلية التي تتحدّثين عنها مستحيلة في هذه الحال.
- ومع ذلك فإنّني أعيش، أنا، حياة عائلية.
- هذا بالضبط ما يدهشني.
- لماذا؟
- لو كنت محلك لرحلت، وحق الشيطان، منذ زمن بعيد.
- سأرحل ذات يوم، ولكن ليس بسبب كورا.
- متى سترحلين؟
- لا أدري... عندما سأتزوج أو عندما سأحصل على الدبلوم، وسأذهب للتدريس في مدينة أخرى.

وفجأة تملّكني الغضب ورفعت صوتي:

- على كل، أنت لا تشمئزين من السكن تحت سقف واحد مع كورا؟
- إنّها أمي.
- وتقبلين مالها؟
- ليس في ذلك ضرّ.
- ليس في ذلك ضرّ... وكيف، من فضلك؟
- لأنّ هذه المدينة مليئة بأشياء تباع وتشرى. فأي فرق بين مال كورا ومال الكثيرين من الناس غيرها؟

وسكن روعي قليلاً وقلت:

- حسناً، سنكون أباً وابنة، أعدك بذلك... لكن لا تسأليني أن أكون من جديد زوجاً لكورا.
- ستتناول طعامك معنا، قل هذا على الأقل...

شيء غريب: كانت في كلّ مرّة تتكلم عن نفسها وعن كورا وعنّي كما لو أنّنا أسرة، يتهدّج صوتها، الهادئ والعديم التعبير عادة، وتظهر فيه حرقة. وقلت بجفاء:

- اتفقنا، سأتناول طعامي معكما.
- ولن تكون جافاً مع كورا؟
- ماذا تعنين؟
- أعني أنّك ستخاطبها، أثناء الطعام، بلهجة طبيعية وودية، وأنّك لن تتحاشاها في غير أوقات الطعام، وأنّك ستكون عطوفاً نحوها.
- من الصعب عليّ أن أكون عطوفاً...
- لكنّك ستتظاهر بذلك... إذا لم تفعله من أجل كورا، فافعله من أجلي أنا.
- لَمَ تحصرين إلى هذا الحد على أن أكون عطوفاً تجاه كورا؟

فأجابت بلهجة من يؤكد حقيقة لا مماراة فيها:

- لأنّها أمي.

فألححت:

- لم تقولي بعد لَمَ تحبينها: فهي بعد كلّ شيء لم تسلك نحوك سلوك أم صالحة.

فمالت بابا إلى أمام وشدّت على يدي بقوّة:

- كن عطوفاً معها، أتريد؟ لا أدري لَمَ أحبّها، لا أدري السبب حقاً، لكنّي أشعر بأنّني أزداد حباً لها دوماً.

كانت تشد على يدي إلى حد آلمني وسعيت عبثاً إلى التحرر من عناقها وقلت:

- لعلك تحبينها على وجه التحديد بسبب الطريقة التي تصرّفت بها تجاهك.
- ربّما، لكن ليس بالمعنى الذي تظن.
- أنا لا أظن شيئاً.
- إنّني لا أحبها لأنّها لا تحبني. إنّني أحبها لأنّ... أرأيت، لا مفر من أن أكرّر الشيء نفسه... لأنّها أمي.

فقلت بلهجة جافة:

ـ اتفقنا، سأحاول أن أكون «عطوفاً» كما تقولين.

وعلى إثر قولي هذا تركت يدي وتراجعت فأضفت:

ـ أعدك بذلك. من حسن الحظ بالأصل إنّ إقامتي في روما لن تكون طويلة.

ـ كم من الزمن ستبقى؟

ـ لا أدري: شهراً أو اثنين، الزمن الضروري لأكتب مقالاتي عن رحلتي إلى إيران.

رأيتها تعاود الجلوس جانبياً، متكومة على مقعدها الصغير أكثر ممّا ينبغي، وقدماها على عارضة الطاولة الأفقية. وأدارت مفتاح الراديو، لترفع صوته، ووضعت نظارتيها على عينيها وتظاهرت بأنّها تستأنف مطالعتها التي قطعتها زيارتي. كان عليّ أن أنصرف، لكن كان يخيّل إليّ أنّه ما يزال هناك شيء ناقص. وببلاهة قلت:

ـ هل تريدين أن نذهب لتناول العشاء في مكان ما هذا المساء؟

فاستدارت بشيء من الحدّة وكأنّها كانت تنتظر هذه الدعوة وأجابتني:

ـ كلا، ليس هذا المساء، لست حرة.

ـ مع من ستخرجين؟

ـ أعتقد أنّه من واجبي أن أقول لك ذلك ما دمت أبي. سوف أخرج مع سانتورو وإحدى صديقاتي وحبيب صديقتي.

ـ ماذا ستفعلون؟

ـ نتناول طعام العشاء أوّلاً، ثمّ نذهب إلى السينما. لكن غداً، أجل غداً، سأكون حرّة.

ـ حسناً، غداً. بالمناسبة...

ـ ماذا؟

ـ بالمناسبة، لا تكلمي كورا عن محادثتنا.

ـ أنت لم تتكلم معي، وإنّما مع بابا أخرى.

ـ آه! هذا صحيح، لقد نسيت! إذن إلى مساء الغد.

ـ شياو!

وخرجت، وفي أذني ترن الموسيقى المريرة والمألوفة إلى حد غريب لكلمة «شياو» تلك.

الأربعاء ١٤ تشرين الأوّل

أنا في غرفة من غرف منزل مواعيد كورا. إنّني لواثق من أنّه منزل كورا بالرغم من أنّني لم أذهب إليه قط. ولقد جاءتني هذه الثقة من رؤيتي الدمية جالسة على رأس السرير الكبير الذي أجلس عليه بانتظار الفتاة التي ستجمعني بها كورا في أقرب وقت. إنّها دمية في زي سيدة من القرن الثامن عشر، شبيهة بالدمية الموجودة في منزلي، في غرفة كورا على وجه التحديد. لكنّي ألمح، إذ أمعن النظر فيها، فروقاً بينهما: فهذه الدمية أكبر حجماً، بل يخيل إليّ أنّها تزداد حجماً كلّما تمعنت في ملاحظتها. ثمّ أكتشف، يا للذهول، أنّ للدمية وجه بابا: نفس العينين الخضراوين اللتين بلون البحر، ونفس النظرة المشدوهة وغير المعبرة، ونفس الأنف الصغير، المتين والواسع، ونفس الفم الرقيق، القاسي، بغضنيه الناعمين المجدبين الشبيهين بشقين عند نقاط اتصال الشفتين. صحيح أنّها تضع شعراً مستعاراً أبيض، وأنّ وجهها مذرور بالمساحيق ومنقط بالخيلان، وأن صدريتها مشدودة، وأنّ ثوبها على شكل سلة، لكنّها بابا بلحمها ودمها، بابا الحية لا الدمية، بابا المتنكرة في إهاب سيدة من القرن الثامن عشر، جالسة على رأس السرير في منزل كورا. وبالفعل، هي ذي بابا تبسم لي، وترشقني بغمزة غامضة مثيرة. وشعرت على الفور باشمئزاز ورغبة، اشمئزاز ولد من الرغبة، ورغبة ولدت من الاشمئزاز. وهتفت بصوت عالٍ: «لكنّك

ابنتي» عند هذه الكلمات، وكما تبدّد الرقية سحر الساحر، أخذت بابا تنأى، تصغر وتصغر حتّى باتت، وما كان أعظم انفراجي، مجرد دمية رأسها من البورسلين وجسمها من القماش، لا مبرر لوجودها إلّا أن تكون زخرفة لغرفة كورا. لكن ما يزال علي أنّ أنتظر. عمّا قريب سيفتح الباب وستقدم لي كورا فتاة اليوم، المختلفة كلّ الاختلاف عن بابا. وبالفعل، انفتح الباب بتؤدة وظهرت كورا ـ إنّها ليست بمفردها، بل تقود بيدها فتاة صغيرة في حوالي الرابعة عشرة ترتدي كنزة حمراء وبنطالاً أزرق فاتحاً، لكنّي لا أتوصل إلى رؤية وجه الصغيرة الذي تخفيه، وكلّها اضطراب، في حضن أمّها. ومالت هذه الأخيرة، وهمست في أذنها بينما كانت تلاعب عينيها باتجاهي وكأنّها تقول لي: «بالطبع إنّها صغيرة، وبالتالي خجول، يجب أن تتذرع معها بشيء من الصبر. . .» ولاحظت وجه كورا الملتهب وعينيها القادحتين شرراً، فكأنّها مشرقة النفس بحيوية فائقة للعادة. وفي النهاية، سلمت الفتاة أمرها وأذعنت. واستدارت، ومن جديد تعرّفت فيها بابا، لا بابا اليوم بل بابا كما كانت قبل ستة أعوام. ومدت لي الفتاة الصغيرة يدها، وحيّتني تحية ناعمة تدل على تربية صالحة، لكنّي نظرت إليها بعين ناقدة، وبريبة. إنّني رجل صعب المطالب، سريع الاستياء، صاحب نزوات: إنّني زبون، لا أكثر. وأعلنت بفظاظة أنّه إذا لم يكن للفتاة جسم شبيه بالجزء اللّحِم من إبهامها، ذو لون أحمر فج ملطخ بالأبيض، فإنّني لا أرغب فيها. ودفعت. وكنت أريد أن أحصل، مقابل مالي، على ما أريده بالضبط. وبالطبع لم تترك كورا شيئاً إلّا وفعلته لترضيني. ورأيتها تميل بجزع على الصغيرة، وتهمس من جديد في أذنها. عند هذه اللحظة، وللمرّة الثانية، هتفت:

ـ لكنّها ابنتي!

واستيقظت.

كنت مبللاً عرقاً، وكان قلبي يخفق خفقاناً شديداً. ونهضت وجلست في الظلمة ونظرت إلى مينا منبهي الفوسفورية على طاولة السرير. كانت العقارب تشير إلى الرابعة والربع. وأضأت المصباح، وكما أفعل عادة عندما أستيقظ من كابوس، تناولت من بين جميع الكتب المكدسة على طاولة السرير أوّل كتاب وقعت يدي عليه.

كان طبعة شعبية لـ «أوديب ملكاً». وفتحته على الصفحة الأولى وقرأت:

أوديب: «أين أين؟ أين أجد بعد الآن الأثر الخفي لجريمة قديمة؟

كريون: هنا. يقول الإله. فما نبحث عنه نجده، لكن ما نهمله يبقى سراً».

وخيّل إليّ أنّ لهذه الأبيات وقعاً مألوفاً. فتابعت قراءة كلّ المشهد الأوّل إلى أن وصلت إلى:

«أعلم حق العلم
أنكم مرضى جميعاً، وأنّه ليس بينكم
من هو مريض مثلي.
إنّ وجع الواحد منكم
لا يتعداه إلى غيره. وبالمقابل
تتألم روحي من أجل وطني
من أجلي ومن أجلك...».

تبيّنت أنّني أبكي بدموع محرقة نادرة تبدو وكأنّها تعبر لا عن مرارة ما حدث بالأمس مساء فحسب، بل أيضاً عن مرارة حياتي بكاملها. بكيت وأطبقت كتابي وأطفأت الضوء وتابعت البكاء في الظلام، مدركاً أنّني أبكي لأنّني أواجه نفس موقف أوديب: فالمدينة التي يعيث الطاعون فيها فساداً هي أسرتي، الفاسدة هي الأخرى،

ولقد استجوبت، كما فعل أوديب، الشهود لمعرفة علة هذا الفساد، واكتشفت أنّني أنا المذنب. لكن، وهنا راحت أفكاري تختلط وتغيم في النعاس الذي بدأ يغزوني من جديد، لكن عند هذا الحد يتوقف التشابه. فأوديب أُذِنَ له بأن يفقأ عينيه، بأن يكفر عن خطيئته في طقس من الطقوس، بأن يتحرر منها بتحويله الشر إلى خير، أمّا أنا؟ كان عليّ أنا أن أكتفي بأن أعرف، بدون ظل من شك، أنّني ـ ولو من بعيد وعلى نحو غير مباشر ـ علة الفساد. لكن لم يكن في وسعي أن أفعل شيئاً: لا أن أعاقب نفسي، ولا أن أكفّر، ولا أن أحول ما كان سلبياً إلى شيء إيجابي. اللهم إلّا إذا... عند... اللهم إلّا إذا» هذه التي تترك بصيصاً من أمل، أخذتني سنة النوم.

الأربعاء ١٤ تشرين الأوّل

كان النهار قد طلع عندما استيقظت، لكن كان الوقت ما يزال مبكراً، وكان البيت يخيم عليه السكون. نهضت واغتسلت وسرحت شعري وخرجت من غرفتي، ثمّ من الشقة، ثمّ نزلت إلى الشارع. وكما هو دأبي صباحاً عندما أكون في روما، ذهبت ما إن نهضت إلى البار الذي بالقرب من منزلي، وتناولت إفطاري: قهوة، كرواسان، ثمّ قهوة أخرى. ومن كشك التبغ المجاور للبار، اشتريت علبتي دخان، ثمّ ذهبت لأبتاع جريدة من بائع الصحف عند منعطف الشارع. واتجهت نحو منزلي وأنا أجيل الطرف حولي تحت ذراعي الصحيفة، وبين شفتي سيجارة. وألفيت ثانية الديكور المعروف: البنايات التجارية التي بلون البسكويت والملاط، بنوافذها الكستنائية التي ما تزال مغلقة، والتي تصطف على طول الأرصفة التي ما تزال مقفرة، والحدائق البلدية بسروها وغارها وسنديانها الأخضر، الكئيبة والإدارية، المؤطرة بمجموعات من دور فاتحة اللون؛ والسماء الخريفية بزرقتها الفاهية، التي تتهادى في أديمها سحب بيضاء كبيرة

موشاة بالرمادي. اجتزت باب مدخل المنزل، وصعدت في المصعد حتّى الطابق الأخير، وفتحت باب شقتي، ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع بابا التي كانت على وشك الخروج. كانت ترتدي بنطالاً وسترة بحار وتحمل كتباً تحت ذراعها. وقالت لي:

- أعددات لك إفطارك، ووضعته في غرفتك. شياو.

ومضيت إلى غرفتي، وبالفعل كانت وجبتي الخفيفة على الطاولة، بجانب آلتي الكاتبة، طبق أحسن إعداده ومغطّى بسماط صغير، ومنشفة صغيرة، وفنجان مع صحنه، وإبريق شاي، وخبز محمص، وعسل، ومربب. ووضعت الطبق على فراشي المشعث، لكنّي تركت إبريق الشاي والفنجان على الطاولة. ثمّ صححت وضع طاولتي أمام النافذة بصورة أرى معها ثلثي السماء مقابل ثلث الدور. وفي النهاية جلست.

آنذاك فقط عاودتني ذكرى ما حدث مساء الأمس وليلاً: الرسالة المغفلة، حديثي مع بابا، حلمي، يقظتي، قراءة أشعار أوديب الملك. ثمّ تذكرت، إذ وقع نظري على آلتي الكاتبة، قراري بصدد كتابة يومياتي عن إقامتي في روما، وتساءلت عمّا إذا كان ممكناً بعد أن حدث ما حدث.

وبالفعل، كنت قد قرّرت كتابة يوميات عن مرحلة من حياتي تصوّرتها خالية من الأحداث، كيما أستخلص منها فيما بعد رواية خالية من الأحداث أيضاً. وها هي هذه اليوميات الذاتية تنكشف عن أنّها مستحيلة، من اليوم الأوّل. ففي اللحظة التي حزمت فيها أمري على كتابة يوميات حياة بلا أحداث، شاءت سخرية الصدف أن ينفجر في هذه الحياة بالذات، وبصخب، شيء ما دراماتيكي، استثنائي، لا يصدق. وإذا بالرواية التي كنت آمل في كتابتها، والتي كان من المفروض أن تحل فيها أصالة الروتين اليومي محل لا أصالة الدراما، أقول إذا بها تفشل من البداية.

أشعلت سيجارة ورحت أفكّر وأنا أتأمل السماء أمامي، من خلال زجاج النافذة. وخطرة لي فكرة: إذا كتبت بالرغم من كلّ شيء يومياتي، وإذا استخلصت منها فيما بعد، وكما أنوي، رواية، فإنّ هذه الرواية ستكون تماماً من النوع المسمّى بالروائي، أي ستكون مستندة إلى مغامرة دراماتيكية، بل مضحكة مبكية، كتلك المغامرات التي يلجأ إليها الروائيون التقليديون لعجزهم الولادي الموروث عن استخلاص ماهية الشعر من الواقع اليومي.

رجل مضت عليه سنوات عشر من غير أن يخاطب زوجته وابنته مع أنّه يعيش معهما تحت سقف واحد. وبعد تلك السنوات العشر، جاءته رسالة مغفلة تعلمه بأنّ زوجته تمارس مهنة القوادة، وبأنّها سعت إلى تعهير ابنتها... لقد شدهت من انعدام الذوق في هذه الوقائع ومن لاأصالتها وابتعادها عن الواقع الذي يمكننا تصديقه، تلك الوقائع المحرجة، الثقيلة الوطأة، التي لا تصدق. وفكرت بأنّ القرّاء سيكونون على صواب إذا ما نسبوا إلى المؤلف مخيلة مريضة، مقرفة، معقدة.

لكنّني كنت لحسن الحظ أو سوئه في وضع مغاير تماماً: فمخيلتي لم تكن مدعوة إلى اختراع مثل هذه المكائد، بل على العكس، والأشياء الثقيلة الوطء، المحرجة، التي لا تصدق، التي أرى نفسي ملزماً بذكرها في يومياتي وبنقلها فيما بعد إلى الرواية، هذه الأشياء ليست ثمرة مخيلة مريضة مقرفة معقدة، وإنّما ثمرة أحداث واقعية. إنّني لم أختلق شيئاً، وأنا أقول ذلك مهما بدا بعيداً عن التصديق: فلقد تلقيت فعلاً الرسالة المغفلة، وكورا تمارس فعلاً تلك المهنة، وبابا قد اقتيدت فعلاً وهي في الرابعة عشرة إلى منزل مواعيد أمّها، وأنا فعلاً جالس الآن إلى طاولتي أكتب، شاعراً فعلاً في ذهني بالتناقض المرهق المقلق القائم بين اهتماماتي الأدبية وبين الإلزام

الباهظ الوطأة، المحتم، الذي وقع على عاتقي، والذي يحتم عليّ أن أجد بأسرع ما يمكن، على صعيد الواقع وليس على صفحات رواية، حلاً للوضع الذي وجدت نفسي فيه على حين فجأة.

وهكذا، وبينما كان في وسعي أن أتخلّى عن فكرة كتابة رواية حكمت عليها بالإخفاق مسبقاً، ما كنت أستطيع بالمقابل أن أرفض الاعتراف بأنّ بعض الأشياء تحدث لي، وبأنّ عليّ أن أبادر إلى العمل، وبأنّني سأكون قد بادرت إلى العمل على كلّ الأحوال حتّى وإن لم أعمل شيئاً قط، لأنّ عدم المبادرة إلى العمل يعني في مثل هذه الحالة اختيار نمط محدّد من العمل في الواقع.

لكن في اللحظة التي رحت أفكّر فيها بالعدول نهائياً عن كتابة يومياتي وعن استخلاص رواية منها في المستقبل، في تلك اللحظة بالضبط شعرت في أعماق نفسي بحزن مبرح يائس، كما لو أنّني سأتخلّى في الواقع عن مبرري الوحيد للحياة. ولقد فاجأني عنف هذا الشعور وفهمت أنّ هناك شيئاً ما عميقاً لا يمكنني التغلّب عليه كما لا يمكنني تجاهله.

سحقت سيجارتي في النفاضة وأشعلت أخرى. ما العمل؟ من جهة أولى ما كان في مقدور الرواية التي سأستخلصها من يومياتي (إذا كتبت هذه اليوميات) إلّا أن تكون غير أصيلة كتلك التي كتبتها قبل عشرة أعوام، ومن الجهة الثانية كان الحزن العميق الذي انتابني بمجرد أن فكّرت بالعدول عن مشروعي يذكرني بأنني أخذت على نفسي التزاماً بكتابة يومياتي وباستخلاص رواية منها. ما العمل إذن؟

بعد أن طرحت على نفسي هذا الإحراج سقطت في حالة من الذهول المرير المجرد. ورحت أنظر، ورأسي خلو من الأفكار، إلى التشويهات المزعجة التي تحدثها بعض العيوب في زجاج النافذة على شكل قطرات أو فقاعات والتي تشوش الرؤية الصافية لغيوم السماء؛

وشعرت باليأس، يأس مزدوج إذا صحّ القول، ناجم من جهة أولى عن وضعي العائلي، ومن الجهة الثانية عن طموحي الأدبي.

ولم يكن فكري يتوصل، بوجه خاص، إلى الإمساك عن قرب بحدود المشكلة التي كانت قائمة مع ذلك والتي كنت أتخبط فيها. ما المسألة بعد كلّ شيء؟ أكتابة رواية؟ أم إعادة النظام إلى أسرتي؟ بالرغم من أنّ كلا الشيئين كانا مختلفين ومتمايزين، فقد كنت أشعر على نحو غامض بأنّهما مرتبطان ارتباطاً لا فكاك فيه وبأنّه يستحيل عليّ حل أحدهما من غير أن أحل الآخر.

يمكنني أن أحدّد هذا الرباط، بصيغة سلبية، على النحو التالي: إنّ وضعي العائلي الدراماتيكي (هذا أقل ما يمكنني أن أصفه به) يمنعني من كتابة الرواية التي بلا دراما والتي كنت قد صممت عليها، ومشروعي في كتابة رواية بلا دراما يمنعني من مواجهة دراما وضعي العائلي إذ يجعلني أدرك لاأصالة كلّ تدخّل في سبيل إيجاد حل ما.

عند هذه النقطة من تفكيري، شدهت بالجانب المضحك فيه بعض الشيء، وخالجني شعور مرهق لو أردت التعبير عنه بالكلام لقلت: «كيف؟ أتعذب نفسك إلى هذا الحد بسبب مسائل أدبية تافهة، ويتملكك الذعر من العدول عن كتابة واحد من تلك الكتب المكتظة بها رفوف المكتبات، فيحين ينبغي عليك أن تهتم فقط بالحالة التي تدهورت إليها أسرتك! إنّ هذه الحالة أهم بما لا يقاس من مسألة رواية، أهم بما لا يقاس من مسألة يوميات ذاتية! إنّها مسألة حياتك! حُلّ إذن هذه المسألة، لا كروائي وإنّما كرجل، كما كان سيحلها أي شخص لو كان مكانك».

شيء غريب: إنّ هذا النداء إلى الحسّ السليم كان له، كما يحدث ذلك غالباً، مفعول مغاير لذاك الذي توقعته. فقد فهمت فجأة أنّه ليس المفروض فيّ البتة أن أجد «كرجل» حلاً لوضعي العائلي،

كما سيفعل «أي شخص لو كان مكاني». فأنا، في الحقيقة، لم أكن لا «رجلاً» ولا «أي شخص كان»، وإنّما أنا الشخص المحدد الذي هو أنا. إذن فعليّ أن أجد حلاً لوضعي العائلي بوصفي بالضبط الروائي الذي كنته والذي لا أستطيع منع نفسي من أن أكونه.

إنّ لفظة «الفساد» هي التي هدتني إلى سواء السبيل. أجل، لقد سقطت أسرتي في الفساد، لكن هذا الفساد ليس حدثاً خارقاً للعادة، غير متوقع، دراماتيكياً، مثل طاعون طيبة في مأساة أوديب، بل هو على العكس واحدة من تلك الوقائع التي تختلط برتابة الحياة اليومية من غير أن يكون لها أهمية أو دلالة أكبر من تلك التي لسائر الأشياء التي تحدث يومياً، وهذا لأنّ تلك الوقائع قد دامت حقبة طويلة من الزمن وأصبحت عادية، ولأنّه ليس لها أي سبب يمكن التحقق منه على نحو موثوق، ولأنّها تفلت بالتالي من الحكم الأخلاقي ومن التنقيب التاريخي على حد سواء.

أمّا أنّ هذا صحيح، فلقد تأكدت من ذلك بتذكري دعوة بابا، ضحية الفساد الأولى، إلى أن أتظاهر بالعطف تجاه كورا. عطوف. . . إذن لم يجر شيء في الحقيقة أو على الأقل لا شيء له أهميته ودلالته. وإنّما سيتابع كلّ شيء مجراه في دفق الحياة اليومية اللامتمايز. ستستمر كورا في ممارسة مهنتها، سأستأنف ترحالي، ستتزوج بابا من سنتورو أو ستذهب للتدريس في مدينة أخرى وستتزوج من شخص آخر شبيه إلى أبعد الحدود بلا ريب بسانتورو.

يقيناً كان في وسعي أن أرفض هذا المفهوم عن الفساد المنظور إليه كظاهرة عادية فارغة من المعنى وأن يكون ردّي عليه عنفاً أخلاقي النزعة. لكن باسم أي أخلاق؟ أباسم تلك الأخلاق الكدرة المرائية التي تنضح بها الرسالة المغفلة؟

ثمّ إنّ الفكرة التي أمست لي، مع مرّ السنين، عن الرواية

باعتبارها طريقة في فهم الواقع، كانت تنبهني من طرف خفي ـ كما لو أنّها صوت ضميري ـ إلى أنّ مفهوم الفساد كظاهرة عادية فارغة من المعنى، كروتين يومين عادم الدلالة، هو في صميم الواقع مفهوم صحيح، على وجه التحديد بنتيجة طابع التحوّل المتواصل، «العضوي»، إذا جاز لي القول، الذي يبدو أنّ اللفظة بالذات تنطوي عليه. الفساد: شيء طبيعي، بيولوجي، وربما ضروري، وعلى كلّ الأحوال محتم ولا يمكن أن يكون له بالتالي أي دلالة أو أهمية.

هكذا عدت، بعد دورة طويلة، إلى نطقة انطلاقي: إنّني سأكتب على كلّ الأحوال يومياتي كما كنت مصمماً في البدء، وسأستخلص منها فيما بعد رواية. وأثناء ذلك سأقف، تجاه وقائع كتلك التي علمت بها البارحة مساء، الموقف الممكن الوحيد، الموقف الذي يتخذه المرء تجاه الوقائع اليومية في الحياة العادية، تلك الوقائع التي تحدث بلا شك لكن من غير أن تكون لها دلالة خاصّة أو على الأقل لا يكون لها من دلالة خاصّة إلّا بقدر ما نضفيها عليها نحن. وبتعبير آخر، موقف تعليق للحكم، وبكلمة واحدة، موقف تأمّل.

مع هذه الأفكار سكن روعي. فقد حللت، مؤقتاً على الأقل، مشكلتي المزدوجة: مواجهة وضعي العائلي وكتابة روايتي في آن واحد. بيد أنّني قلت بيني وبين نفسي مع ذلك إنّ هذا كلّه ليس بالسهولة التي قد نتصوّر. إنّ هذا كلّه يتطلب بالفعل أن أتخذ موقفاً معاكساً للموقف الذي اتخذته في الحياة طوال السنين العشر الماضية. فقد كان هذا الموقف، كما ذكرت، موقف لانتباه. أمّا الآن، وإذا كنت لا أريد المجازفة بفشل جديد، فعليّ أن أتبنّى موقف الانتباه. وقد قل في نفسي إنّه من المستحسن أن أنوّه بالرابطة التي خيّل إليّ أنّني نجحت في اكتشاف وجودها بين الحياة والرواية. فهذه الرابطة ليست بأدبية وجمالية، كما أنّها ليست رابطة تقليد ميكانيكي. إنّها، أنا

أعرف ذلك من الآن فصاعداً، رابطة تعرف ومعرفة. وعلى هذا فقد قرّرت عنونة الرواية التي سأستخلصها في المستقبل من يومياتي بـ «الانتباه».

الأربعاء ١٤ تشرين الأوّل

- متى وصلت؟
- البارحة، بعد الظهر.
- أين ذهبت؟
- إلى إيران.
- إيران؟
- أجل، إيران، أي فارس.
- كم من الزمن ستبقى؟
- كالعادة: شهراً ونصف شهر، شهرين...
- أبحاجة أنت إلى شيء؟ هل وضعت جانباً غسيلك؟
- أجل.
- ألم تشعر بالبرد هذه الليلة؟ ألديك ما فيه الكفاية من الأغطية؟
- شكراً، لديّ ما فيه الكفاية.
- أتعرف، هناك حسابات كثيرة ينبغي تسويتها. وقد وضعت جميع الفواتير في درج الخزانة التي عند المدخل.
- حسناً. سأهتم بذلك.
- أبحاجة أنت إلى شيء آخر؟
- في الوقت الحاضر، لا. بالمناسبة...
- ماذا؟
- لقد فكّرت أثناء رحلتي واتخذت قراراً بتغيير كلّ شيء هنا.
- تغيير كلّ شيء؟
- أجل. فمن الآن وصاعداً، وإذا لم يكن في ذلك إزعاج لك،

سنتناول طعامنا معاً. لقد سئمت من الأكل في المطعم. ثمّ إنّنا سنفعل، أنا وأنت وبابا، أشياء كثيرة أخرى: سنخرج ثلاثتنا مساء لنذهب إلى السينما، وسنذهب للنزهة أيام الآحاد، إلخ... إلخ... أيناسبك هذا؟

- هذا موضوع جديد حقاً! ما بك؟

- لا شيء. لكنّي اكتفيت من الحياة كعازب أو نزيل أو أرمل بينما لي أسرة.

- كنت أفضّل لو تابعنا حياتنا المعتادة. إنّ الأمور تسير على هذا المنوال منذ عشر سنوات، وقد اعتدت على ذلك. ثمّ إنّ العودة إلى الوراء صعبة.

- ليست المسألة مسألة عودة إلى وراء وإنّما تقدّم إلى أمام.

- تقدّم إلى الأمام؟

- أجل، تقدّم إلى الأمام.

- لا أدرك ما تعنيه، لكن لنفعل كما تريد. فبعد كلّ شيء، أنت السيد هنا. لكنّي أحذّرك...

- ممَ؟

- أحذرك بأنّ لي حياتي الخاصّة. أنا حريصة على حريتي. لا أريد رقابة، ثمّ إنّني لا أستطيع أن أعدك بالبقاء معك، إلّا أثناء أوقات الطعام. إنّ لي صديقاتي، فكيف أستطيع أن أقدّمك لهنّ على أنّك زوجي بعد أن قلت وشرحت لهن مراراً أنّنا انفصلنا.

- على رسلك، كما تشائين، لا تهتمي. سوف أتدبّر أمري مع بابا.

- إذن فأنت ستبقى اليوم لتناول طعام الغداء؟

- أجل، سأكون هنا لتناول طعام الغداء.

- عندنا اليوم كبد مشوية. أيناسبك ذلك؟

- تماماً.

ـ على إثر ذلك نظر كلّ منّا إلى الآخر في صمت. ولاحظت، كما لو أنّني أراها لأوّل مرّة منذ عشرة أعوام، إنّها تغيّرت كثيراً. كانت قد نحفت، وكان وجهها الذي رقّ وهزل بل شحب بعض الشيء يُبرز على نحو أوضح ضخامة عينيها الزرقاوين الواسعتين بنظرتهما المفترسة، والمظهر الألماني لأنفها الكبير المستقيم، وتلوّي شفتيها العنيف، وثقل فكيها. وكان وميض أحمر غريب، متوهج وحار، انعكاس من الجائز (لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بذلك) للشبق الذي تثيره وتشجعه يومياً لدى الغير يغزو وجهها من الأسفل، على نحو محموم ووبيل. ورفعت يدها إلى فمها وسعلت عدّة مرّات سعالاً جافاً لا يمكن حبسه. فسألتها:

ـ ألست مريضة؟

ـ كلا، لماذا؟

ـ أرى أنّك تسعلين. ثمّ إنّك نحفت كثيراً.

ـ لا أهمية لذلك. لقد أصبت، هذا الصيف، بنزلة صدرية، ولم أعالج نفسي، فكان أن بقي عندي هذا السعال الخفيف. هذا كلّ شيء.

ـ ما رأي الطبيب؟

ـ في حينه قال إنّها نزلة صدرية.

ـ في حينه... متى ذلك؟

ـ قبل ثلاثة شهور.

ـ وما رأيه الآن؟

ـ لا رأي له الآن. فأنا لم أستشره.

ـ لماذا؟ إذا لم تكن صحتك على ما يرام، فينبغي أن تستشيريه. لقد وُجد الأطباء لذلك.

ـ وران الصمت بيننا من جديد. ثمّ استأنفت:

ـ سآتي، ذات يوم، للقائك في محلك.

ـ لمَ؟

ـ لأحادثك.

ـ تحادثني؟

ـ لا تهلعي. ليس للأمر علاقة بك... إنّما المسألة مسألة رواية أنا في سبيلي إلى كتابتها.

ـ وما دخلي في ذلك أنا؟

ـ أتذكرين أنّني كنت أكتب قبل عشرة أعوام رواية؟

ـ أجل.

ـ لقد عدت إليها. لكنّي بحاجة إلى بعض المعلومات.

ـ معلومات؟ من أي نوع؟

ـ هذه الرواية تروي قصة... قصة حبّنا.

ـ حب رائع!

ـ إنّها ترويه، سواء أكان رائعاً أم لا، أو بالأحرى يفترض فيها إنّها ترويه. ولهذا أنا بحاجة إلى بعض إيضاحات عن علاقاتنا في ذلك العهد.

ـ أواه! إذا كنت لا تريد غير ذلك!

ـ إذن، أأستطيع الاعتماد عليك؟ ذات يوم سنبقى معاً هنيهة من الزمن ونتحادث.

ـ كيف تدعى تلك الرواية؟

ـ «الانتباه».

ـ أنت، أكثر أهل الأرض قلّة انتباه، ستكتب «الانتباه»!

وعلى إثر هذه العبارة الساخرة والودية التي تعبّر عن كلّ انفراجها من عدم اضطرارها إلى الكلام عن وقائع حياتها الخاصّة، انصرفت.

الثلاثاء ٢٠ تشرين الأوّل

نبهت القارئ في مقدمة كتابي إلى أنّني أحتفظ لنفسي بالحق، كلّما رأيت ذلك ضرورياً، في تطوير وتكميل بل حتّى تحوير الأحداث التي أرويها في يومياتي. لكنّني قلت أيضاً إنّني سأشير إلى جميع التفاصل المحوّرة والمختلفة حتّى يكون في وسعي، عندما سأتهيأ لاستخلاص رواية من يومياتي، أن أميزها عن التفاصيل الواقعية.

والحال أنّني لاحظت أنّني استعملت هذا الحق من البداية، لا بوعيي وطوعي كما قد يظن القارئ، وإنّما بطريقة شبه لاشعورية. تلك الطريقة المميزة للراوية الذي يخلط بالرغم منه، محمولاً على أجنحة إلهامه، بين الصحيح والكاذب.

وبالفعل، ليس صحيحاً أنّني وجدت، عندما استيقظت مرتعداً في الليلة التالية لحديثي مع بابا، على طاولة سريري كتاب «أوديب ملكاً» في طبعة شعبية، وأنّني فتحته كيفما اتفق، وأنّ نظري وقع على بعض الأشعار التي بدت لي تتفق ووضعي. هذا غير صحيح. إنّما الصحيح أنّني عندما استيقظت في دجى الليل، عادت ذكرى أوديب الملك إلى ذهني وخيّل إليّ أنّني لمحت في دراما سوفوكل بعض التشابه مع وضعي. وآنذاك فكرت، جرياً على عادة الروائي في الاستفادة من حالته الشخصية حتّى في لحظات البلبلة وثبوط الهمة، بأنّ الإشارة إلى المأساة اليونانية في روايتي سيكون لها وقع حسن. فلمَ لا أفعل ذلك في يومياتي أيضاً استباقاً للرواية؟

لم أتردّد إذن، في صباح اليوم التالي وأنا أسرد حوادث الليل، لم أتردّد أمام لقطة الكتاب الذي وضعته يد خفية أثناء رقادي على طاولة سريري ليكون بمثابة إنذار لي عند يقظتي.

قد يعترض عليَّ معترض بقوله: أي أهمية لذلك؟ ما الفرق في حالة كهذه بين الشيء المتخيل والشيء الذي حدث فعلاً؟ كلا، هناك على العكس فارق كبير وأعتقد أنّ من المفيد أن أفسّره. وسيكون

تفسيري هذا صالحاً في كلّ مرّة أستسلم فيها لإغراء الراوية وأقوم بإرجاء تعديلات أو تغييرات.

إنّ الفرق بين الشيء المتخيل والشيء الذي حدث فعلاً (في ما يتعلق بيومياتي على الأقل) هو الفرق القائم بين واقع الكذب وواقع الحقيقة. فالواقع الأخير، المباشر والفوري، هو الواقعة بالذات أثناء حدوثها. أمّا الأوّل فهو على العكس غير مباشر وغير فوري ولا يكمن في الواقعة كما تظهر وتحدث وإنّما في دلالة الواقعة.

وعلى هذا لو خاطبت ذاتي بدلاً من أن أكتب كما أفعل الآن، لوجهت إلى نفسي على ما أعتقد لاذع القول: «أيّها المرائي، أنت متسامح تجاه الشخص الوحيد الذي لا ينبغي أن تتسامح معه: شخصك بالذات. لقد كتبت مخلقاً أنّك وجدت كتاب أوديب الملك على طاولة السرير لترفع من شأن قصتك، ولتضفي طابع النبل على مغامرتك، ولتحل أخيراً شعورك بالإثم في تشبيه أدبي جذاب. هذا الواقع ليس إذن سوى واقع اختلاقك، لا واقع التشابه بين قصتك وقصة أوديب، وأنت لا تستطيع أن تشعر بأنّك مبرر وأن تترك في يومياتك تلك الإحالة إلى مأساة أوديب إلّا إذا اعترفت بذلك الواقع وسلطت الضوء عليه».

وهذا ما فعلته: سلطت الضوء على واقع اختلاقي. وفي المستقبل، عندما سأشرع باستخلاص رواية من يومياتي، سأتبين أنّ ريائي يستطيع أن يكون ذا فائدة، إمّا بفضحي إياه وإما بتركي القارئ يكتشفه بنفسه. وعلى كلّ، ليس هدفي تصحيح نفسي وإنّما كتابة كتاب.

الجمعة ٢٣ تشرين الأوّل

اليوم عيد ميلاد بابا التي بلغت العشرين. وقد أعلمتني بذلك بنفسها عندما دخلت إلى مكتبي هذا الصباح ووقفت بين الطاولة التي أجلس إليها وبين النافذة:

ـ قل لي أمنياتك.

ـ أمنياتي؟ لماذا؟

ـ لأنّ اليوم عيدي.

ـ عيد ميلادك أو عيدك الشخصي؟

ـ عيد ميلادي. فقد بلغت اليوم العشرين.

كانت تنظر إليّ نظرة شجية مؤثّرة ووقحة معاً، وكأنّها تنتظر شيئاً ما. ولفظت بجهر، وأنا أبتسم:

ـ لك طول العمر!

ـ شكراً.

كانت ما تزال تنظر إليّ غير قانعة. ففهمت، فنهضت وقبلتها بشيء من الحرج على وجنتيها، ثمّ، إذ مدّت لي جبينها، على خصلة الشعر التي تتدلى على عينيها. لكنّها سرعان ما تحرّرت من العناق وكأنّها لم تتوقعه وتتقبله عن طواعية. وقالت بسرعة:

ـ أتعرف، عليك اليوم أن تبذل مجهوداً صغيراً. فقد دعوت سانتورو إلى الغداء، وهو يعرف أنّه عيدي وعليك أن تظهر أنّك أنت أيضاً تعرف ذلك.

ـ أي؟

ـ أن تظهر مرحك، سرورك، عطفك، وبكلمة واحدة أن تحتفل بي بقدر ما في وسعك...

ـ فهمت.

ـ سانتورو...

ـ بالمناسبة...

ـ ماذا؟

ـ لِمَ تدعينه سانتورو وليس باسمه: باولو؟

ـ إنّها عادة. لقد قدم لي سانتورو هديته.

ـ ماذا أعطاك؟
ـ أسطوانات.
ـ إلامَ تلمّحين؟ أإلى أنّه من المستحسن أن أقدّم لك هدية بدوري؟
ـ أجل.
ـ لكن لا أدري ما الذي يمكن أن يحظى بسرورك؟
ـ أواه! أي شيء كان، بشرط...
ـ بشرط أن يكون هدية.
ـ هو ذاك...
ـ كان في مقدورك أن تقولي لي ذلك قبل الآن. فأنا لم أكن أعرف أنّه عيدك. ثمّ إنّ الأوان قد فات الآن و...
ـ لا تشغل بالك بهذا. فقد فكرت بكلّ شيء.
ـ ماذا تعنين؟

توقعت أنّك تجهل أنّ اليوم سيكون عيدي وتوقعت أيضاً أنّه سيكون لديك عمل ولن تستطيع الخروج بقصد شراء هدية لي. ولهذا اشتريت تلك الهدية بدلاً منك. وستسدّد لي ما دفعته، وسأسلمك الهدية، ثمّ تهبني إياها بدورك.

ـ أي نوع من الهدايا هي؟
ـ منديل جميل جدّاً يُعقد على الرأس، هو بالضبط ما كنت أتمنى.
ـ بكم أنا مدين لك؟
ـ عشرة آلاف لير، أهذا كثير؟

سحبت من محفظتي ورقة بعشرة آلاف، وناولتها لبابا التي ناولتني بدورها علبة مستطيلة مغلفة بورق أحمر ومربوطة بشريط أخضر. وسألتها، وأنا أشعر بأنّني كالممثل أمام مخرجه:

ـ ما عليّ أن أفعل الآن؟ هل تريدين أن أقدّم لك هديتك ونحن على المائدة بحضور الآخرين، أم تفضلين أن أقدّمها لك على الفور، هنا؟

ـ على الفور، هذا أفضل.

وبادرت لأعيد إليها العلبة بكلّ بساطة لكنّها حدجتني بنظرة شاخصة، فيها رصانة مطمئنة ومدروسة. ففهمت، ونهضت قائلاً:

لك يا بابا أصدق تمنياتي وأحرّها. وهذا لك.

إنّها هي التي ألقت بذراعيها حول عنقي هذه المرّة، تماماً كما تفعل فتاة قدم لها والدها هدية عيد ميلادها. لكن بينما كانت تعانقني، لا أدري لمَ تجلّى من جديد الالتباسُ الكامن في صميم علاقاتنا: فقد مسّت يد بابا أذني، ثمّ شعري، مساً واهياً واهناً، في مداعبة خفيفة لا يمكن إلّا أن تكون مقصودة، وشدّت جسمها إلى جسمي، والتصقت بي مدفوعة بسطوة آسرة، وانسحق نهداها على صدري ثمّ انسابا جانبياً وطوّقا ذراعي اليسرى وكأنّها تريد أن أعرف على نحو أفضل شكلهما ومتانتهما ومرونتهما، وحامت أنفاس بابا المضطربة النهمة مدّة طويلة على خدّي قبل أن تتحوّل إلى قبلة بنوية طبعت على مسافة متعادلة بين الفم والأذن. وأخيراً افترقنا ونظرت إلى بابا بشيء من الفضول، ولاحظت أنّها حافظت على تعبيرها المعتاد الهادئ والمداهن الذي يبدو وكأنّه يقول: «أنت تحبني، أعرف ذلك، ولعلّني أحبك أنا أيضاً: لكن من المتفق عليه، مهما حدث، أنّنا أب وابنة».

لكن يبدو أنّ بابا أدركت ما أفكر به لأنّها قالت بلهجة طبيعية وعاقلة بينما هي تحل عقدة الشريط وتنزع الورق الذي يغلف العلبة:

ـ لعلك تفكّر بأنّني أفرض عليك نوعاً من الكوميديا. لكن هذا غير صحيح. فليست المسألة مسألة كوميديا، على الأقل بالنسبة إليّ، أقسم لك. لقد تمنيت دوماً أن تكون أباً لي وأنا جد مسرورة الآن لقبولك بذلك!.

وفتحت العلبة، وأخرجت المنديل، وبسطته لتريني رسومه التي تمثّل أدوات تدخين: مشارب، غلايين، علب ثقاب، سيجارات،

سجائر، ولاعات، محفظات سجائر، أكياس تبغ ونفاضات، على خلفية قشدية اللون لها حاشية بلون التبغ. ثمّ تقدّمت لتقف أمام المرآة ووضعت المنديل على رأسها:

ـ أليس جميلاً؟ ألا يلبق لي؟ قل لي إنّه يلبق لي؟

بعد بضع ساعات كنّا مجتمعين حول المادئة، كورا وبابا وسانتورو وأنا. سانتورو فتى متين المظهر، مربوع، له وجه كبير طيب شاحب ومسالم يذكّر بخبز البيت الذي لم يخبز كثيراً، وشعر أسمر كث ينبت حتّى من منتصف جبينه، وعينان صغيرتان بلون الكستناء. متحركتان لكن بلا تعبير، وذقن متينة لها في وسطها نقرة. وكان لهذا الوجه القروي تعبير جاد، مهموم بعض الشيء، لكنّه يعكس في الوقت نفسه ثقة معينة بالنفس وبروداً معيناً. كان مستغرقاً في تأملاته كما أنّه بمفرده، وهو جالس بين كورا وبابا، وعندما لا يأكل كان يلزم الصمت وعيناه شاخصتان إلى السماء، يكوّر بين أصابعه القوية والقصيرة كتلاً صغيرة من لباب الخبز. ومن حين إلى آخر كان يرفع رأسه ويبسم لبابا، وعندها كانت نقرتان جديدتان تنحفران في وجهه، واحدة في كلّ خد، وكان لا يتكلم إلّا عندما يوجّه الكلام إليه، ويجيب آنذاك بتؤدة ودقة مختاراً كلماته بعناية ورابطاً بينها على نحو مدروس. وكان صوته خافتاً أجش.

وكانت كورا، كعادتها، جالسة باستقامة وتخشّب، ملتزمة الصمت المطبق، مثبتة علينا عينيها الزرقاوين الكبيرتين بعدستيهما الواسعتين، وكانت ابتسامة لاشعورية بلا ريب تشدّ زوايا فمها العريض الأحمر.

كانت بابا هي الوحيدة التي تتكلم، وكان من السهل معرفة السبب: فهي التي أرادت وجبة عيد الميلاد هذه، وهي التي وضعت برنامجها، وهي التي تديرها. وكانت هذه الإرادة ترتسم على نحو

ظاهر مرئي في طقوس حفلة الطعام هذه كما ترتسم معالم وجه من الوجوه منقوش على صفحة شافة من الورق.

عمّ تكلمنا؟ تكلمنا، بالطبع، عن كلّ ما يخص سانتورو وبابا وكورا وأنا. وهكذا تكلمنا عن أسفاري ومهنة الصحافي، عن دروس سانتورو الطبية ومشاريعه، للمستقبل، عن كسب بابا لجزء من حياتها عن طريق تحريرها أطروحات الأدب لحساب الطلاب الكسالى أو العاجزين، وعن ورشة خياطة كورا.

أثناء ذلك كانت بابا ترقب مجرى الحديث من غير أن تضطرب ومن غير أن تسترعي انتباه أحد، مطمئنة، مقتصدة في الحركات والكلام، طارحة أسئلة سديدة ومناسبة، مبدلة الموضوع في الوقت الملائم، متدخلة من طرف خفي لتذكي كلام الآخرين من غير أن تقطعه، وبكملة واحدة كان سلوكها سلوك ربّة بيت محنكة واثقة من نفسها. وهكذا، وبعد أن كانت حفلة الغداء قد بدأت في جو من الحرج والضيق والبرود الجليدي يرجع سببه إلى وعينا الشاق على النفس لكلّ ما يختفي وراء مثولنا على المائدة المشتركة، وبعد أن ظهر ديك حبشي محشو أعدّته بابا (التي هي، على ما يبدو، طاهية ماهرة) وحملته على طبق باحترام وجل الخادم العجوز التقليدية في وفائها وتعلقها بأهل البيت، أقول بعد هذا تحرّكت الحفلة وخفت وطأتها وتحرّرت في النهاية وانطلقت، كمنطاد أفلت من قلوسه، في جو عائلي بما فيه الكفاية تماماً كما أرادته المخرجة. وفي إحدى اللحظات خيّل إليّ أنا نفسي أنّني حقاً كما تريدني بابا أن أكون: أباً عطوفاً ورائقاً، زوجاً واثقاً وسعيداً، بل حمواً كلّه لطف وحسن التفات.

لكن في نهاية الطعام أمرت بابا الخادم بجلب زجاجة من الخمر المزبد وأربع كؤوس وألحّت على كورا لكي تفتح الزجاجة بنفسها.

وأخذت كورا بين يديها البيضاوين، الصقيلتين والدنستين، الزجاجة الداكنة اللون، الواسعة القاع، المغلفة بماركة صفراء، المؤطر عنقها بقصدير أحمر، وأمسكت بها عن بعد، والسيجارة في زاوية شفتيها، وعيناها نصف مغمضتين، وشدت إلى الأعلى السدادة الضخمة المربوطة بسلك حديدي مضفور. وضغط إبهامها الأبيض، ذو الظفر البيضوي، المحدب والقرمزي على السدادة، فراحت تخرج بتؤدة من عنق الزجاجة، ثمّ كان الانفجار المعتاد وأطلقت بابا صيحة متظاهرة بالذعر وأخفت وجهها في فوطتها، وأمالت كورا وهي تبتسم الزجاجة فوق الكؤوس فتدفق الخمر مزبداً. وآنذاك، وعلى حين غرة، انهارت المأدبة العائلية المقامة بمناسبة عيد ميلاد بابا (بالنسبة إليّ على الأقل) كما ينهار ديكور من الورق المقوى، ولم أستطع أن أمنع نفسي، وأنا أنظر إلى يد كورا بأصابعها الطويلة البيضاء تشد على زجاج القنينة الداكن وإلى الموج المزبد يتدفق ليملأ الكؤوس، أقول لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بأنّ المني المذكر يتدفق على النحو نفسه في منزل كورا لحظة النشوة الكبرى وبعد طول تهيؤ. وعلى حين غرة تلون المشهد العائلي بلون دنيء وبدا لي مجهود بابا باطلاً بطلان مجهود مخرج يتشبث بإخراج مسرحية هزلية رديئة رداءة لا علاج لها.

وانتفضت إذ رادوتني هذه الفكرة، وانسال الخمر على المائدة، وغمست بابا، التي كانت ما تزال تجهد بالطبع لتفعل الأشياء كما ينبغي أن تفعل وكما يفعلها الناس جميعاً، أقول غمست أصابعها في الخمر وبللت أذني قائلة: «لتكن حياتك فرحة، فرحة، ولتعش في أجود صحة!». ثمّ نهضنا جميعاً معاً، والكؤوس في أيدينا.

ومن حسن الحظ أنّ الأنخاب لم تدر، وإنّما اكتفينا بأن نقرع كؤوسنا بعضها ببعض ونحن نلفظ أسماء بعضنا بعضاً بصوت خافت، فرانشيسكو، بابا، كورا، باولو، وشربنا بوقار وكلّ منّا ينظر إلى

الآخر من فوق سطح الخمر الذي كان ما يزال يفور بالحبب. وكان ذلك أكثر حميمية وصميمية في الواقع من شربنا في صحة بعضنا بعضاً. ولكزتني بابا بمرفقها وأرادت أن نشرب معاً وبمفردنا، وأذرعنا متعانقة، فتحتسي هي من كأسي وأحتسي أنا من كأسها على الطريقة الألمانية. ومع هذه الحركة ولد من جديد التباس علاقاتنا المعتاد، لأنّها ثبّتت مباشرة في عيني نظرتها الحبلى بما لست أدري من تواطؤ. ثمّ عددت بصوت عالٍ الهدايا التي تلقتها: أسطوانات الموسيقى الكلاسيكية من سانتورو، الثوب وقارورة العطر الفرنسي من كورا، منديلي، وهدايا أخرى من زملاء وأصدقاء. وأخرجت المنديل من حقيبتها لتريه للحاضرين، وانتقل المنديل المبسوط من يديها إلى يدي سانتورو الذي تفحّصه بإمعان وقال بقناعة: «جميل، جميل جداً»، ثمّ من يدي سانتورو إلى يدي كورا التي نظرت إليه من غير أن تقول شيئاً ثمّ أعادته إلى ابنتها.

في تلك اللحظة رنوت من خلال النافذة التي بين سانتورو وكورا ورأيت من بعيد طائرة صغيرة ترتقي سلم السماء بسرعة صاعقة. ثمّ رأيتها من خلال غيمة فاتحة شفافة: بقعة صغيرة داكنة تتحرّك بسرعة خاطفة لتختفي في النهاية شاقة طريقها بين سحابتين سوداوين، عاليتين وكثيفتين كبرجين. وآنذاك لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير، بحسرة حسود، بعدو الطائرة وهي تقل، في تلك اللحظة بالضبط، المسافرين الجالسين على صفين، برؤوسهم الملتفتة نحو الكوى الصغيرة، والمضيفة الواقفة التي تقدم باسمة المعجنات على طبق، والإطار المضيء فوق الباب المفضي إلى حجرة القبطان، والذي تعرض عليه بأحرف من نور التوصيات بعدم التدخين وبشد الأحزمة. وقلت في نفسي إنّني أستطيع، إذا شئت، أن أحتل مكاني في وقت قريب جدّاً في طائرة كهذه تقلّني بعيداً عن كورا وبابا وروما. فالمسألة لا تتعلق

بأحد سواي ويمكنني أن أنفذها غداً. لكنّي في الوقت نفسه، في تلك اللحظة بالضبط، لمحت بابا ترنو إليّ وتبتسم لي ابتسامة شجية تحت ظاهر تعبيرها المتناوم المعتاد. وآنذاك خجلت من فكرتي وفهمت في الوقت نفسه مدى قوّة العاطفة المبهمة والمعقدة التي تشدّني إليها، أو التي تتوصّل بابا دوماً بالأحرى إلى أن توحي بها إليّ في كلّ لحظة وكلّ ظرف، من غير أن تفشل ولا مرّة واحدة، بمجرد كونها موجودة.

الأحد ٢٥ تشرين الأوّل

اليوم أعدت قراءة كلّ مسريحة «أوديب ملكاً» التي تخيّلت، في تلك الليلة لوصولي من إيران، أنّني وجدتها على طاولة سريري. وأكثر من شدهني هو عناد أوديب المستميت في التوصل إلى معرفة الحقيقة بعد سنوات عديدة من اللامبالاة والسهو والنسيان. صحيح أنّ هذا العناد المستميت مرتبط مباشرة بجواب أبولون الذي عزا الطاعون الذي يعيث فساداً في طيبة إلى أنّ جريمة اغتيال ملك طيبة، لايوس، ظلّت بلا عقاب. لكن هذا لا يمنعنا، إذا ما فكرنا بالسنوات الكثيرة التي قضاها أوديب في طيبة بين مواطنيه الذين عرفوا لايوس وأحبّوه، وبجانب امرأة كانت قرينة لايوس، مع وعيه الذي لم يغادره بأنّه لطخ نفسه هو الآخر بجريمة في ظروف غامضة، أقول هذا لا يمنعنا من أن نجد أنفسنا مضطرين إلى التفكير بأنّ أوديب لم يجهل، طوال تلك السنين العديدة، أنّ المرأة التي تزوجها هي أمّه بقدر ما أنّه أصرّ على رفض معرفة هذه الحقيقة. يقيناً، إنّ الأساطير غير مطالبة بأن تكون مشاكلة للواقع. لكن يمكننا الافتراض بأنّ عدم مشاكلة الأساطير للواقع له في حد ذاته دلالته المشاكلة للواقع. والحال ما الدلالة، ما المعنى الذي يمكن أن يكون لتلك المغامرة التي لا تصدق، مغامرة رجل قتل أباه وتزوج، عن غير علم، من أرملة ضحيته، ومع ذلك لم يحدثها قط، طوال حياتهما المشتركة المديدة والمحتمة، عن الجريمة

التي حرمتها من شريكها، وما كان يتعرّف، عندما يسمع هذه المرأة تتكلم عن تلك الجريمة، التفاصيل الخاصّة المميزة لجريمته هو؟ هل لهذا من دلالة سوى أن أوديب وضع غشاوة في عينيه وجعل في أذنيه وقراً بصدد كلّ ما يتعلق بقتله أباه؟ وأنّه يبذل قصارى جهده، لاشعورياً، حتّى لا يتبين التشابه الوثيق بين الجريمة التي يعرف أنّه اقترفها، وبين تلك الجريمة التي قضى فيها سلفه؟

في الحقيقة، لقد بذل أوديب كلّ ما في طاقته، طوال السنوات التي انصرمت منذ وصوله إلى طيبة إلى اندلاع الطاعون، لكي يكون لامتنبهاً تجاه ذاته، تجاه جوكاست، تجاه طيبة، وبكلمة واحدة تجاه الواقع. لقد أراد أن يتجاهل ما هو ماثل أمام ناظريه، وتوصل إلى تجاهله، ولو بثمن لاوقعية تامّة. وبالفعل، أين الواقع في حياة رجل هو ابن زوجته، وأخو أبنائه وأبو أخوته وأخواته، وزوج أمه؟ إنّ لاواقعية حياة كهذه لا تطاق إلّا بفضل خدر اللاانتباه التام لكن ههنا يكمن السؤال الأوّل والأخير: لمَ كان أوديب غير منتبه؟ إنّ المرء ليجد نفسه مكرهاً بالضرورة على الإجابة بأنّ أوديب غير منتبه لأنّ اللاانتباه يناسبه. وعلينا أن ننسب هذا العمى القسري من جهة أولى إلى حبّه جوكاست، ذلك الحب السفاح الذي يستمدّ قوّته وتأجّجه من شذوذه (كما يحدث دوماً تجاه كلّ ما هو محرم)، ومن الجهة الثانية إلى رغبته في القوّة، لأنّه لا ينبغي أن ننسى أنّ أوديب إنّما أصبح ملكاً بفضل قتله أباه وبفضل السفاح. لكن ينبغي أن ننسبه بوجه خاص إلى خوف بني الإنسان من معرفة الحقيقة.

بيد أنّ أوديب كان يجهل مع ذلك أنّه يغلق عينيه بإرادته، وإلّا ما كانت مأساته لتكون غير مأساة الطموح والحب. كان يجهل ذلك، ولهذا كانت مأساته على العكس مأساة الجهل الإرادي، المكتفي بنفسه، المتخوف والجاحد، أي مأساة اللاانتباه. لكن أوديب إنسان

قادر على الانتباه، وبالفعل انهار لانتباهه عند أوّل يقظة لوجدانه. وأبولون الذي أرغمه، عن طريق عرّافه، على الانتقال من اللاانتباه إلى الانتباه، أبولون الذي تقمّص شخصية أخرى وظهر في ملامح تيريسياس، أبولون هذا يمثّل، إذا ما أعملنا الفكر، ضمير أوديب بالذات، ذلك الضمير الذي لم يستسلم ويخنع قط تمام الاستسلام والخنوع. لقد استسلم أوديب لأفراح زواج سفاح، ولأفراح سلطة مغتصبة، لكن الإله كان دوماً هنا كلّي الحضور، كلّي الرؤية. وعندما آن الأوان سدّد بنفسه إلى أوديب الضربة التي أيقظته من سباته الطويل. ترى هل عاقب أبولون أوديب على قتله أباه ومضاجعته أمّه؟ أم أنّه عاقبه على استسلامه للانتباه، أصل الشرور كافة؟ لقد عاقب أبولون أوديب على استسلامه للانتباه. وطالما أنّ عقاب أوديب لم يكن العقاب المعدّ لقتله آبائهم ولمقترفي الحب السفاح، وإنّما كان العقاب الواجب إنزاله بكلّ من يرفض أن يرى، لذا فقد أضحى أوديب أعمى. لكن المفارقة تكمن في أنّ أوديب أمسى أعمى أصبحت بصيراً شأن تيريسياس الذي ليس بصيراً إلّا لأنّه أعمى.

فماذا رأى أوديب، والحالة هذه، عندما فتح عينيه بعد أن فقأهما، أي عندما انتقل من اللاانتباه إلى الانتباه؟ لقد رأى بالتأكيد أنّه زوج أمّه وقاتل أبيه، لكنّه رأى بوجه خاص ذاته، أي رأى لِمَ وكيف حلّ اللاانتباه في روحه محل الانتباه. وبكلمة واحدة، رأى أنّ جريمته لا تكمن في استعباد أهوائه له بقدر ما تكمن في تشبّثه بوهم عدم الشعور بها واعتماده على هذا الوهم ليطلق العنان لهذه الأهواء.

إنّني أدرك أنّني، بتأويلي مأساة أوديب بهذه الصورة، قد أرجعت المأساة إلى مستوى التحليل البسيكولوجي والاحتيال. ولا ريب في أنّ هذا التأويل، البعيد عن التفسير الذي اعتمدته مدرسة التحليل النفسي بعده عن حقيقة أوديب بقدر ما كنت أبحث عن التفسير التقليدي

التراثي، يمكن أن يبدو تعسفياً. لكنّي لم أكن أبحث عن حقيقتي الخاصّة، لذا كان من العدل أن أستخدم المأساة لكي أفهم على نحو أفضل الوضع الذي وجدت نفسي فيه.

إنّ الاستنطاق الذي توصّل أوديب عن طريقه، في المأساة، إلى أن يعرف شيئاً فشيئاً الحقيقة، قد ذكرني في النهاية أنّني قطعت على نفسي عهداً بإخضاع كورا لاستنطاق مماثل.

كانت الرسالة المغفلة قد هتكت الستر عن فساد أسرتي، وكانت محادثتي مع بابا قد ولدت في نفسي الشك بأنّني ربّما كنت المذنب والمسؤول الوحيد عن هذا الفساد، لكن لم تتعدَّ المسألة حدود الشك. وبالفعل، وعلى فرض أنّني المسؤول المباشر عن مهنة كورا لأنّني بعدولي عن حبّها وانفصالي عنها قد دمّرت لديها كلّ فكرة عن النظام العائلي ودفعت بها دفعاً على طريق دعوتها السرية، أقول حتّى لو قبلت بهذا الفرض، يبقى عليَّ مع ذلك أن أكشف حجب الغيب عن المسألة الأهم التي ما تزال غامضة بالنسبة إليَّ: لمَ توقفتْ عن حب كورا أو بالأحرى كيف بدأت بحبها؟ إنّ استجواب كورا هو الوسيلة الوحيدة لكي أعرف الحقيقة بدقة، أو على الأقل لكي أواجه حقيقتي بحقيقتها.

الثلاثاء ٢٧ تشرين الأوّل

خرجت هذا المساء قاصداً شارع كلوديا حيث ورشة الخياطة. أنا لم أذهب قط إلى هذا الشارع، لأنّ كورا كانت تقيم، طوال السنوات التي اهتممت بها فيها، في حي آخر. صففت السيّارة بمواجهة المنزل، وبينما كنت أنتظر النور الأخضر لأعبر عرض الشارع، نظرت. كان الوقت ليلاً، ولم يكن يشاهد من المنزل سوى الطابق الأرضي والطابق الذي فوقه وكانا منارين بأضواء المخازن والفوانيس، أمّا الطوابق العالية فكانت غارقة في ليل دامس على

خلفية من جبل «ماريو» الحالكة السواد. كانت بناية من الطراز الكثير الشيوع، لها واجهة صفراء وشرفات تلفّ حولها بمستوى الطوابق. وكان الطابق الأرضي مؤلفاً من بار ومخازن، وكانت أشجار الدلب تمدّ أغصانها حتّى الطابق الرابع. وتقدّمت إلى مدخل البناية، كانت فيه لافتة شبيهة بلافتة البوابة لكن أصغر حجماً تشير إلى باب كورا. وكان الباب مفتوحاً ويطل على باب آخر من الزجاج الكتيم يضيئه من الخلف نور أبيض ساطع. فدفعته وتعالى رنين جرس. وفي آخر الممشى لمحت على نحو مبهم مجموعة من النساء أمام طاولة كبيرة من تلك الطاولات التي تبسط عليها الخياطات الأقمشة لتفصيلها. والتفتت إحدى النساء إذ سمعت رنين الجرس وهتفت بي كورا من بعيد:

- اذهب وانتظرني في الصالون الصغير، الباب الأوّل إلى اليسار.

صالون القياس: ديوان وأريكتان، ومانيكان خشبي بلا رأس ولا ذراعين ولا ساقين منصوب على وتد، ومرآة خياطة بثلاثة مصابيح. السجادة رمادية والأريكتان حمراوان. جلست، وتناولت مجلة، وتصفحتها. ثمّ رميت بها على الطاولة، ونظرت حولي، وأخيراً نهضت وقد تملكني اضطراب مفاجئ واتجهت نحو الممشى.

في الورشة، من وراء الباب المنفرج، سمعت نقاشاً حادّاً. فجازفت وفتحت باباً أوّل: الحمام، وثانياً: المطبخ، وثالثاً: غرفة النوم. وأدرت هذه المرّة مفتاح الضوء: كانت هذه الغرفة مغفلة، ليس لها أي طابع شخصي خاص مثلها مثل صالون القياس: سرير عريض لشخصين لا يترك غير مسافة ضيقة للغاية للمرور من حوله، وطاولتان ملصقتان بالسرير، وخزانة، والكلّ من الخشب الفاتح اللون مع ستائر وسجادة فاتحة اللون أيضاً. وقلت في نفسي إنّ هذه الورشة واضحة الدلالة بالنسبة إليّ، على وجه التحديد لأنّني أعرف مهنة كورا. ولولا

ذلك لما انتبهت إلى طابع هذه الغرفة كما لا أنتبه عادة إلى أماكن أخرى مشابهة، لا شخصية هي أيضاً. لكن ماذا أرى في الواقع؟ إنّني أرى شيئاً ما يكشف لي، من خلال رماديته كشيء سبقت لي رؤيته، عن طابع مهنة كورا الثانية والفساد الذي وراء ازدهار هذه المهنة، وطابع رتيب، يومي، خلو من المعنى.

وارتعدت إذ سمعت صوت كورا:

- أتتأمل الشقة؟ إنّني لم أستأجرها إلّا منذ عام واحد. وقد تركتها كما هي، بما في ذلك غرفة النوم.
- ما حاجتك إليها؟
- عندما يكون لديّ عمل كثير، أستريح فيها أحياناً بعد الغداء.
- إذن، هل انتهيت؟ أنستطيع الانصراف؟
- لأي غرض؟
- ألا تذكرين: المعلومات...
- آه! لكنّنا نستطيع التحادث هنا.
- هنا؟ لا. هيا بنا!

وتبعتني من غير أن تنبس ببنت شفة. وفي المصعد نظر كلّ منّا إلى الآخر بالرغم من ضيقه الذي أرغمنا على الالتصاق. ولم تسألني «إلى أين نحن ذاهبان؟» إلّا بعد أن ركبنا السيّارة.

خطرت لي فكرة: سنتوقف في شارع كاسيا حيث منزل مواعيد كورا. إنّني لم أذهب إليه قط لكنّني أعرف عنوانه الذي حصلت عليه من بابا سوف أصفّ أمام البوابة، حتّى تفهم كورا أنّني على علم بمهنتها، لكن من غير أن أقول لها ذلك بصريح العبارة. وأجبت:

- لا أدري. في خلدي أن نتوقف في مكان ما من شارع كاسيا.

ولم تفه كورا بأي تعليق. ووصلنا إلى ساحة بونت ميلفيو، وشرعت بارتقاء شارع كاسيا. كانت كورا تجلس بلا حراك، مستقيمة

الجذع، ويداها مضمومتان على حقيبتها التي وضعتها على ركبتيها. وجرت بنا السيّارة في صمت فترة من الزمن. وتباعدت المسافات بين الدور التي أصبحت أندر فأندر، ثم بدأ الريف بين منحدرين معشوشبين مسيجين بأشجار البيلسان. كنت أعلم أنّ المدينة ستعاود الظهور بعد هذا الخلاء الريفي. لكني لمحت فجأة بوابة سوداء صغيرة بين ركيزتين من الآجر الأحمر، تخترق بمفردها سياج البيلسان، وشاهدت على إحدى هاتين الركيزتين الرقم الذي كنت أبحث عنه. وكانت الطريق رحبة واسعة أمام البوابة بالضبط كما لو بتدبير من العناية الإلهية. ودرت بالسيّارة وصففتها بجانب البوابة باتجاه روما.

أوقفت المحرك، وسحبت الفرمل اليدوي، وأنا أتأمل البوابة من الأسفل إلى الأعلى. ولم أتبين شيئاً لأنّ الظلام كان حالكاً، لكنّي حزرت، عبر القضبان، البياض غير الموثوق لحصباء ممرّ صاعد. لا ريب في أنّ الدار، وهي فيلا صغيرة على الأرجح، تنتصب على علوة. وما كان من الممكن، ولا سيّما ليلاً، مشاهدتها من الطريق.

وسعلت كورا عدّة مرّات، ثمّ فتحت حقيبتها ونقبت فيها وأخرجت منها علبة معدنية صغيرة صفراء تناولت منها قرصاً طبياً دسّته في فمها. وفيما كانت تنفذ هذه الحركات، كانت مصابيح السيّارات التي تمرّ في شارع كاسيا في كلا الاتجاهين تضيء تارة وجهها وطوراً ظهرها بشدّة قاسية سريعة الزوال. وأشعلت سيجارة، وعندما رفعت ولاعة السيّارة لمست المفاتيح التي اصطدمت بلوحة السيّارة فأحدثت رنيناً معدنياً ضعيفاً. وقالت كورا:

ـ حسناً! تكلم، ماذا تريد أن تقول لي؟

فقلت بسرعة:

ـ آه! أجل، كنت أريد أن أسألك بعض الإيضاحات من أجل الرواية التي أنا في سبيلي إلى كتابتها.

ـ هذا صحيح، الرواية..
ـ هذه الرواية بدأتها منذ عشر سنوات بالضبط، ثمّ أهملتها. واليوم أريد أن أستأنفها. لكنّي بحاجة إلى أن توضّحي لي بعض النقاط...
ـ طيب. اسأل وسأجيبك.

هذه الرواية تروي قصتنا، أي قصة علاقاتنا منذ اليوم الذي التقينا فيه إلى يوم زواجنا. وبودّي لو أعرف...

وأمسكتُ عن الكلام لحظة من الزمن، محرجاً. في الواقع، ما كان بودّي أن أعرف! لقد كان الأجدر بي أن أستجوب كورا عن الأشياء التي تحدث حالياً. لكن لا مندوحة لي، بعد أن قرّرت الامتناع عن هذا الاستجواب، من أن أكتفي باستجوابها عن الأشياء التي حدثت وانصرمت. وعلى كل، ومهما تكن هذه الطريقة ملتوية وغير مباشرة، فهي وسيلة للوصول إلى الحقيقة:

ـ أريد أن أعرف لمَ أولعت بك وتزوجتك، في رأيك.

فأدارت رأسها قليلاً ونظرت إليّ من طرف عينها، ربّما بشيء من السخرية:

ـ أهذا هو الموضوع! لأنّك أحببتني!
ـ أحببتك... لكن لماذا؟
ـ لمَ يحب الرجل المرأة؟ إنّه يحبّها هكذا، من غير أن يدري السبب.
ـ لنقل ذلك بصيغة أخرى: إذا كنت قد أحببتك، فلمَ ساء مآل الأمور؟
ـ وكيف ساء مآل الأمور؟
ـ لقد فقدت اهتمامي بك وببابا. ورحت أسافر. وأصبحت غريباً في بيتي.
ـ إنّني أجهل السبب. وإذا كان هناك سبب، فأنت المفروض فيه أن يعرفه.

ـ وإذا كنت لا أعرفه...

ـ كيف، أتفعل الأشياء ولا تدري لِمَ تفعلها؟

ـ هكذا حالنا جميعاً. أليس كذلك؟

ـ الله أعلم! أمّا أنا فلي فكرتي...

ـ وما هي؟

ـ ما يهمك أن تعرفها؟

ـ قلت لك، منذ لحظة، إنّني بحاجة إلى بعض المعلومات لكتابة روايتي...

ـ آه! هذا صحيح، روايتك...

ـ ألا تؤمنين بها، روايتي؟

ـ إنّني أؤمن بها من غير أن أؤمن بها.

ـ لِمَ تؤمنين بها من غير أن تؤمني بها؟

ـ لأنّك تستخدم هذه الرواية كذريعة لتفعل أو لا تفعل بعض الأشياء. وهذا ما كان شأنك قبل عشرة أعوام أيضاً: فعندما لم تكن بعد راغباً في مضاجعتي، تذرّعت بأنّك بحاجة إلى توفير قواك لتتمكن من كتابة روايتك. وهذا لم يكن صحيحاً قط، لأنّك لم تكتب الرواية، وإنّما رحت على العكس تضاجع، وبأي كمية! لكن ليس معي، هذا كلّ شيء!

ـ ما يدريك؟

ـ أدري.

ـ لا أرى ما دخل ذلك فيما يشغل بالي الآن. قولي لي بالأحرى ما هي فكرتك تلك.

فنظرت إليّ ملياً بطيبة ملتبسة، تماماً كما تنظر القوادات عندما يجدن أنفسهن بمواجهة زبون من الزبائن، تكهناً منهن بالمرأة التي تناسبه:

- لقد أحببتني، أحببتني حقاً، لا مجال للشك في ذلك قطعاً.
- ثم ماذا؟
- انتظر... لقد أحببتني وبرهنت لي عن حبّك. ثمّة أشياء لا يمكن التظاهر بها.
- بالفعل: فقد تزوجتك.
- كلا، ليس هذا ما أردت قوله. فالرجال جميعاً على استعداد دوماً للزواج. إنّني أتكلم عن طريقتك في فعل الحب إلى أن تزوجنا.
- كيف كنت أفعله؟
- كما يفعل الرجل الذي يحب، بالضبط.
- كالرجل الذي يحب؟
- أجل.
- وكيف يفعل الحب الرجل الذي يحب؟
- كما كنت تفعل أنت. لقد نسيت هذا أيضاً...
- لا بدّ أنّني فعلته كما يفعله كلّ إنسان يحب، أليس كذلك؟
- نعم ولا.
- لا أفهمك. لكن كيف انتهى إذن ذلك الحب الكبير إلى غير رجعة؟
- لأنّك كنت بحاجة إلى شيء معين، ولقد جاءت لحظة لم أعد فيها أقدمه لك.
- أي شيء كنتُ بحاجة إليه؟
- كنت بحاجة إلى امرأة من نوع معين. وعندما التقيت بي، كنت بالضبط المرأة التي تحتاجها. لكنّني لم أعد كذلك فيما بعد.
- آه! أجل، هذا ممكن، ربّما... كنت أبحث... كنت أبحث عن شيء أسمّيه يومذاك بالأصالة، ولقد خيّل إليّ أنّني وجدتها فيك.
- الأصالة؟
- أجل.

ـ ما معنى الأصالة؟
ـ بالمعنى الذي أقصده أنا، الأصالة تعني النقاء.
ـ النقاء؟
ـ أجل، أي ما هو حقيقي، طبيعي، غير مزيف، غير مقلد.
ـ حسناً! قل لي شيئاً يكون أصيلاً أعطني مثالاً.
ـ الخمر المصنوع من العنب أصيل، لكن الخمر المصنوع من مساحيق كيماوية ليس بأصيل.
ـ وأنا، ما دخلي بهذا؟
ـ تصوّري أنّه كانت لي آنذاك أفكار معينة، عواطف معينة. ولما كنت متشبعاً بهذه الأفكار وهذه العواطف، فقد أقنعت نفسي بأنّ المستودع الوحيد لكلّ ما هو أصيل هو الشعب. وكنت أنت فتاة من الشعب، وعلى هذا...
ـ وعلى هذا وقعت في غرامي وتزوجتني.
ـ هو ذاك.
ـ لكن ما دمت تعرف، والحالة هذه، ما حدث بيننا، فلمَ تريد أن تسمع قصة ذلك منّي؟
ـ لأنّه من الممكن أن أكون مخطئاً.
ـ بالفعل، أنت مخطئ.
ـ مخطئ؟
ـ أجل.
ـ لماذا؟
ـ لقد سبق وقلت لك: إنّ لي أفكاري وهي تختلف عن أفكارك.
ـ قلي لي ما هي أفكارك.
ـ أوّلاً ليس الشعب، كما تقول، أكثر أصالة من سائر الطبقات. إنّ الشعب شبيه بالطبقات الرفيعة، مع فارق واحد وهو أنّ هذه الأخيرة تملك مالاً، أمّا هو فلا.

ـ لكن هذا الفارق على وجه التحديد هو الذي يجعل الشعب أصيلاً.

ـ أتعتقد ذلك؟ أم أنّك تطلق صفة الأصالة على كلّ ما يعجبك و. . .
كيف قلت. . . ما هو نقيض الأصيل؟

ـ المزيف.

ـ وتطلق اسم مزيف على ما لا يعجبك.

ـ لنفترض أنّ هذا صحيح. فماذا بعد؟

ـ هذا يعني في ما يخصني أنا أنّ ما تسمّيه أصيلاً هو أنّني كنت فقيرة وكذلك عاهرة بعض الشيء.

ونظر كلّ منّا إلى الآخر، أو بالأحرى نظرت إليها. وراقبت هي من جهتها، من غير أن تبدل جلستها الجانبية، راقبت من طرف عينها أثر كلماتها على تعبير وجهي. وما كان من سبيل لنفي هذا الأثر: فقد راودني شعور محرج بعدم التطابق البصري: كما عندما ينظر المرء إلى شيء مألوف لديه من زاوية بصرية جديدة. وقلت معترضاً:

ـ يقيناً، لقد كنت فقيرة لكن. . . لا عاهرة.

ـ أنت تنسى أين وكيف تعارفنا.

ـ لقد التقينا في بار الحي، إنّي لأذكر ذلك على الأقل.

ـ أجل. وإلى أين ذهبنا من ثمّ؟

ـ عند صديقتك. . . كيف كانت تدعى؟ أرمينيا.

ـ أواه!. . . صديقة. . .

ـ كيف، أما كنتما صديقتين؟

ـ كنّا، لكن على كلّ، ليس إلى هذا الحد.

ـ ماذا تعنين؟

ـ أرمينيا لم تكن تفعل شيئاً مقابل لا شيء، وإذا كانت تعيرني غرفتها وتقدّم لي رجالاً، فلأنّها كانت تجد في ذلك فائدتها.

ـ آه! فهمت. . . لكنّني كنت أجهل ذلك.

ـ لم تكن تعلم ذلك، في المرّة الأولى. لكنّني أفهمتك فيما بعد. . . أنسيت ذلك أيضاً؟

ـ كلا، لكنّك قلت لي إنّك فعلت ذلك قبل أن تعرفيني ببضع سنوات لأنّك كنت عاطلة عن العمل ثمّ ما عدت تفعلينه. ولم أعلق على الأمر إلّا قليل الأهمية، وأخيراً لم أعد أفكر فيه البتة.

ـ وعلى العكس، تابعت أنا حتّى بعد أن تعرّفت إليك وإلى أن أقمنا معاً. وعلى كلّ، ليس صحيحاً أنّك لم تعلق على الأمر من أهمية.

ـ لماذا؟

ـ لأنّك طلبت منّي، لست أدري كم مرّة، أن أروي لك كيف بدأت تلك الحياة، ولماذا ومتى ومع من كنت. تحاصرني بأسئلتك. كنت تفكّر بذلك، وكيف؟ أتعرف ما كنت تقوله لي ونحن نفعل الحب؟

ـ ماذا كنت أقول لك؟

استدارت نحوي بكاملها وحدجتني هنيهة من الزمن بعينيها الزرقاوين الكبيرتين، اللامشفقتين واللاإنسانيتين. ثمّ قالت ببطء كما لو أنّها تتلذذ بذلك:

ـ كنت تقول لي إنّني قحبتك، عاهرتك الصغيرة، فاجرتك، مومستك. وفي الحقيقة ما كنت لأخبرك بذلك، لأنّه لم يكن بالأصل صحيحاً مئة بالمئة. إنّني لم أفعل ذلك الشيء إلّا فيما ندر وإلّا عندما كانت تسدّ عليّ الحاجة كلّ طريق آخر. لكن لما كان يبدو عليك أنّك تصرّ على ذلك، فقد كنت أطيعك.

وأمسكت عن الكلام لحظة ثمّ أضافت بلهجة متسامحة:

ـ افهمني جيّداً، ليس في ذلك شر. . . فهذه أشياء تقال في الحب. أمّا عندما تقال ببرود، وفي غير وقتها، فقد تبدو غريبة. . . لكن لا تأتِ لتحدّثني عن الأصالة.

وفكّرت لحظة قبل أن أجيب. نعم، ربّما كان ذلك صحيحاً، ربّما

قلت هذه الأشياء، لكن ليس أكثر من مرّة أو مرّتين. وكما تعترف كورا بذلك هي نفسها، فقد يحدث أن تقال مثل تلك الأشياء أثناء الحب. وإنّه لأمر له دلالته على كلّ حال ألا تكون قد تذكرت غير هذه الكلمات من أصل كلمات أخرى كثيرة لا يحصى لها عدّ. وأخيراً قلت معترفاً:

- كنت قد نسيت أنّني قلت لك هذه الأشياء.
- لمَ نسيت ذلك؟
- وأنت، لمَ لمْ تنسيها؟
- لأنّ اللهجة التي كنت تقولها بها كانت تلذ لي.
- ما كانت تلك اللهجة؟
- مهووسة.
- مهووسة؟
- أجل، لكن أتعرف؟
- ماذا؟
- أتعرف ما كنت تقوله لي عندما كنت أعتذر لك عن ملابسي الداخلية الرخيصة والمرقعة؟
- كلا، لا أعرف.
- كنت تقولي لي: لا تغيّريها، لا ترتدي غيرها عندما تأتين معي. سروالك المثقوب، قميصك المرفوء، نصيفك القطني، جواربك المفتوقة، أشدّ جذباً لي من البياضات الحريرية التي ترتديها النساء اللاتي كانت لي علاقة بهن حتّى الآن. كنت تتهجم على نساء طبقتك، وتكنّ لهن كراهية مميتة. حتّى إنّني سألتك ذات يوم عمّا إذا لم تكن شيوعياً.
- وبمَ أجبتك؟
- بأنّك مسجّل في الحزب.

فهتفت باحتداد:

ـ هذا مستحيل!

ـ كلام إنجيل... وأين الاستحالة في ذلك طالما أنّك كنت مسجلاً فعلاً؟

وتملكني الاضطراب. فأنا لم أنتم قط إلى الحزب الشيوعي. وإذا كنت مستعداً للقبول بأنّه أمكنني، أثناء الحب، أن أتفوه بحق كورا بالكلمات المهينة التي ذكرتها لي، إلّا أنّني خجلت من كذبي في موضوع بعيد كلّ البُعد عن الحب كموضوع الانتماء إلى حزب سياسي. وحاولت أن أدافع عن نفسي:

ـ كلا، إنّما أردت أن أقول إنّه يبدو لي من المستغرب أن أكون قد تباهيت أمامك بكوني شيوعياً. إنّني لا أرى السبب...

ـ أنت لم تتباه: إنّما قلت فقط إنّك شيوعي. ثمّ أتدري ما كنت تفعل أيضاً؟

ـ قولي...

ـ كنت أحياناً تأخذ سروالي الممزّق وحتّى غير النظيف وتنهال عليه بالقبال بهوس.

ـ بهوس؟

ـ أجل، بهوس حقيقي.

ـ هأنتذي تريدين أن تجعلي منّي صنمياً.

ـ صنمياً؟ ما معنى هذه اللفظة؟

ـ هو الرجل الذي يتهيّج جنسياً بالأشياء.

فقالت كورا ببطء وبعد تفكير:

ـ لا، لا، لم تكن صنمياً، إنّما كنت تحبني حقاً. لكن كلّ ما كان عائداً لي كان يهيجك، وليس سروالي وحده.

ـ مثلاً؟

ـ أتذكر يوم أردت الذهاب معي إلى حي غوردياني؟
ـ أجل، بشكل مبهم.
ـ بشكل مبهم! لكنّنا ذهبنا إلى هناك أربع مرّات على الأقل. كنت أنا قد ترعرعت في ذلك الحي الواقع في الضاحية، لكنّني كنت آنذاك قد انتقلت منه منذ عدّة سنوات. ومع ذلك أردت أن آخذك إليه. وعندما ذهبنا إليه، أصررت على عدم مغادرته.
ـ كيف؟
ـ كنت تريد أن تعرف كلّ شيء: أين منزلنا الصغير، كيف هو من الداخل، من هم جيراننا، من هم الناس الذين يتردّدون على هذا الحي، وبكلمة واحدة كلّ ما يمكن أن يقال عنه. وقد أبديت رغبتك في أن أدخل معك إلى البار، وأنا أتكلم أمامك مع الساقي، وأن أقدمك على أنّك خطيبي.
ـ حسناً! وأين الشر في ذلك؟

ليس في ذلك من شر. بل على العكس. ثمّ أردت أن أريك المغسل حيث كنت أذهب لغسل الغسيل عندما كنت فتاة صغيرة، والينبوع الذي كنت أغرف الماء منه، وكشك التبغ الذي كنت أشتري منه سيجارات والدي، بل حتّى المراحيض العامّة المبنية لأمثالنا من الناس الذين ليس في دورهم بيوت خلاء. و... أتذكر؟
ـ ماذا؟
ـ أردت أن تفعل الحب في واحدة من الدور الصغيرة في الضاحية. ولا أدري كم احتجت من الوقت لأقنع فتاة تدعى ايلدا، كانت لا تتوانى عن المتاجرة بجسدها، لتعيرني غرفتها. وقد قلت لها إنّنا لا ندري أين نقضي حاجتنا. أتدري ما قلته لي في ذلك اليوم بينما كنّا نفعل الحب؟
ـ يا لذاكرتك!
ـ إنّ الإنسان يتذكّر الأشياء الجميلة، أليس كذلك، قلت لي وأنت

تنهال عليّ تقبيلاً: «أحب أن تكوني قد ولدت وعشت في هذه الضاحية، أحب أن تكون أمّك غسالة وأبوك بستانياً، أحب أن تتكلمي الرومانسكو[1]، أن تتفوهي بكلمات كبيرة، أن تكوني جاهلة، أن تكون لك ابنة أنجبتها من أب مجهول. ولو كنت أعلم أنّك سارقة، لما زدت إلّا إعجاباً بك». وللحال، وحتّى أدخل السرور إلى قلبك، اختلقت وقلت إنّني سارقة. ألا تذكر؟

ـ كلا... أو بالأحرى بلى. قصة سرقة، في فيلا، سرقة فراء وملابس، أليس كذلك؟

ـ بالضبط.

ـ ولم يكن ذلك صحيحاً؟

ـ كان صحيحاً، لكن لم يكن لي من دخل في القضية.

ـ من كان فاعل السرقة؟

ـ بينا، فتاة من الحي.

ـ أي وقع كان لإفشائك هذا السرّ عليّ؟

ـ ما عدت تتوقف عن تقبيلي وأن تردّد كالمجنون: «يا لصتي، يا ظريفتي، يا نشالتي الصغيرة، يا سارقتي الكبيرة». فلكأنّه كان من المحبّب إليك فعلاً أن أكون سارقة. ومنذ ذلك اليوم لم تفتأ تلحّ عليّ أن أعرّفك إلى الشابين الصغيرين اللذين نفذت معهما العملية، ورحت تستجوبني بلا كلل راغباً في معرفة كلّ شيء: الأشياء التي سرقناها، المبلغ الذي أعطيناه للذي خبأ الغنيمة، الفيلا التي تمّت فيها السرقة. حتّى إنّني اضطررت في النهاية إلى اللجوء إلى بينا، الفاعلة الحقيقية، لكي تروي لي الأمور كما جرت.

---

(١) لهجة شعبية في روما.

ـ وما كانت ذريعتك إلى ذلك؟

ـ قلت لها إنّك كاتب وتريد أن تكتب رواية عنّا، نحن أهل حي غورდياني. وبدءاً من ذلك اليوم، صرت تحمل دوماً في محفظتك، إلى جانب صورتي، قصاصة الصحيفة التي سردت فيها تفاصيل السرقة. أتذكر؟ كانت فكرة أنّ كلمات الصحيفة: «المجهولون المعتادون» تخصّني أنا تضحكك كثيراً.

ـ أجل، من الممكن أن أكون قد تصرّفت على هذا النحو.

ـ وقد اعترفت لي بأنّك ذهبت أكثر من مرّة إلى الفيلا التي وقعت فيها السرقة. كنت تقول إنّه كان يلذ لك أن تتأملها وأنت تفكر بأنّني أتيتها ليلاً بهدف السرقة والحال أنّني، على العكس، لم أذهب إليها قط.

كان بودّي لو أقاطعها قائلاً بسخرية: «تماماً كما أنّني لم أنتسب قط إلى الحزب». لكني تمالكت نفسي.

وتابعت كورا:

ـ لكن أكثر ما كان يهيجك هو أنّني امتهنت العهر لفترة من الزمن. بل إنّك لم تتأخر عن سؤالي بأنّ آخذك إلى الدار التي كانت، قبل بضع سنوات، علاقاتي العابرة مع عدد من الرجال، وأردت أن تضاجعني في واحدة من تلك الغرف التي تستأجر بالساعة، غرفة قبيحة، باردة، كئية، أنت الذي كان يقطن داراً جميلة جداً. وكنت أخجل من أن أفعل معك ثانية، كما في التمثيليات الهزلية، ما فعلته مع رجال آخرين بدافع الضرورة، لكنّي في النهاية فكّرت بأنّ لكلّ رجل طريقته في الحب، وبأنّك كنت بحاجة، حتّى تحب، لأنّ تظنني معوزة وعاهرة وسارقة.

ـ يا للحب الجميل!

فحدجتني كورا. ثمّ، كما تفعل الريح في بعض الأيام الهامدة إذ

تنهض فجأة من الأرض وتهاجم شجرة من الأشجار وتبعث القشعريرة في كلّ ورقة من أوراقها حتّى قمتها، اهتزّت كورا من كلّ أعماقها ونفضت عنها سكونها المعتاد المستغرق إذ حرّكت أوتارها ذكرى متوترة منفعلة. وشاهدت عينيها تتألقان، وفتحتي أنفها ترتعشان، وصدرها ينتفخ. وبصوت ملجوم لكنّه يضج بنشوة عميقة قالت:

ـ أجل، أستطيع أن أقول ذلك عالياً وجهاراً، لقد كان حباً جميلاً، آسراً، عنيفاً، حباً لم يتوقف عند السطح وإنّما تغلغل إلى الأعماق، حباً يندر مثيله، حباً ما عاد له وجود اليوم.

وسكتت لحظة ثمّ ختمت كلامها وهي تنظر أمامها باستقامة:

ـ كنت أحبك وكنت تحبني، وكان حبنا من النوع الذي يدوم طوال الحياة.

ـ فسّري لي إذن لمَ لم يدم، على العكس، سوى بضع سنوات.

ـ هذا منطقي. كنت أعجبك. كنت تحبني لأنّني فقيرة، لأنّني تعهّرت، ولأنّني أدخلت في قناعتك، علاوة على ذلك، أنّني كنت سارقة. ويوم قبلت بأن أتزوج منك، وأصبحت امرأتك، شأني شأن سائر النساء، لم أعد أعجبك وما عدت تحبني.

ـ منطقي، كما تقولين... بل منطقي أكثر ممّا ينبغي تقريباً، ألا ترين ذلك؟

ـ ألا تصدقني؟

ـ أصدق بالأحرى أنّك تعتقدين أنّك تقولين الحقيقة.

ـ لا، لا... إنّ لدي البراهين على ما أقول.

ـ براهين؟

ـ أجل، براهين على أن ما قلته صحيح.

ـ وما هذه البراهين؟

ـ هناك أوّلاً جيانا.

ـ جيانا؟ من كانت جيانا؟

ـ كانت إحدى عاملاتي، فتاة جميلة من ترانستيفير، سمراء، فقيرة جاهلة، ابنة عامل بناء. كان ذلك يوم تلاشت رغبتك في مضاجعتي. فأردت أن أتأكد من صحة ظنّي. أردت أن أحصل على برهان، فأرسلت إليك جيانا.

وعلى حين غرة ارتبط اسم جيانا في ذاكرتي من جديد بموضوع محدّد، وفهمت: كانت جيانا أولى الفتيات المرتزقات العديدات اللاتي كن يتصلن بي هاتفياً بهدف المجيء إليّ، في الفترة التي تلت مباشرة انهيار حبي لكورا. وهتفت:

ـ آه! أنت إذن التي أرسلت إليّ جيانا؟

ـ أجل أنا.

ـ لكن لم فعلت ذلك؟

ـ قلت لك: لأحصل على برهان.

ـ لكن أي برهان؟

ـ البرهان على أنّ ما يعجبك هو نمط معين من النساء وعلى أنّك ما عدت تحبني لأنّني ما عدت أنتمي إلى ذلك النمط.

ـ آه! . . ولم تقرفي من إجراء تجربة كتلك؟ فأنت، بعد كلّ شيء، كنت تحبينني . . .

ـ أجل، كنت أحبك لكنّي كنت أعلم أنّك أنت ما عدت تحبني، وقد خيّل إليّ، إذ أرسلت لك جيانا، أنّني أفعل الحب معك، إلى حد ما، بواسطتها.

ـ يا لغرابتك! وكيف فعلت لتحثّي جيانا لكي تتصل بي؟

فنظرت إليّ كورا لحظة نظرة ماكرة وغير مشفقة، ثمّ أجابتني:

ـ قلت لها إنّها إذا أطاعتني فسأهديها ثوباً وإلّا فسأطردها.

ـ لكنّي تلقيت زيارات أخرى من فتيات أخريات. فهل كنّ جميعاً

عاملاتك، وهل كنت أنت التي تبعثين بهنّ إليّ؟

انتعشت وقالت بلهجة محترفة ومتهتكة في آن واحد:

ـ أجل، كنت أحبك، كنت أريد الاستمرار في مضاجعتك ولو عن طريق شخص ثالث. ولقد كنت أوصي أولئك الفتيات جميعاً بأن يتكلمن الرومانسكو، وبأن تكون حركاتهن بسيطة، جلفة، كبنات ترانستيفير. وكانت بعضهن كذلك حقاً وما كن بحاجة بالتالي إلى التكلف.

ـ ما أطوع البنات اللاتي يعملن عندك!

ـ أواه! أتعرف، في ذلك العمر تكون الفتيات على استعداد لمضاجعة أي شخص كان، فالطبيعة نفسها تريد ذلك. يكفي أن نضعهن على الطريق ليتابعنه من ثمّ بمفردهن.

ـ وكنت أنت تضعينهن على الطريق، أليس كذلك؟

ـ كن يفعلن ذلك أيضاً ليدخلن السرور على قلبي. فقد كن يعرفن أنّك زوجي.

ـ وكن يعتقدن أنّني أختبئ وراءك، وأنّني جعلت منك وسيطة لي.

ـ أي أهمية لما أمكن لهن أن يعتقدن؟

ـ لكن لم تتمرد، لم ترفض أي واحدة منهن! فهل من الممكن أن يكنَّ جميعاً مصبوبات في قالب واحد؟

ـ أين العجب؟ لقد كنّ جميعهن فتيات جادات. وبالفعل، تزوج معظمهن فيما بعد، ومنهن من أنجبن أولاداً. هذا لا يدل على شيء.

ـ ما هذا الذي لا يدل على شيء؟

ـ أن يكون في وسعهن فعل الشيء وفعل نقيضه أيضاً...

وفكرت: إنّ كورا تخاطبني من الآن فصاعداً بلغة مهنتها، بصورة مطمئنة، مكشوفة. لقد أعجبت بالطريقة التي توصلت بها بصورة

تدريجية، غير محسوسة، إلى أن تعرض أمامي مهنتها الخاصّة، من غير أن تقرّ بها جهاراً. وقلت:

- هناك شيء لا أفهمه. تقولين إنّك كنت تشاركين في غرامياتنا. فكيف؟ هل كنت تطلبين من أولئك الفتيات أن يروين لك كيف جرت الأمور.

- أجل.

- وكن يروين لك؟

- أجل، لكن أتعرف...

- ماذا؟

- أتعرف أنّني لم أتورع، في إحدى المرّات، عن الاختباء في الشقة، وراقبتكما، أنت وإحدى عاملاتي، بينما كنتما تفعلان الحب.

- أفعلت ذلك؟

- أجل... ورأيت أنّك لم تتبدل.

- أي؟

- بقيت خنزيراً.

- شكراً!

- هذا لا يزعجك، أليس كذلك؟

- كلا، إنّني لم أنزعج.

- أتعرف، هكذا يكون موقف الرجل دوماً عندما يضاجع.

- طيب. لكن قولي لي...

- ماذا؟

ذلك الحب عن طريق شخص ثالث، كما تقولين، ألم تبذليه لآخرين؟

- ماذا تعني؟

ـ هل فعلت لرجال آخرين ما فعلته فيَّ؟

فتردّدت ثانية من الزمن، متسائلة في سرّها بلا ريب عمّا إذا كان قد حان الوقت لتتكلم بصراحة عن مهنتها. ثمّ أجابت باطمئنان:

ـ لك وحدك، بالطبع. إنّني لست قوادة، أنا!

ـ قلت لي إنّك فعلت ذلك بدافع الحب. ومن الممكن، في مدى عشر سنوات، أن تكوني قد أحببت من جديد وبالطريقة نفسها.

ـ لم أحب أحداً بعدك.

ـ أأنت واثقة من ذلك؟

ـ وكيف!

ـ لم تحبي غيري؟

ـ كلا.

ـ وما زلت تحبينني؟

ـ أجل.

ـ أحقاً؟ حقاً ما زلت تحبينني؟

ـ قلت لك ذلك.

ـ وعلى هذا، وإذا ما سألتك الآن أن ترسلي لي من جديد إحدى عاملاتك، فستقبلين؟

ـ طبعاً.

ـ مؤسف.

ـ مؤسف! لماذا؟

ـ لأنّك بقيت على أفكارك بينما بدلتها أنا.

ـ ما كانت أفكارك آنذاك؟

ـ قلت لك ذلك، كنت أبحث عن شيء ما أسمّيه أصالة.

ـ أما عدت تؤمن بها، تلك الأصالة؟

ـ كلا.

ـ لمَ ما عدت تؤمن بها؟

ـ لمَ لا يعود الإنسان يؤمن بشيء ما؟ عادة لأنّه يكتشف أنّ هذا الشيء لا وجود له.

ـ أاكتشفت أنّ الأصالة لا وجود لها؟

ـ إذا شئت...

ـ أنا، على العكس، لم أتبدل.

ـ لقد لاحظت ذلك.

ـ كنت أؤمن يومذاك بالحب، وما زلت إلى اليوم.

ـ فهمت ذلك.

ـ كنت أحبك يومذاك، وما زلت إلى اليوم. وإنّني لعلى استعداد لأن أفعل من أجلك، أتسمعني، أشياء لا يمكن لك حتّى أن تتصوّرها.

ـ ما هي؟

ـ الله أعلم بمدى حبي لبابا. ومع ذلك، لو تولهتَ بها، ولو كانت مسألة إضجاعها معك تتعلق بي، لما تردّدت.

لم أكن أنتظر هذا، ولبثت مشدوهاً مضطرباً. ولقد بذلت جهداً كبيراً حتّى أخفي اضطرابي، بينما كانت كورا ترمقني كما لو أنّها تريد أن تعرف إذا ما كنت أقبل بهذا العرض الضمني. وآنذاك، وفي تلك الثواني القليلة من الصمت التي مرّت، فهمت للمرّة الأولى أنّني أحب بابا، وأنّ حبي لها يرجع إلى أنّها ابنتي، أو على الأقل إلى أنّني أعتبرها كابنتي، وإلى أنّ أمها امرأة، مثل كورا أرادت أن تبيعها قبل ستة أعوام وتبدي استعدادها لتعيد الكرة اليوم. وفكّرت أيضاً بأنّ كورا، بما تتمتع به من غريزة بوصفها قوادة، قد سددت سهمها إلى صميم قلبي وتوصلت، وإن بصورة غير مباشرة وتلميحاً، إلى ممارسة مهنتها معي بالذات بكشفها لي عمّا لم تواتني الشجاعة حتّى الآن للإقرار به بيني وبين نفسي.

هذه التأملات لم تبدّل شيئاً في سحنتي، وعلى الأقل آمل ذلك، لأنّني كنت واعياً أنّ كورا ترقبني. وببطء وحذر سألت:

ـ إذن، وحتّى في حالة بابا، لن تحجمي عن تقديمها لي حتّى تشعري بأنّك تحبينني من خلالها.

ـ أجل.

ـ إنّني سعيد لحبك إياي بهذا القدر. لكن أصحيح أيضاً أنّك تحبين بابا؟

ـ لماذا، ألا تصدقني؟

ـ بلى، أصدقك، لكن هناك تناقضاً على كلّ حال بين الواقعتين.

ـ أي واقعتين؟

ـ حبك لبابا وشعورك في الوقت نفسه بأنّك قادرة على التضحية بها لصالح حبنا، الوهمي من حسن الحظ.

ـ لم أقل إنّني على استعداد لفعل ذلك في سبيل أي شخص كان. إنّما قلت إنّني على استعداد لفعله من أجلك.

ـ ليس الفرق كبيراً، على الأقل فيما يتعلق ببابا.

ـ ثمّ إنّ في وسع الأم أن ترغب في أن تحب ابنتها رجلاً معيناً.

ـ بالطبع. لكنّك تنسين أنّ بابا ابنتي.

ـ ابنة زوجتك.

ـ ابنة زوجتي، أوافقك. والرجل المعيّن (أنا، بالصدفة) سيرتكب جرم سفاح إذا ما أحبّ بابا.

ـ لا معرفة لي بموضوع جرم السفاح. إنّما أعرف فقط أنّك إذا أحببت بابا، فلن تكون بالنسبة إليك لا ابنة ولا ابنة زوجتك، وإنّما بكل بساطة المرأة التي تحب، هذا كلّ شيء.

ـ صحيح جداً. لكنّي لم أكن أتكلم عن نفسي.

ـ عمّن كنت تتكلم؟

ـ في الواقع، كنت أتكلم عنك.

ـ كيف؟

ـ يمكن لبابا ألا تكون ابنتي ولا ابنة زوجتي. لكن عليك أنت ألا تنسي لحظة واحدة أنّك أمها.

ـ أواه! أجل.

ـ كيف يمكن لأم أن تريد شراً بابنتها؟

ـ من قال لك إنّني أريد شراً بابنتي؟

ـ أنت التي تكلمت عن ذلك.

ـ أين سيكون الشر، في رأيك؟

ـ الحب بيني وبين بابا.

ـ لكن ما دمنا قد قلنا إنّك لست شيئاً بالنسبة إليها، أين الشر في أن ترغب في أن تحب ابنتك رجلاً ليس له من صلة قربى بها؟

ـ ها قد عدنا إلى النقطة التي انطلقنا منها. لنفترض أنّ أماً تريد أن تحب ابنتها رجلاً ليس له من صلة قربى بها، لكن تلك البنت لم تتجاوز الرابعة عشرة، أليس هذا شراً؟

ـ لكن بابا ليست في الرابعة عشرة. إنّها في العشرين.

ـ لكن لنفترض أنّها في الرابعة عشرة.

ـ غريب أمرك، لو تعرف.

ـ لماذا؟

ـ لأنّك تصرّ كلّ الإصرار على أن تكون بابا في الرابعة عشرة.

ـ كانت في الرابعة عشرة.

ـ يكاد يخيل إليّ أنّك تحب البنات الصغيرات.

ـ ما أغربه من خيال!

ـ إنّ بابا في العشرين من العمر، تفعل ما تريد، ومصيرها ليس منوطاً بمشيئتي. إنّ ما قلته لم يكن إلّا كلاماً في الهواء.

ـ وما قلته أيضاً.

ـ إذن لـمَ تكلمنا عن ذلك؟

ـ إنّني لأتساءل عن السبب، أنا أيضاً!.

وامتنعا عن الكلام فترة طويلة من الزمن فكرت فيها بأنّ كورا دافعت عن نفسها دفاعاً يستحق الإعجاب، وبأحسن طريقة، أي بالانتقال إلى الهجوم. فلقد وضعتها على حين فجأة أمام ما حدث قبل ستة أعوام، لكنّها أسرعت فشنّت هجوماً مضاداً باتهامي بأنّني أحب الفتيات الصغيرات. وبلا مقدمات، شعرت بالسأم والكلل، كما لو أنّني خضت صراعاً كان مضاعف التوتر بالنظر إلى طابعه المباشر وغير المباشر في آن واحد. وقلت بتؤدة:

ـ شكراً على كل حال. لقد قدّمت لي كمية من المعلومات الثمينة لروايتي.

آه! الرواية، تصوّر أنّني نسيتها.

ـ كيف؟ مع أنّني قلت لك إنّني أريد أن أكلمك للحصول منك على بعض المعلومات التي لا غنى عنها لبنية روايتي.

ـ صحيح أنّك قلت لي ذلك. لكنّني نسيته. كنت أشعر بأنّ استجوابك جدّي.

ـ جدّي؟

ـ أجل، شعرت أنّك تريد فعلاً أن تعرف بعض الأشياء.

ـ أليس شيئاً جدياً إذن أن أريد كتابة رواية؟

ـ بلى، بالتأكيد.. إنّني لا أخالفك في ذلك. لكن الأشياء الجدية هي التي تُفعل، لا تلك التي تكتب في الروايات.

ـ وفي رأيك، لـمَ تُفعل هذه الأشياء الجدية؟

ـ هكذا... كما تفعل الأشياء في الحياة... لأنّنا نشعر بالحاجة إلى فعلها.

ـ من سوء الحظ أنّ الأشياء هي هكذا: فألّا نفعل شيئاً فهذا معناه اليوم أنّنا فعلنا شيئاً ما، وإذا فعلنا شيئاً ما فهذا معناه أنّنا لم نفعل شيئاً.

ـ ماذا تقول؟ أهي أحجية؟

ـ سأشرح لك: إنّني أرى، أنا شخصياً على الأقل، أنّنا عندما نفعل جدياً الأشياء التي تصفينها بأنّها جدية لا نكون قد فعلنا شيئاً، وعندما لا نفعل شيئاً، أي نكتب رواية، نكون فعلنا شيئاً جدياً.

ـ لأنّ الفعل الجدي للأشياء الجدية معناه عدم فعل شيء؟

ـ ليس هناك «لأنّ»، إنّما الأمور هكذا.

ـ أعطني مثالاً، لأنّني لا أفهم.

ـ على رسلك! لقد فعلت جدياً في الماضي، على سبيل المثال، ذلك الشيء الذي لا يرقى الشك إلى جديته، أعني زواجنا. ولقد رأينا النتيجة.

ـ أجل. لكنّك فعلت شيئاً ما على الأقل. تزوجتني. ومن الشيء يولد شيء آخر.

ـ بالتأكيد، من الشيء يولد شيء آخر. هكذا ولد العالم وسيستمر على الشاكلة نفسها. كان هتلر وحشاً، لكن الألمان آمنوا به. ومن هنا ولدت الحرب مع موت خمسين مليون كائن بشري. من الشيء يولد شيء آخر.

ـ ما دخل هتلر في قصتنا؟

ـ دخله دخل أي شيء آخر. وبالأصل، ألم يكن والد بابا جندياً ألمانياً؟

ـ على رسلك! لكن بالنظر إلى هذا وحده، ألم أكن على حق؟ أليست بابا جميلة؟

وتحدّتني بنظرة ساخرة من عينيها البارقتين شرراً. وقلت:

ـ هيّا ينبغي أن نعود. لا نستطيع البقاء هنا أمام هذه البوابة. إنّنا نسد الممر على الذين يريدون الدخول إلى الفيلا.

ولم تقل كورا شيئاً. ومن جديد أدارت لي جانب وجهها، وهي طريقتها الخاصّة في ألا تكون حاضرة. وألححت وأنا أدير مفتاح السيّارة:

ـ إنّي لأتساءل: من يمكن أن يقطن في هذه الفيلا الغامضة التي لا اسم لها.

ـ أي اسم تريد أن يكون لها؟

ـ لا أدري: فيلا كذا... فيلا كورا على سبيل المثال.

ـ لِمَ كورا؟

ـ إنّه اسم كغيره من الأسماء. وقد خطر ببالي لأنّني معك في هذه اللحظة.

ـ حبذا لو كانت عندي فيلا كهذه!

وفكّرت بأنّ هذا الحوار الحنيني يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، فلزمت الصمت. وخرجت السيّارة من منعطفها وانضمّت إلى رتل السيّارات الكثيرة الجارية باتجاه روما.

الخميس ٢٩ تشرين الأوّل

ـ هل أنت واثق من أنّك سجلت بأمانة في يومياتك محادثتك مع كورا؟

ـ أجل، إنّي لواثق من ذلك.

ـ واثق تماماً؟

ـ واثق تماماً، أقسم على ذلك.

ـ هيّا، فلنعد القراءة معاً ولنرَ إذا ما كانت ثقتك مبررة.

ـ على رسلك، إنّني أعاود القراءة. الحوار هو نفسه، وربما مع بعض الكلمات المبدلة أو الساقطة لكن الجوهر هو هو. لكن... لكن...

- لكن ماذا؟

- إنّني أتبين الآن أنّك على صواب، كالعادة. إنّني لا أدري لمَ لم أكن أميناً.

- لا تدري لمَ، ايه! هيّا، لا تدّع البراءة، لا تدع بأنّك دماغ بلا ذاكرة، راوية يسرد وهو في حالة من الوجد. فأنت لست كذلك لا من قريب ولا من بعيد. أنت تعلم حق العلم أنّك لم تكن أميناً، ولا تجهل لا أين أخلفت بالأمانة ولا لمَ أخلفت بها.

- بالفعل، لم أكن أميناً عند نقلي اقتراح كورا بأن تسهل لي حِرفياً، وإن بتجرد وتنزّه، العلاقات الغرامية مع بابا. إنّ كورا لم تقل لي شيئاً من هذا ولم نتكلم البتة عن بابا. حقاً لا أدري لمَ خطر ببالي أن أضيف ذلك إلى محادثتنا، ربّما لأنّه خيّل إليّ أنّ كورا قادرة على أن تقترح عليّ مثل ذلك الاقتراح، وعلى هذا فإنّ الاقتراح يظل قابلاً للتصديق حتّى وإن كان متخيلاً، وهو بالتالي يفيد في توضيح طباع كورا وفي إضفاء المزيد من الواقعية عليها.

- آه! طباع كورا... ولمَ ليس طباعك؟

- أنا؟ لا دخل لي في هذا كلّه، لست أنا من اقترح الاقتراح وإنّما كورا. لست أنا من جاء على ذكر بابا، وإنّما كورا. والخلاصة إنّني اكتفيت بالاستماع، وبالطبع، بالشعور بكلّ فظاعة عرض كذاك.

- بالفعل، لست أنت صاحب الاقتراح، ولم تأتِ على ذكر بابا، واكتفيت بالاستماع وشعرت بالفظاعة، لكنّك أنت الذي تصوّر، أيّها المرائي، أنّ كورا تقترح عليك هذا الاقتراح، أنت الذي أضاف هذه الكذبة إلى الحقيقة، وأنت لا تستطيع نفي ذلك.

- إنّني لا أنفيه. لكنّي قلت لتوّي إنّني قد فعلت ذلك على الأرجح لأنّه بدا لي منطقياً وطبيعياً أن تعرض كورا عليَّ بابا بعد أن قدّمت لي كثيراً من الفتيات.

- منطقياً وطبيعياً، أتتصوّر! أو بالأحرى أجل: منطقي وطبيعي، لكن الشيء الأكثر منطقية وطبيعية هو أنّك تلذذت بتلك التخيلات.
- وما الداعي لأن أتلذذ بها؟
- لأنّك بكلّ بساطة وقعت في غرام بابا بطريقة هي خاصة بك ومحددة بصلة قرابتك بها وبالوضع الذي تجد فيه نفسك تجاه كورا.
- وماذا بعد ذلك؟
- أعجبك أن تتخيّل أنّ بابا معروضة عليك من قبل أمّها بالذات، أعجبك أن تتخيل أنّه سيكون في وسعك امتلاك بابا في منزل كورا، وأعجبك أخيراً أن تتخيل أنّ بابا هي شيء تبيعك الأم إيّاه فتشتريه.
- أأنت واثق أنّ هذه هي الحقيقة؟
- إنّني لست واثقاً من ذلك لأنّه لا يمكن للمرء أن يكون واثقاً من شيء. لكنّك ستقرّ بأنّي أستطيع شرعياً أن أشك في ذلك.
- لكن كلّ شيء في هذه الحال يمكن أن يكون زائفاً، كاذباً، لاأصيلاً. ومن الممكن أيضاً أن أكون قد اختلقت اختلاقاً فكرة أنّ كورا تملك مأخوراً، وأنّها قادت إليه ابنتها عندما كانت هذه في الرابعة عشرة، وإنّني ذهبت إلى ذلك المنزل و... وكل الباقي. من الممكن أن أكون قد اختلقت هذا كلّه لأنني واقع في غرام ابنة زوجتي، ولأنّني بحاجة، ؛ حتّى أحبها، إلى الاعتقاد بأنّ أمّها قوادة وبأنّها عرضت ابنتها للبيع قبل ستة أعوام. وبعبارة أخرى، إنّ الشيء الصحيح الوحيد، الصحيح موضوعياً في هذه الحال، هو أنّني أحبّ بابا.
- لا، لا تسعَ الآن إلى خلط الورق لتبرّر نفسك. أنت تعلم حق العلم أنّ كورا تملك منزلاً للمواعيد، وأنّ بابا قالت الحقيقة عندما

روت لك أنّ أمّها قادتها إلى ذلك المنزل الذي هو موجود فعلاً ما دمت قد شاهدته بأم عينيك ودخلت إليه. وأنت تعلم تماماً أنّ روايتك، إذا ما كتبتها ذات يوم، ستكون مؤلفة من الواقع الموضوعي جزئياً ومن الواقع الذاتي جزئياً. لكنّك تعلم أنّ مثل هذا التقسيم لا وجود له في الحقيقة. إنّ روايتك هي أنت نفسك. وإنّه لمنوط بك بالتالي. . .

ـ ما المنوط بي؟

ـ أن تكون أنت نفسك تماماً، بلا أقنعة، باعترافك بأنّ بعض الأشياء وقعت لك فعلاً بينما تخيلت الأشياء الأخرى تخيلاً، وبوعيك أيضاً وإدراكك دافع خيالاتك.

السبت ٣١ تشرين الأوّل

وسياق الحياة اليومي الذي زعمت أنّني سأشيد عليه روايتي، كما لو على قاعدة من الغرانيت؟ لقد سحقته الدراما من سوء الحظ من جديد. كنت أريد أن أكتب رواية بلا قصة، مسجلاً كلّ يوم بيومه في يومياتي الأشياء التي لا معنى لها ولا انسجام أو تلاحم، والتي تقع لي من غير أن أكون قد بحثت عنها أو رغبت فيها. وبالعكس من ذلك واجهتني قصة دراماتيكية غنية بالمعنى والدلالة وقوية البناء، أرى نفسي مضطراً إلى سرد تفاصيلها، وتحثّني باستمرار على العمل وعلى القيام باختيارات.

كلّ ما هنالك (يخيّل إليّ أنّه سبق لي أن قلت ذلك) إنّ هذه القصة الدراماتيكية جداً ظاهرياً ليست كذلك في الواقع، وإنّه لا وجود في الحقيقة لتطوّرات في الموقف. وما يحدث لي لا تختلف صفته اليومية عن الأشياء التي هي بماهيتها يومية. ولقد شعرت بذلك اليوم إبان النزهة القصيرة التي أقوم بها عادة صباحاً قبل أن أجلس للعمل.

إنّني أقوم بهذه النزهة منذ سنوات، دوماً بالطريقة نفسها، كلّ صباح، أثناء إقامتي في روما بين سفرتين. إذن فهي من الأشياء الأكثر يومية التي يحدث لي أن أفعلها، والتي يقتصر فيها عملي، بفعل العادة والتكرار، على حد أدنى من الاختيار والحرية، ويكاد يقارب الحركة الآلية واللاشعورية.

خرجت إذن هذا الصباح وسرت باتجاه جادة مازيني حتّى كشك الصحف الذي يقع في زاوية شارع عرضاني. البائع رجل في حوالي الأربعين، في شرخ العمر كما يقال، له وجه أسود وأفطس، وعينان صغيرتان جاحظتان، وأنف على شكل منقار الببغاء، وذقن منعقفة نحو الأنف، وشاربان كثّان مزبئران بين الأنف والذقن. وجه يذكر من قريب بوجه كلب حراسة أبله ومفترس. وبالفعل، وكما يقبع كلب الحراسة في مرقده، كان يقبع هو في كشكه مستعداً، كما يخيل لمن يراه، ليعض اليد التي قد تجازف بالامتداد إلى الداخل لتأخذ جريدة. وقد عرفني بالطبع بائع الصحف وسألني:

- متى الرحلة القادمة، يا سنيور ميريغي؟

ثمّ ناولني بحركة آمرة صحف الصباح، من غير أن أكون قد طلبتها منه، الصحف التي أقرأها منذ عشرة أعوام على الأقل. وتأبطت الصحف وتابعت نزهتي.

اجتزت شارعين آخرين ووصلت إلى البار. دخلت، واستندت بمرفقي إلى المنضدة، وطلبت قهوة، ونظرت حولي بالرغم من أنّني أعرف هذا البار تمام المعرفة وأعلم أنّه ليس فيه ما يسترعي النظر. هي ذي المنضدة بقسمها العلوي المصنوع من معدن رمادي ولماع، ربّما من الفولاذ، وقسمها السفلي المصنوع ولا بد من خشب، خشب قاتم اللون. على المنضدة تصطف غلاية القهوة الميكانيكية، والخلاطة الكهربائية، ومشواة الخبز المحمص، ورف الزجاج الذي يحتوي على

السندويش، وإناء مقبب من البلور الأحمر القافني عليه غطاء من البلاستيك الأحمر الفاهي حفرت عليه عبارة «آمارينا»[1]، وسكريتان معدنيتان عليهما غطاء من الزجاج الشفاف ينوب عن الملاعق في تحديد كمية السكر اللازمة غير الزائدة عن حدّها. وكان الساقي، وهو رجل طويل نحيف أشقر، جبينه مليء بالبثور، وعيناه صغيرتان زرقاوان، يقف بين المنضدة والرفوف المحملة بالقناني، مئزره مشدود على خصره، ويداه الكبيرتان المائلتان إلى الحمرة تتلاعبان بروافع الغلاية. وشأنه شأن بابع الصحف، عرفني، وهتف بي بصوت غليظ أجش: وكالعادة، فنجان قهوة طافح، ثمّ ناولني فنجاناً بمهارة المشعوذ، فقد فتله في الهواء ثمّ جعله ينساب على المنضدة بكلّ هدوء. واحتسيت قهوتي ببطء، ثمّ دفعت وخرجت.

من البار ذهبت إلى كشك التبغ في شارع مجاور. كانت الدكان ضيقة وعميقة كممشى، وكانت المنضدة موضوعة طولانياً. وكان يجلس خلف المنضدة رجل جسيم الجثة، لا يدل مظهره على النظافة، ترغمه بطنه المتكرشة على إسناد ظهره إلى الجدار المليء بالرفوف، بعيداً عن الزبائن الذين يمرون أمامه. وسرعان ما عرفني: فهمت ذلك من النظرة المتواطئة التي رمقني بها، ومن غير أن يستدير مدّ ذراعه القصيرة إلى الوراء، وبحركة ماهرة تلقف بين أصبعيه اللتين على شكل كماشة ثلاث علب من السجاير التي اعتدت على تدخينها، ورمى بها على المنضدة، حاضناً بعينيه السوداوين المحاطتين بدوائر لحمية والشبيهتين بعيون النساء يدي التي كانت تبحث بين العلب الثلاث وهي تجسّها عن العلبة الأكثر ليونة، بينما أفلت من فمه المنفرج زفير مبهور. وتناولت العلبة، ورميت بقطعة نقد على

(١) ضرب من الكرز.

المنضدة، وأعاد لي البائع البقية من غير أن يفوه بحرف، لأنّ الكلام يتعبه، لكنّه شكرني بنظرة سرعان ما تحوّلت إلى نظرة استفهام منتقلة من وجهي إلى وجه زبون آخر دخل لتوّه. وأخذت النقود وخرجت.

ثمّ اتجهت نحو دكان الورق الواقعة بجانب كشك التبغ. كانت صاحبة المكتبة امرأة محببة كما يقال، في حوالي الأربعين، وجهها أبيض ووردي، أبيض تماماً ووردي تماماً، وعيناها سوداوان صافيتان مستديرتان، يعلوهما هرم من شعر أسود ولماع هو على الأرجح مصبوغ. إنّها لم تتعرفني فحسب، بل حدثتني أيضاً عن أسفاري، مبدية سرورها بعودتي، مستعلمة عن موعد رحيلي، متشكية بظاهر من حزن وحسرة من أنّها لا تستطيع قراءة مقالاتي نظراً إلى أنّها تنشر في صحيفة ميلانية. وأجبتها بخير ما وسعني الجواب، وطلبت طبقاً من الورق، وورق كربون، وشريطاً أسود للآلة الكاتبة وقلماً ناشفاً. ونهضت صاحبة المكتبة، كاشفة عن جسمها الجميل الرشيق، المغلف أو بالأحرى الحبيس في ثوب أسود مشدود، مصنوع من نسيج مترأرئ، وتناولت مختلف الأشياء التي طلبتها من فوق الرفوف. ثمّ عادت لتجلس خلف المنضدة، وأجرت الحساب بسرعة على ورقة كانت تسند إليها يدها الشديدة البياض بأظافرها الوردية الشبيهة بأظافر الطفل. وذكرت لي المبلغ الذي يجب عليّ أن أدفعه، ونبهتني إلى أنّها حسمت منه الخصم، وصرّت لي الأشياء في رزمة واحدة، وتناولت منّي المال، وأعادت لي البقية، كلّ ذلك بمهارة وخبرة وسرعة. ثمّ حدقت بي بعينيها اللتين كانتا تبدوان وكأنّهما مرسومتان فوق دحلين من البلور، وكأنّها تنتظر أن أبادرها بالحديث. وأخذت الرزمة وخرجت.

شاهدت وأنا أهمّ بالدخول إلى بيتي، سيّارتي موقوفة أمام باب المدخل، وتذكّرت أنّ آخر مرّة استخدمتها، قبل بضعة أيام، كانت

بهدف أخذ كورا إلى شارع كاسيا حيث صففتها أمام بوابة منزل المواعيد. وآنذاك خطرت لي فكرة أنّني أستطيع أن أطيل نزهتي حتّى شارع كاسيا، من غير أن يتبدل مع ذلك إيقاعها أو أسلوبها. إنّ الكثيرين من الرجال يفضلون المضاجعة في الصباح الباكر بعد أن تكون راحة الليل قد جددت قوّتهم ونضارتهم. مكالمة هاتفية واحدة، ثمّ الجري في السيّارة حتّى المنزل. الغرفة، المرأة التي تتعرى عارضة شيئاً فشيئاً كلّ ما في وسعها أن تقدّمه مقابل المال، الفعل الجنسي، النقود الورقية في يد الوسيطة. إنّ النزهة التي قادت خطاي اليوم من كشك الصحف إلى البار، ومن البار إلى كشك التبغ، ومن كشك التبغ إلى المكتبة، كان يمكن أن تستمر حتّى منزل المواعيد دونما تبدّل نوعي، دونما انقطاع في الاستمرارية. سلسلة مشتريات تشمل صحيفة، فنجان قهوة، ماعون ورق، ورق كربون، شريط آلة كاتبة، قلماً ناشفاً، جسد امرأة. سلسلة أحداث متسلسلة تجعلني على التوالي أقرأ صحيفة، أحتسي قهوة، أدخن سجائر، أكتب مقالاً على الآلة الكاتبة، وأضاجع فتاة. وبعد منزل شارع كاسيا، جولات أخرى، مشتريات أخرى، أحداث أخرى رتيبة فارغة من المعنى كأمواج البحر على شاطئ مقفر.

لكنّي فهمت بوجه خاص شيئاً: أنّ بائع الصحف في كشكه، والساقي في باره، وبائع التبغ في دكانه، وصاحبة المكتبة في مكتبتها، يفترضون مسبقاً ويبررون الفتاة في منزل مواعيد كورا. كان في وسعي أن أتكلم عن الفساد. لكن ليس هذا الفساد من الدراماتيكية بشيء، إنّما هو منقوش في الأشياء، في المادة التي تتألف منها تلك الأشياء بالذات. ولهذا كان من الأنسب والأصح أن أصف هذا الفساد بأنّه شيء عادي يومي.

الثلاثاء ٣ تشرين الثاني

بحجة أو أخرى تتمكن بابا دوماً في خاتمة المطاف من بلوغ أربها وتنفيذ خطتها التي تنص، على ما يبدو، على أن تمضي معي يومياً بضع ساعات في جو عطوف ودّي كما هو واجب بين الأب وابنته. والحجة اليوم هي اختيار كلب من الزريبة البلدية. وبينما كنّا نتجه هذا الصباح نحو بوابة بورتيز حيث الزريبة، سألت بابا عن سبب رغبتها في كلب. ففكّرت لحظة ثمّ أجابت:

- كان لي، قبل سنوات، كلب. قبل ستة أعوام بالضبط. لكن إحدى السيّارات دهسته على وجه التحديد في أحد تلك الأيام التي كانت تقودني فيها كورا... أقصد، تأخذ بابا إلى منزلها. وهل تعرف ما اعتقده؟

- قولي.

- إنّ الألم الذي شعرت به بابا نتيجة لموت كلبها هو الذي كان يحول بينها، نوعاً ما، وبين أن تدرك ما يحدث لها.

- أخالج بابا حزنٌ كبير بسبب موت كلبها؟

- أجل. فطوال أيام عدّة لم تكفّ عن البكاء. وكانت تفكّر في نفسها بأنّ الدهر قد قلب لها ظهر المجن وبأنّ مرحلة منحوسة من حياتها قد بدأت.

- ولمَ لم تجد بابا لنفسها كلباً آخر؟

- لأنّها ما كانت ترغب في كلب آخر. لم تكن تريد سوى الذي فقدته.

- لقد فهمت.

ووصلنا إلى بوابة بورتيز ودخلنا من باب حديدي إلى باحة الزريبة. كانت بيت الإدارة، المؤلف من طابق واحد، والطويل والأبيض، بشبابيكه الخارجية الخضراء، في مواجهتها. وإلى يميننا وشمالنا كانت تصطف أقفاص صغيرة تحبس فيها الكلاب، ولا تكاد

تزيد حجماً عن الصناديق التي يضع فيها مربّو النحل خلاياهم.

انتظرنا هنيهة من الزمن في صمت عميق، ثقيل ومعلق في آن واحد، كانت رائحة الحيوان الخفيفة العائمة في الفضاء تضيف إليه انطباعاً بانتظار قلق. ثمّ جاء الحارس، وهو شاب أشقر رياضي، محلوق الرأس، يرتدي ثوباً من الكتان الأبيض. واتجهنا ثلاثتنا نحو الأقفاص. وفي اللحظة نفسها انفجر على حين غرة دوي حانق من مختلف أنواع النباح، لكن أصداءه ردّدت جميعها أنّة واحدة من الرجاء تقطع نياط القلب، وواعية تمام الوعي.

إنّ حالة بابا النفسية تشبه اليوم، إلى حد ما، الطقس: برود مراءٍ وبليد بعض الشيء لكن يوحي بأنّه معبأ بالملل وكدر المزاج، كتلك الغيوم الغليظة القاتمة المعلقة فوق المدينة الفاترة لكن الحبلى بالريح السموم. كانت تسير إلى جانب الحارس، يداها في جيوب سترتها المفكوكة الأزرار على صدرها الناهد، مائسة الكشحين تحت بنطالها الضيق، في بطء كسول كدبّ صغير. وكانت الكلاب، عند مرورنا، تنقضّ على قضبان أقفاصها، وتنتصب على أطرافها الخلفية، نابحة بشتّى الأشكال وبمختلف الألحان مثل أسرى من بلدان شتى يتضرّع كلّ منهم بلغته الخاصّة. وتوقّفت بابا، ورنت إليها لحظة بعينيها الكدرتين اللتين بلون البحر، ثمّ استأنفت سيرها سائلة الحارس بفضول طلق:

- كم من الوقت تحتفظ بها هنا بعد جمعها؟

- القانون ينص على ثلاثة أيام. لكنّنا نحتفظ بها عادة سبعة أيام.

- ثم؟

- ثمّ نرسلها، بالطبع، إلى غرفة الغاز.

- كم تقتلون منها أسبوعياً؟

- خمسة، عشرة...

ـ لكن لديكم أيضاً كلاب عريقة النسل. فكيف.؟
ـ إنّ أصحابها يهجرونها. أو تهرب منهم هي نفسها.
ـ لكن لمَ يهجرها أصحابها؟
ـ لأسباب كثيرة. لأنّهم سئموا منها أو لأنّهم اكتشفوا أنّ الكلب «لا يدرّ»، إذا أمكن القول.
ـ ماذا تعني؟
ـ على سبيل المثال، كلب صيد فاقد حاسة الشم.
ـ لكن هل تعتقد أنّ الكلاب تعرف ذلك؟
ـ تعرف ماذا؟
ـ أنّها هُجرت وأنّها هنا بانتظار غرفة الغاز؟
ـ بالتأكيد، إنّها تعرف، فالكلب ذكي. إنّه يفهم كلّ شيء.
ـ لكن الكلب، عندما يحبس في الزريبة هكذا، ألا يبقى طول حياته عصبياً، حزيناً، شريراً؟
ـ ليطمئن بالك بصدد ذلك: فكلّ ما يطلبه الكلب هو أن يكون له صاحب. وما إن يجد صاحباً، حتّى ينسى الماضي.

هذه الثرثرة، هذه المعلومات المقدمة بلهجة هادئة، لامبالية، كسول، بينما يتعالى الهرير والعواء من كلّ جانب من حولنا، أغاظتني. وعندما وصلنا إلى نهاية رتل الأقفاص قلت لبابا:
ـ حسناً! الآن وقد شاهدتها جميعاً، احزمي أمرك.

فأشارت لي بيدها وكأنّها تقول لي ألا أستعجل، ثمّ قالت للحارس:
ـ فلنعد جولتنا بالاتجاه المعاكس. لقد لاحظت أربعة أو خمسة كلاب يمكن أن تناسبني.

وهكذا رجعنا على أعقابنا. كانت بابا تتوقف في كلّ مرّة يسترعي فيها أحد الكلاب انتباهها، وتمدّ يدها آلياً إلى الحيوان الذي يحاول،

وهو منتصب على قائمتيه الخلفيتين، أن يلعقها من خلال القضبان مبتهلاً، هازاً ذنبه، مدمدماً، وتروح تسأل الحارس مطولاً عن عمر الحيوان ونسله ومزاجه وعاداته، وبكلمة واحدة عن طباعه كافّة. وكانت تطرح أسئلة بدقة بالغة أثارت شكوكي: هذا الحب للكلاب، ألا يخفي تحته قسوة ما؟ وممّا زاد في شكوكي هذه أنّ الكلب، طوال هذا الاستجواب المطول، يقف هنا أمامنا متوتراً، مشدوداً إلى القضبان، يئن ويتشنج ويتضرّع. وقلت:

- هيّا، اختاري واحداً ولننتهِ. ألا ترين أنّك تسببين الألم لهذه الحيوانات المسكينة؟
- هناك احتياطات يجب اتخاذها قبل أن يأتي المرء بكلب إلى بيته.
- إذن، يا سنيورينا، أتأخذين هذا؟
- كلا، إنّه لا يعجبني. إنّه قبيح أكثر ممّا ينبغي بخطمه هذا الشبيه بخطم العجل، وشعره الأسود والأبيض. إنّني أريد كلباً نغلاً، لكن ليس إلى هذا الحد.
- إنّ أقبحها هي أكثرها عطفاً.
- لمَ؟
- لأنّها تعرف أنّها قبيحة. تدرك أنّها ما تزال على قيد الحياة بمعجزة وتحفظ الجميل على ذلك لصاحبها.

ومضينا من نغل يشبه من بعيد الثعلب، إلى نغل يكاد يحسبه المرء ضرواً إلى ثالث متدلي الأذنين جعد الشعر. وكانت بابا تتكلم مع الحارس ولا تبالي بي. وأخيراً أشارت إلى أحد الأقفاص بتصميم وقالت:

- سآخذ هذا.

إنّه كلب صغير رمادي، من نوع الكلاب الإنكليزية الجعدة الطويلة الوبر، له رأس كث أشعث منفوش الشعر يبدو من خلاله

بياض أسنانه وبريق عينيه. وما كادت بابا تشير به إلى الحارس، حتّى سكن روعه وامتنع عن الأنين: لقد فهم أنّه وجد الخلاص.

وصادق الحارس على اختيارها:

ـ أحسنت الاختيار، يا سنيورينا، فهو من عرق أصيل عريق صافٍ تقريباً، وسترين كم سيتعلق بك. أترين، لقد أنقذته! فقد كان سيذهب غداً إلى غرفة الغاز، لأنّه هنا منذ ستة أيام ولم يأتِ أحد لطلبه.

وبينما كان يتكلم فتح القفص، وأخرج منه الكلب، وسبقنا إلى المكتب. وهناك وقّعنا إضبارة، ودفعت خمسة آلاف لير. وأخذت بابا الكلب بين ذراعيها وخرجنا أخيراً. وهرَّت الكلاب جميعاً، كما لو أنّها فهمت أنّه ما عاد يرجى منّا أمل، محتجّة بنباح صاخب مُصمّ انقطع ما إن أُغلقت البوابة وراءنا.

في السيارة قلت لبابا:

ـ إنّه معسكر إبادة حقيقي من النوع النازي. لا ينقصه شيء.

فرمقتني بابا بنظرة جانبية وقالت:

ـ هذا صحيح... بالمناسبة...

ـ بالمناسبة؟

ـ أتذكر ما قلته لك عن التجربة التي جعلتني كورا أمرّ بها وأنا في الرابعة عشرة؟

ـ تقصدين التي فعلتها بابا أخرى؟

ـ بالضبط. لكن لا ينبغي أن تأخذ الأمور هكذا حرفياً.

ـ ماذا تعنين بذلك؟

ـ أعني أنّني ما أزال تلك التي أخذتها كورا، قبل ستة أعوام، إلى منزلها.

ـ هذا ما يخيّل إليّ، لكنّي لم أكن أجرؤ على البوح لك بذلك.

- على مهلك... فمن الصحيح أيضاً أنّها لم تكن أنا.
- لا أرى ما دخل هذا كلّه بالزريبة.

فأجابتني بلهجة دوغمائية وكأنّها تعرض عليَّ ثمرة تأمّل طويل:

- تلك الكلاب هجرها أصحابها، وسجنت في قفص، وقضي عليها بالموت. فإذا ما وجد أحدها الخلاص، فماذا يفعل؟ في رأيي أنّه سيحاول، حتّى يستمر في الحياة، أن يتصوّر أنّ كلّ ذلك حدث لكلب آخر، مختلف عنه، وأنّه هو كلب جديد له صاحب جديد وحياة جديدة. بالطبع، وكما قلت لك، إنّ هذا كلّه غير صحيح موضوعياً، لأنّ الكلب يظلّ هو الكلب نفسه الذي هجره صاحبه والذي حكم عليه بالموت. لكنّه في الوقت نفسه صحيح: فهذا الكلب هو كلب آخر، لأنّ بينه وبين ذلك الكلب الذي هُجر وحكم عليه بالموت واقعة الهجران وحكم الموت التي شطرت حياته إلى قسمين.
- يُقال إنّ الكلاب قوية الذاكرة في ما يتعلق بالإهانات والآلام التي عانت منها.
- لهذا السبب على وجه التحديد، في رأيي، تستطيع أن تنسى، أن تتظاهر بينها وبين نفسها بأنّه لم يحدث شيء.
- إنّها لفكرة ثاقبة دقيقة. إذن فذكرى الماضي هي التي تسمح بإلغاء هذا الماضي.
- بالضبط.
- وهي التي تجعل المرء لا ينظر إلّا إلى المستقبل، المستقبل وحده، على أساس تخطيطه كما يخطط الجسر أو المصنع.
- هذه المرّة لم تقل شيئاً، وإنّما حدجتني بنظرة مضطربة، نهمة متوحشة بعض الشيء، وهي تداعب بنعومة رأس الكلب الذي أجلسته على ركبتيها. ثمّ حزمت أمرها، وتناولت الكلب بيديها،

وقامت عن مقعدها، ووضعته على المقعد الخلفي آمرة إيّاه: «ارقد، كن عاقلاً». ثمّ أهوت بنفسها عليّ، بكلّ ثقلها، ومدّت ذراعيها حول عنقي وقبلتني على خدي متمتمة:

- شكراً على الكلب... أتعرف، ليس صحيحاً أنّ عاطفتي نحوك، كما تريد أن تلمّح، محسوبة. إنّني أحبّك حقاً، صدّقني، كما يمكن للبنت أن تحبّ أباها.

وبينما كانت تقول ذلك راحت تضغط خدها على خدي، وأحسست بعذوبه ونعومة جلدها الذي كان ملتهباً بحرارة لست أدري ما هي ونضراً بنضارة الشباب في آن واحد. ولم أستطع منع نفسي من الشعور بوجود بعض الالتباس في عناقها، وبالرغم منّي رفعت يدي وضغطت بها على خدها شاداً وجهها إلى وجهي لأطيل في أمد التماسّ. لكنّها أسرعت تبتعد عنّي وتهاوت على مقعدها من جديد وقالت:

- كيف سأسمّيه، هذا الكلب؟ ساعدني في إيجاد اسم.

وأجبت وأنا أدير المحرّك:

- سمّيه دخاناً، فشعره بلون الدخان.
- كلا، سأسمّيه ثلاثاء، كما سمّى روبنسون خادمه جمعة. فاليوم ثلاثاء، وأنا أيضاً، مثل روبنسون، هُجرت على جزيرة مقفرة، وكان عليّ أن أعيد حياتي انطلاقاً من الصفر.

الخميس ٥ تشرين الثاني

- لكنك أنتِ، هل اهتممت قط بمهنة كورا؟
- بأي معنى؟
- هل سعيت قط إلى معرفة ما تفعله ومتى وأين تفعله؟
- لم أحتج إلى ذلك.
- لماذا؟

ـ على سبيل المثال بعض المحادثات الهاتفية. فكورا لا تتردّد في إجرائها أمامي. وإذا كانت تتكلم بلغة. . . لنقل رمزية، فليس ذلك لأنّني حاضرة، بل لأنّها حذرة.

ـ بمن تتصل هاتفياً؟

ـ بنساء، برجال.

ـ وسمعت بعض هذه المحادثات؟

ـ أحياناً، أجل.

ـ ماذا تقول؟

ـ أواه! لا شيء مثيراً للاهتمام. لو لم أكن أعرف ما المسألة، لاعتقدت أنّ كورا تبحث في صفقات عطور.

ـ ماذا تعنين؟

ـ على سبيل المثال، تعلم مخاطبها بإرسال عدد معين من الأمشاط الذهبية أو البنيَّة اللون لتفهمه بأنّ الفتاة شقراء أو سمراء. ثمّ تقول إنّ تلك الأمشاط لها ست عشرة، أو ثماني عشرة، أو عشرون، أو خمس وعشرون سناً، مشيرة بذلك إلى عمر الفتاة. وأحياناً تضيف بأنّ هذه الأمشاط من نوع جديد، لم يشاهد قط. وهذا يعني على الأرجح أنّ الفتاة عذراء. وفي النهاية تعطيه العنوان وتحدّد اليوم والساعة، ثمّ تطبق السماعة.

ـ وكيف تبرّر أمامك نشاطها «العطري» هذا؟

ـ إنّها لا تبرّره. كورا لا تبرّر نفسها أبداً. إنّها تفعل وتصمت.

ـ قصة الأمشاط تلك تلجأ إليها عندما تتّصل بالرجال. لكن ماذا تقول للبنات؟

ـ للبنات تقول إنّ الثوب جاهز وإنّ عليهن أن يأتين للقياس في يوم كذا الساعة كذا.

ـ هذا بالنسبة إلى البنات الموافقات. لكن الأخريات؟

ـ كيف؟

ـ أقصد أنّه يحدث ولا بد لكورا أن تقوم، على الهاتف، بعملية إقناع وإغراء، أليس كذلك؟

ـ ثم ماذا؟

ـ في هذه الحالات ماذا تقول؟

ـ أواه! إنّها في غاية المهارة!

ـ بأي معنى؟

ـ بمعنى أنّها تقوم بمهنتها ببراعة، لكن أيضاً بهوس.

ـ وفيمَ تكمن مهارتها؟

ـ في الطريقة التي تصوّر بها الشيء.

ـ أي؟

ـ على أنّه شيء قليل الأهمية أوّلاً، ومحبّب ثانياً، ومؤقت لن يتكرر أكثر من مرّة ثالثاً.

ـ لنستعرض ذلك بالترتيب. كيف تفعل لتفسر بأنّ الشيء قليل الأهمية؟

ـ تقول إنّه شيء تفعله النساء جميعاً، ليس له أي نتيجة من أن نوع كان، يعود المرء بعده إلى حياته المعتادة وينسى حتّى ما حدث. تقول إنّه شيء لا يختلف بالمرّة عمّا يحدث بين الفتاة وخطيبها، وما شاكل ذلك.

ـ ومسألة كونه محبّباً؟

ـ تصوّر الرجال دوماً متمتعين بجميع المزايا والصفات: الأناقة، اللطف، حسن التربية...

- والجانب المؤقت في الشيء؟

- الفتاة حرّة في ألا تعاود العملية أبداً، فليس عليها إكراه، ولا تلتزم بشيء. ثمّ إنّ الرجل ليس أي رجل كان، إنمّا هو شخص لحظها وبودّه لو يعرفها. والخلاصة: إنّ الشيء استثنائي ولن يحدث سوى مرّة واحدة، إلخ.

- وهل تقتنع الفتيات جميعاً بمثل هذه الحجج؟

- ليس جميعهن. لكن انتبه: إنّ كورا لا تتعرّض أبداً لفتاة لم توح إليها، منذ البداية، ببعض الأمل، مهما كان ضئيلاً. وإنّما ههنا تكمن مهارتها.

- كيف ذلك؟

- إنّها تتوصّل دوماً إلى أن تجعل من الحالة النفسية التي ما تزال نافرة، لكن غير سلبية، حالة نفسية مناسبة. ثمّ عندما لا تكفي الطريقة الناعمة، لا تتردّد كورا في استعمال الطريقة القوية.

- مثلاً!

- أمكنني مرّة أن أعيد بناء ما فعلته. فقد قبلت إحدى الفتيات في النهاية بعد تردّد طويل. فأعطتها كورا العنوان، وأعلمتها باليوم والساعة. وبعد بضع لحظات اتصلت بها الفتاة هاتفياً: لقد فكرت في الأمر وهي لا تشعر في نفسها بالاستعداد... فماذا تظن كورا فعلت؟

- أهددتها؟

- كلا، أكرهتها.

- أكرهتها؟

- أجل، هرولت إلى منزل الفتاة، فوجدتها جالسة إلى المائدة مع والدها ووالدتها وأخوتها وأخواتها، وقالت لها إنّها جاءت تأخذها

لما لست أدري أي سبب مستعجل. ولم تجرؤ الفتاة، وقد تملكها الخوف والخجل، على معاكستها، فتبعتها. وهكذا انتصرت كورا. فكّر بتلك الجسارة، بذلك الفجور، في منزل الفتاة، بمواجهة أهلها! وأخيراً نصحت الأم نفسها ابنتها المشاكسة بالذهاب مع كورا، بناء على الدافع الذي اختلقته هذه الأخيرة. لم تكن الفتاة تريد، لكن كورا استنجدت بمساعدة الأم لتكسر إرادتها.

- ثمّ؟

- ثمّ ماذا؟

- إلامَ انتهت، تلك الفتاة؟

- أعتقد أنّها عزّت نفسها وبقيت متعلقة بأمي. ومن ذلك اليوم لم تعد تبدي مقاومة.

- لكن كيف تفعل كورا عندما تتكلم بالهاتف؟

- ماذا تعني؟

- كيف تتصرّف؟ هل تتكلم كثيراً؟ أم قليلاً؟ هل ترفع صوتها؟

- في غالب الأحيان تصغي، إنّها تعرف كيف تصغي وكيف تحصل على الأجوبة التي تصغي إليها. إنّها تتكلم بصوت خافت، من دون أن تفترق أسنانها فيما بينها، كالكاهن في كرسي الاعتراف، بلهجة متعادلة، مقتضبة، موزونة دوماً. إنّها لا تقول من الأشياء إلّا ما قلّ ودلّ، ولا ترفع صوتها أبداً، كما أنّها لا تغضب ولا تفقد أعصابها أبداً، إنّ قوّة كورا تكمن في كونها لا تبدي كبير اهتمام.

- لعلها لا تهتم.

- إنّها تهتم ولا تهتم في آن واحد.

- لكن أنت، عندما تتكلم في حضورك، تبدين وكأنّك معجبة بها.

- كلا، إنّني لا أعجب بها.

- ترين أنّها ماهرة.
- إنّها الحقيقة.
- لكن ألا يحرجك الكلام عن هذه الأشياء، ألا تشمئزين؟
- كلا.
- لماذا؟
- لأنّها، بعد كلّ شيء، أشياء كغيرها...
- ماذا تعنين؟
- أعني أنّه إذا كان هناك شخص يحق له، في هذه الحالة، ألا يكون مشمئزاً، فهو أنا، ما رأيك؟
- أنت على حق.
- ثمّ إنّ كورا، كما قلت لك، أُمي!
- أجل، إنّها أمك، بيد...
- ويخيّل إليّ أنّني أحبها على وجه التحديد لأنّها تقوم بتلك المهنة ولا تتخفى منّي، ولأنّني أرى ذلك وأعلمه...
- لكن، أخيراً، أولئك الفتيات...
- مثلي معها عندما تتعرّى وتريد أن تأخذ حمامها ويكون من واجبي أن أجففها وأدلكها بمنشفة. إنّني أدرك آنذاك أنّها لم تعد في ريعان العمر، وأنّها صائرة إلى الذبول والأفول. أدرك أنّه من الممكن أن تبدو باعثة على الاشمئزاز. لكن لما كانت أمي ولما كنت أحبها كما تحب البنت أمها، لذا يخيّل إليّ أنّ حبّي لها يتعاظم على وجه التحديد لأنّها أمست هرمة، متداعية، منفرة.

كانت تنظر إليّ وهي تكلمني، جفناها نصف مسبلين على عينيها الواسعتين الخضراوين الزرقاوين بتعبيرهما المداهن المتناوم. كنّا نتمشّى على ضفة التيبر، قرب ساحة مازيني، ننزّه الكلب: ذريعة جديدة لتطبيق خطة العلاقات العائلية. ونظرت بابا إليّ، ثمّ رفعت

أصبعيها إلى فمها وأطلقت، بحذاقة تحير اللب، صفيراً حاداً مصماً. وسرعان ما عدا الكلب إلينا، بعد أن كان قد ابتعد، وراح ينبح خلفنا بفرح.

الأحد ٨ تشرين الثاني

طوال بضعة أيام فكّرت بالأمر من حين إلى آخر من غير أن أحزم أمري. وفي النهاية، أي اليوم، خرجت من بيتي وركبت سيّارتي واتّجهت نحو شارع كاسيا.

كانت الساعة تقارب الخامسة بعد الظهر، وكانت تلوح لي في الجو، كما هي العادة، نذر ليلة عاصفة. وقطعت مونت ميلفيو وتغلغلت بين الرتل الطويل من السيّارات الخارجة من المدينة، ثمّ رحت أسوق ببطء، في نوع من الحذر. وكان الظلام قد بدأ يخيم تحت قبة أوراق الشجر الحمراء والصفراء التي تشكلها أغصان الدلب بتعانقها فوق الطريق.

بينما كنت أقود كإنسان مسيّر في نومه إلى حد ما، تساءلت بيني وبين نفسي عن سبب ذهابي إلى منزل كورا. وكان الجواب الأوّل هو حتّى يصبح ذلك الشيء الذي لم أصدقه بعد، أعني مهنة كورا السرية، مألوفاً عندي. كنت أريد، إذا جاز التعبير، أنّ أراها بأم عيني، أنّ ألمسها بيدي، أن أسمعها بأذني، أن أشمها بمنخاري، وهذا كيما ألغي من الوجودي تلك المسافة من الاشمئزاز التي تجعلها تبدو لاواقعية على وجه التحديد لأنّها بغيضة مقيتة. لكن عند إمعاني في التفكير تكشّف لي دافع ثانٍ: أنّني أريد رؤية منزل كورا لأنّ كورا قادت إلى منزل مشابه، قبل ستة أعوام، بابا ذات الأربعة عشر ربيعاً.

وفكّرت آنذاك من جديد فيما قالته لي كورا عن طريقتي في الحب، عن الرغبة التي كانت لي في مضاجعتها في ذلك المسكن الحقير في الضاحية. وفهمت أنّ الحافز نفسه أو المخطط نفسه يتكرّر

اليوم. كلّ ما هنالك أنّ ما جذبني في الماضي إلى مسكن الضاحية الحقير هو فكرة الفقر المفهوم على أنّه أصالة، في حين أنّ ما يحفزني اليوم على زيارة منزل كورا هو فكرة العدم المتمركز فيه، العدم الذي يمارس فيه يومياً. وأنا لا أحب بابا إلّا لأنّ العدم يجد معها تعبيره الكامل التام في الحب السفاح. وأنا أعرف أنّني أستطيع مع بابا، إذا شئت، أن أغوص إلى قرارة هذا العدم.

على حين غرة توقفت سيّارتي من تلقاء نفسها إذا صحّ القول، أو لعلني شددت الفرامل عن غير انتباه لاستغراقي في تأمّلاتي. وآنذاك نظرت. كان ينتصب أمامي شرطي سير سبط القامة، مخلع الأطراف، يضع راناً وحزاماً وخوذة من الجلد، يوجه السير بواسطة شارة حمراء وخضراء. وكانت سيّارات كثيرة قد توقفت بانتظار السماح لها باستئناف المسير. وكانت في أحد جانبي الطريق سيّارة خدمات صغيرة تالفة الغطاء، ثمّ الإسفلت الأسود، المبقع، كجلد فهد، بأوراق الشجر الميتة المصفرة المترأرئة، وبحطام زجاج دقيق. ومن ثمّ سيّارة فاخرة، بيضاء الهيكل، طويلة وواطئة، معطوبة الرفرف وانتظرت حتّى استأنفت السيّارات سيرها، مارّة الواحدة تلو الأخرى كما لو أنّها في استعراض أمام شرطي السير، ثمّ تقدّمت بدوري. وتجاوزت المكان الذي وقع فيه الصدام وانعطفت. وأشار لي رجل كان يغذ السير بمحاذاة ردم الطريق. فتوقفت:

ـ هل تستطيع أن تأخذني في سيّارتك؟

نظرت إليه: وجه سوقي لكنّه غير منفر، وجه صاحب دكان روماني، شاب، نضر، ملون، دموي، عيناه في أم رأسه، لامعتان وجسورتان، ذو شعر أجعد، ضيق الجبين، وله فم أحمر شره التعبير عنيفه. وكان يضغط بإحدى يديه على كتفه. وكان يبدو عليه الوجع. وقلت:

ـ إنّني ذاهب جانبياً.

فأجابني:

ـ أنا أيضاً، على بُعد خمسة كيلومترات من هنا.

ـ اصعد إذن.

فصعد. وضغطت بقدمي على المسرّع وجرت السيّارة تحت الأشجار. وسألت:

ـ أأنت الذي وقع له الحادث؟

ـ كيف حزرت؟

ـ رأيتك تمسك بكتفك. سيّارتك هي البيضاء، أليس كذلك؟

كنت أنتظر بعض تعليقات عنيفة، إذ بدا لي أنّ راكبي هو من نوع الرجال المهووسين بحبّ السيّارات. لذا كانت مفاجأتي كبيرة عندما قال لي بكل هدوء:

ـ بلى، إنّها هي. لكن لم يحدث شيء. مجرد عطب في الرفرف ورضّة خفيفة في الكتف.

ـ أجل، بالنسبة إليك... لكن الآخرين؟

ـ أواه! لقد استقلوا الباص. مجرد إصابة في غطاء سيّاراتهم.

ـ لكن على من الخطأ؟

لم يكن ينظر إليّ وإنّما كانت عيناه شاخصتين أمامه يتلألأ فيهما وميض ساخط من نفاد الصبر. ومن دون أن يلتفت أجاب:

ـ إنّه غلطي أنا... كنت مستعجلاً. أردت تجاوزهم فاصطدمنا. كانوا على يمينهم.

وتفاجأت من جديد بالطريقة الموضوعية والعقلانية التي أقرّ بها بأخطائه، وهذا شيء مستغرب لدى شخص من طرازه. وفكّرت: اللهم إلّا إذا كان هذا الموقف قد أملاه عليه شيء أهم بالنسبة إليه من سيّارته، شيء أوجب عليه السرعة فكان السبب غير المباشر في الحادث.

- هل أنت مؤمّن؟
- أجل.
- لكن التأمين سيدفع أضرار الغير لا أضرارك.
- بالطبع! مؤكد.

وأمسكنا عن الكلام طوال كيلومتر. وفجأة وضع يده على ذراعي:

- ها قد وصلت. قف لي هنا من فضلك.

ونظرت عبر زجاج السيّارة الذي بدأت تنسحق عليه أولى قطرات المطر العريضة المتفتحة كبراعم الزهر، تعرفت، وقد اجتاحني إحساس بحتمية القدر يبعث على الغثيان، بوابة فيلا كورا. بيد أنّ الرجل، الرشيق والنافد الصبر، كان قد فتح باب السيّارة وقفز منه:

- شكراً على تلطفك.

وتظاهرت بأنّني أواجه صعوبة في تبديل علبة السرعة، ولبثت أنظر إليه بينما كان يتجه، بعد أن رفع قبّة مشمعة على رقبته، نحو البوابة ويدفعها ويختفي. ثمّ دعست على المسرع وانطلقت. وجرت بي السيّارة مسافة عشرين كيلومتراً تقريباً. وتحوّل المطر، بعد ذلك الإزهار الأوّل الشبيه بإزهار أقاحٍ صغيرة سائلة، إلى وابل غزير لكن شفاف تمكّنت ماسحة الزجاج من أن تخلق فيه، لوهلة، مثلثاً من المنظورية. ثمّ اشتدّ الطوفان وانضاف إليه ضباب شاحب فائر. فتوقفت ورفعت زجاج الباب وأشعلت سيجارة.

فكّرت بصاحب الدكان الشاب وبما يفعله في هذه اللحظة؛ تخيّلت الغرفة المعتمة كهفاً محصناً منيعاً، والمطر خلف الزجاج الغائم، وجسد المرأة العاري الدافئ لصق جسد الرجل، والحب الصامت، وهزيم العاصفة. وفهمت من جديد بالحدس نفسه أنّ الفتى إنّما كان يتوتّر ويصبو إلى هذا كلّه بجزع دمه الفائر بينما كنت أحدثه عن الحادث والأضرار والتأمين.

دخنت سيجارة، ثمّ أنزلت الزجاج لأرمي بعقبها ثمّ أعدت إغلاقه وأولعت سيجارة أخرى. كانت السماء ما تزال تهمي بغزارة، لكن المطر لم يعد كثيفاً إلى حد يحول دون الرؤية، كما منذ لحظات. وأدرت المحرك من جديد، وأقلعت السيّارة، وجرت بي حوالي عشرين دقيقة حتّى وصلت إلى مفرق طرق تصطف على حافته أربعة أو خمسة منازل قروية. وأوقفت السيّارة ونزلت منها، ودلفت إلى مقهى صغير تحت المطر الذي كان قد بدأ يخف وأنا أقفز من غدير إلى آخر. كان صاحب المقهى القروي يثرثر مع زبونين أو ثلاثة، قرويين هم أيضاً؛ وجلست في أحد الأركان، إلى طاولة أنبوبية الشكل مهتزة متداعية، وغاصت قدماي في نشارة الخشب التي فرشت بها الأرضية، وطلبت قهوة.

كانت الساعة تشير إلى السادسة إلّا ربعاً، وحسبت أنّ الفتى قد دخل في حوالي الخامسة إلّا ربعاً إلى منزل كورا، وأنّ عملية الجماع لم تستغرق أكثر من نصف ساعة، أو ثلاثة أرباع الساعة على الأكثر. إذن فعليّ أن أنتظر عشرين دقيقة أيضاً.

وحمل لي صاحب المقهى فنجان القهوة، فاحتسيته، ثمّ تناولت صحيفة من طاولة مجاورة. كانت جريدة مصوّرة مدعوكة وملطخة تحتوي على رواية سينمائية تحت عنوان «عودة الماضي». وقرأتها أو بالأحرى تأمّلت الصور واحدة واحدة، دارساً إياها بانتباه، فاكّاً ألغاز العبارات الخارجة من أفواه الأشخاص.

كان البطلان، وهما شاب صبيح الوجه وفتاة ناعمة الملامح، أنيقا المظهر، أساريرهما تعبّر بالتوالي عن انشغال البال والحزن والجوى والحلم والحنان والغضب لكن بوقار ووجاهة دوماً، يعيشان مغامرتهما في غرف شقتيهما الصغيرتين المفروشتين بأثاث حديث سويدي الطراز. وقد كان للفتاة، على ما فهمت، عشيق كتمت أمره

على خطيبها. وذات يوم ظهر العشيق من جديد وراح يهدّد الفتاة التي وجدت نفسها مكرهة على الاختيار بين حلين: إمّا شراء سكوت عشيقها باستسلامها لرغباته، وإمّا مصارحة خطيبها بالحقيقة كلّها تحت طائلة هجرانه إياها، هي التي يحسبها طاهرة الذيل. وفي لحظة محددة تتدخل بين البطلين سيدة عجوز وقور ذات شعر أبيض مدروس تماوجه، تضع نظارتين وترتدي ثوباً أسود: أمّها أو أمه... ولم أتمالك نفسي عن التفكير: «ماذا لو كنت أحيا مغامرة كهذه؟ ماذا لو كان اللاأصيل كامناً كالعادة في صميم الأشياء؟ ماذا لو كان الواقع لاواقعياً في تكوينه بالذات كما في هذه المجلات المصوّرة؟ وماذا لو كانت دلالته كامنة لا في الأحداث وإنّما في لاوقعيتها بالذات؟ ولم آتِ بجواب لهذه الأسئلة التي لم تكن بحاجة إليه أصلاً، وتابعت مطالعتي المثيرة للاهتمام. وعندما وصلت إلى صورة تمثّل الأم وهي تحثّ ابنتها على الاعتراف بكلّ شيء لخطيبها قائلة لها: «كلّميه، قولي له الحقيقة. وإذا لم يتحمّل الحقيقة فهو غير جدير بك»، ناديت صاحب المقهى ودفعت له وخرجت. كان المطر قد انقطع، وكانت الغدران السوداء المتناثرة على الطريق تعكس باطمئنان أنوار المصابيح العامّة الصفراء. كان الهواء رطباً، ناعماً، شبه دافئ، تخترقه نفحات واهنة متقطعة من ريح أكثر برودة. وصعدت إلى سيّارتي، ودرت نصف دورة بها ورجعت أدراجي باتجاه روما. وبعد عشر دقائق كنت أمام بوابة كورا.

ونزلت، ووجدت البوابة منفرجة، فدفعت المصراع وتقدّمت في المشي بين صفين من شجيرات تتساقط منهما قطرات الغيث ويتطاير منهما الشرر. وواصلت مسير إلى أن رأيت على علوة صغيرة القسم الأعلى من الفيلا، ثمّ مع تقدّمي القسم الأسفل، وأخيراً أطللت عليها كلّها. وعندما نظرت إلى واجهة الفيلا التي تنيرها بوهن من الأسفل

إلى الأعلى كرتان ضوئيتان، فهمت لمَ فضّلت كورا استئجار هذا المنزل على غيره. لا ريب في أنّ تواضع سعر الإيجار قد جذبها، لكن لا ريب أيضاً في أنّ هذا السعر المنخفض الاستثنائي يرجع إلى أنّ المالك قد تبيّن، بعد أن شاد المنزل، أنّه أخطأ كلّ الخطأ، فسعى إلى الخلاص منه بأي ثمن. وبالفعل كانت تفوح من هذا البناء الكبير والثقيل الذي لا يمكن أن يسكنه من لا ادعاء عنده والذي لا يمكن في الوقت نفسه اعتباره فيلا فاخرة بسبب غلاظته، أقول كانت تفوح منه رائحة غلطة لا سبيل إلى علاجها، رائحة خطأ مميت. فقد بنيت هذه الفيلا بالأسلوب الذي كان رائجاً قبل ثلاثين عاماً، والمسمّى بأسلوب ١٩٠٠ أو الأسلوب الفاشي المعرّى الخشن. وكانت الواجهة، المجصّصة بلون رمادي كئيب، والصقيلة الخالية من أي إفريز، والملطخة ببقع كبيرة من الرطوبة، والمخططة من الأعلى إلى الأسفل بأخاديد صفراء خلفتها الأنابيب الصدئة، كانت مجنحة ببرج أو ما يشبه البرج، يضفي عليها سحنة صارمة ونفعية تجمع بين مظهر صومعة الحبوب والقصر الوسيطي الصغير. ووراء الشرفتين الدائرتين حول الواجهة كانت النوافذ مغلقة وبلا نور. ولاحظت أنّ الباب، بين المصباحين الكرويين، منفرج مثل البوابة، وللأسباب نفسها بلا ريب. واجتزت بسرعة الباحة الصغيرة التي أمام المبنى، ودفعت المصراع ودخلت. كان داخل الفيلا لا يختلف إلّا قليلاً عن مظهرها الخارجي: نفس انعدام الأناقة، نفس العري ونفس الأخطاء في البناء: دهليز طويل عارٍ مصفح بخشب داكن اللون، باب زجاجي غير مصقول، وأخيراً درج وعر وضيق كأنّه ضائع في سماكة الإسمنت. وفي أعلى الدرابزون الأوّل كانت تقبع فتحة غير منتظرة مؤطرة بزجاج ملون بالأحمر والأخضر والأسود، يمثل الخضر وهو يصرع التنّين. وارتقيت الدرج الأوّل ثمّ الثاني، ووجدت نفسي في رواق يتفرّع عنه ممشيان

عاريان ضيقان تصطف عند كلّ واحد منهما أربعة أبواب تضيئها مصابيح على شكل أقماع من البلور المحجر. وفي تلك اللحظة انفتح باب في ممشى الشمال، وبمثل لمح البصر قذفت بنفسي إلى الوراء واختبأت حول قوس يحدّ الرواق.

قدّمت رأسي بحذر وأنا أشدّ نفسي إلى الحائط، ولمحت على عتبة الباب الفتى الذي اصطحبته معي قبل قليل وامرأة عارية تماماً. كان الرجل يدير لي ظهره، لكنّني كنت أرى المرأة مواجهة تقريباً. كانت طويلة منتظمة التقاطيع، عريضة الكتفين، قوية الذراعين، سبطة القامة، مشدودة الساقين. وكان لها رأس شعبي جميل: عينان سوداوان طويل شقهما، أنف ممشوق، فم واسع، وبكلمة واحدة ملامح معبرة بسيطة. وكانت سمراء كثة الشعر حول هامتها وتحت إبطيها وعلى عانتها. وكانت عتمة الممشى تبرز بالمقابل بياض بشرتها. كانا واقفين وجهاً لوجه، ثمّ وضع الفتى يديه على كتفيها وقبّلها أو ربّما عضّ عنقها، لأنّ المرأة أطلقت صيحة، وتلوى جسمها كلّه بينما هي تشدّ نفسها إليه. ثمّ افترقا وقالت:

ـ شياو... أتعرف، إنّني أخاف من البقاء بمفردي في هذا البيت المعتم اللعين.

فأجاب بصوت غليظ رجولي:

ـ لو كانت معي سيارتي لاصطحبتك. لكنّها ستبقى لمدّة من الزمن لدى الميكانيكي.

ـ إذن، انتظر لحظة. سأستدعي تاكسياً وسنذهب معاً.

ـ شكراً، لا حاجة إلى ذلك، سأستقل الأوتوبيس. هناك موقف بالقرب من هنا.

ـ لِمَ لا تبقى؟ سننام معاً. جميل أن ننام معاً.

ـ كلا، ينبغي حقاً أن أذهب.

ورأيت يد الغلام تداعب بحسرة وبعطف تقريباً كشح الفتاة، زاحفة من الفخذ حتّى الخصر. وقالت المرأة:

ـ أنا لا أعرفك. لم أرك قط. لا أدري من أنت، ومع ذلك يحزنني أن أغادرك. شيء غريب، أليس كذلك؟

ـ ليس غريباً إلى هذا الحد بعد كلّ شيء.

ـ لمَ ليس غريباً؟

ـ بحق الشيطان! لا شك في أنّني أعرف كيف أفعل.

ـ أفٍ! يا للغرور! لكنّنا سنلتقي ثانية، عدني بأنّنا سنلتقي ثانية.

ـ بالتأكيد، سوف أتصل هاتفياً بالمعلمة.

ـ أنت تقول ذلك هكذا...

ـ كلا، إنّني أتكلم جاداً.

ـ لمَ لا تأتي للقائي في سينما ألاسكا؟ إنّني أعمل فيها كمرشدة للمتفرجين يومياً، ما عدا الأحد والخميس. بعد المناظر، أكون حرة.

ـ طيب، إذا مررت من هناك...

ـ فهمت، اذهب... أنت لن تأتي.

ـ بلى، بلى... بإمكاني أن آتي.

ـ إذن، شياو. وشكراً.

ـ علامَ الشكر؟

ـ شكراً على أنّ ذلك كان جميلاً جداً... شياو... شياو...

وانحنى، وقبّلها أو عضّها من جديد في عنقها، واختلجت وهي تخنق قهقهة، ثمّ حزرت من اليد التي مدّتها إلى الأسفل الحركة التي قامت بها. وبالفعل هتف الرجل شبه غاضب:

ـ أي! ماذا أصابك! لقد أوجعتني.

فأجابت ضاحكة:

ـ بالضبط، أردت أن أوجعك.

فقال آنذاك بسرعة:

ـ طيب! شياو، شياو، إلى لقاء قريب.

وابتعد عنها مطرقاً عينيه، ونزل الدرج واختفى.

شاهدت المرأة تقترب من الدرابزون وتنحني وترسل تحيّتها رافعة ذراعها بكلّ استقامة. ثمّ دارت على عقبيها وأسندت ظهرها إلى الدرابزون ومطت ذراعيها في حركة تثاؤب كبيرة. وشعرت من خلال هذا التثاؤب المبلبل المخدر بارتواء اللذة التي أخذت وأعطيت للتو، وفهمت أنّها لم تكذب عندما قالت: «كان ذلك جميلاً جدّاً!»، وبخطى وئيدة عادت أدراجها باتجاه الباب ودخلت الغرفة. وانطبق الباب.

انتظرت دقيقة أو دقيقتين، من غير جزع، مفكّراً بأنّه لو لمحتني الفتاة لما كان حدث شيء باستثناء المفاجأة الطفيفة التي كانت ستبدر عنها، تماماً كما يحدث عندما يتلقي في مكان عام شخصان لا يعرف أحدهما الآخر، لا كما يكتشف المرء في الدار التي يسكنها مجهولاً تسلل إليها خلسة. وفي النهاية خرجت من مخبئي ونزلت الدرج. وبعد لحظات كنت في السيّارة.

في طريق عودتي إلى روما تابعت تأمّلي وفهمت أنّ زيارتي للفيلا قد كشفت لي النقاب عن واقع مغاير للتخيلات التي حفزتني على هذه الزيارة. فما إن وطئت قدماي الفيلا حتّى نسيت بابا ولم أعد أفكّر إلّا بالعشيقين اللذين ودّعا بعضهما بعضاً أمامي. لقد كذّب ما رأيته الفكرة الشائعة القائلة إنّ هذه اللقاءات المرتزقة دنسة الطابع؛ والواقع أنّني دخلت إلى ما يشبه المعبد المفتوح لجميع الناس وأمكنني أن ألمح شيئاً شبيهاً بالعبارة الأخيرة من طقس ليس المال فيه (كما في جميع الطقوس أصلاً، أدينية كانت أم لم تكن) هاماً ولا حاسماً بالرغم من

أنّه لا غنى عنه. وهكذا تأكّد لي، بنوع ما، ما قالته بابا عن كورا: إنّ نشاطها هو في صميمه متجرد، وإنّها تعيش في عالم تعتبره خير عالم ممكن لأنّه وحده الواقعي، وإنّها مقتنعة بالتالي بأنّها لا تأتي أمراً إداً، بل على العكس تؤدّي عملاً صالحاً بتسهيلها صلات الغير الجنسية، حتّى ولو شاءت الصدفة أن تكون هذه الصلات بين ابنتها ذات الأربعة عشر ربيعاً وبين زبون عابر.

الخميس ١٢ تشرين الثاني

إنّ إحدى النتائج غير المتوقعة للتعهد الذي أخذته على نفسي بكتابة يومياتي بهدف استخلاص رواية منها في المستقبل هي أنّ سلوكي قد أخذ يعاني بصورة غير مباشرة من تأثير هذا المشروع. وبعبارة أخرى، بات يحدث لي أكثر فأكثر أن أتساءل لحظة إقدامي على فعل ما: «ترى هل سيعدل ما سأفعله، وما سأسجله بالطبع في يومياتي، هل سيعدل بصورة سلبية، وعلى كلّ حال بصورة نهائية لا سبيل إلى إصلاحها فيما بعد، الرواية التي أزمع كتابتها؟ ترى لو واجهت، على سبيل المثال، كورا كما كان سيفعل أي رجل آخر مكاني، بدلاً من سيطرتي على احتقاري وازدرائي وإرجائي إلى ما بعد توضيح الوقائع، ألا أكون قد قمت بعمل سيحرف بصورة لا مناص منها، عندما سأثبته في يومياتي، روايتي المستقبلة نحو الرواية الصحافية الخفيفة، نحو الرواية السينمائية؟».

هذه هي على ما أعتقد، الميزة الحقيقية للمثابرة على كتابة يوميات ذاتية بهدف استخلاص رواية منها فيما بعد. وبخلاف ما يمكن للبعض أن يظن، لا يلعب هذا المشروع دور حافز على القيام بأعمال محددة مقصودة بهدف تثبيتها في الرواية (فمثل هذا لن يكون سوى شكل من أشكال النزعة الجمالية، بل الأسوأ من ذلك سيكون عملاً صحافياً من الدرجة الثالثة)، إنّما هو حجر محك لكلّ ما يجب أو لا

يجب أن يفعل في الحياة. وهكذا يتوكد ما سبق لي أن قلته: مع مرّ الزمن أصبحت هذه الرواية بالنسبة إليّ طريقة في فهم الصلة بالواقع. فأنا العاجز عن العمل بأصالة، أستعيد الأصالة، كما لو بسحر ساحر، كلّما تموضعت روايتي المستقبلة بيني وبين الواقع.

لقد جاءتني هذه الفكرة اليوم وأنا أفكر بسلوك بابا تجاهي إبان الأيام الأخيرة. فبابا حريصة، كما قلت، بوعي وانسجام، بل سأقول بنوع من الدوغمائية، على أن نكون أنا وهي أباً وابنة. وهناك في قرارة هذه الإرادة (أمكنني أن ألاحظ ذلك) شيء محرق عميق يصحّح جزئياً الطابع المنهاجي في هذه الإرادة. وهي تضعنا، في الوقت نفسه، وربّما من غير قصد، أقول تضعنا باستمرار، هي وأنا، في مواقف ملتبسة يمكن أن تسمح لنا بلا تمييز بأن نتصرّف إمّا كأب وابنة، وإمّا كعاشقين، وإمّا (وهذا أسوأ الاحتمالات) كأب وابنة عشيقين.

وبالمقابل، فإنّ هذا كلّه هو بلا ريب غير شعوري وغير إرادي عندها، في حين أنّه واضح جلي حاضر عندي. إنّني أعرف أنّني أبوها أو على الأقل أعرف أنه يتفرض فيّ أن أكون أباها، وأعرف أيضاً أنّني موله بها، وإنّني أرغب أحياناً من كلّ قواي في أن أكون عشيقها.

إنّ الطريقة التي تحاول بها بابا أن تكون بالنسبة لي ابنة وأن تملي عليّ سلوك الأب تتخذ أحياناً مظاهر في غاية الغرابة يخيّل معها للمرء أنّها تنشد هدفاً معاكساً تماماً. فأنا على سبيل المثال لا أخرج ليلاً إلّا فيما ندر لأنّني اعتدت على كتابة مقالاتي في السهرة وحتّى الساعات الأولى من الفجر. وبالعكس منّي غالباً ما تخرج بابا مع سانتورو ومجموعة من الصديقات والطلبة. والحال أنّ بابا اعتادت منذ نحو أسبوع، عند عودتها في ساعة متأخرة، في منتصف الليل أو في الساعة الواحدة، وبعد أن تخلع ثيابها وتستعد للنوم، اعتادت أن تدخل إلى غرفتي بقميص النوم من غير أنّ تقرع الباب وهي تمشي

على رؤوس أصابعها، وتأتي من ورائي وتطوق عنقي بذراعيها. إنّ قبلة منتصف الليل هذه هي، في نيتها، شيء عائلي وبريء كلّ البراءة. لكنّها تظل، بيننا، ملتبسة.

ذراعاها العاريتان الخضلتان المستديرتان تطوقان عنقي. شفتاها تحفّان خدي حفاً خفيفاً زلجاً، وأنفاسها تمرّ على جلدي الخشن المضطرب. شعرها الحي، القارص، يدغدغ عنقي وأذني. لكن هذا كلّه لا يدوم أكثر من لحظة خاطفة كافية لإثارة ظلّ من التباس. وما يكاد الصوت اللاهث الطوفي يقول لي «ليلة سعيدة، نم جيداً»، حتّى تكون بابا قد اختفت كما جاءت. وفي كلّ مرّة أفكّر بأنّها أرادت فعلاً أن تتمنى لي ليلة سعيدة، وبأنّها ليست خطيئتها إذا كانت طريقتها في فعل ذلك قد أوحت لي بنية مغايرة تماماً.

إنّ الإغراء قوي، يكاد لا يقاوم، لكنّي في كلّ مرّة أنجح في تمالك نفسي إذ يذهب بي الفكر إلى يومياتي، أو بالأحرى إلى الرواية التي أريد استخلاصها منها وأتساءل عمّا سيحدث إذا أصبحت عشيق بابا. إنّني أدرك أنّه سيبدو من الغرابة، ممّا لا يصدق، بل حتّى من السخف أن أفكّر برواية أكتبها في الوقت الذي يبدو فيه على المرأة التي أحبّ أنّها تعرض نفسها عليّ وفي الوقت الذي أجد نفيه نفسي إزاء إغراء قوي بانتهاز الفرصة السانحة. لكن الغريب واللامعقول والسخيف لن يبقى قائماً، على ما أعتقد، إذا ما تذكّر القارئ أنّ هذه الرواية ليست بالنسبة إليّ (سبق أن قلت ذلك) مجرد عمل أدبي وإنّما حقاً طريقة في فهم الصلة بالواقع. قد يسألني سائل عم أقصد بذلك؟ والواقع أنّني أقصد أنّ فكرة الرواية قد أصبحت بالنسبة إليّ نوعاً من الضمير، متولداً على وجه التحديد من الطابع المميز للضمير، أي من قدرته على إقامة صلة أصيلة بيني وبين الأشياء. فلولا تسلّط فكرة هذه الرواية عليّ، لما استطعت مقاومة إغراء صيرورتي عشيقاً لبابا. وهذا

لأنّني لو صرت عيشقها لعجزت عجزاً مطلقاً، أنا واثق من ذلك، عن تنفيذ مشروع روايتي.

وذلك أنّني أشعر عن يقين مطلق بأنّ أي ميكدة بيني وبين بابا، عندما ستنتقل من صفحات يومياتي إلى صفحات الرواية، ستحرف هذه الأخيرة بصورة محتمة نحو الأدب الجنسي المكشوف المرذول. وهكذا فإنّ مشروع روايتي يوقفني باعتباره الضمير الوحيد المتاح لي على الطريق الذي لا يستطيع فيه ضمير كرجل سوي أن يوقفني. وبالفعل، إنّ الرجل السوي فيَّ لا يملك أي مبرر ذي قيمة لمواجهة ومعارضة هذا الإغراء البالغ العذوبة البالغ الحرقة. وبالعكس، إنّ الروائي هو الوحيد الذي يستطيع أن يقول لي: «لا تفعل هذا. فلو استسلمت للإغراء، فهوذا ما ستفعله، معكوساً كما لو على سطح مرآة».

لكن لكي أبرهن على حقيقة ما أقوله على نحو أفضل ممّا تستطيعه هذه المحاكمات العقلية، فهوذا فصل من روايتي ضربته البارحة مساء على الآلة الكاتبة بينما كنت أنتظر دخول بابا إلى غرفتي كعادتها لتتمنّى لي ليلة سعيدة. لمَ نسخت هذا الفصل؟ لأنّني كتبته وكلّ نيتي أن أضع تحت عيني ما سأكون مضطراً إلى روايته في يومياتي ثمّ في روايتي إذا ما أصبحت عشيق بابا.

هوذا إذن الفصل الذي كتبته بدلاً من أن أصبح عشيق بابا أو بالأحرى كيلا أصبح عشيق بابا.

«... هذا المساء، كما في كلّ مساء، أشعر، عند اقتراب منتصف الليل، بأنّ عملي يذبل، يزداد غفلة وتفككاً، كتلك الأحلام التي يحلم بها المرء صباحاً عندما يتغلغل نور الشمس، إذ يدلف إلى الغرفة على حين غرة، في الحلم بالذات ويضفي طابع الحلم على ما يبدو واقعاً للإنسان الذي يحلم. والشمس في هذه الحالة هي بابا، أو

بالأحرى رغبتي في بابا التي كلّما اقترب موعد زيارتها تتعاظم (أي الرغبة) وتبعث في فكري بلبلة ماكرة لا تقهر.

وهأنذا أسمعها في النهاية تفتح الباب وتتحرّك في عتمة الممشى ثمّ تصدم كرسياً بخرقها المعتاد الأشبه بخرق الدب الوليد. وآنذاك داهمتني بغتة فكرة مصارحتها بالقول مرّة واحدة ونهائية. إنّه من الأفضل أن تضع حداً لزياراتها الليلة لا لأنّها لا توثق علاقاتنا كأب وابنته فحسب، بل أيضاً لأنّها، على العكس، تضعفها وتقوضها. وما كدت أفكّر بذلك حتّى بادرت إلى تنفيذه. فقد نهضت وفتحت الباب وهتفت في الظلمة موجهاً كلامي باتجاه بابا التي كنت ألمح خيالها في العتمة:

- بابا!

- آه! ما هنالك؟ لقد أخفتني.

- بابا، تعالي إلى هنا لحظة، أريد أن أقول لك شيئاً ما.

فردتت وقد تملكتها الدهشة والسرور معاً:

- تريد أن تقول لي شيئاً ما؟

ثمّ خرجت طائعة من الظلمة وسبقتني إلى غرفتي. كان السرير قد أعدّ حسب العادة. فرميت بيبجامتي تحت الوسادة وبسطت الأغطية من جديد، وأشرت لها بأن تجلس. كلّ ذلك بصمت، لأنّني أشعر الآن باضطراب عميق يعقد لساني. ورأيتها تخلع بحركات بطيئة سترة البحار التي ترتديها لتبقى في مايو أحمر وبنطال أزرق داكن، ثمّ تجلس منحرفة بعض الشيء ومرتفقة إلى الوسادة. وصلبت ساقيها ونظرت إليّ بعينيها الحاسرتين بكلّ هدوء وسكينة وقالت:

- حسناً! إنّني أصغي إليك.

خفضت ناظري ولمحت شيئاً لم ألحظه قط حتّى الآن: كانت تلمع بين ثنية بنطالها وحذائها، حول كعبها، سلسلة ذهبية، عريضة

بما فيه الكفاية، تتدلى من أحد الجوانب حتّى عظم الكعب. فسألتها مندهشاً:

ـ عجباً. . . هٰذه السلسلة. . . منذ متى وأنت تضعين هذه السلسلة؟

فخفضت عينيها ونظرت إلى كعبها برضى وأجابت:

ـ كنت أضعها في العام الماضي. ثمّ امتنعت عن ذلك. ولا أدري لمَ وضعتها من جديد هذا الصباح.

ونظرت من جديد إلى السلسلة التي تتدلى على نحو منحرف على هذا الكعب الغليظ بعض الشيء: شيء يدل على قلّة الذوق أو بالأحرى على ذوق من نوع خاص، ويوحي بصورة محتمة، على ما أعتقد، بفكرة المرأة المسترقّة أو بفكرة المرأة الفاتنة التي تخلب الألباب والتي ولّى زمانها بعض الشيء. وفيما كنت أنظر، شعرت مندهشاً بأنّ خديّ يلهبان وفهمت أنّه لم تعد بي رغبة، هذا إذا كانت مثل هذه الرغبة قد وجدت عندي قط، في مصارحتها بصدد زياراتها الليلية. وأخيراً قلت، ببلاهة:

ـ وماذا فعلت هذا المساء؟

ـ هذا المساء ذهبت مع سانتورو وعدد من الأصدقاء إلى بيت شاب.

ـ أي شاب؟

ـ أواه! أحد زملائنا في الجامعة.

ـ وماذا فعلتم؟

ـ ما نفعله عادة.

ـ أي؟

ـ استمعنا إلى أسطوانات ورقصنا وثرثرنا.

ـ أتسليت؟

ـ أجل، بالتأكيد. لمَ تسأل ذلك؟

ـ أواه! لا لسبب محدد. عمّ تحدثتم؟

نظرت إليّ بابا نظرة مداهنة مرائية ولزمت الصمت. ورأيت أنّ جسمها، بسبب عرض السرير وعدم وجود أي نقطة ارتكاز، قد انزلق إلى أمام، فباتت شبه ممددة، معروضة البطن، على ما خيّل إليّ، تحت نسيج بنطالها المشدود، وساقاها متباعدتان بعض الشيء. وجلست بجانبها، ثمّ بحركة مفاجئة جزعة لا تقاوم نهضت ودرت حول السرير هذه المرّة بل على الأرض، على السجادة، مقابل ساقيها. وأخيراً أجابت بابا:

ـ عمّ تحدّثنا؟ عن كلّ شيء قليلاً. تصوّر أنّنا تحدّثنا عنك بالذات.

ـ عنّي؟

قلت ذلك ساهياً كما لو أنّ بالي مشغول، وأمررت في الوقت نفسه إصبعي بين كعب بابا وسلسلتها الذهبية، وشددت قليلاً كأنّني أريد تحطيم السلسلة. ورمقتني بابا بنظرة جانبية وأجابت:

ـ أجل، دارت بصددك مناقشة.

ـ أي نوع من المناقشة؟

ـ هاجمك شابان، اثنان من أصدقائي، فدافعت عنك.

ـ دافعت عني؟

ـ بالتأكيد: من واجب الابنة أن تدافع عن أبيها.

هأنذا الآن أسند وجهي إلى ركبتيها، أطوق بذراعي المرفوعتين خصرها، وراحتا يدي على قفلي بنطالها السحابين. قلت مطأطئاً جبهتي:

ـ من واجب الابنة أن تدافع عن أبيها، هذا صحيح، بالتأكيد، ولا صحيح بعده. وماذا قال عنّي هذان الشابان؟

أفضل ألا أقول لك ذلك.

ـ لمَ؟

ـ لأنّهما قالا شيئاً مزعجاً لا يجدر بي أن أكرره.

أمسكت يداي بلساني السحابين واستعدتا، كما لو أنّهما تنتظران كلمة الأمر، لسحبهما نحو الأسفل. وألحت:

ـ هذا عندي سيان. أريد أن أعرف ما قالاه.

ـ حسناً! إنّهما يلومانك على انقلابك، على تحوّلك من اليسار إلى اليمين، على انتقالك من صحيفة اشتراكية إلى صحيفة محافظة. قالا إنّك فعلت ذلك بدافع المصلحة.

ـ وماذا قالا أيضاً.

ـ لكن لمَ إصرارك على معرفة ذلك.

ـ الأمر يهمني.

ـ على رسلك! قالا إنّك... أتريد حقاً أن تعرف اللفظة المضبوطة؟

ـ أجل.

ـ قالا إنّك نذل. هأنتذا تعرفها الآن. فأي فائدة لك في ذلك؟

لعل كلمة الأمر المنتظرة هي هذه المسبة بالنذالة. أعتقد ذلك، لأنّه بينما كانت بابا تلفظها، بشيء من الحرج، وكأنّ للتعبير في نظرها معنى مغايراً للمعنى الذي له عادة، شدت يداي إلى الأسفل لساني السحابين، زلقتاهما بلا صعوبة على الصفين المسننين المعدنيين، وانفتح البنطال من الجانبين كما انفتاح قشرة الثمرة، كاشفاً عن نسيج السليب الأزرق الشاحب، الشفاف والصقيل. ورفعت نظاري: إنّ بابا شبه ممددة، ينتصب قسمها العلوي على مرفقيها، وذقنها غائرة في صدرها، وجسمها مقذوف إلى أمام، حاسرة النظر، مرائية من الجائز، كأنّها تحفظ كرامتها بتجاهلها ما يحدث لجسمها تحت الخصر.

وكررت:

ـ نذل... ودافعت عنّي؟

ـ أجل.

ـ بحرارة؟

ـ أجل.

ـ لكنّك، في قرارتك، كنت توافقين الشابين، أليس ذلك؟

ـ كلا، لم أكن أوافقهما.

ـ صدقاً؟

ـ أجل، صدقاً.

أمسكت بطرفي البنطال على الخاصرتين وشددتهما فجأة إلى الأسفل.

وظهرت تحت نسيج السليب الشفاف السرة الداكنة الشبيهة بدمغة مثقب مستطيل، الغارزة في لحم البطن الفتي المنور. وشددت من جديد وتجلّى مثلث العانة المنتفخ اللكيك. وقلت حاني الرأس:

ـ أتعرفين كيف كنت أسمّيك بيني وبين نفسي قبل ستة أعوام عندما بدأت لا أطيق الحياة مع كورا؟

ـ كلا.

ـ كنت أسمّيك بنت الحرام.

ورفعت عيني ونظرت إلى بابا. فابتسمت ابتسامة محرجة ثمّ قالت هائزة:

ـ فكرة لطيفة من أب بصدد ابنته، أليس كذلك يا فرانشيسكو؟

فأجبت غريزياً:

ـ أنت لست ابنتي.

ـ على كلّ الأحوال، ابنة زوجتك.

فقلت بحنق:

ـ لا ابنتي ولا ابنة زوجتي. أنت لست إلّا ابنة حرام.

ورفعت من جديد ناظري. إنّها ممددة الآن بكاملها، ذقنها مدسوسة في صدرها، ساقاها متباعدتان، عارية من الخصر حتّى

الركبتين، تبتسم لي ابتسامة متألمة كابتسامة حيوان يحتضر. ثمّ لفظت ببطء:

ـ أبٌ يعرّي ابنته.

ـ ألا يعجبك ذلك؟

ـ زوج أم يعرّي ابنة زوجته.

ـ ألا يعجبك ذلك؟

ـ نذل يعري ابنة حرام.

ـ ألا يعجبك ذلك؟

ورأيتها تهزّ رأسها كأنّها عاجزة عن الكلام، ومن جديد خالجني شعور قاسٍ بأنّني أمام حيوان جريح حتّى الموت... فنهضت...

كما سبق وذكرت، اختلقت هذا الفصل المقتضب البارحة حتّى أعي تمام الوعي معنى صيرورتي عشيقاً لبابا على صعيد الواقع. ثمّ أعدت قراءته وكتبت صفحات أخرى لأورد في يومياتي الملاحظات التي أتيح لي أن أصوغها تدريجياً. وهذه هي الملاحظات:

«هذا الفصل جنسي مكشوف، لكن الأدب الجنسي المكشوف لا يكمن في الطريقة التي وصفت بها علاقاتك مع بابا بقدر ما يكمن في هذه العلاقات نفسها التي هي ما هي والتي يمكن بالتالي حذفها لا تبديلها، وبوجه خاص، يتأتى الطابع الجنسي المكشوف لهذه الصفحات من الدوافع التي تجعلك تشتهي بابا، أي:

١ ـ ما كادت بابا تعود من سهرتها حتّى أسرعت تدعوها قائلاً إنّك تريد مكالمتها. وقد أقنعت نفسك بنفسك بأنّك تريد رجاءها بأنّ تكف عن زيارتك ليلاً للتمنّى لك ليلة سعيدة. لكن لمَ كلّ تلك العجلة طالما أنّ بابا ستأتي من تلقاء نفسها على كلّ الأحوال لتقبلك القبلة البنوية اليومية؟ ثمة سبب لذلك. فبابا الآن ترتدي قميصاً وبنطالاً، وعمّا قليل ستكون في قميص النوم. والحال أنّ صورة بابا التي تتركز

عليها شهوتك هي صورة فتاة في زي الرجال، لذا فأنت لا تريد أن تذهب بابا لتخلع ثيابها، وتحرص على احتفاظها بملابسها الرجالية التي كان ترتديها أثناء النهار.

٢ ـ سوار الكعب. إنّه، اللوهلة الأولى، لغز لا حل له تقريباً. وبالفعل، إنّ بابا لا تضع، لم تضع قط سواراً حول كعبها... فمن أين جاءها إذن هذا الفرض الغامض؟ جاء (هذا واضح) من شيء ما رأيته أنت، لاحظته أنت، خلّف لديك انطباعاً عميقاً بما فيه الكفاية ليبقى في أظلم خلايا ذاكرتك. جاء على وجه التحديد، من ذكرى أساور مشابهة لاحظتها في كعوب النساء الزنجيات أو الهنديات أثناء رحلاتك إلى أفريقيا والهند. إنّ تلك الكعوب الداكنة النحيفة البارزة عظامها لا تشبه من قريب أو بعيد كعبي بابا، وتلك الأساور عبارة عن حلقة ثقيلة من الفضة، لكن الفكرة المضمرة واحدة: فكرة العبودية، أي المرأة المنظور إليها على أنّها شيء، سلعة تباع وتشرى وتُملك، المرأة التي يحرم عليها أن تكون حرة وأن تفلت من قيدها فيلحم كعبها بسلسلة.

٣ ـ بيد أنّك تتصوّر نفسك جالساً على الأرض أمام قدمي بابا. إذن فأنت تضيف إلى الفكرة السادية عن المرأة المقيدة الفكرة المازوخية عن التبعية، عن الدونية، عن الخجل تجاه هذه المرأة عينها. إنّ بابا هي شيء، أي أَمَة مسترقة، تضع حول كعبها السلسلة التي تشير إلى شيئيتها، إلى عبوديتها. لكنّك أنت نفسك شيء هذا الشيء، عبد هذه العبدة.

٤ ـ مسبة ابنة الحرام. هنا أيضاً أضمرت فكرة الخفض، الحط من شأن بابا، وبالتالي تحويلها إلى شيء زهيد القيمة أو عديمها، إلى سلعة. وهذا عبر الازدراء الذي يعامل به الأولاد غير الشرعيين منذ أجيال سحيقة. إنّ بابا هي ابنة حرام، وهذا معناه أنّها بلا حماية وأنّها

موضوعة تحت رحمتك، تحت رحمة كلّ من يريد قضاء لبانته منها.

٥ ـ مسبة «النذل». لقد شعرتَ بالحاجة، في لحظة معينة، إلى أن تهان بدورك. لكن هنا أيضاً ليس الدافع الحقيقي هو الدافع الذي يتجلى للوهلة الأولى. فأنت في الواقع لم تشأ أن تعاقب نفسك بقدر ما شئت أن تعاقبك بابا، أي أردت مرة أخرى أن تضيف إلى سادية الإهانة التي ألحقتها ببابا مازوخية الإهانة التي أنزلتها بنفسك.

٦ ـ الأب الذي يعري ابنته، زوج الأم الذي يعري ابنة زوجته، النذل الذي يعري بنت الحرام. إنّ المسألة واضحة ولا تحتاج إلى شرح. فالحب السفاح لا يحاكم ويدان إلا لتحلو ممارسته. الحب المفهوم على أنّه تدمير للعقبة وقفزة في العدم.

عندما وصلت إلى هذه النقطة، توقفت عن الكتابة، وفكرت لحظة وثمّ تناولت قلمي من جديد: «لكن أما كان في مقدورك، مع مثل هذه العواطف وهذه الدوافع، أن تتجنب الأدب الجنسي المكشوف؟ كلا، لم يكن ذلك في مقدورك. وهذا لأنّه ليس أمامك سوى طريقين يقودان كلاهما إلى الأدب الجنسي، الأوّل إلى أدب جنسي مقنّع، والثاني إلى أدب جنسي مفضوح.

كان في وسعك بكلّ تأكيد، كما يفعل الروائيون التقليديون، أن تحوّل العلاقات الجسدية إلى علاقات نفسية، أي أن تحذف تفاصيل السوار والبنطال والسحابين والسليب والبطن. وتكتفي بأن تحلل بصورة عفة وبارعة العواطف، ولا سيما العواطف غير المباشرة وغير المفضوحة. كان في وسعك أن تفعل ذلك، بكلّ تأكيد. لكن بينك وبين الروائيين التقليديين الفارق التالي: إنّهم يؤمنون بعلم النفس وأنت لا تؤمن به. فلو قلدت الروائيين التقليديين، أي لو حوّلت العلاقات الجسدية إلى علاقات نفسية، لا تكون قد فعلت من شيء سوى أنّك قدمت وصفاً نفسياً تقليدياً، وبتعبير أدق سقطت في

المذهب النفسي الوصفي الصرف، أي بالاختصار، في الأدب الجنسي المقنع الذي هو أسوأ وأدهى في الواقع من الأدب الجنسي الصريح والمكشوف.

وعلى هذا، ليس أمامك سوى طريقين، وفي نهاية كلّ منهما تجد نفسك دوماً أمام الأدب الجنسي.

لكن لمَ الأدب الجنسي؟ أليست العلاقات الجسدية، حتّى ولو كانت قائمة على الحب السفاح، واقعاً شبيهاً بكلّ واقع آخر؟».

وتوقفت لحظة ثمّ تابعت: «الأدب الجنسي، أجل لأنّه ليس في أصل عاطفتك بالذات تجاه بابا وفي العلاقات الجسدية التي يمكن أن تكون لك معها، شيء بسيط وطبيعي، إنّما هناك شيء لا واقعي، زائف، وبكلمة واحدة غير أصيل: فكرتك عن الأبوة. إنّ هذه الفكرة وهم، لكنّك بحاجة إليه لكي تحب بابا. وأنت تعلم حق العلم أنّك، يوم تصبح عشيقها، ستعي أنّ وهمك قد تلاشى وأنّ بابا امرأة كغيرها، مع كونها في الوقت نفسه غير أصيلة، أي امرأة كغيرها عليك أن تعتبرها ابنتك. لكن لولا هذا الوهم لما استطعت أن تحب بابا. ومن هنا كان الأدب الجنسي الذي ليس هو سوى تصوير غير أصيل للعلاقة الجنسية. مرة أخرى أقول: إنّ اللاأصالة هي في الأشياء لا في تصويرها، وما يسمح لك بتعرفها وتحاشيها هو الفكرة التي لك عن روايتك لا بوصفها نوعاً أدبياً وإنّما طريقة في فهم الصلة بالواقع، أو إذا شئت، بوصفها ضميراً. وهكذا، بمواجهتك ما يمكن أن تفعله مع القصة التي يمكنك أن تستخلصها فيما بعد مما فعلته، تجد نفسك قادراً على تعديل سلوكك وتوجيهه وتقويمه، وتجد في روايتك حجر محك لك. إنّ اللاأصالة تمكث في صميم ذاتك كإغراء، كحلم ولا تتحوّل إلى فعل، وهذا الفعل لا يصبح بدوره فناً، أو بالأحرى لا ـ فناً.

وهذا معناه: أنّ لديك مقياساً للعمل، لكن هذا المقياس يحملك على وجه التحديد على ألا تعمل، وتلك هي، على ما يبدو، الطريقة الوحيدة لتجنّب اللاأصالة المميزة لكل عمل».

كتبت هذا كلّه ثمّ أعدت قراءته وشعرت فجأة بملل عظيم وشبه يائس في الوقت نفسه. وبدأت أخلع ثيابي مرهفاً سمعي لكلّ الأصوات. وأخيراً خرجت آلياً على نحوٍ ما من غرفتي ومضيت باتجاه باب بابا مباشرة. وفكرت: «الآن سأقرع ثلاث مرات. فإذا أجابتني بابا، دخلت إلى غرفتها واندسست في فراشها بجانبها ونكصت نهائياً عن صيرورتي روائياً». وهذا ما فعلته. فقد قرعت ثلاث مرات، بهدوء أوّلاً، ثمّ بقوة، ثمّ بقوة أشد. وانتظرت، وأنا واقف بالقرب من الباب، وقدماي حافيتان على البلاط البارد. لكن بابا لم تجب. فعدت آنذاك إلى غرفتي وتمددت على فراشي وبسرعة أخذتني سنة النوم. إنّ بابا لم تأتِ هذه الليلة لتتمنى لي ليلة سعيدة، أو هي جاءت لكني لم أنتبه إليها.

الأحد ١٥ تشرين الثاني

ما كدت أنتهي من تصحيح مقالي الأخير عن إيران بالريشة حتّى دخلت بابا الغرفة، ممسكة برسن الكلب ثلاثاء. لم تكن ترتدي هذه المرّة بنطالاً، وإنّما كنزة سوداء وتنورة ضيقة نارية اللون وجزمة قوقازية سوداء مرنة تصل إلى ركبتيها. ومضت مباشرة إلى النافذة ونظرت إلى الخارج وهي تدير لي ظهرها. كنت واثقاً من أنّها لم تقف هناك، بين طاولتي والنافذة، إلّا لتلفت انتباهي إلى جزمتها. وبالفعل، وبعد هنيهة من الزمن، استدارت وقالت لي:

ـ انظر إلى جزمتي، إنّها جميلة، أليس كذلك؟

ـ إنّها تلبق لك جداً.

ـ أتعرف من قدّمها لي؟

ـ لا أعرف.

ـ أنت، أنت من قدّمها إليّ.

ـ أنا؟ كيف ذلك؟

ـ أقصد أنّك ستقدّمها لي، لأنّني طلبت إرسال الفاتورة إليك. ألست ابنتك؟ ألست أبي؟ من العدل إذن أن تدفع أنت الفواتير.

اقتربت بابا من المكتب ووضعت يديها على الآلة الكاتبة، وتأملتني بهدوء لمدّة بضع ثوانٍ، ثمّ تابعت:

ـ لتدشين جزمتي، أقترح عليك الذهاب لتناول طعام الغداء في «السير كيو»، ما رأيك؟

وتبيّنت أنّ هذا الاقتراح أدخل على قلبي من السرور أكثر بكثير مما كنت أتوقع. ولم أستطع أن أفعل من شيء سوى أن أفكر: سيتاح لي البقاء معها ثماني ساعات على الأقل. وأجبت محاولاً إخفاء سروري:

ـ حسناً. موافق.

ـ أيسرك أن تخرج معي؟

لا أدري لما أوحى لي تعبيرها المرائي بعض الشيء الأشبه بتعبير طفل ينصب لك فخاً، بريبة مباغتة. وهكذا أجبت بشيء من الجفاء:

ـ بالطبع... وإلّا ما كنت لآتي.

صمت جديد:

ـ إذن، سأذهب لشراء بعض الأشياء من أجل العشاء، ثمّ أعود، ونذهب.

وأمسكت عن الكلام لحظة ثمّ أضافت بطمأنينة:

ـ طبيعي أنّ كورا ستأتي معنا.

وفهمت أنّني وقعت في الفخ. كنت قد توقعت وتذوقت سلفاً قضاء يوم كامل معها، وها هي تأتي لتضع بيننا على العكس،

الشخص الذي أكره ما على قلبي لقاؤه. ولم أستطع إلّا أن أهتف ساخطاً:

ـ لكن لمَ كورا؟ ما دخلها بنا؟

ـ إنّها ليست على ما يرام. أريدها أن تتنشق بعض الهواء النظيف.

ـ لكنّني أريد البقاء معاً وحدنا.

ـ سنبقى معاً. فكورا كتوم. وعندما سنبلغ الشاطئ، سنتركها ونذهب للتنزّه معاً.

لم أشأ أن أقول لها إن تكتّم كورا يزعجني أكثر من حضورها أيضاً، لأنّه تكتّم الوسيطة الملتبس بصورة لا مناص منها. واكتفيت بأن أسحق بغضب في النفاضة السيجارة التي أولعتها لتوي، ثمّ أغلقت المغلف الذي يحتوي مقالي عن إيران. واستولت بابا على المغلف:

ـ أعطني إياه. سأضعه في علبة البريد.

وخرجت ساحبة ثلاثاء وراءها. ومكثت في مكتبي بلا حراك وأنا ما أزال حانقاً، ثمّ ذهبت إلى النافذة ونظرت إلى الشارع. وفي مدى ثوانٍ خرجت بابا وتابعتها عيناي، بينما كانت تشدّ الكلب من زمامه وتتقدّم باتجاه علبة البريد، على الرصيف. كانت تسير بخطى وئيدة ومترنحة، متلبكة بثوبها الضيق وجزمتها الثقيلة. وألقت بالرسالة في صندوق البريد، وتابعت سيرها حتّى أوّل منعطف في الشارع، وتوارت عن الأنظار. وعدت لأجلس أمام آلتي الكاتبة، وأشعلت سيجارة، ومكثت أنتظر وأنا أدخن وأرقب السحب عبر زجاج النافذة. وأخيراً عاد الكلب ثلاثاء هازاً ذنبه وهاراً هريراً خافتاً، تتبعه عن مسافة بابا. وآنذاك، ومن غير أن ألتفت، قلت لها:

ـ اسمعي...

ـ ما هناك؟ .

ـ كنت أريد أن أقول لك: لا تحسبي أنّه يزعجني أن أقوم بتلك النزهة مع كورا.

ـ لمَ تقول لي ذلك؟

ـ لأنّني، قبل قليل، احتججت.

فأجابت ببطء:

ـ لكن من الطبيعي أن تنزعج لوجود كورا معنا. فقد قلت إنّك تريد أن نكون معاً بمفردنا. على كل... سأذهب لأرى إذا ما كانت كورا جاهزة. انتظرني هنا.

وبعد قليل كنّا ثلاثتنا في السيّارة على طريق سير كيو. بابا إلى جانبي، وكورا على المقعد الخلفي. وعند أحد مفارق الطرق رفعت عيني إلى المرآة العاكسة وتبيّنت أنّ ميلها ليس مضبوطاً، لأنّها لم تكن تعكس الطريق وإنّما وجه كورا. وهممت برفع يدي لتصحيح وضعها، لكن نظرة إلى وجه كورا أوقفتني: كان وجهاً مبقعاً بالأحمر تحت شعرها الأسود كالحبر، هزيلاً ضامراً، عيناه الزرقاوان جاحظتان شاخصتان بقسوة، أنفه الكبير المستقيم تلوّنه حمرة تختلف عن حمرة الخدين (مما يجعله يبدو كأنّه اصطناعي)، فمه المثلث الشكل تعلوه تكشيرة ازدراء لاشعورية، وكان يوحي بأنّه قناع يخفي الوجه الحقيقي الناحل الجدير بالرثاء. ونظرت إليها بتفرّس ثمّ أصلحت وضع المرآة وسألتها:

ـ كيف حالك اليوم، يا كورا؟

ـ على ما يرام.

ـ لا يبدو عليك ذلك.

ـ لمَ؟

ـ وجهك وجه من ليست صحته بخير.

ـ أنت واهم... إنّني على ما يرام تماماً.

ـ أليست بك حرارة؟

ـ لم آخذ حرارتي.

ـ البارحة مساء، هل كانت عندك حرارة؟
ـ عشر درجة بالكاد: سبع وثلاثون وربع.
ـ وذلك السعال؟
ـ أواه؟ لقد تناقص فعلاً.
ـ ماذا يقول الطبيب؟
ـ لا حاجة إلى طبيب من أجل عشر درجة وشيء من السعال.
ـ أرى على العكس أنّك تفعلين خيراً إذا استدعيته.
فتدخلت بابا:
ـ أرأيت، فرانشيسكو يقول مثلي.
ـ اسكتي. أنا أعرف ما بي: أثر من نزلة صدرية.
ـ لكن لمَ لا تريدين استدعاء طبيب؟
ـ لدي عمل كثير، والأطباء متشابهون جميعاً. فهم قبل كلّ شيء ينصحونك بتغيير الهواء، وأنا، من جهتي، لا أستطيع مغادرة روما.
ـ أي عمل لديك؟
ـ لدي المحل. فالموسم قد بدأ.
ـ أي موسم؟
ـ موسم الشتاء.
وفكرت بأنّ الحديث قد توقف هنا. فباستثناء محل الخياطة، هناك منزل المواعيد الذي لا أستطيع ولا أريد الكلام عنه. بيد أنّني قلت:
ـ أيسير المحل على ما يرام؟
ـ كلا، ليس كثيراً. ولهذا السبب أيضاً لا أستطيع مغادرة روما.
ـ لمَ لا يسير على ما يرام؟
ـ الزبائن لا يدفعون.

ـ سبب آخر لإغلاق المحل والذهاب للتمتع ببعض الاستجمام.
ـ أنت مجنون!
ـ لمَ مجنون؟
ـ ما دخلك في الموضوع؟ اتركني بسلام.
ـ الأمر يهمني. فأنت زوجتي بعد كلّ شيء.
ـ أجل، زوجتك! طوال عشرة أعوام لم تنتبه حتّى إلى أنّني موجودة، وهأنتذا تكتشف الآن أنّني زوجتك.
ـ على رسلك! لقد أسأت صنعاً. لكن أوان إصلاح الخطأ لم يفت.
ـ كلا، أنت لا تفعل ذلك لتصلح الخطأ، وإنّما فقط إرضاء لبابا.
ـ ما دخل بابا في هذا؟
ـ إنّها هي التي تريد أن أغلق المحل، وأن أستدعي الطبيب، وأن أغادر روما. وأنت موافق معها.

وأحسست بيد بابا تشدّ على ذراعي كأنّها تريد أن تقول لي: «دعها بسلام». لكنّي لم أعرها انتباهاً وألححت:

ـ لمَ؟ ألا تصدقين إذن أنّنا نحرص على صحتك؟
ـ بابا، بلى. أما أنت فإرضاء لبابا فقط.
ـ ماذا تريدين أن تقولي؟
ـ ما أقوله.
ـ أي؟
ـ أتعرف المثل؟
ـ أي مثل؟
ـ اللبيب من الإشارة...
ـ بعبارة أخرى، تريدين أن تقولي إن عاطفتي تجاه بابا ليست أبوية تماماً.
ـ لا أعني ذلك. إنّما أريد أن أقول فقط إنّك إذا كنت قد أبديت

قلقك، فليس ذلك من أجلي كما تريدين أن أعتقد، وإنّما إرضاء لبابا.

وفي هذه اللحظة منعتني بابا من متابعة الجدال بتدخلها بسرعة، بهيبة ودود:

- لا، لا، أنت واهمة... ليس في ما تقولينه ذرة من الصحة. إنّني أؤكد لك يا بابا أنّ فرانشيسكو لم ينصحك باستشارة طبيب إلا لخيرك. هذه هي الحقيقة؛ أليس كذلك يا فرانشيسكو؟

وأحسست بيدها تشد على ذراعي فأجبت:

- بالتأكيد.

- وأنت، يا ماما، ينبغي ألا تقلقي وتخافي: فلا أحد يقول لك أن تغلقي المحل وأن تغادري روما ولا حتّى أن تستشيري طبيباً. استمرّي في حياتك ذاتها وسترين أنّ الحمى ستذهب من تلقاء نفسها.

وخيّم الصمت هنيهة وجيزة ثمّ دمدت كورا من بين أسنانها:

- إنّني لست بحاجة إلى أحد. أنا أعرف كيف أتخذ قراراتي بنفسي.

- هذا مؤكد، عليك أنت أن تقرري كل شيء. ونحن الثلاثة، الأم والأب والابنة، نحن أسرة واحدة، وعليك الآن أن تبرهني على أنّك لا تكنين البغيضة لفرانشيسكو بأنّ تلاطفيه على خده. وأنت يا فرانشيسكو، صافح يد كورا.

كان بودّي أن أصيح: «لا، قفي عند حدك». لكن لم يتح لي الوقت لذلك. فبقفزة واحدة انتصبت بابا على ركبتيها على المقعد، واستدارت نحو كورا، وأخذت يدها ووضعتها على خدي. وقالت كورا:

- لكن ما الذي يدور في رأسك؟

بيد أنّها لم تسحب يدها. وباشمئزاز كبير أحسست بيد كورا على

خدي، وتابعت قيادة السيّارة برباطة جأش، بينما كانت اليد، المسنودة من قبل بابا، تنفتح وتنبسط على جلدي وتداعبه. كانت الراحة ندية من العرق كما هي الحال عند الأشخاص الذين ألمت بهم حمى. وقالت بابا:

ـ هيا يا فرانشيسكو، صافح يد كورا.

ورفعت يدي وأخذت يد كورا وتردّدت، ثمّ رفعتها بجهد إلى شفتي. وقهقهت كورا بعصبية وقالت:

ـ لا... كفى!

لكنّني فهمت أنّها مسرورة في أعماقها، ولا أدري إن كانت القبلة هي سبب ذلك أم عدم إصراري على استشارتها طبيباً وعلى إغلاقها المحل. ثمّ سحبت كورا يدها قائلة لبنتها:

ـ إنّك لماكرة!

وكانت هذه جملة ملتبسة يمكن عزوها إلى حنان الأم أو إلى حسّ القوادة المهني على حد سواء.

وشعرت بالحاجة إلى وضع حد بصورة من الصور لهذا المشهد الذي لا يطاق، فمددت يدي وفتحت الراديو. ثمّ انطلقت بالسيّارة بأكبر سرعة، على الطريق المستقيم المحفوف من الجانبين بأشجار الصنوبر الضخمة المائلة، للقاء الأعلام الكبيرة الداكنة اللون التي تخفق في السماء العاصفة. وأخيراً وصلنا إلى المبنى الدائري المنتصب عند مدخل لاتينا، ثمّ إلى الطريق المحفوف بأشجار الأوكالبتوس السامقة والمفضي إلى بورغو سابوتينو، ثمّ إلى دور ليدو ولاتينا بعد عدو اهتزازي فوق الإسفلت غير المتعادل. وأخذت الطريق المحاذي للبحر، على يميني الكثبان وعلى يساري المستنقعات. وارتسم في الأفق البعيد، في أقصى السماء العاجّة بسحب متراكمة شبيهة بتلافيف الأمعاء، على أديم البحر الهادئ الوضاء، خيال

سيركيو الضبابي. وأوقفت السيّارة عند ردم الطريق وأطفأت المحرك.

ثمّ مددت يدي لأغلق الراديو. وران الصمت، ومن سكون شجيرات الرتم في ذرى الكثبان فهمت أنّه ليس هناك نفحة ريح واحدة، وأنّ العاصفة ما تزال هامدة معلقة فوق البحر. وقلت:

ـ ما رأيكما لو نزلنا لنقوم بنزهة؟ فالوقت ما يزال مبكراً على الغداء.

ـ هيّا بنا.

ونزلنا، ووثب الكلب إلى أمام وعدا نحو البحر وتوارى. وتبعناه سيراً على الرمل، في درب يتلوى بين الكثبان. وعندما وصلنا إلى أعالي الكثبان، وقفت أتأمل معجباً الرونق البارد والدراماتيكي الذي اكتسبته الألوان بسبب غياب الشمس، تحت سقف الغيوم الواطئ: بياض الرمل الكتيم كأنّه حجر الدكان، خضار البحر الأشبه بلون العشب، السواد اللامع لنفايات البحر التي توشي الشاطئ. ولاحظت بالمقارنة مع حركة الكلب ونباحه وجريه ووثبه حولنا، أنّ السكون والسكوت قد زادا عمقاً. وتوقفت هنيهة من الزمن لأتملى البحر: انتفخ فجأة كفل غريب من الماء البلوري القادح شرراً، وتدحرج وهو يزداد ضخامة، وتحطم بغتة إلى رأس صغير من الزبد ليعود فيبتلع من جديد بسرعة تلك العلوة، ثمّ راح ينداح شيئاً فشيئاً واختفى تحت الماء من غير أن يدرك الشط. وقلت لبابا:

ـ لنسرع بالقيام بنزهتنا، فالمطر لن يتأخر.

فأجابت بابا:

ـ سوف أركض وأسبقك، فالحق بي.

وأخذت تهبط الكثبان ركضاً، يصحبها كلبها الذي راح يهر فرحاً، وتثب وثبات كبيرة على الرمل الأبيض بجزمتها السوداء. وتردّدت لأنّني شعرت بكورا ورائي. لكن كورا قالت لي:

ـ هيّا، اذهب لتقم بنزهتك. سأتمدّد على الرمل وأنتظركما.

- ألن تبردي؟

- الطقس ليس بارداً. الحق ببابا.

ورأيتها تبتعد وتتمدّد على الرمل، جانبياً، مستندة إلى مرفقها. كانت ترتدي ثوباً أحمر، لونها المأثور، وبدت لي حمرة هذا الثوب، القانية والوضيئة معاً، في الجو الشاحب، كومة من الجذى المتأججة التي لم يكد الرماد يعلوها. وبسحنة مستغرقة ورأس منحنٍ تناولت في يدها شيئاً من الرمل وتركته ينساب على الرمل. واقتربت منها وسألتها:

- ألا تشعرين بأنّك على ما يرام؟

- بلى، إنّني على ما يرام، لكن ليست بي رغبة في المشي.

- سنتنزّه قليلاً، أنا وبابا، ثمّ نرجع...

- هيّا، اذهب.

وسعلت مرّتين أو ثلاثاً، ثمّ أخرجت من حقيبتها علبة سجائر ووضعت واحدة بين شفتيها. فانحنيت، وولاعتي بيدي، وضغطت فانبجست الشعلة. وأشعلت سيجارتها، وتنشقت الدخان، ونفثته من منخريها، من دون أن ترفع رأسها. وتردّدت، ثمّ لحقت بصمت ببابا التي كانت تنتظرني، عن بُعد، بلا حراك.

وبدون كلام سرنا بعض الخطوات. وأخيراً قلت:

- أتعرفين؟

- ماذا؟

- منذ بضعة أيام، ذهبت إلى فيلا كورا، في شارع كاسيا.

- لِمَ فعلت ذلك؟

- لا أدري ربمّا لأنّي تذكّرت أنّ كورا قد أخذتك، قبل ستة أعوام إلى منزل مواعيدها.

- لكنّه ليس نفس منزل شارع كاسيا. كان شقة في حي آخر.

ـ أين؟
ـ لمَ تريد أن تعرف ذلك؟
ـ أريد أن أعرف لأعرف، هذا كلّ شيء.
ـ لم أعد أذكر اسم الشارع ولا الرقم، لكنّي قادرة على الذهاب إليه معصوبة العينين.
ـ لكن أين؟
ـ إذا شئت، سنخرج غداً معاً، وسأقودك إلى هناك وسأريك المنزل.
ـ قولي لي: في أي تاريخ أخذتك كورا إلى منزلها؟
ـ لحظة... كان ذلك في آذار ١٩٥٧.
ـ قلت لي إنّك لم تذهبي إليه أكثر من سبع أو ثماني مرّات، أليس كذلك؟
ـ بلى.
ـ ومتى عدلت كورا نهائياً عن أخذك إليه؟
ـ في شهر أيار، على ما أذكر.
ـ إذن فالأمر كلّه لم يدم أكثر من شهرين أو ثلاثة؟
ـ بالضبط.
ـ لكن هذين الشهرين أو الثلاثة كانت هامّة بالنسبة إليك، أليس كذلك؟
ـ تعني بالنسبة إلى بابا التي كنتها آنذاك.
ـ أجل، بالنسبة إلى بابا تلك.
ـ بالطبع كانت هامة.
ـ يومذاك تغيّرت عيناها، أليس كذلك؟
ـ عيناها، ماذا تعني ب، : عيناها؟
ـ صادفت ذات يوم بابا في المصعد، كان ذلك بالتأكيد في عام ١٩٥٧ وقبل شهر آذار، وكانت عيناها مختلفتين.

ـ كيف يمكنك أن تكون واثقاً من أنّ ذلك حدث قبل شهر آذار؟

ـ لأنّ السماء أثلجت، وهذا لا يحدث إلّا فيما ندر في روما، وأنا أتذكر لقائي بببابا على وجه التحديد لأنّ الثلج تساقط في ذلك اليوم. كنت قد دخلت إلى المصعد ثمّ انضمّت إليّ بابا في اللحظة التي كنت أهمّ فيها بإغلاق بابه. كانت في ثياب التزلج، بنطال مشدود حول كعبها، وكنزة سوداء. واستندت إلى أحد جدران المصعد، لاهثة الأنفاس بسبب جريها، وبينما كان المصعد يهبط بنا، راحت تحدق فيّ بثبات. كانت تحني صدرها إلى الأمام وتخفي شيئاً وراء ظهرها. وقد شدهت بعينيها.

ـ وكيف كانت عيناها؟

ـ لامعتين، حيتين، ساذجتين، طفوليتين. ثمّ توقف المصعد في الطابق الأرضي. ومضت بابا عدواً ورأيت ما كانت تخفي وراء ظهرها: رفشاً صغيراً لجرف الثلج.

ـ هذا ممكن. أمّا مسألة عينيها فالأمر بسيط: ففي ذلك العام ظهر حسر النظر لدى بابا، ومذ ذاك باتت تضع نظارتين.

ـ بيد أنّ نظرتها كانت مختلفة.

ـ أأنت واثق من ذلك؟

ـ أظن ذلك. لكن لا أهمية لهذا. لنعد إلى الشهرين أو الأشهر الثلاثة التي كانت بالغة الأهمية، على ما يبدو، بالنسبة إلى بابا. قولي لي على الأقل لمَ كانت لها كلّ تلك الأهمية...

ـ أواه! لأسباب عديدة.

ـ لا لأنّها زعزعت عاطفتك تجاه كورا؟

ـ لا بالتأكيد...

ـ ولا لأنّها بدّلت حياتك؟

ـ لا، والواقع أنّه لم يتبدل شيء.

- إذن، لمَ كانت هامّة؟

- يصعب قول ذلك. كانت هامة. هذا كلّ شيء.

- لا، ليس هذا كلّ شيء. استمعي إليّ.

- إنّني أستمع إليك. منذ مدّة وأنا لا أفعل شيئاً غير ذلك.

- لا تجيبيني هكذا. حاولي أن تفكري.

- بمَ؟

- بالأهمية التي كانت لتلك الشهور بالنسبة إلى بابا. أي نوع من الأهمية كانت؟

- حسناً! لنقل إنّ بابا قامت بتجربة.

- إذا كانت قد قامت بتجربة، فمن غير الصحيح إذن أنّه ليس ثمة من علاقة بينك وبين بابا، لأنّ التجربة تعني تطوير الذات وبقاءها هي هي في الوقت نفسه.

- لمَ؟ لنفرض أنّ سيّارة دهست إنساناً، ثمّ مات هذا الإنسان بعد بضع ساعات في المستشفى. إنّه يكون قد مرّ بتجربة، على وجه التحديد تجربة الدهس، بسيّارة لكنّه مات بها. إذن لا يمكن القول إنّه تطوّر وبقي هو هو في الوقت نفسه. إنّه لم يتطوّر مطلقاً ولم يعد البتة هو نفسه.

- فهمت. تعنين أنّ بابا القديمة قد ماتت بعد تلك التجربة. ثمّ وجدت بابا أخرى جديدة، مختلفة، أليس كذلك؟

- بلى.

- وما كانت تلك التجربة البالغة الأهمية؟

- كيف أقول لك؟ تجربة... أن يكون المرء شيئاً.

- شيئاً؟

- أجل، شيئاً.

- أي نوع من الأشياء؟

ـ شيء ما . . . كرسي فرضاً، أو إناء.

ـ لكن متى مرّت بابا بتجربة كونها، كما تقولين، شيئاً؟ أعندما أخذتها كورا إلى منزلها؟

ـ ليس تماماً. عندما أخذت كورا بابا إلى منزلها، كانت بابا ما تزال تعتبر نفسها، في قرارتها، شخصاً. وهذا بقدر ما كانت مستعدة لتفعل ما أوصتها به كورا.

ـ لمَ تقولين: «بقدر ما كانت؟».

ـ لأنّ بابا كانت ما تزال تعتقد بأنّ فعل أو عدم فعل ما أوصتها كورا به مسألة تتعلق بها وحدها.

ـ لكن ما كانت توصيات كورا؟

ـ لنفترض أنّها قالت لها عبارة كهذه العبارة: «سنذهب إل مكان معين. وسأقدمك إلى شخص يريد أن يتعرّف إليك، فحاولي أن تكوني لطيفة معه، ودعيه يفعل ما يريد، كلّ ما يريد».

ـ كانت بابا مستعدة للإطاعة، أليس كذلك؟

ـ أجل، ما دامت كورا هي التي أوصتها بذلك، وكورا كانت أمها.

ـ ولكن ألم يخالج بابا أي شعور، ولنقل شعور بالمفاجأة؟

ـ كلا. ينبغي أن أقول إنّ بابا كانت في ذلك الزمن فتاة غبية لا تفهم شيئاً وتجهل على الأخص كونها لا تفهم شيئاً.

ـ بيد أنّك قلت لي إنّه لم يأت أحد في المرّة الأولى. فمتى مرّت بابا بتجربة كونها شيئاً؟ أفي المرة الثانية؟

ـ أجل.

ـ أثناء الحب؟

ـ لم يحدث حب، وإنّما حرج فقط. كلا، إنّما كان ذلك بعد أن انتهى كلّ شيء وانصرف الرجل.

ـ لماذا؟

ـ بقي الرجل مع بابا، ربّما مدّة ساعة. تكلم معها، وفعل الحب، أو حاول بالأحرى أن يفعله. ثمّ ارتدى ثيابه وخرج قائلاً إنّه يريد أن يجري مكالمة هاتفية، لكنّه لم يعد. ورأته بابا، التي كانت قد ذهبت نحو النافذة ونظرت إلى الشارع، رأته يتسلل من مدخل البناية، ويصعد إلى سيّارته، ويذهب. وآنذاك عادت إلى الغرفة وخالجها شعور بأنّه ليس ثمة من فرق بينها وبين الأثاث. فذلك الرجل لم يرجع ليستأذن منها بالانصراف، تماماً كما أنّه لم يرجع ليستأذن بالانصراف من الأريكة أو من مصباح السرير.

ـ ما معنى هذا؟ أكانت بابا تنتظر إذن أن يأخذ الرجل الإذن منها بالانصراف؟

ـ نعم.

ـ لماذا؟

ـ لأنّ بابا، مع أنّها لم تشعر بأي عاطفة خاصّة ولم تفهم تقريباً ما يراد منها، قد خيّل إليها أنّ لها بذلك الرجل علاقة، علاقة شخص بشخص. ولو عاد الرجل ليودعها، فلربما كان أمكن لبابا أن تفعل الحب معه.

ـ بابا كانت عاطفية جدّاً آنذاك!

ـ لا، لم تكن عاطفية. لكنّها كانت تعتقد بأنّ لا بدّ من وجود علاقة بين الأشخاص.

ـ وهكذا يكفي ألا يأتي شخص من الأشخاص ليودعك حتّى يوحي إليك بالإحساس بأنّك شيء.

ـ أجل، هذا كافٍ في بعض الظروف. لكن حدث أيضاً شيء آخر.

ـ أي شيء آخر؟

ـ عندما عادت بابا إلى الغرفة تحت سطوة الإحساس بأنّه ليس بينها وبين الأريكة أي فرق، رأت على رخام طاولة السرير ورقة نقدية

مطوية إلى أربعة أقسام وضعها الرجل عند خروجه من غير أن تنتبه إلى ذلك. وآنذاك أصبح الإحساس بأنها شيء، مجرد شيء، أصبح، كيف أقول؟ واقعياً وعينياً أكثر. إنّ الشيء يباع ويشرى، أليس كذلك؟ إذن. . .

ـ فهمت. . . وكيف يكون الإحساس بالشيئية؟

ـ كغيره من الأحاسيس.

ـ مزعج؟

ـ ليس بالضرورة. لكنّه كان خيبة حقيقية، وهماً وتبدّد، بالنسبة إلى بابا التي كانت تجهل أنّها شيء وتتخيل بغباوة أنّها غير ذلك. بيد أنّني أتصوّر أنّه من الممكن أن يكون إحساساً مستحباً قد يرغب الإنسان في الشعور به ولو من قبيل الفضول. والمسألة، بإيجاز، تتعلق بالناس.

ـ لنعد إلى بابا التي اكتشفت النقود على طاولة السرير وخالجها الإحساس بأنّها شيء، ماذا فعلت آنذاك؟ هل استدعت كورا؟

ـ كلا. لم تكن كورا هناك.

ـ كيف! لم تكن كورا في الشقة؟

ـ لم تكن.

ـ وأين كانت؟

ـ كانت قد انصرفت بمجرد أن أدخلت الرجل إلى الغرفة، وخرجت مخبرة بابا بأنّها سترجع بعد ساعة.

ـ فهمت. ماذا فعلت إذن بابا عندما بقيت بمفردها؟

ـ شغلت نفسها.

ـ بمَ؟

ـ أوّلاً: أعادت الغرفة إلى سابق ترتيبها بكلّ دقة. فقد وضبت الفراش، وأعادت السجادة إلى مكانها، ولمّت من الأرض بقايا

مغلف العازل والعازل نفسه الذي لم يستخدم، ورمت بهما في السلة. ثمّ رتّبت نفسها بنفس الدقة ونفس العناية. فقد ذهبت إلى غرفة الحمام وخلعت ثيابها، ودلكت نفسها بالصابون تحت الدش، وسرحت شعرها، وذهبت لتجلس أخيراً على الأريكة. وأدارت مفتاح الراديو لترفع الصوت وانتظرت كورا.

ـ أكان هناك راديو؟

ـ أجل، كان هنا راديو. برنامج موسيقى خفيفة خافتة. وكانت هناك أيضاً مدفأة موقودة. وباختصار، كلّ ما يلزم.

ـ هل انتظرت طويلاً؟

ـ نعم، حوالي الساعة.

ـ وبِمَ فكرت بابا خلال تلك الساعة؟

ـ لم تفكر بشيء. بمَ يفكر، بمَ يمكن أن يفكر الشيء: بلا شيء.

ـ أكانت بابا ما تزال إذن تحت سطوة الإحساس بأنّها شيء؟

ـ كلا، مذ ذاك لم يعد يخالجها الإحساس بأنّها شيء، إنّما كانت شيئاً.

ـ ماذا تعنين؟

ـ أعني أنّه بدءاً من تلك اللحظة وحتّى شهرين أو ثلاثة، إلى أن عدلت كورا نهائياً عن بيع بابا، لم تفكر بابا بشيء. كانت شيئاً وتتصرّف كشيء.

ـ كيف يتصرّف الشيء؟

ـ لا يتصرف. . . .

ـ أي؟

ـ أنّه هنا. . . باقٍ هنا. . . هذا كلّ شيء.

ـ فهمت. وعندما عادت كورا، ماذا قالت؟

ـ سألت: أذهب؟

ـ وبمَ أجابت بابا؟
ـ أجابت: نعم، لقد ذهب.
ـ وماذا قالت عندئذ كورا؟
ـ قالت: أليس رجلاً لطيفاً ومهذباً؟
ـ وبمَ أجابت بابا؟
ـ أجابت: لقد ترك مالاً.
ـ وماذا فعلت عندئذ كورا؟
ـ أخذت المال.
ـ بأي طريقة؟
ـ بأبسط طريقة، كما يأخذ المرء شيئاً ينتظر تلقّيه، من غير أن تخفي قصدها ومن غير أن تلح.
ـ ثمّ؟
ـ عادت كورا وبابا إلى البيت.
ـ وماذا قالتا؟
ـ لم تقل بابا شيئاً. كورا هي وحدها التي تكلمت.
ـ آه؟
ـ أجل، شرحت لبابا فلسفتها في الحياة.
ـ أي؟
ـ لم تكن بابا تصغي إليها بانتباه. وجوهر ما قالته كورا إنّه ليس في الحياة من أهمية لغير ذلك الشيء.
ـ أي شيء؟
ـ الشيء الذي حدث أو بالأحرى لم يحدث بين بابا والرجل.
ـ كيف قالت ذلك؟
ـ بلهجة صادقة، منتشية، مهتاجة، منفعلة. كانت تبدو أنّها لم تعد تتمالك نفسها. كانت المرّة الأولى التي تسمعها فيها بابا تتكلم

بهذا القدر، بمثل هذه الصورة المباشرة، وبمثل هذه الحماسة.

- أين كانت بابا وكورا أثناء هذا الحديث؟

- في السيّارة. كانت كورا تتكلم وهي تسوق. لم تفعل من شيء سوى الكلام وكأنّها تخاطب نفسها.

- وما كان رأي بابا بالأشياء التي قالتها كورا؟

- لم تكن تفكّر بشيء. قلت لك ذلك.

- في رأيك، لمَ تغيّبت كورا بينما كانت بابا مع الرجل؟

- لا أدري. لم تفعل ذلك إلّا في ذاك اليوم. أمّا في المرّات الأخرى، فأعتقد أنّها انتظرت في الصالون. ربّما لتوحي لبابا بأنّها تتصرّف بملء حريتها، وبأنّها هي التي تريد أن تكون شيئاً، أي بابا، هي التي اختارت أن تكون شيئاً.

- في تلك اللحظة قطع حوارنا نباح فرح، مغتبط بنوع ما. وعندما رفعنا أنظارنا رأينا الكلب ثلاثاء مستلقياً على ظهره، وقوائمه مرفوعة في الهواء، يدلك نفسه بشيء كان له، من بعيد، بروز معين، ربّما كثيب من الرمل. ونادت بابا: ثلاثاء! واندفعت نحو الكلب وصاحت بي بينما كانت تعدو: «إنّه مولع بدلك نفسه بكلّ قذارة يقع عليها. ثمّ تفوح منه رائحة كريهة وأضطر إلى غسله». ووصلنا كلانا ركضاً إلى الكثيب، وطردت بابا الكلب بالرسن، ثمّ نظرنا لثانية من الزمن إلى الشيء الذي دلك نفسه به.

كانت جيفة، جيفة عنزة بلا ريب، نصف مطمورة في الرمل الناعم والأبيض. وكان الجزء الظاهر من الجيفة متورماً، بياضه مائل إلى الزرقة، يلمع من الإنتان تحت الجلد الكابي. وكانت ما تزال في بعض المواضع منه نتف من الوبر. وكان الرأس مرمياً إلى الوراء، في وضع شاذ، بمحجريه المليئين بالرمل وأسنانه الصفراء المشدودة. وبعد أن تمليت هذه الجيفة، أجلت الطرف على الساحل الذي كان

يمتد، أبيض، بارداً، فارغاً؛ تحت السحب الواطئة، إلى أبعد نقطة في الأفق. ورأيت آنذاك من جديد البقعة الحمراء التي يؤلفها، عند سفح الكثبان، جسم كورا الممدّد على جانبه. ولم أستطع إلّا أن أفكّر بأنّ ثمة تشابهاً بين جثة العنزة والكتلة الهامدة لجسم كورا. وبشيء من التلذذ وقفت عند هذا التشابه المادي الذي كان يوحي بالطبع بتشابه معنوي، كلتاهما هامدتان فاسدتان، العنزة بالمعنى الحرفي، وكورا بالمعنى المجازي. ثمّ فكرت، من غير أن أدري السبب، بالوقع الذي سيكون لمثل هذه المقارنة في روايتي المتخيلة. وقلت في نفسي: أسوأ الوقع، وقع صورة معادة مكررة تفتقر إلى رهافة الذوق، ولا يمكن أن تخطر إلّا في بال كاتب تقليدي من الدرجة الثالثة. وفجأة، وكما لو بسحر ساحر، لم أعد أرى من تشابه، مادي أو معنوي، بين جيفة العنزة وشخص كورا. فالأولى بدت لي جيفة لا أكثر، والثانية بدت لي وجهاً بشرياً لا أكثر. وخجلت من أنّني فكّرت بالمقارنة بينهما ووجدتني أعترف بالجميل لمشروع روايتي الذي كان بمثابة ضمير لي إذ أيقظ ذلك الخجل في نفسي.

وبعد لحظة رأيت بابا تلاعب ثلاثاء، فتعدو في كلّ اتجاه على الشاطئ ليتبعها الكلب المهتاج الذي كان يثب وينبح ثمّ التقطت بابا قطعة خشب، ورمت بها إلى بعيد، وانقض ثلاثاء ليأتي بها. لقد قفز، بكلّ سواده الذي تجلّى من خلال سحابة الرمل الأبيض التي أثارها، وتقلّب على نفسه في الاتجاه الذي رمت إليه بابا بقطعة الخشب، لكنّه لم يجدها لأنّ إحدى موجات البحر كانت قد حملتها أثناء ذلك. ولحقت بي بابا، لاهثة، حمراء الوجنتين، لكن عينيها كانتا كعادتهما ثابتتين، غير معبرتين، عيني امرأة مدمنة على المخدرات، بسبب حسرهما. وقالت لي:

ـ أرأيت، أن الكلب يلعب. إنّها المرّة الأولى التي يلعب فيها. لقد

كان، حتّى الآن، حزيناً دوماً.

فأجبت:

ـ لقد نسي زريبة بوابة بورتيز.

ـ لم ينسَ. إنّه كلب آخر.

ـ تماماً كما أنّك بابا أخرى.

ـ بالتأكيد، لكن خيراً مني. فأنا ما زلت أحمل نفس الاسم الذي كان للفتاة الصغيرة البلهاء قبل ستة أعوام والتي تركت كورا تقودها من يدها إلى ذلك المنزل. أمّا هو فقد بات من اليوم يجيب على الاسم الذي سميته به.

واقتربنا من كورا. كانت ما تزال مستلقية على الرمل، كتلة حمراء على الشاطئ الأبيض البارد، تحت سقف الغيوم الكالحة. وبقيت بلا حراك حتّى بعد أنِ اقتربنا. كانت ممددة على جانبها، خافضة الطرف، تتدلى على طول خديها خصلتان من شعرها الأشعث. ومن غير أن ترفع رأسها سألت:

ـ هل انتهت نزهتكما؟

ـ أجل، وأنت، ماذا فعلت؟

ـ لا شيء... انتظرتكما.

ـ هيّا لنأكل. انهضي فقد حان الوقت.

ومكثت بلا حراك لحظة من الزمن قبل أن تنهض، وكأنّها تفكّر فيما قلته. وفجأة جعلتني أفكر بشخص يفلت منه، لدافع من الدوافع، حسّ الواقع. إن تلك الكلمات البسيطة «هيا لنأكل» ربّما بدت لها غير مفهومة، لا صلة لها بما هي عليه وبما كان تفعله في تلك اللحظة. ولهذا راحت تفكّر لتقيم هذه الصلة، لتلقي جسراً فوق الهوة التي تفصلها عن العالم الذي تنتمي إليه تلك الكلمات. وبغتة أرعدت السماء بصوت مكتوم، بشبه تناغم، وانداحت زمجرة الرعد على

السطح البحر الصقيل الأخضر كما تتدحرج كرة من الخشب على سطح رنان. وفي النهاية نفضت كورا عن نفسها غبار الخمول، ونهضت، واتجهت معنا نحو الكثبان.

الاثنين ١٦ تشرين الثاني

إنّني لا أبالي البتة بمعرفة ما يحدث في منزل كورا، وكيف تُفعل تلك الأشياء، وما هي دوافعها ودلالتها وأهميتها. إنّ ما يهمني ليس تفسير هذه الأشياء، بل معاناتها، أي الاتحاد بها، أن أكون على التوالي كورا بائعة بنتها، وبابا مباعة، والزبون الذي اشترى بابا، بل السرير الذي تمدّد عليه الزبون وبابا معاً، والنافذة التي نظرت منها بابا إلى الزبون وهو ينصرف، ولون سقف سيّارة الزبون، منظوراً إليه من أعلى، وإحساس الرخام تحت يدي بابا، ثمّ صمت المنزل بينما كانت بابا تعيد الغرفة إلى سابق ترتيبها، وأخيراً انسيال ماء الدش على جسم بابا العاري وعينيها في المرآة بينما هي تسرح شعرها. إنّني لا أريد أن أعرف شيئاً عن «الماذا» الأشياء، إنّما أريد الاتحاد بالـ «كيف». ولن تكون روايتي، هذا إذا ما كتبتها، سوى عملية الاتحادات هذه. وربما أمكنني، بانتقالي من اتحاد إلى اتحاد، أن أوحي للقارئ بأنّه أمام سلسلة من أحداث، أمام مغامرة. لكن ذلك سيكون مجرد إيحاء، مجرد وهم، لأنّي لا أؤمن بالعمل وبالعلاقات التي تستدعي العمل وتبرره. وكلّ ما في وسعي أن أفعله هو بالضبط اتحادي تدريجياً بما هو كائن، من غير اعتبار لسبب وجود هذه الكينونة.

ولا أستطيع في الوقت نفسه، وبصورة مناقضة، منع نفسي من إخفاء دلالات على الأشياء والأحداث، ومن تحويل الأفراد إلى رموز، ومن تنظيم الدلالات والرموز وإقامة الصلة فيما بينها حسب مخططات إيديولوجية. وهكذا، وباندفاع لا يقاوم، تكتسب بابا وكورا وأنا نفسي، وما فعلته وما لم أفعله، وما فعلته كورا ببابا وما عانت

منه بابا، يكتسب هذا كلّه في رأسي دلالات، ويتحوّل إلى مجازات قابلة دوماً لأن تفقد وزنها وصلابتها الواقعية لتصبح أجزاء غير قابلة للتبديل من خطاب واحد أوحد مجرد.

الثلاثاء ١٧ تشرين الثاني

أخذتني بابا اليوم، كما وعدتني، إلى المنزل الذي قادتها إليه كورا قبل ستة أعوام. فمن ساحة مازيني، حيث نقطن، ذهبنا إلى شارع يوليوس قيصر الذي ارتقيته بالاتجاه المعاكس. وبعد الأنوار المرشدة للسير تابعت القيادة إلى أن قالت لي بابا:

ـ تباطأ، من المفروض أنّ هناك شارعاً إلى اليسار.. آه، هذا هو.

كان شارعاً محفوفاً بمبانٍ مقفلة، من كلّ طابع خاص. ووضعت بابا نظارتيها، ونظرت، ثمّ قالت لي:

ـ أترى تلك الملحمة مع لافتتها الرخامية البيضاء التي على كلّ طرف منها رأسا جاموس بقرون ذهبية؟ ليس الباب الذي بجانبها، بل الباب الذي يليه. هو ذاك... لقد وصلنا.

لم أحر جواباً، كانت هناك فسحة شاغرة غير بعيدة عن باب المدخل، فاتجهت إليها لأصفّ سيّارتي. وأطفأت المحرّك ونظرت إلى بابا. فرفعت نظارتيها وحدقت فيّ بدورها وسألتني:

ـ لمَ توقفت؛ ما تريد أن تفعل؟

ـ لنفترض أنّنا في ذلك اليوم المشهور. لقد وصلت بابا في السيّارة في كورا. فماذا حدث؟

ـ توقفت كورا عن بُعد معين، أمام ذلك المخبز، هناك...

ـ إذن فقد اضطرت بابا وكورا إلى عبور الشارع؟

ـ أجل، عبرناه.

ـ كيف كانتا؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ هل كانتا معاً، أم متباعدتين، أم هل كانت كورا تتقدّم بابا؟
ـ كانت كورا تمسك ببابا من يدها.
ـ من يدها؟
ـ أجل، من يدها. ولما كانت كورا لم تعد تمسك ببابا من يدها منذ مدّة من الزمان، فقد تذكرت بابا لحظتها الزمن الذي كانت فيه لكورا تلك العادة.
ـ متى كان ذلك؟
ـ عندما كانت صغيرة.
ـ وبمَ فكّرت بابا لما وجدت كورا تمسك بها من يدها؟
ـ كانت كورا قد قالت لها إنّها ستجد في المنزل الذي ستذهبان إليه سيداً يرغب في معرفتها وعليها أن تكون لطيفة معه، ولهذا فكّرت بابا بأنّ كورا تمسك بها من يدها لتمنعها من الهرب.
ـ معنى هذا أنّ بابا كانت تعرف ما تعنيه عبارة كورا؟
ـ أي عبارة؟
ـ أنّ عليها أن تكون لطيفة.
ـ كانت تعرف ذلك من غير أن تعرفه. كانت نظرياً تعرف ما المسألة، أمّا عملياً فلا.
ـ تابعي...
ـ عبرت بابا وكورا الشارع، واجتازتا الباب، ودخلتا، وظهرت البوابة وقالت «صباح الخير». وأجابت كورا «صباح الخير». ثمّ ارتقتا الطوابق الثلاثة على أقدامهما.
ـ ألم يكن هناك مصعد؟
ـ كلا، كان معطوباً.
ـ ثم؟
ـ ثم وصلتا إلى الطابق الثالث وتوقفتا أمام باب ليس عليه لوحة.

وفتحت كورا ودخلتا الشقة.

ـ ألم تقل كورا شيئاً؟

ـ قالت إنّ الشقة آسنة برائحة الدخان، وتهجمت على البوابة التي لم تقم، على حدّ قولها، بتنظيف الشقة في ذلك اليوم. ثمّ فتحت النوافذ ليجري الهواء.

ـ ماذا فعلت بابا أثناء ذلك؟

ـ جلست في الصالوت وراحت تنتظر بمفردها بينما كانت كورا تذهب وتجيء في الشقة.

ـ ماذا كانت تنتظر؟

ـ السيد. كانت كورا قد قالت لها: «انتظري هنا، لا يمكن أن يتأخر».

ـ وهل جاء؟

ـ كلا، لم يجئ. سبق أن قلت لك: في المرّة الأولى لم يأتِ أحد.

ـ لكن كيف عرفت أنّه لم يأت أحد؟

ـ على كلّ الأحوال لم يدخل أحد إلى الصالون. وبعد برهة من الوقت ظهرت كورا وقالت: «إنّني خارجة، وسأعود في غضون ساعة لا أكثر. اتركي الباب منفرجاً من أجل السيّد. كوني مطمئنة وانتظري». فأجابت بابا «طيب» وذهبت كورا لكن لم يأت أحد.

ـ من الممكن أن يكون ذلك الشخص قد جاء، ثمّ انصرف لسبب من الأسباب، من غير أن تنتبه إليه كورا. كيف كانت بابا تجلس في الصالون؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني: في أي وضع، في أي مكان بالنسبة إلى الباب؟

ـ كان هناك، بالقرب من أحد الجدران مقابل الباب بالضبط، مجموعة مؤلفة من ديوان وأريكتين. وقد جلست كورا على إحدى هاتين الأريكتين.

ـ في مواجهة الباب أو مديرة ظهرها؟

ـ مديرة ظهرها؟

ـ لمَ؟

ـ لم تكن ترغب في رؤية السيّد مواجهة لحظة دخوله.

ـ لأي سبب؟

ـ قد يبدو لك ذلك غريباً: لأنّها كانت تشعر بالفضول ولا تريد في الوقت نفسه أن تظهر فضولها. كانت تريد أن توحي بأنّها ليست فضولية، بأنّها ليست المرّة الأولى، بأنّها، بموجز الكلام، طلقة في سلوكها وبلا آراء مسبقة.

ـ أرأيت! كان من الممكن لأحدهم أن يفتح الباب بكلّ هدوء من وراء بابا، وأن يلقي بنظرة إلى الصالون، وأن ينصرف من غير أن تنتبه إليه بابا.

ـ أجل، ربما...

ـ ما الذي يحملك على الاعتقاد بأنّ ذلك السيد قد انصرف؟

ـ من يدري، لعله رأى بابا ولم تعجبه.

ـ كيف يمكن أن يكون قد رآها طالما أنّها كانت تدير له ظهرها؟

ـ كانت هناك مرآة كبيرة فوق الديوان، في مواجهة بابا بالضبط.

ـ في هذه الحال، لا بد أن تكون بابا قد رأت بدورها السيد.

ـ كلا، لم ترَه لأنّها لم تنظر قط إلى المرآة. كان تريد أن تُرى، لا أن تَرى.

ـ ولماذا؟

ـ للسبب نفسه لم تكن تريد أن تظهر فضولها. لكن، إذا فكر بالأمر الآن، من الممكن أنّها كانت مدفوعة بدافع آخر.

ـ ما هو؟

ـ كانت بابا تشعر بأنّها على وشك أن تصبح شيئاً، شيئاً معروضاً

للنظر والتقييم والتقدير. والحال أنّ بابا كانت تخفض عينيها ولا تنظر إلى النافذة، لأنّها كانت تفكر في قرارة نفسها بأنّه ينبغي عليها ألا تحرج ذاك الذي ينظر إليها، أن تتركه يراها، أن تعرض نفسها، أن تضع ذاتها موضع تقييم. تماماً كالشيء.

ـ لكن ماذا كانت بابا تفعل؟

ـ كانت كورا قد أعطتها مجلة لتشغل نفسها بها، مجلة مصورة. فراحت تقلب صفحاتها ببطء، الواحدة تلو الأخرى، مراقبة بعناية كلّ صورة في نفس الوقت الذي كانت ترهف فيه سمعها لتتبين إذا ما جاء أحد. وقد تصفحت تلك المجلة أكثر من عشر مرّات، من الصفحة الأولى إلى الأخيرة.

ـ كيف كانت جالسة؟

ـ على النحو الواجب: متصالبة الساقين، ومرفقاها على مسندي الأريكة. كانت تظن أنّه ينبغي عليها، لتترك انطباعاً حسناً، أن تجلس جلسة فتاة رفيعة التهذيب.

ـ وكم من الوقت انتظرت هكذا، والمجلة بين يديها؟

ـ وقتاً طويلاً جداً، حتّى تنمّلت ساقاها وذراعاها، وبدأت رقبتها توجعها. وفي النهاية، وبعد انتظار ساعة، نهضت وذهبت لتستكشف الشقة. لم يكن فيها أحد. كانت الغرف الأربع خاوية كلّها.

ـ هل كان باب الشقة ما يزال منفرجاً؟

ـ أجل.

وماذا فعلت بابا آنذاك؟

ـ عادت لتجلس في الصالون وانتظرت عودة كورا، لكنّها جلست هذه المرّة على الديوان، في مواجهة الباب.

ـ لماذا؟

لأنّها كانت تريد أن ترى سحنة كورا عندما ستكتشف عند وصولها أنّه لم يأتِ أحد.

ـ ولِمَ ذلك؟

ـ من يدري؟ ربّما لتفهم سبب حرص كورا الشديد على اجتماع بابا بذلك السيد.

ـ أطال انتظارها؟

ـ كلا، لم يطل كثيراً... أقل من ساعة.

ـ وعندما وصلت كورا، ماذا فعلت، ماذا قالت؟

لم تبد أي تفاجؤ. وإنّما اكتفت بأن تسأل: هل جاء؟

وبمَ أجابت بابا؟

ـ كلا، لم يجئ.

ـ وما كان عندئذ رد فعل كورا؟

ـ قالت: كنت أتوقع ذلك.

ـ هذا كلّ شيء؟

ـ قالت أيضاً: لا بدّ أنّه خاف.

ـ آه! أقالت ذلك؟

ـ أجل.

ـ لكن كيف كانت سحنتها؟

ـ لم يكن بادياً عليها أي انفعال. إنّ كورا تعرف كيف تخفي مشاعرها.

ـ ثمّ ماذا فعلت؟

ـ قالت: انتظري لحظة. سأتصل هاتفياً بشخص آخر، سنرى إذا ما كان يستطيع...

ـ وماذا بعد؟

ـ خرجت من الصالون وذهبت لتتصل هاتفياً.

ـ أين؟
ـ في المدخل.
ـ وسمعت بابا المحادثة الهاتفية؟
ـ بالطبع. كان الباب قد بقي مفتوحاً.
ـ ماذا قالت في الهاتف؟
ـ ركبت الرقم، ثمّ سألت من يتكلّم، وعمّا إذا كان ريكاردو، ثمّ بدأت تحثّه.
ـ كيف؟
ـ قالت له: بسرعة، بسرعة، بسرعة، تعال إلى هنا فوراً. أسرع. لدي هنا شيء دبرته خصيصاً لك، أسرع، اركب سيّارتك وتعال.
ـ بأي لهجة كانت تتكلم؟
ـ بلهجة ملحاح، فاقدة الصبر، مصممة، لهجة شخص يريد، بأي ثمن، أن يعقد صفقة.
ـ فهمت. وما حدث؟
ـ أجاب ريكاردو على الأرجح بأنّه لا يستطيع المجيء فوراً. فأجابت كورا: خسارة! إنّ لديّ فعلاً شيئاً جاهزاً لك.
ـ وبعدها؟
ـ بعدها، اتفقا. وقالت كورا: حسناً، اليوم في الساعة الخامسة.
ـ ثم؟
ـ رجعت كورا إلى الصالون وقالت لبابا: هذا الشخص سيأتي بالتأكيد اليوم، في الساعة الخامسة.
ـ لم تقولي لي إنّ هذه الزيارة الثانية قد تمت في اليوم ذاته.
ـ لم تسألني عن ذلك.
ـ وكم كانت الساعة في تلك اللحظة؟
ـ الثانية عشرة ظهراً.

ـ وبمَ كانت تفكر بابا بينما كانت أمها تتكلم بالهاتف؟

ـ بلا شيء.

ـ أواثقة أنت من ذلك؟

ـ كل الثقة.

ـ ولمَ؟

ـ لأنّها فهمت أنّ كلمات كورا «شيء دبرته خصيصاً لك» تقصدها هي. والحال أنّ هذه الجملة كانت كافية لكي تصبح، كما لو بسحر ساحر، شيئاً، سلعة، أي جسماً بلا فكر.

ـ بمقتضب الكلام، هل كانت راضية؟

ـ كلا، لم تكن راضية.

ـ أمتساءة إذن؟

ـ ولا حتى.

ـ لكن أي شعور خالجها بنتيجة عدم قدوم الزبون الأول؟ أشعور بالانفراج؟

ـ كلا.

ـ بالخيبة؟

ـ كلا.

ـ إذن؟

ـ لنقل شعور ازدراء تجاه نفسها.

ـ لماذا؟

ـ لأنّها راحت تتذكر كلّ التمثيلية الهزلية التي مثلتها أمام المرآة، ولأنّها كانت غاضبة لأنّها مثلتها مقابل لا شيء.

ـ فهمت وما حدث بين الثانية عشر والخامسة بعد الظهر؟

ـ لا شيء يستحق الذكر.

ـ ماذا فعلت كورا وبابا؟

ـ غادرتا الشقة وعادتا بالسيّارة إلى البيت.

ـ وفي البيت، ماذا فعلتا؟

ـ تناولتا طعام الغداء.

عمّ تحدّثت كورا؟

ـ لم تقل شيئاً ذا أهمية. بيد أنّها قالت في إحدى اللحظات: لا تأخذي هذه السحنة. فمقابل كلّ واحد يضيع يوجد مئة. ثمّ إنّ الذي ستتعرفين إليه اليوم أفضل بكثير من الآخر. سترين، إنّه رجل محبّب إلى النفس فعلاً.

ـ بمَ أجابت بابا؟

ـ بلا شيء.

ـ لمَ؟

ـ كانت مشغولة البال لأنّ اليوم كان يوم أحد ولأنّ إحدى صديقاتها كانت ستأتي للعمل معها بعد الظهر، ولم تكن تدري ماذا تفعل.

ـ آه؟...

ـ كانت صديقتها تبقى معها، عادة، حتّى وقت العشاء.

ـ ماذا فعلت إذن؟

ـ أخبرت كورا بذلك.

ـ وبمَ أجابت هذه.

ـ قالت إنّ بابا تستطيع البقاء مع صديقتها حتّى الرابعة والنصف، ثمّ تصرفها.

ـ ألم تقل شيئاً آخر؟

ـ كلا.

ـ وما حدث بعد ذلك؟

ـ ذهبت بابا غلى غرفتها وانتظرت فيها مقدم صديقتها. وفي حوالي الساعة الثانية وصلت الصديقة وشرعت الاثنتان في مراجعة درسهما.

- درس في ماذا؟
- في الإيطالية.
- شفهية شعر ليوباردي.
- أدرستا جيداً؟
- أجل، جيداً جداً.
- لكن ألم تكن بابا ساهية؟
- بالمرة، إنّما كانت فقط مهمومة لأنّها كانت تخشى ألا يتاح لها الوقت للانتهاء في الرابعة والنصف.
- أجل، لمراجعة درسها بكامله.
- وبعدها؟
- في الرابعة وخمس وعشرين دقيقة أبلغت بابا صديقتها بأنّ عليها أن تخرج مع كورا. فودعتها الصديقة ورافقتها بابا حتّى الباب. لكن الصديقة تأخّرت لتثرثر مدّة عشر دقائق، وكانت بابا على أحر من الجمر لعلمها أنّ كورا تنتظر. وأخيراً انصرفت الصديقة، وعلى إثر ذلك ظهرت كورا في الممشى قائلة لبابا شيئاً مزعجاً.
- ماذا قالت؟
- شيئاً مثل «أيتها الثرثارة، لقد قلت لك أن تكوني جاهزة في الرابعة والنصف». لم تكن هذه الجملة جارحة في حد ذاتها، وإنّما اللهجة.
- كيف كانت تلك اللهجة؟
- لهجة نفاد صبر. كانت بابا تريد الذهب لغسل يديها بالنظر إلى تلطخ أصابعها بالحبر، لكن كورا قالت لها إنّه ليس هناك وقت. وأمسكت بها من ذراعها ودفعت بها بعنف إلى الدرج حتّى كادت أن تسقط. وقد غضبت بابا.
- غضبت كثيراً؟

ـ كلا، قليلاً، وربما بسبب تفاجئها لا بسبب تألمها. كانت كورا تبدو وكأنّها فقدت السيطرة على نفسها، وهذا غير مألوف منها بالنظر إلى أنّها تتمتع عادة بسيطرة كبيرة على نفسها. وهكذا نزلتا إلى الطابق الأرضي وذهبتا في السيّارة إلى الشقة.

ـ ألم تقل كورا شيئاً أثناء الطريق؟

ـ كلا، لم تقل شيئاً. كانت ما تزال تبدو غاضبة.

ـ ثمّ؟

ـ جرى كلّ شيء كما في الصباح. فقد أوقفت كورا السيّارة أمام المخبز، وأمسكت ببابا من يدها لتعبر بها الشارع، وصعدنا إلى الطابق الثالث، وذهبتا إلى الصالون. وقالت كورا إنّها ذاهبة لتعد لنفسها فنجاناً من القهوة في المطبخ، وخرجت تاركة باب الصالون مفتوحاً.

ـ هل طال الانتظار، هذه المرّة؟

ـ كلا. انتظرت بابا حوالي عشر دقائق ثمّ سمعت طرقاً على باب المدخل وذهبت كورا لتفتح.

ـ من كان؟

ـ ريكاردو. في تلك المرّة كانت بابا واقفة قرب النافذة. فلم تره لكنّها سمعته يتكلم مع كورا.

ـ ماذا قالا؟

ـ قالت كورا «لقد جئت قبل الموعد. ونحن لم نكن ننتظرك قبل ربع ساعة لو سبّقت أكثر قليلاً، لما وجدتنا».

ـ وبمَ أجاب ريكاردو؟

ـ بأنّه أخطأ في حساب المسافة بين بيته ومنزل كورا. وقال: «لكن ما ذلك الشيء الذي كلمتني عنه؟».

ـ ذلك الشيء؟

ـ يقصد بابا. الشيء هو بابا.
ـ بمَ أجابت كورا؟
ـ أجابت: «إنّه هنا، اجلس. سآتيك به حالاً».
ـ أين؟
ـ في غرفة النوم.
ـ وماذا فعل هو؟
ـ تبع كورا.
ـ ثمّ؟
ـ ذهبت كورا إلى الصالون وقالت بصوت خافت لبابا: هيّا، تعالي، لقد وصل.
ـ وماذا فعلت بابا؟
ـ نهضت وتبعت كورا.
ـ إلى أين؟
ـ إلى غرفة النوم. كان الباب مفتوحاً وكان ريكاردو جالساً على السرير. وأدخلت كورا بابا إلى الحجرة قائلة: «هي ذي غابرييلا».
ـ غابرييلا وليس بابا؟
ـ كلا، ليس بابا.
ـ لماذا؟
ـ لا أدري.
ـ وما حدث عند ذاك؟
ـ قالت كورا لبابا إنّها ذاهبة لأنّ لديها عملاً، وإنّ على بابا أن تبقى أثناء ذلك في صحبة السيد. وعلى إثر هذه الكلمات خرجت كورا مطبقة الباب وراءها. وبقيت بابا مع ريكاردو.
ـ أيزعجك، أن تروي لي ما حدث آنذاك؟
ـ هذا لا يزعجني البتة. لقد قلت لك عدّة مرّات: إنّ ما حدث قد حدث لواحدة أخرى وليس لي.

ـ إذن. . . أين كنّا؟

ـ بعد أن انصرفت كورا، وأغلقت البابا وراءها، بقيت بابا وقفة تجاه ريكاردو الذي كان جالساً على السرير.

ـ وماذا فعل عندئذ ريكاردو؟

ـ أظهر لطفاً كثيراً، نعومة بالغة مع بابا. وأخذها من يدها وجذبها إليه وطرح عليها كمية من الأسئلة.

ـ أي أسئلة؟

ـ الأسئلة التي تطرح، على ما أتصوّر، في مثل تلك الحالات. وقبل كلّ شيء، عن عمري.

ـ وبابا، بمَ أجابت؟

ـ زادات في عمرها سنة وأجابت أنّها في الخامسة عشرة.

ـ لماذا؟

ـ لا أدري. ربّما لأنّها كانت تحاول دوماً أن تزيد في عمرها.

ـ وعمّ سألها بعد ذلك؟

ـ عمّا إذا كان تذهب إلى المدرسة.

ـ عمّا إذا كان تذهب إلى المدرسة؟

ـ نعم، تناول يد بابا الملطخة بالحبر وأراد أن يعلم إذا ما كانت قد لطخت نفسها على هذا النحو أثناء درسها. وأجابت بابا بالإيجاب. فسألها آنذاك عمّا إذا كانت تذهب إلى المدرسة.

ـ ما كان جواب بابا؟

ـ إنّها، بالفعل، تذهب إلى المدرسة.

ـ هل استمر في طرح الأسئلة؟

ـ أجل، بكثرة، لكن عن المدرسة بوجه خاص.

ـ عن المدرسة؟

ـ أجل. كان يريد أن يعرف كلّ شيء: الصفوف، المواد المدرّسة،

الأستاذ، الزميلات، كلّ شيء... حتّى العلامات التي نالتها بابا في كلّ مادة.

- بأي طريقة كان ريكاردو يخاطب بابا؟
- كيف: بأي طريقة؟
- بأي لهجة كان يكلمها؟
- أواه! بلهجة عادية، هادئة، متجردة، بل حتّى غير مبالية بعض الشيء.
- ثمّ؟
- أخيراً طلب ريكاردو من بابا أن تلقي قصيدة.
- أي قصيدة؟
- قصيدة ما.
- وماذا ألقت بابا؟
- قصيدة لليوباردي كانت قد حفظتها قبل قليل مع صديقتها: «السبت في القرية».
- كيف كانت بابا تقف بينما كانت تلقيها؟
- كانت تقف أمام ريكاردو، ويدها في يده.
- بمَ كانت تفكر بابا؟
- كانت تفكر بأنّ ريكاردو لطيف وظريف.
- ظروف؟
- أجل.
- لكن ألم تكن تدرك أن تلك المحادثة لم يكن لها من هدف غير إظهاره بمظهر لطيف وظريف، كما تقولين.
- بما كانت تدرك ذلك. لكن كان الأمر عندها سيان على كلّ حال.
- لماذا؟
- يصعب عليّ التعبير عن ذلك. ربّما لأنّ بابا كان تحرص بالدرجة

الأولى على أن تُحمل محمل الجد، أي على أن تُعامل بوصفها الشخص الذي كانته أو الذي كانت تعتقد أنّها كائنة عليه، لا بوصفها الشيء الذي كانت ما تزال تجهل أنّها أصبحته. ولو كان ريكاردو عاملها حتّى النهاية كشخص، فلربما كان أمكن لبابا أن تفعل ما يريد.

- بأي طريقة معاكسة عاملها إذن؟

- سبق أن قلت لك ذلك في يوم سابق: كشيء.

- أي؟

- كانت بابا مستغرقة في تفسير شيء ما له علاقة بالمدرسة، نسيت ماذا، آه! أجل، كونها متأخرة واضطرارها على الأرجح إلى معاودة صفها، عندما رمى ريكاردو بنفسه عليها فجأة، فاصطدم رأسها بخشب السرير.

- كيف استقبلت بابا ذلك؟

- أواه! على أسوأ شكل.

- لماذا؟

- لأنّها لم تكن تتوقعه البتة. كانت تتصوّر أنّ ما تفعله يهم ريكاردو. وقد أثبت هو ببادرته تلك، أنّه لا يهتم بها البتة.

- وماذا حدث عندئذ؟

- شعرت بابا وكأنّها تثلجت ودار في خلدها أن تقاوم وتهرب. ثمّ تذكرت أنّ كورا أوصتها بأنّ تتركه يفعل. وهكذا تركته يفعل. لكن لا أكثر. وهكذا أيضاً بدأ الصراع.

- أي صراع؟

- الصراع الذي يمكن أن يوجد بين شخص حي وبين دمية مسيّرة.

- من كان الدمية؟

- بابا.

ـ وفيمَ كان الصراع؟

ـ كان ريكاردو يحاول أن يجعل بابا تقوم بحركات الحب، وكانت بابا تتركه يفعل من دون أن يصدر عنها أي رد فعل بأي صورة من الصور، مثل لعبة يمكن أن توضع ذراعاها وساقاها في وضع معين لكنّها تبقى في هذا الوضع من غير أن تتحرّك البتة. لقد لبثت بابا هامدة، ولم يتوصل ريكاردو إلى تحريكها على النحو الذي يريد. وأخيراً حاول أن يعريها، لكنّها لما لم تساعده وجد أنّه من الأفضل أن يتعرّى هو نفسه، جزئياً على الأقل.

ـ جزئياً؟

ـ أجل، فقد خلع سترته وحذاءه.

ـ وما فعل بعد ذلك؟

ـ عاود اهتمامه ببابا.

ـ بأي طريقة؟

ـ جعلها تخلع قميصها من رأسها، والشيء المضحك أنّ بابا بقيت في إحدى اللحظات ساكنة بلا حراك، جالسة على السرير، وذراعاها في الهواء، ورأسها عالق في قميصها. ثمّ حاول ريكاردو من جديد أن ينزع عنها قميصها لكنّه في النهاية، وبعد أن كلّ وتثبطت همته، أنزله من جديد وظهر رأس بابا من القميص مشعثاً. ورأت ريكاردو جالساً أمامها على طاق القميص ينظر إليها.

ـ وما حدث بعد ذلك؟

ـ نظر ريكاردو إلى بابا ملياً، بصمت، ثمّ فاه بشيء غريب.

ـ أي شيء؟

ـ إلى المدرسة، كان عليك أن تذهب إلى المدرسة، إلى المدرسة، إلى المدرسة!

ـ قال ذلك؟

- نعم.
- بأي لهجة؟
- بلهجة مزعجة، على الأقل بالنسبة إلى بابا، كما لو أنّه يحرضها ويحثها هازئاً، لكن من غير خبث.
- بمَ أجابت بابا؟
- لم تجب بشيء. نظرت إلى يديها الملطختين بالحبر ولبثت صامتة.
- ثمّ؟
- ارتدى ريكاردو ملابسه بسرعة، وقال إنه سيذهب ليتصل هاتفياً وخرج، لكنّه لم يعد. أمّا الباقي فتعرفه.
- أجل، أعرفه... حسناً ألم يزعجك أن تروي لي هذه الأشياء؟
- لعل ذلك كان سيزعج بابا الماضي، التي كانت على قدر كبير من البلاهة، لكن ليس أنا، فأنا لا أفعل من شيء سوى أنّني أروي.
- طيب... انتظريني هنا.
- ماذا ستفعل؟
- سأرى المنزل عن قرب أكثر.
- إنّه منزل كغيره.
- أوه! إنّني أعلم ذلك. انتظريني...

وخرجت من السيّارة، وتقدّمت بضع خطوات بين الناس الذين كانوا يذهبون ويجيئون على الرصيف. كانت الساعة الواحدة بعد الظهر وكان الجو جو العيد المميز للأحياء الفقيرة بعد انتهاء العمل، وعند عودة الناس إلى بيوتهم لتناول طعام الغداء. قبل أن أدلف من باب المدخل نظرت إلى الشارع وفكرت بأنّ بابا قد رأته، في ذلك اليوم، كما أراه الآن: صفان من مبانٍ سامقة منخورة من كلّ أطرافها بالنوافذ والشرفات، وفي نهايتهما سور الفاتيكان الضخم المائل. ودلفت إلى الدهليز المبلط بموزاييك أحمر قانٍ والمرصوفة جدرانه برخام أصفر معرّق بالأسود، ونظرت إلى صناديق البريد، ثمّ فتحت باباً زجاجياً

ووجدت نفسي أمام الدرج. كانت حجرة البوابة خاوية، ففتحت الباب وناديت بأقوى ما وسعني، وأنا أتنشق ملء أنفي رائحة الطهي الحارة اللاذعة التي تصعد من الطابق الذي تحت الأرض. وبعد هنيهة من الزمن لمحت القسم العلوي من رأس ذي شعر قليل وشائب معقود على شكل لفافة صغيرة ملتوية يبرز ببطء من الدرج المفضي إلى الطابق ما تحت الأرضي (درجة درجة، بتعب) ثمّ رأيت الوجه الشاحب ذا التقاطيع العريضة البسيطة: عينان كبيرتان على شكل كرات لعبة اللوتو، أنف غليظ أفطس، فم عريض كالمحجم. وأخيراً الجسم كلّه، الجسم الكبير الغليظ، في مئزر قطني مخطط. كانت هي البوابة، ودار الحوار التالي بيني وبينها:

ـ أهنا تقطن السنيورا كورا ميريغي؟

ـ كلا.

ـ عفواً، أقصد السنيورا كورا مانشيني.

ـ هذه، أجل، لقد سكنت هنا لكن منذ مدّة طويلة.

ـ منذ كم؟

ـ لقد رحلت منذ أربعة أعوام ونيف.

ـ هل في وسعك أن تقولي لي أين تقطن الآن؟

ـ لم تترك من عنوان...

ـ وهنا، في أي طابق كانت تقيم؟

ـ في الثالث، الشقة الحادية عشرة.

ـ قولي، أي حياة كانت تعيش؟

ـ حياة جميع الناس.

ـ هل كانت تنام هنا؟

ـ لا أدري. ففي الساعة التاسعة أغلق الباب وما يحدث في الشقق لا يعنيني.

نظرت إليها. وصمدت لنظرتي بلا اهتمام متجهم فأخرجت عندئذ من جيبي ورقة من ذوات الألف ودسستها في جيب مئزرها، وألقت المرأة إلى الورقة النقدية بنظرة جانبية، لكن من غير أن تنبس بحرف. واستؤنف الحوار:

ـ هل كانت تقطن بمفردها في الشقة؟

ـ أجل. بمفردها.

ـ لكن كان يأتي إليها أشخاص آخرون؟

ـ أواه! أجل، بالتأكيد.

ـ أي نوع من الأشخاص؟

ـ رجال. وكذلك بنات.

ـ بنات من أي عمر؟

ـ فتيات، معظمهن.

ـ والرجال؟

ـ الرجال... من كلّ الأعمار.

ـ حتّى ممّن تقدّم بهم العمر.

ـ هل كان في تلك الشقة ذهاب وإياب كثير؟

ـ كلا، ليس كثيراً. فالسينيورا كانت حذرة، وحريصة على عدم لفت الانتباه.

ـ كيف كانت، أقصد السنيورا كورا؟

ـ سيدة هادئة، جدية، أنيقة. إنّني لم أشكُ منها في شيء قط.

ـ كانت تمنحك بقشيشاً، أليس كذلك؟

ـ بلى. كانت كريمة. معروف أنّ كسب البوابات قليل وأنّهن بحاجة إلى تدارك أمورهن من هنا وهناك.

ـ صحيح. قولي لي: هل تذكرين إذا ما كانت السنيورا تأتي أحياناً مع ابنتها؟

- لم أكن أدري أنّ لها بنتاً.

- لكن كانت لها بنت.

- ربّما تكون قد جاءت معها، لكنّني لم ألحظها لأنّني لم أكن أعرف أنّ للسنيورا ابنة. ثمّ إنّ عددهن كان كبيراً. . .

- سأصفها لك وستقولين لي إذا ما تعرفتها: فتاة في الخامسة عشرة أو أقل، وجهها مستدير، ولها خصلة على عينيها، وشعر قصير.

- آه! أجل، إنّني لأذكرها الآن. ألم تكن دوماً في قميص محاك وبنطال؟

- بلى.

- مؤكد أنّني أتذكرها. لقد تردّدت لفترة من الزمن ثمّ لم نعد نراها. لقد جاءت مع السنيورا، وبمفردها أيضاً.

- أجاءت بمفردها أحياناً؟

- نعم، لحسابها الخاص. كانت ترتقي الدرج وثباً، كلّ درجتين معاً ولم تصعد في المصعد قط.

- وكم مرّة جاءت؟

لم أعدّ. إنّني أتذكرها لأنّها كانت صغيرة، ولأنّها كانت ترتدي دوماً بنطالاً، ولأنّها كانت ترتقي الدرج أربع أربع.

- لِمَ لم تكن تصعد في المصعد؟

- من يدري؟ لعله كان يلذ لها أن تصعد على قدميها.

- كم سنة بقيت تتردّد؟

- كم سنة! ليست المسألة مسألة سنوات، بل أشهر. ربّما شهران، لا أكثر.

- رأيتها بمفردها ومع السنيورا كورا، لكن مع رجال؟

- كلا، لم أرها مع رجال. فالرجال كانوا يأتون على حدة.

- ألم تريها معي؟

ـ معك؟ لماذا؟ أكانت تأتي إذن معك؟

ـ أجل.

ـ أتعرف، لقد لحظت الفتاة، كما قلت لك، بسبب هندامها وعمرها لكن لم يكن أحد يعير الرجال انتباهاً.

ـ أمعني النظر فيّ، ألا تتذكرينني؟

ـ كلا، بالمرة.

ـ مع أنّني مررت أمامك وأنا أمسك بابنة السنيورا كورا من يدها.

ـ الأرجح أنّني لم أنتبه إليك.

ـ إنّني أبحث عن ابنة السنيورا كورا. ولهذا أطرح عليك كلّ هذه الأسئلة.

ـ لكن لمَ لا تذهب لتستفهم من السنيورا كورا؟ إنّ العثور عليها ليس بالصعب. . .

ـ السنيورا كورا ماتت.

ـ أواه! المسكينة، لكم آسف عليها! من كان ليتصوّر، سيدة بمثل ذلك اللطف، من كان ليفكر، بربك قل لي! وبمَ ماتت؟

ـ لا أدري. أعرف فقط أنّها ماتت.

ـ على كل! إنّني آسفة، لكنّي لا أستطيع أن أقدم إليك أي معلومات عن ابنة السنيورا كورا. على كلّ، لا بد أنّها أصبحت الآن امرأة كاملة مكتملة. من يدري، لعلها تزوجت. . .

ـ أأستطيع أن أصعد إلى الشقة الحادية عشرة؟

ـ أواه! بالنسبة إليّ. . . اصعد إذا شئت، لكنّك سترى أنّهم لا يعرفون شيئاً.

وارتقيت طابقين، ثمّ طابقين آخرين. الشقة الحادية عشرة: باب خشبي فاهي اللون عليه لوحة نحاسية بيضوية تحمل اسم: لورا نزوني. وقبل أن أضغط على زر الجرس فكرت لحظة مفتشاً عن ذريعة

لزيارتي. ودوى رنين الجرس، الأجش والقوي، لمدّة من الزمن مثل نقيق البط. وسادت لحظة من الصمت، ثمّ انفتح الباب، وشاهدت على العتبة فتاة صغيرة في حوالي الثانية عشر ترتدي بلوزة عمل وسخة، خضراء فستقية، شعرها طويل متناثر على كتفيها، وفي قمة رأسها عقدة بيضاء كبيرة. كانت شاحبة الوجه، سمكة الجلد، تحيط بعينيها خطوط زرقاء مائلة إلى السواد. ونظرت إليّ بتشكك، لكن دونما خجل:

- من تريد؟ عمن تبحث؟ ليس في البيت أحد.

فأجبت:

- أرسلوني من الشقة التي في الأعلى. إنّ مجرى الماء مسدود. أنا المصلح فأفسحت الطريق من غير اعتراض ودلفت إلى الممشى المعتاد الفائحة رائحته والمظلم، الذي يفضي إلى المطبخ في هذا النوع من الشقق. وبسرعة اتجهت نحو الباب الأوّل إلى اليسار، الذي لا بد أن يكون، بموجب حساباتي، باب الغرفة ذات النافذة التي نظرت منها بابا قبل ستة أعوام إلى الشارع وشاهدت ريكاردو يصعد إلى السيّارة ويرحل. لكنّني كنت مخطئاً، لأنّني لم أكوّن فكرة دقيقة عن موقع الشقة. كانت عبارة عن حجرة متطاولة ضيقة، يحجب عنها النور الغسيل المنشور أمام النافذة التي تطل، كما تبينت، على الباحة. والتفت نحو الفتاة قائلاً «الترشح ليس من هذا الجانب، أين هي الحجر المطلة على الشارع؟».

فحدجتني في عيني وقالت لي بلهجة صارمة:

- لو سألتني عن ذلك لتوك بدلاً من أن تدخل فجأة...

وسبقتني إلى الغرفة التي كنت أبحث عنها. كانت هذه الحجرة تستخدم، كما في أيام كورا، كغرفة منامة، فيها ديوان ـ سرير بين حاجزين مفروشين بكروتون مزهر. وكان فيها أيضاً مكتب، ولم يكن

للنافذة ستائر. وتظاهرت بأنّني أفحص السقف كأنّني أبحث عن بقع الرطوبة، ثمّ اتجهت نحو النافذة ومن غير أن أفتحها نظرت إلى الأسفل. كان الشارع والناس على الرصيف يبدون، من الأعلى وكأن أقدامهم مغروسة مباشرة تحت رؤوسهم. وكانت سطوح السيّارات الصقيلة تتقدّم في أرتال بطيئة حذرة، مثل بنات وردان أعماها النور. وعلى الرصيف المقابل كانت ترى المخازن الأرضية والمتسكعون أمام واجهاتها. وارتعدت لدى سماعي صوت الفتاة المتواقح:

ـ إيه، أنت، بقع الرطوبة، هل تبحث عنها في الشارع؟

ـ كنت أنظر إذا ما كان سببها أنبوب خارجي.

ـ ممكن، لكنّك على كلّ حال لست المصلح.

ـ لماذا؟

ـ أوّلاً لأنّه ليس فوقنا أحد. فمنذ شهرين والشقة بلا مستأجر. ثمّ إنّني أعرف المصلح. إنّه شاب أشقر يرتدي بزة العمل الزرقاء.

ـ إذن فمن أنا في رأيك؟

ـ هذا ما لا أعلم عنه شيئاً وما لا يهمني أن أعلم عنه شيئاً، لكنّك بالتأكيد لست المصلح.

ـ وأنت، كيف تدعين؟

ـ آنا ماريا.

ـ شكراً، يا آنا ماريا، إلى اللقاء. أعذري إزعاجي لك.

وخرجت تحت نظر الفتاة الصغيرة المرتاب، ونزلت إلى الطابق الأرضي وغادرته إلى الشارع. وشاهدت بابا منهمكة في قراءة مجلة. وأدرت المحرك، وفيما أنا أسوق قلت:

ـ على كلّ الأحوال، أنت أخفيت عني شيئاً.

ـ أي شيء؟

ـ أنّ بابا في اليوم الأول كانت تصحبها كورا، لكنّها في المرّات

التالية جاءت إلى هنا بمفردها.

- لم أقل لك ذلك لأنّك لم تسألني عنه.

- لكن لمَ كانت بابا تقدم إلى هنا؟ كان في وسعها، بعد كلّ شيء، ألا تأتي.

- كانت كورا تخبرها بالساعة التي يجب عليها أن تذهب فيها وتسلمها مفاتيح الشقة. وكانت بابا تأخذ المفاتيح، وتدرس حتّى أوان الموعد، ثمّ تطبق كتبها، وتغادر البيت، وتتجه على قدميها، من شارع إلى شارع، حتّى منزل كورا. وكانت، عندما تصل، ترتقي الدرج أربع أربع، وتفتح الباب، وتذهب للانتظار في الصالون وفي يدها مجلة. وعندما كانت تسمع جرس المدخل كانت تذهب لتفتح، فيعبر الرجل العتبة وتغلق بابا الباب وترتجه. ثمّ تسبق الرجل إلى الغرفة التي تقفل بابها ويرتمي الرجل على بابا وينشب نفس الصراع الذي نشب في المرّة الأولى. وبعد ذلك ينصرف الرجل وتعيد بابا النظام إلى شخصها وغرفتها. ثمّ تذهب إلى الصالون حيث تكون كورا بانتظارها. وعندما لا تكون كورا فيه، تنتظر بابا مقدمها. وآنذاك ترجع الاثنتان إلى البيت الذي تعود فيه بابا إلى كتبها ومكتبها وتستأنف عملها. والآن، قل لي. . .

- ماذا؟

- في هذا التسلسل من الأفعال، هل كان ثمة من مجال للتفكير؟ لقد كانت بابا بحاجة، حتّى تفلت من هذا كلّه، إلى أن تفكّر. لكن متى أتيح لها الوقت؟

- فهمت. بالطبع، إذا ما رويت الأشياء بهذا التسلسل الآلي، فلا مكان للتفكير. لكن بابا، بعد كلّ شيء، لم تكن بآلة مسيَّرة.

- بلى، على العكس، كانت آلة مسيَّرة، لا أكثر من آلة مسيَّرة عهدت إليها كورا بالقيام ببعض الأشياء، ولا شيء آخر غير ذلك. وإذا شئت،

نستطيع القول إنّ بابا ماتت، أي بابا القديمة، باعتبار أنّ الجديدة لم تكن قد ولدت بعد، وتلك التي كانت تتسكع في الشوارع لم تكن في الواقع غير جسم بلا إرادة يطيع كورا طاعة عمياء.

الأربعاء ١٨ تشرين الثاني

في أحد أحياء روما القديمة، بين واجهة كنيسة من الطراز الباروكي، مبنية من حجر الجص المسودّ والمنخور بالمسام، وبين واجهة منزل قديم من القرن التاسع عشر مطلية بالأحمر والأصفر، بهرت عيناي فجأة بلافتة منارة بالنيون، وشم أُفقي من النور الأبيض ـ البنفسجي المطبوع على ملس الشارع الصغير: سينما ألاسكا. إنّه (أذكر ذلك) اسم السينما التي كانت تعمل فيها الفتاة التي لمحتها في فيلا كورا. ودخلت.

كان المدخل يتألق بالأضواء. وكانت تقف خلف شباك التذاكر فتاة لها وجه كوجه الجثة، وعينان صمغيتان، ورأس مكسو بخوذة من شعر قطني أشقر بلون القش. واقتربت وطلبت تذكرة صالة بينما كانت عيناي تنظران باتجاه الممشى. كانت تقف، إلى جانبي باب المدخل، امرأتان في زي رمادي لؤلؤي موشى بالأحمر، غير متعادلتين في القامة، وكان اللباس مشدوداً وملصوقاً بجسميهما إلى درجة اللااحتشام الباعث على الهزء. كانت إحداهما قصيرة، شقراء، بدينة، راجحة الردف، ناهدة الصدر، كأن لا شيء يصل بين هذين النتوءين. وكانت الأخرى طويلة، سمراء، قوية البنية، منسجمة التقاطيع. وسرعان ما تعرفت في هذه الأخيرة الفتاة التي لمحتها في فيلا كورا. واقتربت وأعطيتها تذكرتي. ودارت حول نفسها على نحو مفاجئ وتقدمتني إلى الصالة على هدى شعاع بطاريتها. وما كادت ستائر المدخل تنطبق وراءنا حتّى أمسكت بقوّة بذراع الفتاة مانعاً إيّاها من التقدّم. وخنقت صرخة تفاجؤ وجمدت في مكانها. فهمست آنذاك في أذنها:

ـ ما اسمك؟
ـ دعني فوراً أو أصرخ.
ـ لا تكوني بلهاء: فنحن نعرف بعضنا بعضاً. لقد التقينا معاً في فيلا السنيورا كورا، شارع كاسيا.

فلبثت صامتة لحظة من الزمن ثمّ أجابت بصوت خافت:

ـ اسمي ديليا. ماذا تريد منّي؟ أنا لا أعرفك.
ـ ألا تذكرينني؟

فابتعدت قليلاً في العتمة، وانتظرت أن تضاء الشاشة، وحدقت فيّ، وتمتمت بسذاجة:

ـ كلا، كلا، بالمرّة. أنا لم أرك قط!

وكما فعلت مع بوابة منزل كورا القديم، أخرجت من جيبي ورقة من الألف ليرة ودسستها في يدها:

ـ لا يهم إنّ كنت لا تعرفينني. فلنتواعد بعد انتهاء الحفلة، عندما ستعودين إلى بيتك.

فحدجتني من جديد بنظرة يتوازعها الفضول والارتياب:

ـ لكن الحفلة تنتهي في الساعة الواحدة.
ـ ليكن! فلنتواعد في الساعة الواحدة.
ـ لكن ماذا تريد منّي؟
ـ لا شيء البتة. أريد أن أكلمك فقط. أعطني اسم مقهى نستطيع الالتقاء فيه وسأكون فيه في الساعة الواحدة.
ـ أواه! بالنسبة إليّ، أنا لا أخاف! لكن... حسناً! فلنلتقِ في بار تورينو، ساحة تريتون.
ـ حسناً. إذن إلى اللقاء... وبالانتظار، خذي هذا أيضاً...
ـ أواه! شكراً، شكراً، لا حاجة إلى ذلك... أتعرف، إنّ الوقت ما يزال مبكراً، ستضطر إلى مشاهدة الفيلم مرتين.

- سأصبر. هل الفيلم جيد؟
- بين بين. بوليسي. لكن قل لي: هل أنت واثق تماماً من إنّك تعرفني؟ فأنا لا أعرفك، البتة.

في هذه اللحظة بدأ بعض المتفرجين يهتفون أنّ «صه». وخنقت ديليا قهقهة، وربتت على كتفي علامة على الاتفاق وابتعدت.

وقبعت في مقعدي ونظرت إلى الفيلم الذي كان من النوع البوليسي الذي تقع فيه من البداية جريمة مطلوب الكشف عن فاعلها. وبينما كنت أتتبع على الشاشة الصور التي كانت تتوالى بلا توقف، خطر لي فجأة أنّ هناك بعض التشابه بين وضعي ووضع فيلم بوليسي، لكنّه تشابه معكوس. وسوف أشرح هنا هذه الفكرة: فالفيلم البوليسي ينطلق من واقعة عادية تافهة، يومية، لينتهي إلى شيء خارق للعادة وبليغ الدلالة، أمّا أنا فأنطلق على العكس من موقف يمكن أن يبدو للوهلة الأولى خارقاً للعادة وبليغ الدلالة لكنّه يفضي على العكس إلى الرتابة العبثية لما هو يومي، أي إلى عادية الفساد.

شاهدت كلّ القسم الثاني من الفيلم، ثمّ أضيئت الأضواء، ونظرت حولي. كانت الصالة الطويلة والضيقة تشبه محطة طائرات. وكان عدد المتفرجين زهيداً، معظمهم من الرجال، بينهم بعض أزواج يبدو التجهم والتذمر على وجوههم كالأزواج الذين يتسكعون في شوارع روما المركزية بعد العشاء. وكانت ديليا قد عادت إلى مكانها بالقرب من الباب، ولما التقطت نظرتي، رمقتني بنظرة هازئة، وعلى الأقل هكذا بدت لي. ثمّ خيم الظلام من جديد واضطررت إلى مشاهدة الأفلام الإعلانية، ثمّ مشاهدة فيلم وثائقي عن سردينيا، ثمّ المناظر، وأخيراً الفيلم البوليسي الذي سبق أن شاهدت قسمه الثاني. وبعد انقضاء منتصف الليل لم أنتظر انتهاء الفيلم وغادرت الصالة قبل إضاءة الأنوار. وعبر أزقة مظلمة، مبلطة بحجارة متخلعة، اتجهت نحو المقهى الذي سمته لي ديليا.

وجلست في القاعة الصغيرة، على مقعد أمام طاولة أنبوبية الشكل، في جو عابق برائحة دخان بارد، وقدماي في النشارة، وضوء النيون في عيني. وطلبت قهوة. وبعد أن احتسيتها، أصغيت إلى المحادثة التي كانت تصلني شذرات منها، من القاعة الملاصقة للبار، من خلال نفحات بخار الغلاية الميكانيكية.

... تلقيت.

... بالهاتف.

... الشارع. حاول أن يهرب، لكنّني...

... وما به؟

... أزعر. تصوّر أنّه...

... حقاً؟ وهو؟...

... في حين أنّ الجميع يعرفون أنّ...

... سيئ... لكن صحيح أن...

وفجأة وجدت ديليا أمامي. إذ دخلت من غير أن أنتبه إليها. كانت ترتدي معطفاً ذا قبة من فرو الأرنب، وتحمل تحت ذراعها حقيبة عتيقة، ولاحظت أن يديها طويلتان جميلتان بلا قفاز. وقالت لي وهي تنظر إليّ مقهقهة:

ـ لا، حقاً، لم أرك، لم أرك قط. لكن ليس لهذا أهمية. أتقدّم لي كسرة طعام؟

وجلست وناديت النادل وطلبت ديليا صحفة عليها أقراص كبيرة محشوة من خبز الريف وفنجان كبير من الشوكولاته، والتهمت ديليا الكل من غير أنّ تنبس ببنت شفة. لكن ما كادت تنتهي حتّى رمقتني وقهقهت ضاحكة من جديد:

ـ لكن، أتعرف، إنّني لا أتعرفك بالمرّة؟ صحيح أنّني ذهبت أكثر من مرّة إلى فيلا السنيورا كورا، لكن...

ـ أتريدين برهاناً على أنّنا كنّا معاً؟ إنّ على بطنك ندباً من عملية زائدة.

ـ من الممكن أن يكون لجميع الناس ندب كهذا، وإحدى صديقاتي لها ندب مشابه تماماً. لعلك تحسبني شخصاً آخر؟

ـ انتظري... عندك شيء آخر أكثر خصوصية.

ـ ما هو؟

ـ لك خط من زغب داكن اللون يمتد من البطن حتّى الصدر.

ـ لا بدّ أنّك ساحر بعض الشيء. إنّني أكاد أشعر بالخوف...

ـ هل تريدين أن نبقى هنا أم تريدين أن تذهبي؟

ـ فلنذهب.

ـ إلى أين تريدين الذهاب؟

ـ اصحبني إلى بيتي.

ـ أين تقطنين؟

في سان جيوفاني. ألديك سيّارة؟

ـ أجل.

ودفعت وخرجنا وعدنا أدراجنا إلى ضواحي السينما حيث تركت سيّارتي. وصعدنا إليها وبينما كنت أسوق دار بيننا الحديث التالي، وكانت ديليا هي أوّل من قطع حبل الصمت سائلة إياي:

ـ ما اسمك؟

ـ فرانشيسكو.

ـ منذ عدّة سنوات كان لي خطيب اسمه مثل اسمك. لكن لما كان توسكاني الأصل فقد كان يسمّي نفسه شيسكو. والواقع أنّ اسمه الحقيقي كان فرانشيسكو. قل لي، هل تعرفها، السنيورا كورا؟

ـ نعم.

ـ جيد المعرفة؟

ـ كلا، ليس كثيراً.

ـ انطباع خلفته في نفسك؟

ـ ماذا تعنين؟

ـ ما رأيك فيها؟

ـ أرى إنّها ظريفة، أجل... لكن ألا تبدو لك، كيف أقول، غريبة الأطوال بعض الشيء؟

ـ لمَ: غريبة الأطوار؟

ـ لأنّ...

ـ اشرحي فكرتك: لمَ غريبة الأطوار؟

فأخذت تضحك من جديد، بصورة لا تقاوم، بخبث:

ـ إذا قلت لك ذلك، فلا تردّده، لأنّ السنيورا كورا كانت دوماً طيبة معي وقد ساعدتني في كلّ مرّة احتجتها فيها.

ـ كلا، لن أنقل إليها كلامك.

ـ أقصد أنّها غريبة الأطوار، لأنّها تبدو لي، لنقل: بها شيء من المس؟

ـ شيء من المس؟

ـ أجل، ممسوسة. أتعرف ما تفعل؟

ـ ماذا تفعل؟

ـ لا أستطيع ان أقول لك ذلك، هذا يخجلني.

ـ هيّا، لا تأبهي...

ـ إنّني أخجل، بشرفي!

ـ بمَ هي ممسوسة؟

ـ بذلك الشيء. أنت تفهم ما أعنيه؟

ـ كلا.

ـ كلا؟ لنقل الجانب المادي من الحب، ربّما لأنّها مريضة منذ بعض الوقت، وما عاد في وسعها أن تمارسه...

ـ لكن ما مظاهر ذلك المس؟

ـ طيب! استمع. سأضحكك.

ـ إنّني أستمع... تشجعي...

ـ إنّ أحد المترددين على منزل السنيورا كورا يدعى ماركو، وهو شاب لديه مخزن للأجهزة المنزلية الكهربائية. وبينه وبين كورا رابطة صداقة، وقد حصلت منه على الإذن بأن تكون حاضرة في كلّ مرّة نتضاجع أنا وماركو. لكن افهمني: إنّ كورا لا تفعل شيئاً، وإنّما تجلس على أريكة وتمكث فيها بلا حراك تنظر إلينا بعينين جاحظتين، جاحظتين إلى حد يخجلني. ثمّ، أحياناً، تصوّر، تمد يدها، ببطء. ببطء، وبإصبع، إصبع واحدة، تلمس ماركو هناك بالضبط، وكأنّها لا تصدق عينيها وتريد إقناع نفسها بلمسها إياه بأنّه هنا حقاً. وعندها تلمسه، تمسّه مساً خفيفاً، ثمّ سرعان ما تسحب يدها وكأنّها اطمأنت، وتلبث بلا حراك تحدق بعينيها. وأنا، بينما أفعل الحب، تراودني الرغبة في الضحك، وفي الوقت نفسه يعتريني شيء من الخوف، لأنّها تبدو لي وكأنّها مجنونة، والإنسان يعلم أنّه يستطيع أن يتوقع كلّ شيء من المجانين. في مثل تلك اللحظات، أتعرف بمَ كانت السنيورا كورا تجعلني أفكّر؟ ستقول لي إنّه تشبيه في غير محله، لكن هذا غير صحيح، لأنّني لا أضع فيه أي نية سيئة: إنّني مؤمنة، أنا، ولا أقبل المزاح بصدد أمور الدين. إنّ السنيورا كورا تجعلني أفكّر ببعض فلاحات منطقتي، هناك في مقاطعة الفريول، اللواتي يذهبن إلى الكنيسة، ويركعن، ويمكثن ساعة أو ساعتين، وعيونهن شاخصة إلى التمثال الذي فوق المذبح، ثمّ يقبلن أطراف أصابعهن ويذهبن ليلمسن التمثال. وكلّ ذلك في ورع ووجد، كما لو أنّهن مسحورات. صحيح إنّني قلت للسنيورا كورا ذات يوم: «أنت تنظرين إلى ذلك

الشيء وكأنّه شيء مقدس! ولسوف تركعين في أحد الأيام أمام ماركو أثناء فعله الحب، وتضمّين يديك وتبتهلين لذلك الشيء، وتقبّلين أطراف أصابعك قبل أن تلمسيه، كما تفعل فلاحات منطقتنا في الكنيسة». أوَتعرف بمَ أجابتني؟ قالت: «إنّه الشيء الوحيد الذي له أهمية في العالم، إنّه أجمل ما في الدنيا. أنت بلهاء، لا تستطيعين أن تفهمي ذلك».

ـ كيف عرفت السنيورا؟

ـ أواه! بمنتهى البساطة. كنت أريد أن أخيط ثوباً، ولم يكن لدي فلس واحد. فأخذتني إحدى صديقاتي إلى كورا وتركتها تختار لي ثوباً أغلى ثمناً بكثير ممّا كنت أتوقّع. وحين حانت لحظة الدفع، قلت للسنيورا كورا إنّني غير قادرة، في لحظتها على الأقل، على تسديد الثمن. وإذا بها، هي التي كانت تقول لي دوماً ألا أقلق بصدد هذا الموضوع وإنّها على استعداد لأقراضي، إذا بها تهدّدني على العكس بالاتصال هاتفياً بأهلي حتّى يتولّى أبي الدفع. ولم أكن أنا أريدها أن تتصل بأهلي، لأنّ أبي يعمل كحاجب وكسبه قليل! وقد فهمت السنيورا كورا، وهي الذكية التي تحزر الأشياء من النظرة الأولى، فهمت أنّني لا أريد أن يعرف أبي شيئاً عن ثوبي، لذا هددتني بالاتصال به هاتفياً. وشعرت بأنّها مستعدة فعلاً لتنفيذ وعيدها. ولهذا قلت لها إنّني مستعدة لكلّ شيء بشرط ألا تتصل بوالدي. وهنا وضعتني أمام هذا الخيار. إمّا أن تأتي للقائي في منزلي في شارع كاسيا لأقدمك لسيد من أصدقائي، وإمّا أن أتصل هاتفياً بأبيك. كان تهديدها حقيقياً، كما قلت لك، لكنّه كان مبطناً بنعومة ورقة بالغتين، وكأنّه صادر عن صديقة حقيقية، عن سيدة حقيقية، تقول كلّ شيء من غير أن تقول شيئاً، تجعلك تفهم وتجعلك لا تفهم، بحيث خيّل إليّ أنّني أنا التي سألت من تلقاء نفسي أن أتعرف إلى ذلك السيد وأنّها هي التي تمنّ عليّ بتقديمه

إليّ لتساعدني ولتنقذني من خطر كبير. وهكذا اتفقنا في النهاية. ومنذ ذلك اليوم لم يقع بيننا أي نقاش البتة. فقد كانت دوماً طيبة معين ولو لم تكن غريبة الأطوار لقلت عنها إنّها خير صديقاتي. أمّا عن غرابة أطوارها فهي كذلك فعلاً، وعندما تكون جالسة في أريكتها تنظر إلينا، أنا وماركو، بعينيها الكبيرتين الجاحظتين الزرقاوين، بينما نفعل الحب، تأخذني الرغبة في الضحك وأجاهد لأحبس ضحكتي. وتحاشياً للضحك أروح أفكّر بأشياء حزينة، وعلى سبيل المثال بأنّها مجنونة وسترسل في يوم من الأيام إلى مصح عقلي. ولولا ذلك لكنت انفجرت ضحكاً وقهقهة، وفي هذا حرج ليس بالنسبة إليها فيحسب، بل أيضاً بالنسبة إلى ماركو الذي يمكن أن يتأذى بنتيجة ذلك لأنّه ليس من المستحسن في مثل تلك الأوقات أن يُوقف الرجل.

وتابعت على هذه الشاكلة حديثها معي عن كورا في ثرثرة لا ينضب لها معين، بريئة وخبيثة معاً. وفي النهاية وصلنا، بينما هي تهذر وتبعبع وأنا أسوق في صمت، وصلنا إلى ما وراء باب سان جيوفاني إلى شارع عريض كئيب. وقالت لي: «هنا» فتوقفت. وللمرّة الأخيرة أوصتني بألا أبوح لكورا بما أطلعتني عليه، وأخذت منّي وعداً بأن أذهب للقائها في فيلا شارع كاسيا، وصرحت لي بأنّها أعجبت بي حتّى ولو كنت أخفتها وخلفت لديها الانطباع بأنّني ساحر بعض الشيء، وأضافت:

- هذه المرّة سأفتح عيني على سعة حتّى أتذكرك. لكن أتعرف؛ إنّني لا أعتقد أنّني التقيت بك قط.

وودعتني، ونزلت من السيّارة، وعاركت قليلاً لتدير المفتاح في قفل الباب الضخم المتواضع للمنزل الشعبي، واختفت.

الجمعة ٢٠ تشرين الثاني

«Deus ex machine حيلة مسرحية تستخدم في المسرح

الكلاسيكي لإظهار آله من الآلهة على خشبة المسرح بواسطة آلية مسرحية معينة. ومثل هذا الإظهار يفيد في توكيد طقس من الطقوس، أو تثبيت تقليد محلي، أو حل عقدة العمل المسرحي المعقدة. ومن هنا أصبح التعبير مثلاً سائراً للإشارة إلى شخص أو شيء يتدخل على نحو مباغت بهدف إيجاد حل لموقف معين».

نسخت هذا التعريف من إحدى الموسوعات، لأنّه بدا لي ينطبق تمام الانطباق على ما يمكن أن يكونه مرض كورا إذا كان، كما أتصوّر أحياناً، مرضاً مميتاً.

وبالفعل لقد أقام في أعماق وجداني شك ملحاح وإن لم يكن له أساس قوي: فكما أن أوديب مسؤول عن طاعون طيبة، كذلك أنا مسؤول عن فساد عائلتي. مسؤول عمّا انتهت إليه كورا وعمّا تفعله، مسؤول عمّا تألمت منه بابا. مسؤول، بكلمة واحدة، عن كلّ شيء.

وهذا في الوقت الذي يخيّل إليّ فيه أنّني اكتشفت أنّه لا وجود لمجرمين ولا لضحايا، وأنّ الشيء الوحيد الموجود هو تيار اليومي اللامتمايز الفارغ من المعنى، عادية الفساد الطبيعية والعبثية.

إنّ الشعور بالخطيئة يوحي إليّ منطقياً، ككل شعور بالإثم، برغبة في التكفير. يقيناً، أنّني لا أستطيع أن أفقأ عيني كما فعل أوديب، لكن مخيلتي تفتح لي احتمال تفاهم مع كورا أقول لها فيه إنّني عالم بمهنتها الثانية، وأصارحتها بأنّها مصابة بمرضي خطير يمكن أن تموت به، وأشرح لها ضرورة ذهابها إلى مصح للأمراض الصدرية. وأخيراً سأقترح عليها اقتراحاً يعادل، بالنسبة إليّ، عمى أوديب الطوعي: إذا قبلت بمعالجة نفسها، فسأطوي الكشح نهائياً عن أسفاري، وسأعود من جديد زوجها، وسأمضي حياتي كلّها بجانبها. وكبداية، سأكون رفيقها طوال العامين أو الثلاثة التي ستستغرقها معالجتها في المصح.

وينبغي عليّ أن أوضح بأنّني أفكّر فعلاً بهذا كلّه. إنّ العدول عن

أسفاري، والإقامة مع كورا في مصح، وقضاء الحياة كلّها بجانبها ليست بالنسبة إليّ أوهاماً وخيالات، وإنّما (أدرك ذلك الآن) الاختيارات الأساسية في حياتي. وإنّني أفكّر بهذا بأكبر قدر من الجدية، حتّى إنّ قلبي لينقبض قلقاً وهصراً كما لو أنّني أتهيأ للموت. لكنّني أتغلب على قلقي متسلحاً بشعور مبهم بالتحدي، لا أدري من أين جاءني، وتتورم عيناي بالدموع، دموع حقيقة محرقة، وأبكي وجداً ورجاء.

لكن خلف هذه الرغبة البناءة والبطولية في التكفير يرتسم في الوقت نفسه الخوف من ألا يتاح لي الوقت، من أن تموت كورا فجأة بالسل الوبيل. وبذلك أن تكون هناك من كفارة. وسيعود النظام إلى الاستتباب من تلقاء نفسه. لكن حذارِ: فقد يكون هذا الخوف قناعاً يحجب الأمل الأرعن الماجن في أن يوفّر عليّ المرض، تلك الحيلة المسرحية الحقيقية[1]، الكفارة وأن يجد حلاً لكلّ شيء طبقاً لمنطق العادية اليومية.

لكن ما منطق اليومي هذا إن لم يكن استبدال الأشياء التي تقع لنا بالأشياء التي نكون نحن مسبّبيها؟ فالموت مرضاً هو في وضع كوضعي، حيث يطوقني من كلّ صوب وعيي للأصالة المميزة لكلّ عمل، أقول إنّ الموت مرضاً (الذي لا نسبّبه وإنّما يحدث لنا) هو الحل الوحيد الممكن. فهو الحيلة المسرحية الخاصة بما هو يومي، حيلة لا تفل إلهية وبلاهة عن طرائق الخشب والقماش التي تسمح، في المسرح الكلاسيكي، بإظهار آله من الآلهة وبالتالي بحل «عقدة العمل الداماتيكي المعقدة».

(١) Deus ex machine ومعناها الحرفي «إله منزل بواسطة آلة». وهي حيلة مسرحية تستخدم لإظهار إله من الآلهة على خشبة المسرح، وتعني مجازاً حلاً سعيداً عن الواقع لموقف مأساوي. «المترجم».

ثمّ إنّ «الحيلة المسرحية» المتمثلة في الموت مرضاً تغني لا عن التكفير فحسب، بل أيضاً، وبصورة طبيعية، عن الحل الممكن الآخر للدراما، أعني القصاص. فالقصاص والتكفير متعادلان من حيث إنّهما كليهما غير أصليين. فمن الخطل بقدر ما إنّه صحيح أن أتخيل كورا معاقبة منقذة. والشيء الوحيد الذي يبدو صحيحاً عادلاً هو موتها على سرير في أحد المستشفيات، موت سببه الداء الوبيل، بين العديد من المرضى الآثمين أو غير الآثمين. وباختصار موتها بشيء مشترك، غير إرادي، عديم الدلالة، أي، مرّة أخرى، بـ «حيلة مسرحية» تحل «عقدة العمل الدراماتيكي المعقدة».

ومع ذلك، وبعد أن قلت كلّ ما ينبغي قوله، لم أتوصّل إلى التحرّر من فكرة أن سلبيتي تجاه كورا ستتحوّل في النهاية إلى جبن. ولهذا أفكّر بأنّ عليّ، بالرغم من كلّ شيء، أن أبذل مجهوداً لأكفّر وأنقذ كورا إنقاذها من المرض، إنقاذها من الفساد.

ليكن. لكنّي في اللحظة التي أصمّم فيها على المبادرة إلى العمل، يخالجني شعور مفاجئ بالضيق، شعور يحذرني من أنّني قد أفعل شيئاً سبق لي أن فعلته. وأتساءل عندئذ عمّا إذا كنت لن أسقط من جديد، من قبيل الصدفة، في لاواقعية اللاأصالة، تماماً ما حدث لي قبل عشرة أعوام عندما أردت الزواج من كورا.

وأقول في نفسي إنّني كما أخطأت قبل عشر سنوات عندما اتّخذت كورا قرينة لي، كذلك سوف أخطئ اليوم إذا كرّست لها حياتي. فالعمل سيوقعني اليوم كما في الأمس، في اللاأصالة. بيد أنّ هناك فارقاً بين ما حدث قبل عشرة أعوام وبين ما يحدث اليوم: فقبل عشر سنوات كنت أكتب روايتي ناظراً بعين الاستصواب إلى الأشياء التي فعلتها في ماضيّ الأحدث عهداً، أمّا اليوم فإنّني سأستخلص،

على العكس، رواية من اليوميات التي أروي فيها كلّ وقائع وجودي يوماً فيوماً، وهذا ما يجعل (كما سبق وذكرت) مشروع روايتي بمثابة ضمير لي إزاء كلّ عمل قد أصمّم على القيام به.

لهذه الدوافع كلّها قرّرت مساء أمس توضيح علاقاتي مع كورا بنفس الصورة التي وضحت بها علاقاتي مع بابا، مستخدماً روايتي كحجر محك. أي عن طريق تسجيلي في يومياتي المشهد الخيالي لتفاهمي مع كورا. وهوذا المشهد:

«كورا مستلقية على سريرها بسبب الحمى التي ألمّت بها طول النهار. أقرع الباب وأدخل وأقول لها إنّ لي حديثاً معها. ومن غير أن تقول شيئاً تدعوني، بحركة من ذقنها، إلى الجلوس على الأريكة الموضوعة تجاه السرير».

قبل أن أبدأ أنظر إلى كورا الجالسة على السرير، المسندة ظهرها إلى وسادتين، المتدثرة بكنزة صوفية قرمزية اللون، موشاة حواشيها بحرير أخضر. وأقول لها:

- إنّني هنا لأنّ لي حديثاً معك. عليّ أن أقول لك شيئاً لم أملك الشجاعة قط حتّى اليوم للبوح لك به.
- ما الأمر؟
- ألا تخمنين؟
- كلا.
- مع أنّ موقفي منك كان يجب أن يجعلك تفهمين.
- أي موقف؟
- طوال عشرة أعوام كنت في هذا البيت كالأجنبي. وفجأة قرّرت أنّ كلّ شيء سيتغيّر، وأنّني سأعود أباً لبابا، وزوجاً لك. لكن المرء لا يستطيع أن يفعل هذه الأشياء بين بين. لقد أردت، طوال عشر سنوات، أن أتجاهلك. وما دمت قد عزمت على الاهتمام بك،

فعليّ أن أفعل ذلك من كلّ قلبي. ويخيّل إليّ، وقد وصلنا إلى هذه النقطة من الحديث، أنّ الشيء الذي أريد أن أكلمك عنه قد تجلّى لك بوضوح ولا بد.

ـ على العكس، لا شيء واضح.

ـ لا شيء؟ ألم تفهمي بعد أنّني أكلمك عن مهنتك الثانية؟

ـ ليس لي مهنة ثانية.

ـ وإنّني أكلمك أيضاً عن بابا.

هذه المرّة بقيت صامتة، من غير أن تظهر تفاجؤاً ولا اضطراباً. وتابعت بعد هنيهة:

ـ أعتقد أنّني أوفيت الشرح بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟

وبقيت متمسكة بحبل الصمت. وتابعت:

ـ تزعم بابا أنّ كلّ ما حدث يبدو لها وكأنّه قد حدث لبابا أخرى لا دخل لها بها. لنفترض أيضاً أنّ كلّ ما فعلته حتّى الآن قد فعلته كورا أخرى لا دخل لها بك. ولنأتِ إلى الشيء الهام الوحيد: صحتك.

ـ ما دخل صحتي في هذا كلّه؟

ـ قالت لي باباً إنّك عزمت في النهاية على استشارة طبيب شخّص لديك شكلاً خطيراً من السل الرئوي. أهذا صحيح أم لا؟

ـ نعم، هذا صحيح، لكن. . .

ـ رويدك. . . قال الطبيب علاوة على ذلك أنّه لن يسعك الشفاء إلّا إذا غادرت روما وأقمت في مصح في الجبل لمدّة سنتين. من جديد: أهذا صحيح أم لا؟

ـ صحيح. لكنّني لن أذهب إلى المصح. لدي عمل كثير في روما.

ـ عمل كثير؟ آه! في فيلا شارع كاسيا أم في مكان آخر؟

فلم تحر جواباً. ولبثت قابعة في صمت تام، وفي الواقع مزدرٍ،

صمت (لم أستطع منع نفسي من التفكير بذلك) المؤمن الذي لا يقبل نقاشاً بصدد إيمانه.

- إذن، أتريدين الموت؟

- من يتكلم عن الموت؟ سوف أعالج نفسي في روما، هذا كلّ شيء.

- لا يسعك أن تعالجي نفسك في روما.

- من قال ذلك؟

- الشرط الأوّل لعالجك هو تبديل نمط حياتك. يجب أن تغادري روما وتبدلي نمط حياتك.

- لست أنوي تبديل نمط حياتي. إنّني سعيدة بما أنا عليه ولا أرى ما الداعي لأن أبدل نمط حياتي.

- اصغي إليّ يا كورا، سأقترح عليك اقتراحاً.

- ما هو؟

- إذا قبلت بالإقامة في مصح، وبالطبع بتصفية منزل شارع كاسيا وكلّ النشاط المرتبط بهذا المنزل، فإنّني أعدك وعداً قاطعاً بأنّني سأعدل، من جهتي، عن الترحال لأتبعك إلى الجبل وأقضي معك كلّ الوقت الضروري لشفائك. ثمّ سأعيش إلى جانبك ولن أتركك أبداً.

فنظرت إليّ، وعيناها جاحظتان بريبة قاسية، وأجابت من بين أسنانها:

- أرفض التفكير في هذا.

- لماذا؟

- قلت لك: إنّني مرتاحة هنا ولا أريد أن أبدّل شيئاً.

وتفرّست فيها بصمت. تحت الضوء الأحمر لعاكس النور الأرجواني الحريري، رأيت وجهها الشاحب المهزول الذي ما عادت

تظهر منه غير العينين والأنف والفم، فكأنّه قناع احمرّ لونه من الانعكاس الأحمر لكنزتها الصوفية الحمراء، وداهمني بغتة شعور حاد بالفساد الذي تبدى لي في هذه اللحظة وكأنّها تشخيص حي له، ترافقه فكرة إمكانية تحويل هذا الفساد إلى نقيضه. وقلت في نفسي إنّ هذا كلّه ليس قدراً حتماً وإنّه لا بد أن تكون ثمة وسيلة لنزع هذا القناع الدنس القاسي عن كورا ولإعادة وجهها البشري إليها. وفجأة، ومن غير قصد، وجدت نفسي مشدوداً إليها، وذراعاي حول جذعها، ومنخراي مليان برائحتها، رائحة يختلط فيها العطر والعرق، وقلت لها:

- إذا أردت، تستطيعين الشفاء من مرضك وتستطيعين أيضاً أن تصبحي امرأة أخرى. لكن ينبغي أن تريدي ذلك وعليك أن تريديه. ولسوف أساعدك.

وتبيّنت أنّني أبكي، وقد اندسّ أنفي في صوف كنزة كورا، وطوّقت ذراعاي كتفيها، أبكي بمرارة خوف أن ترفض لكن أيضاً خشية أن تقبل، لأنّ كلا الاحتمالين مؤلم بالنسبة إليّ:

لكن بينما كنت أخاطبها وأنا مشدود إليها أبكي شعرت بها على حين غرة تتخبط وتحاول التحرّر من عناقي والتملّص منّي لتتنفس بحرية أكبر وكأنّها تخشى الاختناق. فابتعدت عنها، فجلست عندها على السرير وأخذت تسعل. وكان السعال يزداد في كلّ مرّة عمقاً وصحلاً. ورأيتها تخفي فمها بيديها، بينما جحظت عيناها من الخوف فوق يديها المضمومتين. ومع آخر نوبة من السعال، وتحت ضوء العاكس الأحمر، في وجهها الأحمر المدفون في لباسها الأحمر الخاص بالسرير، انبجس من بين أصابعها وانسال بغزارة الدم... الأحمر.

هذا هو المقطع الذي سردت فيه تفاصيل تفاهمي المتخيل مع

كورا. وبعد أن أعدت قراءة ما كتبت، فكّرت بسرعة وأشفت هذا التعليق: «عاطفي، مراءٍ، متهرب، غير واقعي، متكلف العسولة وفارغ. إذن غير أصيل. إنّه، كالعادة، كلام زائف يخفي تحت شيئاً صحيحاً. الزيف فيه هو وعد كورا بمرافقتها إلى المصح، وقضاء الحياة كلّها معها. والشيء الصحيح فيه هو الرغبة في أن أرى كورا تموت، رغبة كشف عنها النقاب اختلاقي بصقة الدم الصاعقة المميتة. لكن فلتمت بعد الوعد الذي قطعته لها وقبل أن أرى نفسي ملزماً بالوفاء به، بحيث يمكنني أن أظهر بمظهر الشهم بأقل التكاليف وأخنق في الوقت نفسه احتجاج ضميري الواهن أصلاً».

السبت ٢١ تشرين الثاني

يوم خريفي غائم مع نذر عاصفة وجو رطب مبشّر بالمطر. الرطوبة تسوّد حجارة القصور الجصية وبلاط الأرصفة. في السماء تتكوّن بلا انقطاع فجوات زرقاء تارة واسعة وطوراً ضيقة، تبعاً لجري السحب الضخمة التي تطردها الريح. من أغصان أشجار الدلب العارية في شارع فينيتو تتساقط بلا انقطاع أوراق نادرة صفراء وصهباء على شكل أيادٍ متباعدة أصابعها. أسفلت عرض الطريق، الأسود والمنخور كالجلد، مزروع بأوراق ملصوقة، وببقع زيت محركات السيّارات الملوّنة بأكثر من لون، وبحفر مبللة. توقفت بابا أمام أحد المقاهي، واقترحت عليّ وهو تشير إلى طاولة: «فلنجلس هنا». وجلسنا. كان ثمة رجل يجلس إلى طاولة مجاورة، وعندما سمع صوتها أزاح قليلاً جريدته التي كان يختفي وراءها لتراه بابا لكن من غير أن أراه أنا، وهتف بها:

- أهذه أنت؟ يا للعجب! أعرفتني؟

فالتفتت بابا ونظرت إليه:

- أجل.

ـ كيف حالك؟

ـ على ما يرام. وأنت؟

ـ على ما يرام أيضاً. ماذا تفعلين؟

ـ أدرس.

ـ عندما أفكر بأنّني تعرفتك على الفور، بعد كذا من السنين!

ـ ست سنين...

ـ ست سنين. لكم يمر الزمن سريعاً يخيّل إليّ أنّ ذلك كان بالأمس. لكن أتعرفين أنك لم تتغيّري؟

ـ أحقاً؟

ـ أجل، حقاً. أنت الآن أكثر أنوثة بالطبع، لكنّك لم تتغيّري. بيد أنّك ازددات جمالاً!

ـ شكراً!

ـ اسمعي، ألا نستطيع أن نلتقي؟

ـ كلا.

ـ كلا؟ أتعتقدين؟

ـ كلا. بالتأكيد كلا.

ـ سأعطيك رقم هاتفي. لمَ لا تتصلين بي ذات يوم؟

ـ لأنّني لا أريد.

ـ اعذريني، لم أكن أريد إهانتك.

ـ لم تهني.

ـ حسناً! ينبغي أن أذهب. شياو! إلى اللقاء!

ـ شياو.

نظرت إلى الرجل يبتعد وهو يصفر، وقد بدا عليه الحرج والطلاقة معاً، ويداه في جيبي سترة رياضية عتيقة وأنيقة تبغية اللون، ذات مربعات خضر. رجل في حوالي الخامسة والأربعين، ذو وجه

أسمر نحيف، ناعم التقاطيع، حساس التعبير، كئيب بعض الشيء. مراهق تقدّمت به السن، محبّب إلى النفس، بعيد مظهره كلّ البُعد عن الابتذال، ناعم تكشفت نعومته عندما حيا بابا بعد أن نهض وقد أضاءت عيناه بوميض لطيف أنيس. نظرت إليه يبتعد إلى أن توارى خلف منعطف. ثمّ سألت بابا من هو. فأجابتني:

- ريكاردو، أوّل رجل جمعته كورا ببابا، قبل ستة أعوام.

الأحد ٢٢ تشرين الثاني

بقيت اليوم كورا في البيت. لمحتها أثناء مروري في الممشى، عبر الباب المنفرج: كانت جالسة على أريكة، على مقربة من سريرها، وقد شلحت على ظهرها كنزتها الصوفية الحمراء الصباحية المعتادة الموشاة حواشيها بالحرير الأخضر ودثرت قدميها في خفين من الجوخ الأرجواني. ماذا تفعل كورا عندما ترغمها الحمى على البقاء في البيت؟ إنّها تجري كما أتبين من رنين الهاتف المتكرر، اتصالات هاتفية. وهي تتصل، على الأرجح، بزبائنها وبناتها، لترتيب مواعيد في منزل شارع كاسيا. وهي تتصل أيضاً، بلا ريب، بمحل الخياطة لتستعلم عن العمل، لكنّي أعتقد أنّها تمكث، على وجه الخصوص، بلا حراك، من غير أن تفعل شيئاً، عيناها تحملقان في الفراغ (كما شاهدتها على شاطئ سيركيو) ساعية عبثاً إلى إقامة صلة مع الواقع، فوق مهاوي وجودها الممزقة.

لكن الحمى منعت كورا أيضاً من الذهاب اليوم إلى بيت أهلها لتسلمهم المبلغ الشهري الذي رصدته لإعالتهم. وهكذا كلفت بابا بنيابتها. وعلى الفور طلبت منّي بابا أن أرافقها منوهة، كالعادة، بحقّها كابنة في أن تطلب من أبيها مساعدتها في كلّ ظرف ومناسبة.

خرجنا بعد انقضى من العصر نصفه ولاحت تباشير ليل تشرين المبكر ولبرهة من الزمن قدت في صمت. كان أهل كورا يقطنون في

شارع توسكولانا وكان علينا أن نعبر كلّ وسط روما. وعندما وصلنا إلى شارع الآمبير قالت لي بابا التي كانت قابعة بلا حراك ويداها على ركبتيها، قالت لي فجأة:

- أنا مسرورة بمجيئك إلى بيت جدي.

- لماذا؟

- لأنّني أعرف أن هذا يسرهم. منذ كم لم تذهب إليهم؟

- منذ حوالي عشرة أعوام.

- كثيراً ما كانوا يحدثونني عنك. ولا سيّما جدتي. وكنت أجد نفسي محرجة لأنّني لم أكن أعرف ما يجب أن أقوله. لم أكن أستطيع أن أشرح لهم أنّك لا تريد رؤيتهم. كنت أقول لهم إنّك مسافر.

- تلكم هي الحقيقة أو بالأحرى جزء من الحقيقة.

- أيزعجك أن تذهب إليهم؟ عندما طلبت إليك ذلك، قلبت سحنتك تماماً كما فعلت يوم ذهبنا إلى سيركيو، عندما أخطرتك بأنّ كورا ستأتي معنا.

- وكيف كانت سحنتي؟

- لا أدري. شيء بين خيبة الأمل والاشمئزاز.

- كلا، لا يزعجني أن أذهب إليهم. أي ليس كثيراً، أقل على كلّ حال من البقاء مع كورا.

- ولمَ يزعجك ذلك؟

- إنّها قصة طويلة. وشرحها يقتضي وقتاً طويلاً.

- قل مع ذلك.

- على رسلك! لكنّي سأتكلم باختصار. إنّ ما كنت أحبه في كورا، كنت أحبّه أيضاً فيهم. ولما لم أعد أحبّ كورا، لم أعد أستلطفهم، ورؤيتهم من جديد شيء مزعج بالنسبة إليّ لأنّها تذكرني بحماستي الكاذبة.

- وماذا كنت تحب فيهم وفي كورا؟
- هذا أيضاً شيء معقد: لنقل، فقرهم!
- أين الجمال في أن يكون الناس فقراء؟
- الأصالة. كنت أعتقد أنّ الأصالة والفقر مترادفان.
- والآن، لم تعد تعتقد ذلك؟
- بلى.
- الحقيقة أنّني كنت أعرف هذا كلّه.
- كنت تعرفين؟
- أجل. سألت ذات يوم كورا عمّا حدث بينها وبينك، ولمَ تعيش في البيت كالغريب، فأجابتني: «ما حدث هو أنّني لم أعد تلك البائسة التي كنتها يوم التقينا انا وفرانشيسكو للمرّة الأولى. إنّ فرانشيسكو لهو مثل أولئك البورجوازيين الذين يعيشون في الريف والذين يميلون إلى الفلاحات بدلاً من أن يذهبوا إلى بنات طبقتهم. أنا لا أقول إنّه على خطأ، فالمسألة مسألة ذوق. إنّما أقول إنّني لن أبقى طوال حياتي ميتة من الجوع حتّى أرضيه.
- أجل، إنّني أعلم ما رأيها بهذا الموضوع.
- وأنت، ما رأيك؟
- رأيي في ماذا؟
- في زواجك من كورا.
- أعتقد أنّني اقترفت خطأ، هذا كلّ شيء.
- في رأيك، من المحق، أكورا أم أنت؟
- أدري. إنّ الحقيقة، كما هي العادة، في الوسط.
- قص عليّ كيف التقيت بكورا للمرّة الأولى.
- وما همّك من ذلك؟ لمَ تريدين أن تعرفي؟
- هكذا، من قبيل الفصول.

ـ ما أغربه من فضول!
ـ على رسلك. إذن أنت لا تريد أن تقص عليّ ذلك؟
ـ إذا كنت ترغبين حقاً...
ـ إنّني راغبة حقاً.
ـ حسناً! ماذا تريدين أن أقص عليك؟
ـ أريد أن تروي لي بالضبط كيف حدثت الأمور عندما التقيت بكورا.
ـ التقيت بها في حي غورداني، في المنطقة.
ـ وماذا عن حي غورداني؟
ـ كان موجوداً في الماضي. أمّا اليوم فلا، أعتقد ذلك على الأقل. كان عبارة عن مدينة تنك، أي مجموعة من المنازل أو بالأحرى من الأكواخ المبنية والمرتبة بطريقة معينة.
ـ بأي طريقة؟
ـ كما في معسكر اعتقال.
ـ لكن ما الذي كان يذهب بك إلى ذلك المكان؟
ـ لقد ذهبت إليه عدّة مرّات.
ـ لماذا؟
ـ لأنّ الأماكن المماثلة له كانت تجتذبني وكذلك الناس الذين يقيمون فيها.
ـ كان ذلك يجتذبك؟
ـ أجل، كنت أنظر وأنظر، ولم أكن أملّ من النظر.
ـ لكن لمَ كنت تنظر على هذا النحو؟
ـ لا أدري. لعلي كنت تحت سيطرة أسطورة.
ـ أي أسطورة؟
ـ أسطورة الفقر.
ـ ماذا تعني؟

- إنّ الفتى تكون له فكرة ثابتة عن النبل. فهو بالنظر إلى عدم انتمائه إلى المجتمع الأرستقراطي يتسكع حول القصور التي ينظر إلى نوافذها، ويراقب من يدخل ومن يخرج، ويعرف كلّ شيء عن حياة الذين يقطنون فيها وعاداتهم، ويحلم في يقظته بقصة حب مع أميرة. ويستمر على هذا المنوال إلى أن يتمكن ذات يوم، هذا ممكن، من الدخول بطريقة ما إلى هذه الأوساط المحسودة على حياتها، والتي يصعب الدخول إليها إلى حد الاستحالة، ويتزوج في النهاية من فتاة، أو بالأحرى من سيدة أحلامه النبيلة. وآنذاك يتبيّن أنّ هذه المرأة هي امرأة كغيرها. لكن الأوان يكون قد فات. وهذا ما حدث لي. وكلّ ما هنالك، استبدلي القصور بالأكواخ، والمجتمع العالي بالمتشردين والبغايا واللصوص. وبدلاً من الأميرة ضعي كورا، ابنة غسالة وبستاني.
- طيب. كنت واقفاً تحت سيطرة هذه الأسطورة لكن لماذا؟
- لمَ يقع الإنسان تحت سيطرة أسطورة؟ إنّ هذا الشيء يطول تفسيره.
- فاهمة. لكن قل لي كيف التقيت بكورا.
- أتريدين حقاً أن تعرفي كلّ شيء.
- أجل.
- لكن لماذا؟
- لأنّني كنت راغبة دوماً في هذه الأشياء. لكن كورا لم تشأ قط أن تطلعني على شيء.
- حسناً! سأروي لك القصة. لقد كلفتني الصحيفة التي كنت أكتب لها بالقيام بتحقيق عن بعض الأحياء البائسة في الضواحي. أو بالأحرى تدبّرت أمري حتّى أكلف بهذا بالتحقيق. وفي أحد أيام شهر تموز، في الساعة الثانية بعد الظهر، ذهبت إلى حي غوردياني، وحتّى تفهمي ما حدث في ذلك اليوم، ينبغي أن أصف

لك المكان. تخيّلي صفّين من المنازل الحقيرة المؤلفة من طابق واحد والمدهونة بلون أصفر كريه مع نوافذ مؤطرة بخشب أبيض طلي كيفما اتفق وأسطحة رمادية من الصفيح المتماوج، تخيلي هذين الصفين من المنازل يفصل بينهما طريق عريض عارٍ أجرد. لا شيء غير هذه الأكواخ والطريق: لا شجرة، لا بستان، لا مخزن، لا عين ماء، لا شيء. ووسط الطريق العام منزل من طابقين متداعٍ تماماً، له جدار أحمر بلا نافذة كتبت عليه بأحرف كبيرة عبارة «بيوت، بيوت... بيوت!». وكان في هذا المبنى المتداعي بار عليه لافتة تشير إلى وجود هاتف عمومي فيه. ونزلت من السيّارة واتجهت إلى البار.

- لمَ ذلك؟
- لأطلب بالهاتف من صحيفتي أن ترسل لي المصور الذي كنت قد تواعدت معه لكنه لم يأتِ.
- لكن أي نوع من الناس كانوا يقيمون في هذه المدينة ـ التنك؟
- كانوا خليطاً من مختلف الأجناس: بغايا، رعاع، لكن أيضاً عمال، ولا سيما عمال بناء، وغيرهم على سبيل المثال، جدّك الذي كان بستانياً.
- أدخلت إذن إلى البار؟
- أجل. دخلت وطلبت قهوة. ثمّ لما استدرت رأيت امرأة في قميص أصفر وتنورة خضراء. كان شعرها أسود، وعيناها زرقاوين، وكتفاها وصدرها وذراعاها عارية لفحتها الشمس بلون برونزي، شبه ذهبي. كانت كورا.
- ماذا كانت تفعل؟
- كانت تتكلم بالهاتف. ثمّ أعادت السماعة إلى مكانها ونهضت لأهتف بدوري. كان الهاتف قرب الباب، وكانت كورا متجهة نحو

منضدة البار، فتقابلنا في منتصف القاعة. ونظرت إليّ لحظة من الزمن بإلحاح، كما ينظر المرء إلى شخص أعجبه. وتقدّمت صوب الهاتف، واستدرت لأنظر إلى كورا التي راحت تتكلم مع صاحب البار. ثمّ اتجهت نحو الباب كأنّها تريد الخروج. ولقد قلت لك إنّنا كنّا في تموز وإنّ الطقس كان شديد الحرارة. كانت ذراعا كورا عاريتين وكان قميصها بلا أكمام. ولمّا مرّت بالقرب منّي، حكّت ذراعها بذراعي وأحسست بجلدها على جلدي. ورمقتني. ثمّ خرجت.

- وأنت، ما فعلت؟
- تركت الهاتف وتبعتها.
- لمَ؟ أأعجبتك؟
- أجل.
- ثمّ؟
- كانت تمشي أمامي، وكانت الشمس لاظية، والنور يعمي الأبصار. وتقدّمت باتجاه سيّارتي التي لم يكن هناك غيرها على قارعة الطريق، ففتحت الباب، فصعدت، ومضينا. هذا كلّه من دون أن نتبادل الكلام.
- ثمّ؟
- كانت كورا جالسة إلى جانبي ترنو إلى الطريق. وكانت تكتفي بالقول: «إلى اليمين، إلى اليسار، إلى اليمين»، لتدلني على الاتجاه، وكنت أطيعها. واجتزنا عدّة شوارع تشبه طرقاً ريفية، ووجدنا أنفسنا تحت قنطرة السكة الحديدية. وعلى مسافة قريبة منها كان هناك منزل من ثلاثة طوابق، أبيض، ذو شبابيك خضر. وقالت لي كورا أن أتوقف. ونزلنا ودلفنا إلى ذلك المنزل. لم يكن هناك مصعد، وارتقينا دورين من الدرج إلى أن وصلنا إلى باب عليه

لوحة تحمل اسم «توريني».

ـ أنت تتذكر كلّ شيء!

ـ اختصاراً للكلام، جاءت امرأة لتفتح لنا. امرأة متوسطة العمر، ذات سحنة متجهمة ومنفرة. وقدمتها لي كورا باسم إرمينيا وقادتنا هذه الأخيرة إلى غرفة.

ـ كيف كانت هذه الغرفة؟

ـ كان فيها سرير حديدي لشخصين، مدهون بلون أسود، وعليه أربع وسادات وغطاء أحمر. وإلى جانبه خزانة ذات سطح من الرخام عليه صور عائلية، وطاولتان صغيرتان سطحهما من الرخام أيضاً، وأخيراً خزانة ذات مرايا. وعلى النافذة ستارة مخرمة صفراء اللون، تمثّل تخاريمها سلال أزهار وأطيار. وبينما راحت كورا تتعرّى، تقدّمت نحو النافذة ورأيت في مواجهتي قنطرة السكة الحديدية وقطاراً يمر من تحتها، عربة تلو العربة، ببطء.

ـ وماذا حدث بعد ذلك؟

ـ اضطجعنا معاً. هل تريدين أن تعرفي الأشياء الثلاثة التي جعلتني أغرم بكورا؟

ـ ما هي؟

ـ الشيء الأوّل كان عندما مدّت كورا، فور تمددنا على السرير، الواحد بجانب الآخر، هي على ظهرها، مغمضة العينين، ورأسها مشلوح إلى الخلف على الوسادة، أقول عندما مدّت يدها نحو بطني، وأمسكت بي، وشدّت بقوّة هامسة بصوت خافت وكأنّها أخذتها حالة من الوجد: «ما أجمله!». والشيء الثاني عندما حذرتني قبل أن نفعل الحب: «إنّني خياطة، ولا أذهب مع الرجال بالمرّة تقريباً. فاعذرني إن لم اكن أدري كيف أفعل». والثالثة عندما مددت يدي إلى محفظتي فقالت لي: «أعطني أكثر ما في وسعك،

إنّ لدي فتاة صغيرة عليّ أن أربّيها».

ـ لمَ حركّت هذه الأشياء الثلاثة الحب في قلبك؟

ـ قلت لك: كنت أبحث عن الأصالة، وقد خيّل إليّ أنّني وجدتها في تلك العبارات الثلاث.

ـ وبعد هذا اللقاء الأوّل، ماذا حدث؟

ـ أواه! جرت الأمور كما تجري عادة في كلّ قصة حب. فقد عاودنا اللقاء في منزل إرمينيا، بندرة أوّلاً، ثمّ بكثرة متزايدة. وفيما بعد أخذنا نعيش معاً، وفي النهاية تزوجنا. قصة عادية تماماً.

ـ ومتى أدركت أنّك لم تعد تحبّ كورا؟

ـ بعد زواجنا بقليل، عندما أقمنا في المنزل الذي ما نزال نقيم فيه.

ـ هل تعتقد أنّ كورا كانت تمارس منذ ذلك الزمن تلك المهنة؟

ـ جائز. فقد كانت منذ ذلك الزمن متحفظة ومتكتمة. كانت تزعم أنّها تعمل في ورشة خياطة لكنّني لم أكن أجدها فيها في غالب الأحيان. ثمّ إنّه كانت لها صديقات وأصدقاء لا أعرفهم ولم تشأ قط أن تقدّمهم لي...

ـ هل كنت تكثر من زياراتك لبيت جدّي؟

ـ يوم كنت أحب كورا، كنت أتذرع دوماً بأي ذريعة لأزورهم. فقد كانوا يجتذبونني كما كانت تجتذبني كورا وكلّ ما يتعلق بها. خلاصة القول، كانت الأسطورة تفعل فعلها، ولقد كانوا جزءاً من الأسطورة. ثمّ، عندما انهارت الأسطورة، لم أكف عن رؤيتهم فحسب، بل خيّل إليّ أنّه لشيء لا يكاد يصدّق أن أكون قد عاشرتهم وأن أكون قد فعلت الكثير لأتعرّف إليهم.

ـ فعلت الكثير؟

ـ أجل، بالتأكيد. فكورا لم تكن تريد، لا أدري لماذا، إنّ تأخذني إلى بيت أهلها. وقد ألححت كثيراً حتّى قبلت في النهاية أن تأخذني إليه.

- واليوم، ما إحساسك وأنت ذاهب إليهم من جديد؟
- إنّني خجل بعض الشيء.
- خجل؟
- أجل، خجل، وكأنّني ذاهب إلى مكان سكرت فيه. وارتكبت أكثر من حماقة.
- لعلها لم تكن حماقات؟
- ممكن. لكن ما الفرق ما دمت أشعر اليوم بأنّها حماقات؟

ولم توجّه إليّ بابا سؤالاً آخر، وقدت بصمت برهة من الزمن. ثمّ دخلنا إلى شارع توسكولانا المحبوس بين صفين من المساكن الشعبية العالية. واجهات مزبثرة بالشرفات، أقبية مضاءة، دكاكين، وجوه المارّة السود تحت ضوء واجهات الدكاكين الأبيض، بارات، دور سينما، محلات لبيع الألبان والحلويات، وأبواب كبيرة للبنايات. وسألتني بابا:

- ألم تأتِ إلى هنا؟
- كلا. يوم كنت أتردّد على بيت جدّك، كانوا يسكنون في حين غورودياني، ثمّ انتقلوا إلى حي كاسيلينا بعد أن زاد كسب كورا (مهما يكن من أمر مهنتها). ولم آتِ إلى هنا قط.
- رويدك! توقف. لقد وصلنا.

أوقفت السيّارة ونزلنا منها واتجهت بابا نحو دكان حلويات قائلة:

- ينبغي أن أشتري شيئاً ما لجدّتي. إنّها عادة اعتدتها وهي تتوقعها منّي.

ودلفت إلى قاعة كبيرة بيضاء عارية، ينعكس فيها ضوء النيون الساطع على سطح المنضدة الخزفية وقضبان الطاولات والمقاعد المطلية بالكروم والمرايا التي تصطف أمامها القناني، فتقدح شرراً.

وكانت علبة الموسيقى الآلية تصدح بأعلى صوتها. وكانت جماعة من الغلمان تستمع إلى الموسيقى الصاخبة. واقتربت بابا من الواجهة الزجاجية، وتأمّلت ملياً في الصحاف المليئة بالكاتو، واختارت علبة سكاكر ذات غطاء متعدّد الألوان، ثمّ سألتني حرصاً منها، كعادتها، على ان أتصرف كأب:

ـ أتدفع؟

فدفعت، وخرجنا وتقدّمنا بضع خطى على الرصيف، ثمّ سبقتني بابا ودخلت من بوابة كبيرة إلى باحة بدت لي، نظراً إلى العتمة السائدة فيها، واسعة جدّاً وذات جدران شاهقة، عارية كباحة سجن. واتجهت بابا نحو باب مضاء يعلوه حرف ح. وركبنا المصعد الذي أرغمنا ضيقه على الدخول إليه جانبياً. وأغلقت الباب وضغطت بابا على زر الطابق الثامن.

بينما كان المصعد يصعد ببطء، لبثنا بلا كلام، متواجهين، أو بالأحرى مشدودين أحدنا إلى الآخر. كانت سترة بابا مفتوحة تكشف عن صدرها الناهد. وبين الفنية والفنية كانت تهتز من الخلف إلى الأمام اهتزازاً خفيفاً متذبذباً يدفع بها نحوي، بإرادتها أو بغير إرادتها، لا أستطيع أن أحدّد ذلك، فكنت أشعر على صدري بضغط ثدييها. ولم أستطع لحظتها منع نفسي من النظر إلى عينيها ودهشت إذ لم أجد فيهما أي توكيد للإغراء الملتبس الذي أوحى به إليّ هذا الاحتكاك. كانتا نفس العينين الجميلتين الحسيرتين، ببؤبئهما الساكن، نصف المخفي تحت الجفن المسبل. وسألتها فجأة:

ـ هل تعلم جدّتك بما تفعله كورا؟

ـ أواه! ألا تكف عن التفكير بذلك!

ـ هل تعلم أو لا تعلم؟

ـ إنّها تعلم من غير أن تعلم.

ـ ماذا تعنين؟

ـ لعلها علمت بذلك فيما مضى من الزمن، ثمّ أرادت أن تمحوه من ذاكرتها، ولعلها الآن تتصوّر أنّها قد حلمت به في المنام.

ـ وجدّك؟

ـ لا يعلم. لكنّه يتحسّس الأمر تحسّساً.

ـ ماذا تقصدين بذلك؟

ـ ثمّة أناس يعلمون بالأشياء وأناس يتحسّسونها. وجدّي هو من النوع الذي يتحسّس.

توقّف المصعد مرتجاً فدفع ببابا للمرّة الأخيرة نحوي وخرجنا منه إلى قرص درج ضيق، تحتل قسمه الأعظم سلتا قمامة. وقرعت بابا الجرس وقالت:

ـ أسألك أن تكون لطيفاً معهما، وإن غصباً عنك.

ـ لكن لماذا؟

ـ افعل ذلك من أجلي، أرجوك.

انفتح الباب، وتعالى هاتف حار وترحاب، وعانقت الجدّة بابا بين ذراعيها وقبّلتها، ثمّ عانقتها بابا بدورها وقبّلتها. وتبعت ذلك تشكرات على علبة السكاكر. وأخيراً انزاحت بابا وقالت:

ـ جدّتي، انظري من أتيتك به اليوم!

يوم كنت أتردّد على أهل كورا، كانوا يحرزون إعجابي، خارج أسطورة الفقر، لدافع لا أتردّد في وصفه بأنّه جمالي: فقد كانوا، بوجوههم ذات الملامح البسيطة والصارمة، يشبهون تلك الأزواج الفلاحية التي يشاهدها المرء منحوتة، بأيديها المتشابكة على أغطية النواويس الرومانية.

لكن نظرة خاطفة اليوم جعلتني ألحظ تدبّلاً جذرياً. فتقاطيع وجه الجدّة، التي ترهّلت بالشحم اللامع، قد فقدت كلياً خشونتها

الفلاحية. والعينان الزرقاوان، اللتان كانتا في الماضي ساذجتين ومكثفتين كأزهار الحقل، تختفيان الآن، محجوبتين، خلف نتوء الوجنتين الوضاء. وابتسامة الفم الملتوية والمعسولة والمتكلفة قد حلّت، مع الأسف، محل تعبير الازدراء القديم. ولاحظت أنّ شعرها لم يعد مشدوداً إلى الخلف ومعقوداً فوق رقبتها، وإنّما بات متماوجاً يفصل بينه فرق، وأنّه لم يعد شائباً، وإنّما أمسى مصبوغاً بلون اصطناعي كريه يتراوح بين لون النحاس والكستناء. وكانت شفتاها الرقيقتان ملطختين بلا إتقان بأحمر الشفاه. وكانت سحابة من مسحوق الأرز الزهري اللون تنسحب على خديها المنورين. ونظرت إليّ وهتفت: «الأستاذ!».

قبل عشر سنوات كانت حماتي تخاطبني بمضير المفرد بلا كلفة. وبعد زواجي دعتني: «ابني». وهأنذا الآن قد أصبحت، من غير أن أدري السبب، «الأستاذ». ولم أشأ التعمّق في أسباب هذا التغيّر وقلت بدوري بكل الحرارة الممكنة:

- وأنت يا سيّدتي، كيف حالك؟

وتقدمتنا متمتمة:

- على ما يرام، ولكن لم أعد كما كنت.

وبالفعل رأيتها تمشي بصعوبة جارّة قدميها في خفيها اللباديين الغليظين. وعندما وصلنا إلى الصالون، أشارت إلى ديوان وأريكتين مجللة بساتان بنفسجي، ودعتنا إلى الجلوس:

- اجلس، يا أستاذ.

فجلست وألقيت نظرة خاطفة إلى الأثاث الجديد الذي ما يزال يلمع ويقدح شرراً، المنجر من خشب بنفسجي اللون مائل إلى السواد باستثناء القوائم المنجرة من قيقب أبيض. وقلت:

- ما أجمله من صالون!

ـ لقد اشتريناه بالتقسيط، ولم نسدّد بعد كلّ ثمنه.
ـ كم حجرة لديكم؟
ـ خمس، بالإضافة إلى المنافع. لكن لدينا أيضاً غرفة للخادمة مع حجرة تواليت.
ـ ألديكم خادمة؟
ـ أجل، فتاة صغيرة أتيت بها من منطقتي. لقد ذهبت لتأتي بالحليب.

وأشرت، في إحدى الزوايا، إلى عين التلفاز العمياء الكبيرة الرمادية:

ـ أتحبون التلفزيون؟
ـ أواه! أجل. عند المساء ننقله إلى هنا. لدينا جيران يأتون ليشاهدوا معنا البرامج. أكثر ما أحبّه الموسيقى الخفيفة.

كانت تكلمني من أريكتها التي جلست عليها باستقامة، في وضع يفضح أصلها الفلاحي. وأضافت:

ـ لكنّنا لا نبقى دوماً في البيت مساء. فأحياناً نذهب إلى السينما. هناك سينما قريبة منّا، تحتنا بالضبط. تصوّر أنّنا شاهدنا البارحة فيلماً غريباً، من تلك التي تظهر عالم المستقبل.
ـ فيلم عن العلم المتخيل.
ـ أجل، عن العلم المتخيل. إنّني لم أحبّه كثيراً.. لقد أخافني. ما رأيك يا أستاذ، هل صحيح أنّ مسوخاً قادمة من كواكب أخرى قد تغزونا ذات يوم وتبيدنا جميعاً؟
ـ من يدري؟ هذا غير محتمل.

وفجأة هتفت:

ـ قهوة، هل تأخذ قهوة يا أستاذ؟

فاحتجّت بابا:

ـ لَمَ تدعينه أستاذاً؟ ادعيه فرانيشسكو وخاطبيه بلا كلفة.

ـ مرّة أخرى، من الجائز. أمّا اليوم فصعب عليّ، لأنّني لم أشاهده منذ زمن طويل. إذن، قهوة!

ـ كلا، شكراً.

ـ صنعها لا يكلف مشقة، أنت تعرف.

ـ شكراً، كلا.

ولزمت الصمت لحظة، وهي تحدق فيّ بإعجاب. ثمّ قالت وهي تبتسم لبابا:

ـ أتعرفين، لا أجده قد تغيّر البتة، الأستاذ! لقد بقي كما كان.

وسألت حتّى أغيّر الموضوع:

ـ وزوجك؟

ـ في المخزن.

ـ أي مخزن؟

ـ المخزن الذي اشترته لنا بابا مع هذه الشقة.

ـ أي نوع من المخازن هو؟ أمخزن ثمار وخضار؟

ـ كلا، لقد بدلناه. فالمنزل قد هدم. ولدينا الآن مخزن للآلات الكهربائية.

ـ وهل تسير الأعمال جيّداً؟

ـ بين بين. . . فهناك المزاحمة بالطبع!

ـ كان زوجك يفضّل بلا ريب تجارة الثمار والخضار؟

ـ أجل، كان يفضّل هذه التجارة. هذا طبيعي، طالما أنّه كان بستانياً مثل أبيه وجدّه.

ـ أهو وحده في المخزن؟

ـ كلا، لديه مستخدم، فتى كسول من الطراز الأوّل. والواقع أنّه لا يبقى، هو، في المخزن أكثر من ساعة أو ساعتين وسطياً في اليوم. إيه! إنّه لم يعد كما كان في الماضي! إنّ مكانه المفضل ليس المخزن، بل الحانة.

ـ أيشرب؟

ـ أيشرب فقط! ليته! مثل بالوعة!

ولم أستطع منع نفسي من تصوّر تاجر الخضار السابق يخرج مصباحاً كهربائياً جديداً من مغلفه ويجرّبه، قبل أن يبيعه، على فيشة موصولة بالمنضدة، ومن مقارنة الثمار اللحمية، المغذية، المتنوعة، التي كان يبيعها فيما سلف من الأيام، مع المصابيح الحالية، المتشابهة جميعها، المصنوعة بالجملة، المكتوب بأحرف بيض على بلورها عدد الكيلوواطات. وسألت:

ـ أهو مخزن كبير؟

ـ لا بأس به، أجل، كبير بالأحرى!

ـ ألا تبيعون سوى مصابيح كهربائية؟

ـ أواه! كلا: من كل شيء قليلاً. كلّ ما له علاقة بالكهرباء: طباخات، مكاوٍ، مصابيح...

واستدارت نحو بابا وأضافت مبتسمة:

ـ أتعرفين، إنّني أتعرف الأستاذ من أسئلته. والله، إنّه لم يتغيّر! في الماضي أيضاً لم يكن يكف عن طرح الأسئلة. كان يريد أن يعرف كلّ شيء. أذكر مرّة كيف بقي يستجوبني مدّة ساعة من الزمن ليعرف كيف يبني كوخاً في مدينة التنك بلا ترخيص. كان يريد أن يعرف كلّ شيء. عدد القرميدات، والصفيح المتماوج، والعضادات، وكمية الكلس. ذلك أنّنا كنّا نسكن في ذلك الوقت، أتعرفين، في حي غوردياني. أنت لا تستطيعين أن تتذكري ذلك، لأنّك كنت صغيرة جداً. كان يصدع رأسي بأسئلته إلى حدّ أنّني قلت له في النهاية: بدلاً من أن تستجوبني بهذا القدر، اجعلني، أنت الصحافي الذي يعرف الكثير من الناس «اجعلني أملك بيتاً، بيتاً حقيقياً، ولو بغرفة واحدة». كانت كورا حاضرة فغضبت

وحظرت عليّ أن أطلب منه شيئاً. كانت تلك آخر مرّة رأيناه فيها، وقد حسبت أنّه لم يعد يزورنا لأنّه انزعج. لكن كورا شرحت لي أنّه يسافر كثيراً وأنّه لا يمر بروما إلّا مروراً. حسناً، أنت ترى الآن، يا أستاذ، أنّه باتت لنا شقة! جميلة وكبيرة، بفضل كورا.

فقلت:

- إنّ كورا بنت طيبة!

فأجابت هي تحدجني بابتسامة ساذجة وساخرة بعض الشيء:

- أجل، لا بد من الاعتراف لها بذلك، إنّها حقاً بنت طيبة.

ويدرت عن بابا حركة خاصّة بها، عفوية وخارجية تماماً: فقد انقضت على جدّتها وقبّلتها بقوّة هائلة:

- وحفيدتك ما رأيك بها؟ أليست هي الأخرى طيبة؟

- جميلة وطيبة... لكن إلزمي الهدوء، فأنت تفسدين تسريحتي.

- تصوّر، فرانشيسكو، إنّ جدّتي تذهب إلى الحلاق مرّة في الأسبوع، لتسرّح شعرها وتكويه وتصلح صباغه. مثل بنت في العشرين!

فسألت:

- هل تأتي بابا لزيارتكم كثيراً؟

- أجل، مرّتين على الأقل في الأسبوع.

- وماذا تفعل عندما تأتي إلى هنا؟

- هأنتذا قد عدت إلى أسئلتك... إنّها تفعل ما تفعله كلّ حفيدة لدى جدّتها. إنّها تظل بصحبتي، ونشاهد التلفزيون أو تخرج معي لشراء بعض الحاجات.

- وكورا؟

- وكورا... إنّني أراها قليلاً. إنّها عطوف، بنت طيبة محبة، لكنّها كثيرة الأشغال.

كانت بابا تنظر تارة إلى جدّتها وطوراً إليّ، بعُجب بارد ومغيظ. ثمّ قالت:

- بالمناسبة يا جدّتي، هوذا الشيك.

ونقبت في جيب سترتها، وأخرجت منه مغلفاً ناولته للعجوز التي أخذته قائلة:

- كورا دقيقة في مواعيدها فعلاً: إنّها لا تغفل أبداً عن اليوم الذي ينبغي عليها أن ترسل لي فيه شهريتي.

وأضافت بابا:

- رجتني ماما أن أقول لك إنّها ستأتي في الأسبوع القادم لتأخذك في السيّارة لمشاهدة منزل سيرمونيتا.

فهتفت العجوز:

- لا مجال للشك، إنّ كورا بنت طيبة! لقد أسمعتها أنّني أحبّ لو يكون لي منزل صغير في الريف كمصيف، عندما يكون الطقس شديد الحرارة في روما. وها هي ذي تقدّمه لي. إنّها بنت طيبة، هذا أمر لا شك فيه!

وكرّرت عدّة مرّات إطراءها لكورا كلازمة، لكن بجرس هازئ، ثمّ التفتت نحو بابا:

- لمَ لا تخلعِين هذه السترة الغليظة؟ الجو هنا ليس بارداً. سترتاحين أكثر.

فأجابت بابا وهي تنهض:

- لم أخلعها لأنّه ينبغي أن نذهب.

- لم تبقي اليوم طويلاً مع أنّك تمكثين عادة فترة أطول.

- أجل، لكن لدينا اليوم عمل.

- انتظري على الأقل عودة جدّك، فسيكون هنا خلال لحظات.

- أين ذهب؟

ـ إيه! أين تريد أن يكون قد ذهب، يا أستاذ؟ إلى الحانة كعادته.

ـ اعذريني يا جدّتي، لكن فرانشيسكو لديه عمل. إنّه سيرى جدّي في مرّة قادمة.

ولم تلح العجوز، نهضت وتقدمتنا إلى الدهليز جارّة قدميها في خفيها. ومن غير أن تستدير قالت لي:

ـ وأنت يا أستاذ، هل ستبقى في روما أم ستعاود السفر؟

ـ أعتقد أنّني سأسافر.

ـ وإلى أين؟

ـ لست أدري بعد تماماً.

ـ إنّك محظوظ إذ تسافر كثيراً! هل تعرف ما آسف عليه أكثر من أي شيء آخر؟

ـ ما هو؟

ـ عدم قدرتي على السفر إلى روسيا، لأرى كيف يعيشون هناك، وإذا ما كان صحيحاً أنّهم يعيشون خيراً منّا؛ لكن القطار فاتني، والعمر تقدّم بي. هل ذهبت إلى روسيا، يا أستاذ؟

ـ نعم، ذهبت إليها.

ـ وكيف يعيش الروس؟ أصحيح أن حالتهم أفضل من حالتنا؟

ـ إنّهم يعيشون جيداً، لكن ليس خيراً منك، يا آنييس.

ـ نعم، إنّنا نعيش جيداً، حمداً لله! لكن مقابل كلّ أسرة مثلنا تعيش جيداً، كم هو عدد الذين يقاسون الأمرّين؟ كلا، لم يسعد جميع الناس ببنت مثل كورا عرفت كيف ترتفع منطلقة من نقطة الصفر.

ـ هذا صحيح، ليس جميع الناس محظوظين ببنت مثل كورا.

ـ لكن يا أستاذ، هل في روسيا مخازن كثيرة؟

ـ بالطبع، لكنّها ملك للدولة.

ـ مثل سككنا الحديدية، بمختصر الكلام؟

ـ إذا شئت.

ـ لكن هل صحيح أنّه يمكن للمرء في المخازن أن يأخذ ما يشاء ويذهب من دون أن يدفع؟

ـ قولي لي يا آنييس، هل تسافرين مجاناً في سككنا الحديدية؟

ـ إذن فالناس هناك يدفعون، كما هي الحال عندنا هنا؟

ـ بالتأكيد.

ـ إذن، هم أيضاً، لديهم فلوس؟

ـ بالطبع.

ـ أتعرف ما رأيي، أنا؟ إذا كانت لديهم فلوس، فهذا معناه أنّ لديهم بالتأكيد كلّ الباقي.

ـ أي باقٍ؟

ـ إيه! كلّ الإزعاجات، كما الحال هنا، عندنا!

ـ جدّتي، ستكلمين فرانشيسكو في مرّة أخرى. أعدك بأن آتي به في الأسبوع القادم.

ـ على كلّ حال يا أستاذ، سعيد هو من يستطيع أن يسافر ويرى الأشياء بعينيه.

ـ إلى اللقاء، يا جدّتي.

وتعانقت المرأتان، وكررتا العناق على قرص الدرج. وفي تلك اللحظة بالضبط توقف المصعد عند الطابق وانفتحت الأبواب وظهر رجل هرم في زي داكن اللون وعلى رأسه قبعة سوداء مالت حافتها على عينيه: جد بابا.

وجدته هو الآخر قد تغيّر مثل زوجته تماماً. فقد كان له في الماضي، شأن آنييس رأس ناووس روماني، مثل تلك التي تشاهد لدى فلاحي اللاتيوم. لكنّه، شأنه شأن آنييس، تبدل وعدل الشحم تناسب تقاطيعه التي لم يعد فيها شيء روماني، وعلى الأقل شيء من

الرومانيين الأقدمين. فعلى إثر تضخم خديه بات أنفه الذي كان في الأصل أقنى، بات يبدو وكأنّه صغر وأمسى أشبه بكلابة من اللحم اللامع المائل إلى اللون البنفسجي. وتحت شاربيه المتهدلين يبدو الفم ملتوياً كما لو أنّه مكشّر استياء. وعيناه، اللتان كانتا فيما سلف من الأيام زرقاوين وبسيطتين كعينين زوجته، تبدوان الآن مطفأتين تحت الأجفان المتورمة. لقد تركته جافاً، أسمر، موسوماً ببعض غضون بارزة، فإذا بي أجده متورداً، ملساً، وعلى وجنتيه كرتان من الدهن تخددهما أوعية شعرية بنفسجية.

وما كاد يرانا حتّى همّ بأن يدير لنا ظهره ليدخل إلى المصعد من جديد. لكن زوجته أوقفته وهي تبتسم ابتسامة مداهنة:

ـ أنطونيو، ألا ترى إذن من هنا؟

ـ من؟

كان الصوت خافتاً، متردداً، وفي الوقت نفسه عدائياً إلى حد مثير للفضول. ولاحظت النظرة، كانت مترنحة مثل لهبة شمعة تنوس من الريح. وتذكرت ما قالته آنييس عن عادات زوجها وفهمت أنّه ثمل. وألحّت زوجته:

ـ إنّه الأستاذ، زوج كورا. ألم تتعرفه؟

ـ الأستاذ؟ كلا، هذا مستحيل.

ـ ولماذا؟

ـ لأنّه يسافر، يسافر، يسافر، ولا نراه أبداً.

فقهقهت بابا. وقالت العجوز المتسامحة والباسمة:

ـ لكنّه هو نفسه، انظر إليه، إنّه الأستاذ، صهرك.

ـ أنا لا أعرفه. . . وليس لي صهر.

ـ آه! ليس لك صهر؟ رويدك! بلى، لك صهر، وهذا هو.

ـ لكنّي لم أره قط!

ـ من حسن الحظ أنّ لدينا صورة عرس كورا في الصالون. سأريك إياها. إنّها تمثّله هو وكورا ونحن الاثنين.

ـ أي عرس؟

ـ آه! ألأنت الآن لا تتعرّف أهلك؟

ـ ليس لي أهل. ولست قريباً لأحد.

ـ وغابرييلا، حفيدتك، أنت تتعرفها على الأقل؟

ـ لم أرها قط.

ـ وأنا، ألا تتعرفني؟ ألا يقول لك وجهي شيئاً؟

ـ لا شيء، لا شيء، لا شيء!

ـ ليس لي زوجة، ليس لي أحد.

في تلك اللحظة ألقت إلينا آنييس بنظرة تواطؤ وقالت:

ـ ليس لك أحد، أحقاً؟ حسناً لك ابنة اسمها كورا، وزوجة اسمها آنييس، وحفيدة اسمها غابرييلا، وصهر اسمه فرانشيسكو، وأنت، اسمك أنطونيو؟

ـ أنطونيو؟ من هذا؟

ـ أرأيتما!

واستدارت آنييس نحونا وقد ارتسمت على أساريرها معالم انتصار متواضع وكأنّها حققت نجاحاً تاماً في تجربة ما، وقالت:

ـ أرأيتما، عندما يشرب، لا ينسى الآخرين فحسب، بل ينسى أيضاً نفسه، ثمّ يا لعناده!

والتفتت من جديد إلى زوجها:

ـ إذا لم تكن أنطونيو، فمن أنت؟

ـ أنا من أنا، هذا لا يعنيك.

وعلى إثر هذه الكلمات أدار لنا ظهره ودلف إلى المصعد: شيخ هرم محني الظهر، مقوس الساقين، متدلي الذراعين إلى الأمام، فلاح

حقيقي بالرغم من هندامه الصوفي الداكن بدلاً من الكتان أو المخمل المضلع، بالرغم من حذائه الرفيع المدبب الشبيه بأحذية الغلمان الذين رأيتهم لتوي حول علبة الموسيقى بدلاً من الحزمة الغليظة المزبئرة بالمسامير. دخل إلى المصعد، واستدار، ولبث هنيهة من الزمن بلا حراك، واقفاً بكلّ استقامة في الحجرة مثل مومياء في ناووسها. ثمّ أغلق الأبواب، وشرع المصعد يهبط، وعبر الزجاج شاهدنا أوّلاً اختفاء ساقيه ثمّ جذعه ثمّ وجهه وأخيراً قبعته.

وقالت لي العجوز آنذاك وهي تبتسم:

- أرأيت، يا أستاذ؟ إنّه يشرب ولا يعود يتعرّف أحداً، ولا حتّى ذاته.

- هذه هي مساوئ الخمر.

- أجل إنّه الخمر. لكنّي لست واثقة من أنّه لا يفعل ذلك عمداً. إنّ له أيامه. ومن الممكن اليوم، على سبيل المثال، ألا يكون قد شرب، وأن يكون قد مثّل علينا.

- لماذا؟

- من يدري؟ هكذا، كي يتسلى! أتعرفين، يا غابرييلا، لقد وقف قبل بضعة أيام أمام مرآة الصالون وراح يخاطب نفسه: «وأنت، من أنت؟ من يعرفك، أيّها الصعلوك، من رآك قط، أيّها القرد الخبيث...».

وقهقهت بابا. وكانت الجدّة تبتسم من جهتها. ثمّ تقدّمت بابا إلى المصعد وضغطت على الزر. ولبثنا ثلاثتنا بلا حراك صامتين، العجوز على العتبة، وبابا وأنا على قرص الدرج، مثل ثلاثة ممثلين انتهوا لتوّهم من التمثيل ووقفوا بانتظار إسدال الستار الذي حال عطب ما دون إسداله. واستغرق المصعد مدّة طويلة لمعاودة ارتقاء الطوابق الثمانية، وأخيراً توقّف أمامنا، فاستأذنّا أنا وبابا من الجدّة ودلفنا إلى الحجرة.

شرع المصعد يهبط. كانت بابا، كما أثناء صعودنا، تقف في مواجهتي، ومن جديد راح جسمها يتأرجح تأرجحاً خفيفاً إلى الأمام وإلى الوراء، وأحسست مرّة أخرى بثدييها ينسحقان بحركة تناوبية منتظمة على صدري. وأخيراً قالت لي بابا:

ـ اشكرني، فقد كنت لطيفة، أليس كذلك؟

ـ بأي معنى؟

ـ اختصرت الزيارة لأنّني شعرت بأنّها لم تكن محببة إليك.

ـ أتبقين مدّة أطول، عادة؟

ـ أبقى عادة طوال فترة بعد الظهر.

الأحد ٢٢ تشرين الثاني

أعدت قراءة صفحات يومياتي التي سردت فيها تفاصيل زيارتي لأهل كورا. وشعرت بالحاجة إلى تنبيه القارئ، كما فعلت آنفاً، إلى أنّني أجريت تعديلاً، هنا أيضاً، في صحة الوقائع. لكن التعديل، في هذه المرّة، لم يجر غصباً عنّي كما حدث عندما اختلقت وجود مسرحية سوفوكل «أوديب ملكاً» على طاولة سريري، وإنّما كان واعياً، إرادياً، حتّى ولو كانت قد أملته أسباب ليست واضحة بما فيه الكفاية. ما معنى هذا؟ هذا معناه، على ما أعتقد، أنّ الأسباب التي تجعلني أشعر من حين إلى آخر بالحاجة إلى تغيير الوقائع أثناء سردي إياها في يومياتي هي أسباب متعددة ومتنوعة تبعاً لطبيعة الوقائع بالذات ولنوع العلاقة القائمة بيني وبينها. وعلى هذا فإنّني في بعض الحالات أختصر وأموّه بل أحذف، وفي حالات أخرى أفصّل وأزيد وأعيد البناء من مخيلتي.

لنأخذ، على سبيل المثال، زيارتي لأهل كورا. فقد نقلت بأمانة أو بشبه أمانة (لعلي بدلت بعض الكلمات أو أغفلت بعض العبارات) تسعة أعشار الزيارة، أي حتّى اللحظة التي ظهر فيها الجدّ في حجرة

المصعد لكنّني اختلقت أو بالأحرى زدت بطريقتي الخاصة في تفاصيل الحادث الذي تلا ذلك، أي عندما أكد الشيخ بأنّه لا يعرفنا والتجأ إلى المصعد وعاود النزول فيه إلى الطابق الأرضي.

وفي الواقع، هكذا جرت الأشياء: خرج الجد من المصعد، وكان يبدو عليه مظهر رجل ثمل، إذ كان يترنح، بل إنّه تعثّر، وحيّانا على نحو مبهم وكأنّه لا يعرفنا، ثمّ أسرع يدخل إلى بيته. فاعتذرت العجوز آنذاك عن زوجها قائلة إنّه لا يتعرّف أحداً عندما يكون ثملاً. وودعناها أنا وبابا وانصرفنا.

بديهي أنّني عندما أطلت في المشهد وكملته أثناء سردي إياه في يومياتي، قد حوّرت الحقيقة. وبالفعل لم يجيء في اليوميات أنّه لم يتعرّفنا فحسب، بل ورد أيضاً أنّه صرّح بذلك وأكده وأعاد توكيده. وبعبارة أخرى، إنّ موقفه ليس غامضاً ملتبساً كما كان في الواقع، وإنّما واضح وصادر عن سبق إرادة وتصميم. وفي حين أنّ عدم تعرّف الجد إيانا هو، على صعيد الواقع، حدث عديم الدلالة، وربما كان ابن الصدفة وحدها، أو نتيجة لمفعول الخمر بكلّ بساطة، يكتسب رفض الجد تعرّفنا، في يومياتي، دلالة خاصّة ويوجب إصدار حكم.

وباختصار أقول إنّه إذا لم يكن الجد قد تعرفنا في يومياتي، فهذا ليس بسبب سكره بقدر ما هو بسبب الرفاه الذي يدين به لمال كورا، المال الذي «يتحسّس» مصدره (حسب تعبير بابا)، والذي جعله في النهاية غريباً عن ذاته وعن الآخرين. إذن، ففي يومياتي تأويل للواقع، تصحيح، إعادة بناء، تكميل له، تبعاً لفكرتي أو بالأحرى لعقيدتي. فمال كورا، بموجب هذه الفكرة، لا يمكن، بالنظر إلى الطريقة التي كسب بها، إلّا أن يؤدي إلى الغربة عن الذات وإلى اللاواقعية. وعلى هذا، وعندما أختلق أنّ الشيخ لم يتعرفنا، فإنّني لا أختلق شيئاً في الواقع وإنّما أكتفي بتطويل اتجاه موجود، وبتطوير بذرة سابقة الوجود.

إنّ الحقيقة التي أتحسّسها وأعيد بناءها لم يطرأ عليها في الواقع من تعديل.

لكن الأمور حدثت، على صعيد الواقع أيضاً، بصورة مغايرة، ويبقى حادث رفض التعرّف، الذي سيكون له أثر مؤكد في الرواية، اختلافاً صرفاً. فصحيح أنّ المال المكتسب على نحو مشروع مئة بالمئة يفسد المرء عادة ويجعله غريباً عن ذاته وعن الآخرين (غالباً ما لحظت ذلك ولدي عليه براهين لا تحصى). لكن ليس هذا بقاعدة مطلقة، وحتّى لو كان قاعدة، فإنّ جدّ بابا ليس، على كلّ الأحوال، استثناء لهذه القاعدة.

وبعبارة أخرى، من الممكن تماماً أن يكون جدّ بابا غير مبالٍ بأن تكون كورا قد كسبت مالها بفضل منزل المواعيد. فهو يشرب لأنّه يحبّ الخمرة، ويعرف كلّ شيء عن كورا أو بالأحرى يتحسّسه، لكنّه لا يأبه به، وهذا لا يمنعه من أن يحبّ كورا كما يحبّ الأب ابنته. إنّ ضميره مرتاح، بل لعله يستصوب تجارة ابنته.

أمّا أنا فلا أعلم، لا أعلم شيئاً البتة عن والد كورا. فأنا قد رأيته مجرد رؤية فقط: بقعة لونية، جرم جسيم، شيء مرّ خلال هنيهة من الزمن في حقل رؤيتي ثمّ اختفى بسرعة.

ويمكن، بالطبع، أن يندرج مشهد رفض التعرّف دونما ضرر في الرواية، بل بشيء من الفائدة. لكنّني أشك في أنّني سأدرجه. وليس ذلك لأنّه مختلف، بل لأنّ ما دفعني إلى اختلاقه هو شيء مشوب، مزيف، وبكلمة واحدة غير أصيل، شيء أتمنى بالضبط أن أتحرّر منه بكتابتي يومياتي.

الثلاثاء ٢٤ تشرين الثاني

لم تأت بابا هذه الليلة لتقول لي «مساء الخير» ولم أسمعها تدخل. ولقد شعرت في حينه ببعض الخيبة، ثمّ نسيتها ورقدت: لكنّني

لم أنم جيداً، وعندما استيقظت هذا الصباح في حوالي الساعة السابعة ضممت، من غير أن أفكّر تقريباً، الروب دي شامبر وخرجت لأطرق باب بابا.

قرعت ولم أتلق من جواب. فانتظرت قليلاً ثمّ أدرت القبضة ودخلت. كانت الغرفة تعجّ بالضياء، مرتبة، والسرير على حاله لم يمس: إنّ بابا لم تنم في البيت.

عدت إلى حجرة عملي، ولبست ثيابي، وتناولت طعام إفطاري، وكانت الساعة قد تجاوزت الثامنة عندما جلست أمام مكتبي. وفي تلك اللحظة، خيّل إليّ أنّني سمعت باب المدخل يفتح ويغلق، ثمّ وقع خطى في الممشى والغرفة الملاصقة. وتابعت العمل حتّى حوالي الساعة التاسعة والنصف، وفجأة، ومن غير أن أفكّر، عدت من جديد نحو باب بابا.

كان الباب منفرجاً، فدخلت من غير أن أطرقه. في هذه المرّة رأيتها من النظرة الأولى. كانت نائمة على الديوان، بثيابها، أي بالكنزة والبنطال، مستلقية على ظهرها وساقاها متباعدتان، الواحدة تجاه الحائط والثانية متدلية حتّى الأرض تقريباً. كانت تثني ذراعها أمام عينيها كأنّها تحتمي من الضوء. لكنّها كانت قد فتحت، حتّى تنام براحة، سحاب بنطالها عند خاصرتها. وكان في وسعي أن أرى، من خلال هذه الفتحة، غشاء «سليبها» الأزرق الشاحب، المدعوك والشفاف. وذكّرني ذلك بمشهد الإغراء المتخيل الذي سردته، قبل أيام، في يومياتي. وكان الكلب، كالمعتاد، راقداً عند أسفل السرير، على السجادة. وقد تعرفني، لكنّه اكتفى برفع رأسه لينظر إليّ، وبتحريك ذنبه من غير أن يهر.

اقتربت على رؤوس أصابعي. وجعلني وضع بابا، الوضع الذي يذكر بالسقوط المفاجئ الصاعق في السبات، كما لو أنّها انسحقت

على الديوان بمجرد عودتها إلى البيت، فبقيت حيث سقطت مكتفية بفتح سحاب بنطالها، من غير أن تجد القوّة الكافية لخلع ثيابها والتمدّد على السرير، أقول جعلني هذا الوضع أفكّر بأنّ بابا أمضت ليلتها ساهرة مع رجل. وكانت هذه الفكرة أقرب إلى فكرة عاشق تعتلج في صدره الشكوك منها إلى فكرة أب قلق. وبالفعل، أحسست على الفور بلسعة غيرة شرسة ولم أستطع إلّا أن أقول لنفسي: «لقد احترمتها، ودخلت في لعبتها، وهي ذي النتيجة».

وانحنيت متأملاً فمها الكبير المتلوي على هواه: كانت شفتاها منفرجتين، الشفة العليا مشدودة إلى الأعلى قليلاً يظللها زغب خفيف داكن اللون، والسفلى أغلظ حجماً، منثنية بعض الشيء على ذقنها، وكلتاهما لحيمتان، وكأنّهما ممدودتان بحرارة النفس، منتفختان، منفتحتان على شهوة لاشعورية. وتبيّنت أنّني أنحني رويداً رويداً، مدفوعاً برغبة لا تقاوم، نحو هذا الفم، إن لم يكن لأقبله، فعلى الأقل لأتنشق الزفير الخارج منه. وفي تلك اللحظة بالضبط، تحرّكت بابا، وخفضت ذراعها التي كانت تخفي وجهها، وفتحت عينيها. ونظر كلّ واحد منّا إلى الآخر عن قرب كبير. وأخيراً سألتني:

ـ ما كنت تفعل؟

فأجبت وأنا أنتصب:

ـ كنت أنظر إليك.

فجلست، وأغلقت سحاب بنطالها، ثمّ مالت إلى أمام وذقنها بين يديها، وتملتني من الأسفل إلى الأعلى وقالت لي بلهجة من يتكلف دوماً الاستشهاد بالأمثال:

ـ من الخطر النظر إلى امرأة نائمة.

ـ لِمَ؟

ـ قد تستيقظ إغراءات.

ـ أي إغراءات؟

فلم تجب فوراً. وإنّما تثاءبت، وعيناها شاخصتان إلى السجادة، على قدميها، ثمّ قالت ببطء:

ـ كنت أحس بأنّ أوان التفاهم على وشك أن يحين. حسناً! هذا صحيح، أنت تعجبني وأنا، على ما يخيّل إليّ، أعجبك أيضاً. لكنّنا أب وابنة وأنا حريصة كلّ الحرص على أن نبقى كذلك.

ومن جديد ذهلت بلهجتها، لا المنفرة فحسب، بل أيضاً المغالية المشتطة، وكأنّ ما حدث لها أثناء الليل قد جعلها غير مبالية وغير حساسة تجاهي مؤقتاً. وقلت:

ـ سمعتك تعودين في الساعة الثامنة. أين قضيت الليل؟

ـ حيث حلا لي.

وأدركت أنّني أنزلق نحو مشهد يفتقر إلى سلامة الذوق. لكنّني لم أستطع إمساك نفسي عن الجواب:

ـ إنّنا أب وابنة. حسناً. إذن فلي الحق في أن أعرف أين قضيت هذه الليلة.

وخالجني شعور بأنّ كلماتي، بدلاً من أن تصدمها، تسبّبت لها على العكس بعض اللذة. وبالفعل، إنّ توجيه اللوم إليها هو شكل معين من أشكال إظهار أبوتي لها. ولقد قبلت بذلك وهي تنظر إليّ بمداهنة من بين أجفانها التي ورمها النعاس:

ـ معك حق. على رسلك! لقد قضيت الليل مع سانتورو.

ـ مع سانتورو؟

ـ أجل. هل تريد أن تعرف ما فعلنا؟

فتردّدت ثمّ قالت بعناد:

ـ بالتأكيد.

ـ ذهبنا إلى حفلة في فيلا خارج روما.

ـ أين؟

ـ في ضواحي سانتا مارينيلا.

ـ وما فعلتما في تلك الحفلة؟

ـ تناولنا طعام العشار ورقصنا.

ـ من كان فيها؟

ـ شبان وشابات.

ـ متى انتهت الحفلة؟

ـ حوالي الساعة الرابعة.

ـ المسافة لا تتطلب أكثر من ساعة من سانتا مارينيلا إلى روما. فماذا فعلتم حتّى الساعة الثامنة؟

ـ ألحّ سانتورو كثيراً حتّى قبلت في النهاية بالذهاب إلى بيته. لقد استأجره حديثاً، وليس في شقته شيء بعد اللهم سوى أريكتين في الصالون. وقد مكثنا في هذا الصالون حتّى السابعة والنصف.

بينما كانت تتكلم نهضت، ومشت ببطء مثل دب صغير متناوم ومترنح، وانتصبت أمام الخزانة التي إلى الشمال، وتناولت فرشاة، وراحت تسرح بكلّ عزم شعرها المشعث. وبعد هنيهة من الزمن أضافت بلهجة ساهية:

ـ ألا تريد أن تعرف ما فعلناه طوال ساعتين ونصف، بين الخامسة والسابعة والنصف؟

وفجأة انتابني الغضب أو بالأحرى أردت أن يتنابني الغضب، ولقد كانت مفاجأتي كبيرة إذ توصلت إلى الغضب فعلاً على الفور. وقلت، وأنا أصرف على أسناني:

ـ تعالي إلى هنا:

فاقتربت وهي ما تزال متناومة، وعيناها نصف مخفيتين وراء خصلة من شعرها. وحدقت فيها، وسألتني هي من غير أن تفهم شيئاً:

ـ أتريد أن تقول لي شيئاً ما؟

ـ خذي!

كانت الصفعة موجهة إلى الخد، لكنّي حرفتها في اللحظة الأخيرة، وربّما عن غير تعمّد، نحو الفم.

ولبثت ساكنة بلا حراك أمامي، تنظر إليّ بحيرة لكن من غير أن يبدو عليها أنّها تأثّرت بالإهانة، وكأنّها تبحث عن الموقف الذي عليها أن تأخذه. ثمّ رفعت يدها إلى خدها ولاحظت:

ـ لقد صفعتني.

ـ بالضبط.

وبعد أن حدجتني من جديد، أدارت لي ظهرها، وتقدّمت لتقف أمام المرآة، وراحت تمشط شعرها بقوّة شبه عصبية. وأخيراً، قالت بصوت هادئ:

ـ ليس صحيحاً أنّني ذهبت إلى بيت سانتورو. والواقع أنّنا بقينا في فريجين حتّى الساعة السابعة، في فيلا أحد أصدقائنا. ثمّ رجعنا إلى روما ورافقني سانتورو حتّى هنا ثمّ عاد أدراجه.

ـ لمَ كذبت عليّ إذن؟

ـ لأرى أثر ذلك عليك. . . وكيف سيكون رد فعلك.

ـ أي أثر كان لذلك عليّ، في رأيك؟ كيف كان رد فعلي؟

ولزمت الصمت هنيهة من الزمن، ثمّ أجابت بلهجة ملتبسة، ساخرة وتعليمية على نحو غير قابل للتحديد:

ـ أثر سيئ وكان رد فعلك تقليدياً: فقد تصرّفت كأب جلف رشيق اليد. لكنّك تسير على الطريق الصحيح. فتابع.

الخميس ٢٦ تشرين الثاني

ـ أكنت تعمل؟ هل أزعجتك؟

ـ كلا، بالمرّة.

ـ كنت أريد أن أقول لك. . .

ـ ماذا إذن؟

ـ كنت أريد أن أسألك شيئاً ما.

ـ تكلمي. . .

ـ أما يزال أخوك صرافاً؟

ـ أعتقد أنّ بلى.

ـ لقد ادّخرت بعض المال. وأريد أن تسأل أخاك عمّا إذا كان يستطيع. . .

ـ يستطيع ماذا؟

ـ جميع الناس يقولون إنّ الليرة ستتدهور. . عمّا إذا كان يستطيع أن يضع مالي في سويسرا. . .

نظرت إلى كورا ملياً، بصمت. ورحت أفكّر في نفسي: هذه هي نتيجة تلك المصالحة مع أسرتي التي تمنتها بابا من كلّ قلبها، سأصبح شريك بابا في تجارتها. ولأكسب الوقت قلت:

ـ كم المبلغ؟

فأجابت من غير أن تخفي ريبتها:

ـ سأقوله لك فيما بعد، عندما أعلم أنّ الأمر ممكن.

ـ ليس ممكناً.

ـ شرعياً، لا. لكن أخاك يستطيع ذلك إذا شاء.

ـ أخي لن يفعله.

ـ لماذا؟

ـ أكثر ما في وسعه هو إعطاؤك بعض النصائح بصدد تثمير مشروع لمدخراتك.

ـ إنّني أسألك فقط أن تستعلم عن إمكانياته.

كنت أثناء ذلك قد فكرت. إنّ حجة لاشرعية العملية لا تقف على

قدميها. فكورا تعرف بالتأكيد أنّ عمليات تحويل الرساميل إلى سويسرا تتمّ بصورة عادية. وقلت في نفسي إنّني لا أستطيع أن أرفض أداء الخدمة التي تطلبها منّي إلّا إذا بحت لها بالدافع الحقيقي لرفضي، أي بالقرف الذي يوحي به إليّ هذا المال. وفي هذه الحالة سيتوجب عليّ أن أتكلم عن مهنتها، الأمر الذي سيؤدّي إمّا إلى قطيعة بيننا وإمّا إلى تواطؤ، وكلاهما احتمالان كريهان على قلبي. الأفضل لي أن أتظاهر بأنّني كلّمت أخي عن الموضوع، ثمّ أقول لكورا إنّه لا يهتم بمثل هذه القضايا. على كلّ حال، ستكون هذه ذريعة لأزوره. فأنا لم أره منذ سبعة أو ثمانية أعوام.

وهكذا أجبت كورا بأنّني سأستعلم في صباح الغد، وبالفعل اتصلت هاتفياً بماسيميليانو. إنّ ما من شيء يستطيع أن يعطي فكرة صحيحة عن علاقاتي مع أخي مثل محادثتنا الهاتفية، التي أنقلها هنا بأمانة:

- آلو، من يتكلم؟

- أنا، فرانشيسكو.

- فرانشيسكو، من؟

- فرانشيسكو، أخوك.

- عجباً! ألم تمت إذن؟

- كيف حالك؟

- حسنة، وأنت؟

- حسنة، أنا أيضاً.

- وفي البيت، هل صحة الجميع بخير؟

- نعم، شكراً. وأنت؟

- لقد افترقت عن ماتيلدا.

- آسف.

- أنا، لا.
- وأولادك؟
- بخير.
- إنّني بحاجة إلى أن أكلمك.
- تكلمني؟
- أجل.
- وما لديك لتقوله لي؟
- سأقول لك عندما ألاقيك.
- تعال متى شئت. اليوم بالذات إذا كان ذلك يناسبك.
- في أي ساعة؟
- تعال لتتناول القهوة.
- هل أستطيع أن آتي معي ببابا؟
- من هي بابا؟
- ابنتي.
- كنت أجهل أنّ لك ابنة...
- في الواقع إنّها ابنة زوجتي.
- جئ بها إذا شئت.

وهكذا ذهبنا بعد الظهر، أنا وبابا، لتناول القهوة لدى أخي. لم يكن يقطن بعيداً عن فيلا بورغيز، في البيت الذي كان بيت أهلنا والذي عشت فيه حتّى زواجي من كورا. وعندما مررنا بالسيّارة من قدام متحف بورغيز قلت لبابا:

- في هذا الحي قطنت حتّى زواجي. ومن ثم لم آتِ إليه سوى مرّتين أو ثلاث.
- ما إحساسك وأنت ترجع إليه الآن؟
- ليس ثمة من إحساس. إنّني أشعر وكأنّني لم أذهب إليه قط.

كان الشارع ينحدر انحداراً خفيفاً. صفان من المنازل، صفان من الحدائق، صفان من الدقلي، صفان من السيّارات المصفوفة على طول الأرصفة، من كلا جانبي الطريق. في آخر الشارع، بوابة الحديقة والأشجار من خلفها. ونزلنا من السيّارة وخامرني عندئذ إحساس بأنّني أخطأت الطريق، لا لأنّ هذا الشارع لم يكن الشارع الذي قطنت فيه، بل لأنّ المكان الذي قطنت فيه لم يبدُ لي أنّه كان هنا ولا في أي مكان آخر. وبالفعل، إنّ المنزل الأبيض الحديث الطراز، المؤلف من أربعة طوابق، الذي قطنت فيه مدّة طويلة من الزمن، لم يعد منتصباً هناك في آخر الشارع. ففي مكانه ترتفع بناية حديثة، لونها بلون دم الجاموس، تعج بالنوافذ العالية الضيقة المؤطرة بالرخام الأسود. وأعترف بأنّه قد راودني الأمل، للحظة من الزمن، في ألا يكون منزل أخي قد اختفى كما لو بسحر ساحر فحسب، بل أيضاً في أن يكون هو نفسه وعائلته قد اختفيا معه من على سطح الأرض. ولم أستطع إمساك نفسي عن التفكير: «لم يعد هناك من شيء أو لعله لم يكن هناك شيء قط. سوف نعدل أنا وبابا عن القيام بهذه الزيارة وسنذهب للقيام بجولة في الريف». بيد أنّني عندما اقتربت من باب المدخل رأيت اللوحة النحاسية التي تحمل اسم أخي الذي هو أيضاً اسمي. وقلت:

- أرأيت ما يحدث عندما يسافر الإنسان ولا يعود يهتم بأسرته.

- ما يحدث؟

- في اليوم الذي يقرّر فيه الإنسان أن يهتم بها يكتشف، على سبيل المثال، أنّ البيت الأبوي قد هدم وأنّه شيّد في مكانه منزل مغاير تماماً.

- كيف كان بيتك؟

- تقريباً من نوع هذا: طراز حديث، عتيق بعض الشيء، حزن، لكن (كما كان يُقال آنذاك) بورجوازي.

ـ من كان يقطن فيه؟

ـ أسرتنا. في الطابقين الأخيرين والداي، وأخي مع أسرته، وأنا. وفي الطابق الأرض مكتب أبي.

عبرنا دهليز المدخل برخامه الأسود والأحمر واتجهنا نحو حجرة المصعد المعدنية. ثمّ صعدنا إلى الطابق الثالث. قرع الجرس، انتظار، وقع خطى: انفتح الباب وقادتنا الخادمة إلى صالون من طراز متنافر، مكتظ بالأثاث والصمديات. أو لعل المرايا الكبيرة ذات الانعكاسات الوردية الكئيبة، المؤطرة بمعدن داكن اللون، هي التي تكرر إلى ما لا نهاية الدواوين والأرائك المنجدة بالبساتين الأبيض، والطاولات الجدارية الباروكية بزخارفها المذهبة، والكراسي السوداء والبنفسجية التي من طراز لوي فيليب، ومصابيح الحجر اللبني الزرقاء، والطنافس الصينية الزرقاء والصفراء، والأقنعة الزنجية، والأزهار الاصطناعية تحت النواقيس البلورية، والقفص الأخضر والأصفر مع ببغائه الحي الأصفر والأخضر. واقتربنا من الشرفة المؤطرة بالزجاج ونظرنا عبر البلور: كان بياض الأثاث الحديدي يتنافر مع بلاط الأرضي القاشاني تحت ضياء السماء الخريفية الغائمة والداكنة. وسألتني بابا:

ـ كيف هو أخوك؟

ـ إنّه لمسخ!

ـ مسخ؟

ـ أجل، مسخ.

ـ وزوجته؟

ـ مسخ أيضاً. لكنّنا لن نراها، لأنّهما افترقا.

ـ لا يبدو عليك أنّك تحبّ أفراد أسرتك.

ـ بالفعل...

ـ لكن ماذا فعلوا لك؟

ـ لا شيء.

انفتح الباب وراء ظهرنا. واستدرنا وجرى المشهد المقلق بعض الشيء كما توقّعت. فقد شدّ أخي على يدي وربت على كتفي قائلاً:

ـ أنا مسرور بقدومك. دعني أنظر إليك... أنت لم تتغير بالمرّة.

ومن خلال انفعاله واندفاعه العفوي الذي لم يستطع مقاومته قبّلني على خدّي. فتراجعت خطوة إلى الوراء وأجبت:

ـ أنت أيضاً لم تتغيّر.

وسأل أخي:

ـ وهذه الدمية الجميلة، من هي؟

ـ إنّها بابا، ابنة زوجتي.

وتصافح أخي وبابا، ثمّ سألنا أخي أن نجلس، فجلسنا ثلاثتنا تجاه النافذة المطلة على السطح.

فيما كنت أنظر إلى أخي تبيّنت أنّ نفرتي القديمة منه لم تتغيّر هي أيضاً. فقد كنت أكره سيماءه، لأنّها سيمائي أيضاً، لكنّها مشوّهة علاوة على ذلك بتعبير مادي وبشهوانية أخشى أن أكتشفها على وجهي عندما أتفرس فيه كلّ صباح في المرآة. كانت تقاطيعنا كلانا في الماضي منتظمة ومنسجمة. لكن الجزء الأعلى من وجه أخي قد بدا لي، بعد مرّ السنين، وكأنّه ضاق وانكمش، بينما تثاقل الجزء السفلي واتّسع. فقد كان الجبين يبدو أوطأ وأضيق، والعينان أصغر، والأنف أقصر. وبالمقابل زاد بروز الفم الذي أصبح شبيهاً بفم القرد، ونما الفكان من كثرة المضغ. وكان في وجهه المائل إلى الحمرة شيء متورم ومتشنج، شيء لا يوحي بالصحة، بل بانتفاخ دموي غير صحي. ولاحظت بنفور أنّه يرتدي ثيابه على طريقة حديثي النعمة: سترة من نسيج أزغب بلون التبغ، وبنطال من الفلانيلا الرمادية، وصباط من جلد الإبل. وصلب أخي ساقيه وقال لي:

ـ حسناً! ما رأيك؟ لا بدّ أنّك لاحظت تغييرات هنا، أليس كذلك؟

ـ بلى، بدءاً من البيت.

ـ لقد هدمت القديم وشدت غيره في المكان نفسه لكن بصورة أكثر عقلانية. ففي حين كهذا حيث ارتفعت أسعار أراضي البناء إلى مستويات أسطورية، كان منزلنا القديم يمثّل خسارة مضحكة. وبدلاً من الشقق الثلاثة، توجد الآن اثنتا عشرة شقة.

ـ كنت أجهل كلّ شيء عن هذا الهدم.

ـ أنت لم تعط قط إشارة على أنّك حي. لكن حدثت أيضاً تهديمات أخرى. فقد هدمت بيتي. وافترقت عن ماتيلدا.

ـ قلت لي ذلك هذا الصباح.

قد يبدو لك غريباً أن أكون قد افترقت بعد عشرين عاماً ولم أتزوج. لكنّي ما عدت أطيق الحياة مع ماتيلدا.

ـ لأنّها ساحرة، سيئة الخلق، ممسوسة، هادئة، معسولة ظاهرياً، لكنّها، تحت هذه النعومة، غيورة إلى حد الجنون. كانت تتصل بي هاتفياً كلّ نصف ساعة لتتأكد من وجودي في المكتب. بل كانت، هذا لا يصدق، تكتب لي هي نفسها رسائل مغفلة عن غرامياتي المزعومة حتّى تكون لها ذريعة لصدع رأسي بفصول لا تطاق. وفي النهاية قلت لها أن تشد الرحال. وحصلت منّي على شقة، واحتفظت بالأولاد، وطلبت كمية من المال، لكنّني على الأقل لم أعد أراها... يا لها من ساحرة لعينة، نكداء، شريرة، مهذار، سوقية، خائنة!

بهذه الشراسة شتم امرأته، بل أكاد أقول: بهذه المنهجية. وأضاف:

ـ كانت حياتي معها قد أصبحت جحيماً. ولا سيما بدءاً من اللحظة التي اكتشفت فيها علاقتي مع بوبي.

- من هي بوبي؟
- المرأة التي أعيش معها الآن. سوف تراها خلال لحظات.

وخيّمت لحظة صمت. وفجأة، وبصوت أجش، صاح الببغاء من قفصه: «حصيرة». فقالت بابا:

- غريب، لعل هذا الببغاء كان يخص منجداً؟
- لمَ: منجد؟
- لأنّه يصيح «حصيرة».
- إنّه لا يصيح «حصيرة»، وإنّما «حقيرة»، لكنّه لما كان أبله فهو يسيء اللفظ.
- من علّمه هذه الكلمة؟
- بوبي، بالطبع.

وأضاف أخي فجأة وهو يلتفت نحو:

- قلي لي الحقيقة، ألا تجدني قد سمنت قليلاً؟
- كلا، بالمرة.
- بلى، أعرف أنّني سمنت. إنّها غلطة بوبي التي تحشوني بالطعام. لكن هل سمنت كثيراً؟ أو قليلاً فقط؟
- الحق أنّني لا أعرف...
- لنستمع إلى رأي بابا التي هي امرأة. هل بدوت لك كثير الشحم، أنعم أم لا؟

فألقت بابا على أخي نظرة متناومة:

- لا أرى ما دخلي في الأمر.
- أنت ابنة أخي، وأنا عمّك. وهناك أشياء يمكن قولها ضمن الأسرة الواحدة. إذن، في رأيك، أسمنت أم لا؟
- لا أعرف كيف كنت في السابق. لكن بالنسبة إلى فرانشيسكو، سأقول أن بلى.

ـ أرأيت! إنّ فرحتي بالخلاص من ماتيلدا هي التي جعلتني بوجه خاص أسمن. تلك الساحرة اللعينة، البلهاء، المقرفة، المتزمتة، المرائية، الكاذبة الورع!

لقد صبّ أخي من جديد كلّ ضغينته المكتومة المتأخرة على زوجته. ثمّ تابع كلامه مخاطباً بابا:

ـ وأنت، ماذا تفعلين يا دمية؟

ـ اسمي بابا وأنا لست بدمية.

ـ آه! نعم، هذا صحيح بابا... اعذريني. لم تنزعجي، على الأقل؟

ـ كلا، أنزعج، إنّني أدرس في الجامعة.

ـ ماذا تدرسين؟

ـ إجازة في الآداب.

ـ مرحى، مرحى يا بابا!

ومال أخي، الأحمر والمتشنج، خارج أريكته وربت بلطف وعطف على خد بابا... وتردّدت اليد الغليظة الكثيفة الشعر، القصيرة الأصابع، المربعة الأضافر، المشدود معصمها بسوار ساعة ضخمة ذهبي، تردّدت في الهواء قليلاً بعد الضربة الخفيفة، ثمّ رسمت حركة مداعبة. وانتظرت بابا، مستقيمة ساكنة، أن تبتعد اليد عن خدها. وتهالك أخي من جديد بثقل على أريكته، وقال متنهداً إذ سمع الباب يفتح:

ـ هي ذي بوبي، أي إيزابيلا.

ووقفنا. كانت بوبي طويلة القامة، بالغة النحافة، لكن صدرها كان مختل التناسب، ضخماً، يتقدّم أفقياً تحت نسيج البلوزة الرقيق، وكان رأسها أشبه برأس طير جاثم فوق عنق طويلة رفيعة، ذا عينين مستديرتين وأنف كبير مدبب.

ـ هيا، قبليهما، إنّهما أخي وابنته.

فأطاعت بوبي بوداعة متكلفة. ثمّ عاودنا الجلوس، وقدّمت لنا بوبي القهوة على طاولة متحركة دفعتها أمامها لما دخلت.

ـ كم قطعة من السكر؟... بدون سكر، أليس كذلك؟... أقطعة أم قطعتان...

وانتقلت فناجين القهوة من يدها النحيفة الضامرة إلى أيدينا. كان حذاؤها عالي الكعب كثيراً وكانت تمشي بخطى بطيئة، متشربكة في تنورتها الضيقة. وأمام هذا الصدر الطافح الجاثم على هذا الجسم الطويل الضامر تراءت في مخيلتي صورة القرعيات الضخمة الراقدة على التراب في البساتين، معلقة بأسوق طويلة رفيعة. وأخيراً جلست على مسند أريكة أخي وسألتني:

ـ أنتم تعملون في الصحافة، أليس كذلك؟

ـ خاطبيه بضمير المفرد، يا بوبي، هيّا!

ـ أنت صحافي؟

ـ أجل.

ـ قال لي ماكس إنّك زرت عدداً كبيراً من البلدان. السفر، ما أجمله من حلم!

كان لصوتها جرس ناعم، مختلج، متهدج، دافئ، هذا بعض الشيء. وأضافت وهي تطوق بذراعها عنق أخي:

ـ سوف نذهب إلى نيويورك، أتعدني؟

ثمّ وجّهت خطابها إليّ:

ـ أود من كلّ قلبي أن نقضي شهر العسل في أميركا.

ـ أستتزوجان؟

ـ في أقرب وقت ممكن فور حصول ماكس على إلغاء زواجه.

وقال أخي:

ـ بانتظار ذلك، اذهبي لتأتيني بغليوني. لا بد أنّني تركته في غرفة النوم.

وبكل طاعة نهضت النعامة وخرجت بخطى صغيرة على ساقيها الطويلتين الضامرتين، وصدرها الأفقي يهتز. ومكث أخي بلا كلام، ثمّ قال بصوت حيادي وهو يحدق فيَّ:

ـ إنّها في الخامسة والعشرين.

ـ آه! لا يبدو عليها ذلك، لقد خيّل إليَّ أنّها أصغر...

ـ كانت عارضة أزياء. لكن اختصاصها الحقيقي هو الطهي. سأدعوكما، وستريان ما أروع الأطباق التي تعدّها!

ـ لقد حزرت، من طريقة مشيها، أنّها كانت عارضة أزياء!

ـ إنّها فتاة طيبة. بالطبع، أنا لا أفكر البتة بالزواج منها، لكنّي أتركها تعتقد ذلك تحاشياً للخناقات. وبذلك لن أكون مقيداً بها، ولن تركّب لي قروناً. لكنّي بالتأكيد لن أتزوجها! فلكي أتزوجها، لا بد أن أكون مجنوناً! إنّ زواجاً فاشلاً واحداً يكفي في الحياة. ثمّ ما حاجتنا إلى الزواج؟ إنّ علينا أن نبدّل المرأة كما نبدّل السيّارة، كلّ سنتين أو ثلاث. عندما لا تعود تصلح، نستبدلها بأخرى من آخر طراز.

وصرخت بابا:

ـ لقد تزوج فرانشيسكو كورا، أقصد أمي، وبقي معها...

ـ معروف أنّ فرانشيسكو مثالي. وصحيح أنّنا شقيقان، لكن ما أعظم الفرق بيننا. إنّ رأس فرانشيسكو كان دوماً ينطح السحاب، أمّا أنا فقدماي ثابتتان في الأرض. فرانشيسكو شاعر، أمّا أنا فصرّاف. رأس مختلف، أفكار مختلفة...

ـ لكنّك، أنت أيضاً، بقيت سنوات طويلة مع زوجتك!

ـ إنّني ألعن نفسي على أنّني فعلت ذلك! تلك الجيفة، تلك الساحرة، تلك الفظاعة، تلك المجرمة! عندما أفكر بأنّني قضيت معها أجمل سنيّ حياتي، أعضّ على البنان!

في تلك اللحظة عادت بوبي حاملة الغليون وكيس التبغ. ومدّ أخي يده، لكنّها من غير أن تعطيه شيئاً، جاءت من جديد لتجلس على مسند الأريكة:

ـ دعني أحشو غليونك: أنت تعرف أنّ هذا يلذ لي.

وبسرعة ومهارة راحت تحشو الغليون متناولة في كلّ مرّة بين أناملها قبضة من التبلغ، بينما راح أخي يتملى بنظرة طويلة بطيئة جسم بابا من أخمص قديمها إلى خصرها، ثمّ قال لها فجأة:

ـ أتخرجين دوماً بالبنطال؟

ـ أجل، بصورة دائمة تقريباً.

وهتفت بوبي من غير أن ترفع أنفها عن الغليون الذي كانت تحشوه:

ـ هذا أنسب وأوفر راحة بما لا يقاس!

ـ ليس ثمة من مجال لشك، فالبنطال يناسبك تماماً يا بابا، بخصرك الضيق وساقيك المستقيمتين للغاية. وبالمقابل فإنّه لا يناسب بوبي لأنّ حوضها واسع.

فهتفت بوبي من جديد:

ـ خبيث، هذا غير صحيح، فالبنطال يليق بي. خذ، هوذا غليونك، أيّها الغول!

ووضع أخي الغليون بين أسنانه وأصرّ:

ـ نعم، أنت يا بابا، تكوينك مثل تكوين الغلام، ولهذا يليق بك البنطال.

فصاحت بوبي:

ـ إنّ تكوينها كالنساء. لكن البنطال مفصّل بإتقان. هذا كلّ شيء.

وأضاف أخي:

ـ هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها بنطالاً له حمالات عند القدمين. أرني قليلاً...

فنظرت إليه بابا بطريقتها المداهنة والمتناومة ثمّ تمدّدت على الأريكة، ومدّت ساقها، ووضعت قدمها على ركبة أخي الذي انحنى والغليون بين أسنانه، بوجهه الأحمر المحتقن، ولمس كعبها، وسحب الحمالة ليتأكد من أنّها مشدودة. وقالت بابا:

ـ أترى كيف يلبس ربلة الساق.

فنظر أخي إلى بابا في وجهها وأجاب متعمداً بلا حياء:

ـ لا تقولي ذلك، وإلّا لمستها.

فهتفت بوبي:

ـ حذار! إنّني غيور، غيور جداً، جداً!

وردّد الببغاء من قفصه بصوته الحاد ثلاث مرّات: حصيرة، حصيرة، حصيرة.

وتهالك أخي بتثاقل على أريكته وقال لبوبي:

ـ أعطيني ناراً، أيّتها الغيور!

فتناولت بوبي علبة ثقاب ذات أعواد ضخمة يبلغ طول الواحد منها ثلاثين سنتيمتراً، وأشعلت واحداً ووجهت شعلته نحو فوهة الغليون. وأخذ أخي نفسين أو ثلاثة، ونفث الدخان من فيه، ثمّ قال لبابا:

ـ إذن، فأنت تدرسين في الجامعة؟

ـ أجل.

ـ لكنّك لا تقضين حياتك في الدرس، بل تلهين أحياناً، أليس كذلك؟

ـ بلى، ألهو أحياناً. . .

ـ وماذا تفعلين؟

ـ أشياء كثيرة.

ـ أترقصين؟

ـ أجل، إنّني أذهب للرقص.
ـ أين؟
ـ حيثما سنح لي.
ـ ومع من تذهبين؟
ـ مع أصدقاء، شبان وشابات.
ـ هل أنت مخطوبة؟
ـ كلا.
ـ أتريدين أن تخطبي؟
ـ لمَ لا!
ـ وأن تتزوجي؟
ـ بالطبع، إذا ما خطبت.
ـ أتودّين أن يكون لك أولاد؟
ـ بالتأكيد!
ـ كم؟
ـ سبعة، ثمانية، وربّما عشرة.
ـ تهانيّ... ولمَ تريدين هذا القدر منهم؟
ـ عندما ينجب المرء خير له أن ينجب كثيراً، ألست من رأيي؟
ـ أنا، أنجبت ثلاثة، وكنت أجد أنّ عددهم كبير. وما هو مثلك الأعلى في الرجل؟
ـ أواه! أياً كان، شرط أن يعجبني!
ـ حتّى إذا لم يكن شاباً؟
ـ حتّى إذا لم يكن شاباً.
ـ رجل مثلي، أو مثلي فرانشيسكو على سبيل المثال؟
ـ لمَ لا؟

في هذه اللحظة قطع أخي الحوار، والتفت إليّ، بصورة مفاجئة

مباغتة، ليظهر لي أنّ حديثه مع بابا لم يكن أكثر من تقرّب ودّي، كتقرّب الكلب الذي ستروح رائحة كلبة، وقال لي:

- بالمناسبة، أتعرف، لدي أشياء كثيرة كانت لأهلنا، وفي الواقع هي تخصّك بقدر ما تخصّني، ولا أدري ما أفعل بها. ولقد سبق أن كتبت لك لأخبرك بأنّ هذه الأشياء تحت تصرفك وأجبتني أنّ أمرها لا يعنيك فرميت بها آنذاك في حجرة متصلة بالسطح ولم أعد أفكر فيها. لكنّي محتاج إلى هذه الحجرة الآن. فأنا أريد أن أجعل فيها باراً، وأنّ أرمي بالتالي بكلّ تلك الأشياء القديمة. لكن من الأفضل أن تراها. فقد يحلو لك أن تأخذ بعضها. كذكرى من والدينا.

نظرت إليه: كان يشدّ على غليونه بين أسنانه القوية البيضاء المنتظمة، ويحدّق فيّ بما يشبه القلب وقد احمرّت وجنتاه فقلت:

- حسناً! هيّا بنا إليها.

بيد أنّه أضاف بسرعة:

- بوبي، رافقي فرانشيسكو إلى غرفة السطح.

ولم تتحرّك بوبي وهتفت:

- نعم، أعلم لمَ تريد أن أرافق فرانشيسكو لأنّك تريد البقاء بمفردك مع بابا... هذا هو السبب.

- هيّا، لا تتفوهي بالحماقات، رافقي فرانشيسكو.

فنهضت بنكد، ونظرت إلى أخي ثمّ إلى بابا. هذا صحيح: واضح أنّهما ينتظران أن يبقيا بمفردهما. وآنذاك تبعت بوبي نحو الباب - النافذة الذي فتحته صائحة بصوت متكلف المزاح:

- لا تغلقا الستائر، فنحن نريد أن نراقبكما!

وخرجنا إلى السطح. كانت سحب العاصفة، الواطئة المنتفخة، الممزقة بفتحات كبيرة، معلقة فوق منظر لامتناهي الامتداد من أسطحة

الإسمنت الشاحبة كشبكة ضخمة مفعمة بصيد أسود وافر يتسرّب وهو يقطر ماء من بين الحلق الواسع أكثر ممّا ينبغي. وكانت الألوان تنفصل وتتمايز بوضوح حواري وكتيم عبر الضياء بلا شمس: بنفسج مربعات البلاط، زرقة وخضرة الوسائد، برتقال الشمسيات، بياض الأثاث الحديدي الصمغي. ونظرت إلى النافذة: كانت الستارة البيضاء تتحرّك بصمت، كما لو من تلقاء نفسها، من اليسار إلى اليمين، لتحجب في النهاية كلّ الشرفة الزجاجية. وألقت بوبي في الاتجاه نفسه نظرة خاطفة جانبية وقالت وهي تتقدمني:

- أصحيح أنّكما، أنت وماكس، لم تشاهدا بعضكما منذ عشرة أعوام؟
- أجل، صحيح.
- هل وجدته قد تبدّل كثيراً؟
- ربّما كما قال هو نفسه، لقد سمن بعض الشيء.
- ومعنوياً؟
- لا أعرف شيئاً عن ذلك.
- بودّي لو أعلم إذا ما كان، قبل عشرة أعوام، مهووساً بالنساء مثله اليوم.
- لمَ، مهووساً؟
- أجل، إنّه لا يستطيع أن يرى امرأة لا تكون مسخاً من غير أن تأخذه الرغبة في مداعبتها. أرأيت خادمتنا؟
- أجل.
- إنّها مغادرتنا غداً. لقد صرفتها لأنّني فاجأتهما معاً. وسأستعيض عنها بخادم. أهكذا كان قبل عشرة أعوام؟
- كلا، لم يكن هذا. كان رجلاً نادراً نفسه لأسرته. زوج صالح وأب صالح.

ـ واضح أنّه يريد اللحاق بالزمن الذي فاته. لهذا السبب بلا شك يكره زوجته. ماذا تعتقد أنّه يفعل في هذه اللحظة مع بابا؟

ـ لست أدري.

ـ أؤكد لك أنّه لا يضيع وقته!

كانت تتكلم عن هوس أخي الجنسي وكأنّه رذيلة طفل بريئة، بلهجة مستسلمة وموضوعية وصارمة في الوقت نفسه. بيد أنّنا كنّا قد وصلنا إلى قدام باب جناح صغير يحتل ركناً كاملاً من السطح ففتحت بوبي الباب قائلة:

ـ انظر، هذا كلّه كان يخصّ أهلك.

دخلت وأجلت الطرف حولي. كانت الحجرة واسعة وواطئة، وفي وسط سقفها فانوس. وكانت مبلطة بمربعات من القرميد الأصغر مصفوفة على شكل خطوط. وكانت الأشياء مكدسة في إحدى الزوايا. ومن النظرة الأولى أدركت أنّ أخي قد تخلص من كلّ ما يمكن أن يباع ولم يحتفظ إلّا بالأشياء التي لا يمكن أن تباع، الأشياء التي يمتزج طابعها الخاص بانعدام القيمة كلياً.

وسط الكومة كانت تتربّع طاولة الزينة الخشبية البيضاء، ملفحة بنسيج أزرق شاحب مع شرائط من اللون نفسه، تلك الطاولة التي جلست أمامها أمي طوال سنوات، كلّ صباح، فور استيقاظها، وكان النسيج والشرائط قد اسودّت واهترأت، ولا ريب في أنّ هذا ما كان مآلها في الآونة الأخيرة من استعمال أمي لها. ولم تكن طاولة الزينة هذه، وقد انتزعت الآن من إطارها المعتاد، سوى نفاية حقيرة. وكان على دفّها، الذي كانت تصف عليه في الماضي قطع صندوق الزينة الفضي الفاخر البديع الذي استملكه أخي بكل بداهة بلا وازع مّن ضمير، أقول كان على دفها الآن إناءان طيبان، أُدخل أحدهما في الآخر، كان أبي الذي مات بعد كساح طويل، قد استخدمهما في

الأشهر الأخيرة من حياته: حوض من البورسلين ومبولة من الزجاج. وإلى جانبها كومة من الإطارات تضمّ صور أصدقاء وصديقات وأقارب بعيدين أو قريبين. وكانت أمي، على ما أذكر، قد زيّنت بها جداراً كاملاً من غرفة نومها.

كان هناك أيضاً جهاز راديو قديم موضوع في سبت قديم من طراز لويس السادس عشر، وعليه كيس من المطاط للماء الساخن. وبار من طراز لويس السادس عشر أيضاً، وعلى سطحه الزجاجي خزانة حمام صغيرة من خشب مدهون باللك ومطعّم بالصدف، وكانت أبوابها مفتوحة ورفوفها مليئة بقوارير صغيرة وبآنية خزفية صغيرة وأنابيب صيدلانية. وصندوق مكتب أبي الحديدي، وهو من طراز قديم عال وأسود، بابه المصفح مفتوح، وقد اصطفّت على رفوفه الفولاذية قوالب من الخشب الفاهي اللون، على شكل أقدام، كان أبي يستخدمها لحفظ أحذيته. وطباخة متآكلة فيها أربعة ثقوب، تساقطت ميناها في عدّة مواضع، ووضعت فوقها علبة قبعات بيضاوية جلدية يُرى تحت غطائها المفتوح قبعات عديدة كدس بعضها فوق بعض، كانت تخصّ والدتي. وقاعدة من الرخام الرمادي، على شكل عمود، وضعت فوقها آلة كاتبة عتيقة. وكدسة من صحف الموضة الفرنسية المهترئة والمتورمة من الرطوبة، وضعت على براد خشبي صغير. وأريكة ملفحة بنسيج مزهر مهترئ ومسودّ أذكر أنّني كنت أراها قدّام سرير أمّي.

كانت هناك أيضاً أشياء أخرى كثيرة. وقد لاحظت أنّها لم تتملغم ويختلط بعضها ببعض تحت الغبار وشباك العناكب، في إهمال وسبات أزلي، كما يحدث عادة في السقيفات العتيفة، بل إنّها، على العكس، تجنّبت الغبار إذ كدست فوق البلاط اللامع هذا، وبدت كأنّها تضج بالحياة، الحياة القبيحة والوسخة لكلّ ما هو خاص

صميمي وغير قابل للاستعمال في آن واحد. وفكّرت بأنّه يستحيل حقاً إدخال هذه الأشياء في مجرى الحياة اليومية من جديد. وبالفعل كانت تمثّل الجانب الأكثر صميمية وشخصية من والدي ووالدتي، وبالتالي الجانب الذي لا يمكن للآخرين البتة استعماله. وفي الوقت نفسه، ومن غير أن يكون هناك أي تناقض مع ذلك، كانت هذه الأشياء الصميمة للغاية، الشخصية إلى أبعد الحدود، غير القابلة للاستعمال بالمرّة، كانت في الوقت نفسه أكثر الأشياء التي يمكن تخيلها عموميّة ولا شخصية ونفعية.

وعلى هذا، كان أخي على حق: إنّ الابن الوفي هو وحده الذي يمكن أن يأخذ أحد هذه الأشياء وأن يحمله معه كذكرى. لكن ذكرى أي شيء؟

وكجواب على سؤالي اقتربت بوبي من الجدار وقلبت اللوحتين اللتين كانتا مسنودتين إليه:

- لعلك تريد أن تأخذ هاتين اللوحتين. إنّ ماكس لا يرغب فيهما، لأنّه يجدهما حيتين ناطقتين تسبّب رؤيتهما له الحزن والاكتئاب. ثمّ إنّهما لا يتناسبان مع الديكور في بيتنا. ولعلهما تناسبان بيتك.

نظرت إلى اللوحتين. لقد رسمتا يوم كان أبي وأمي قد تجاوزا كلاهما الخمسين من العمر. لقد كان للبورجوازية وما يزال لها على الأرجح شعراؤها وروائيوها ونحاتوها وموسيقيوها ورساموها، المختلفون اختلافاً جذرياً عن الفنانين الممثلين حقاً لعصرهم. ولقد عهد والداي، شأن الكثيرين من البورجوازيين، إلى أحد رسامي البورجوازية بمهمة رسم صورتهما الشخصية. ولقد كان هذا رساماً متهافتاً على الدنيا، أي متمثلاً لطبقته الاجتماعية. وكان قد رسم أبي في هندام رمادي فاتح مع ربطة عنق حمراء، وسلّط على وجهه وميضاً أحمر فبدا وكأنّه سكران. وكانت أمي ترتدي ثوباً مسائياً من الحرير

الأصفر اللامع الناعم، وقد جمّلت عنقها باللآلئ، وأصابعها بالخواتم، ومعصميها بالأساور، وقديمها بخفين من الساتين الأسود. وقد أنجز الرسام لوحته بضربات سريعة عنيفة من فرشاته وكأنّه يريد أن يوحي بفكرة إلهام صاعق يبهر النفس بهراً. ولم يكن ممكناً وصف النتيجة الإجمالية إلّا بنعت واحد: كريهة.

وتساءلت عمّا إذا كان الرسم هو الكريه أم هما والداي. وتذكّرت الإحساس باللاأصالة الذي سببته لي في الماضي الرواية التي كتبتها عن غرامياتي مع كورا، وقلت في نفسي إنّ اللاأصالة لا تكمن في الفن، مهما يكن شأنه، وإنّما في الواقع. وعلى هذا، فإنّ القبح في هاتين اللوحتين (الذي هو مظهر من اللاأصالة) لا يكمن في الفن نفسه بقدر ما يكمن في الأشخاص، أو بالأحرى في كنه الواقع الذي يؤلف هذان الشخصان جزءاً لا يتجزأ منه. وارتعدت إذ سمعت صوت بوبي تقول:

ـ لكأنهما سيتكلمان، أليس كذلك؟ إنهما حيان! هل ستأخذهما إذن؟

ـ كلا.

ـ لماذا؟ أيسببان لك الحزن مثل أخيك؟

ـ نعم، لنقل إنهما يحزنانني.

ـ إنني أفهمك. لو كانتا على الأقل صورتين صغيرتين من تلك التي توضع على الكتب. لكن هاتين اللوحتين الكبيرتين ملبكتان بعض الشيء.. بالرغم من أنه يمكن أن يكون لهما وقع مستحب في منزل مغاير لمنزلنا. لقد قال لي ماكس إن منزلم من الطراز الكلاسيكي. وفي وسعك أن تضعهما في الصالون.

ـ كلا، لا أعتقد ليس ثمة كان.

ـ هل منزلك كبير؟

- أجل.
- هل ستدعونا الآن بعد أن تم التعارف بيننا؟
- بالتأكيد.

يسرني أن ألتقي بكم. إنني دوماً وحيدة لأن ماكس يكون دوماً في مكتبه، وعندما لا يكون فيه يذهب، بحجة أو بأخرى، ليغازل النساء.

- ألا تعتقدين أن الغيرة تشوّه أفكارك؟
- جائز.. مع الأسف أعرف أن ما أتكهّن به صحيح ولديّ براهين على ذلك.
- ألم تثأري لنفسك؟
- كيف؟
- بخيانتك إياه بدورك؟

فرفع يدها إلى صدرها قائلة بأبهة:

- فلأمت إذا كنت قد فعلت ذلك قط!
- هيا، دعيك..
- فلأمت!..

وكررت: "هيا دعك!"، وفي الوقت نفسه طوقت خصرها بذراعي بتؤدة كما يفعل الراقص مع مراقصته في مطلع الرقصة. وفوجئت إذ رأيت وجهها يشحب وشفتيها ترتجفان عند هذه الحركة. وتملصت من ذراعي، وذهبت لتجلس على الأريكة التي تخص أمي، وانكفأت على نفسها، وغطت وجهها بين يديها، وراحت تبكي. اقتربت، محرجاً، حاسباً أن هذه التجربة (هي بالفعل نوع من التجربة) كان لها مفعول غير متوقع، مناسب لأخي وغير مناسب لي، وقلت:

- لا تبكي، اعذريني... إنّني آسف بصدق. كان مزاحاً، ولا أكثر من مزاح.

فهزّت رأسها وكأنّها تريد أن ترد اعتذاري. ثمّ ارتفعت إحدى

يديها، وجاءت، بصورة عشواء، لتمسك بيدي التي رفعتها بوبي إلى فمها وراحت تقبلها بنهم. وسمعتها تتمتم:

- لا تعر انتباهاً، إنّني أبكي لأنّني هستيرية. قل لي إنّني أعجبك، قل لي، قل لي...

ولم تنتظر جوابي. إنّما انبطحت إلى الخلف على الأريكة، وفكّت بسرعة أزرار بلوزتها، وبحركة المرضع التي تمد ثديها للرضيع حررت نهديها من إسارهما، نهدين أبيضين حليبيين شفيفين، لهما حلمتان قرمزيتان، وتمتمت:

- أليس لي ثديان جميلان، قل، أليس لي ثديان جميلان؟ قل إنّهما يعجبانك.

كانت مطبقة العينين، وجهها المخدد بالدموع مشلوح على ظهر الأريكة، وكانت تتلوى، وثدياها في العراء، ساعية إلى حملي على مداعبتهما بيدي. وألقيت بنظرة خاطفة حولي، ولمحت بالقرب منّي، على طاولة صغيرة، مرآة مثلثة الوجوه من تلك التي تستخدم للحلاقة. وبقفا يدي اللطيفة ضربت المرآة فسقطت أرضاً. وتعالت ضجة زجاج محطّم. فانتفضت بوبي واستوت جالسة وهي تصيح:

- ما حدث؟ ما حدث؟

- لا شيء... مرآة انكسرت.

فأعادت ثدييها إلى إسارهما، وزررت بلوزتها، ونهضت قائلة:

- لا أدري ما أصابني. لقد فقدت الرشد!

- لا عليك...

- صدقني، هذا لم يحدث لي قط.

- أصدقك.

- كنت مجنونة. والآن أشعر بالخجل.

- لا ينبغي أن تخجلي. لقد أخذتك لحظة ضعف. هذا يحدث لجميع الناس...

ـ أرجوك، لا تخبر ماكس بشيء.
ـ كوني مطمئنة.
ـ أنتما في غاية الشبه، أنت وماكس. والأرجح أنّ هذا التشابه...
ـ أجل، إنّه التشابه، بالتأكيد.
ـ أقسم لك على أقدس ما عندي بأنّني لم أخدع ماكس قط.
ـ أصدقك.
ـ كلا، أنت لا تصدقني. لكنّي أقول الحق!
ـ أعرف أنّك تقولين الحق.
ـ أقسم لي بأنّنا لن نعاود الكرّة.
ـ أعدك بذلك.
ـ أقسم.
ـ لا أؤمن بالأيمان.
ـ أؤمن. أقسم من أجلي.
ـ على رسلك. إنّني أقسم لك على ذلك.

إنّها تبكي الآن بكلّ ما أوتيت من قوّة، وهي منتصبة على قدميها، ترنو إليّ من خلال دموع عينيها المستديرتين الأشبه بعيني طائر. ثمّ انحنت، والتقطت قطعة من المرآة، وتملت نفسها، وسوت شعرها قليلاً. وأخيراً تقدمتني إلى السطح قائلة:

ـ أتعلم، إنّني شبه مسرورة، في صميمي، بما حدث.
ـ لماذا؟
ـ لأنّ هذا لن يحدث كرة ثانية بعد الآن. إنّنا سنتحاب كما يتحاب أخو الزوج وزوجة الأخ.
ـ أجل، سنتحاب.
ـ ما أجمل الصداقة بين أفراد الأسرة الواحدة!

وعبرنا السطح، وقالت بوبي عند مرورنا قدّام الشرفة الزجاجية:

ـ أترى، لقد سحبت الستائر، هما أيضاً أحسنا التصرّف.

ـ مع أنّك كنت واثقة من أنّ أخي سيستفيد من الفرصة.

ـ هو، أجل، لكن بابا، بالتأكيد لا. إنّ ابنتك ليست من ذلك النوع، لقد فهمت ذلك على الفور. ثمّ إنّني راضية إلى حد ما إذ تركناهما بمفردهما، فهي قد أعطته بلا شك درساً!

ورجعنا إلى الصالون. كان أخي منحنياً إلى الأمام، يدخن غليونه بسيماء تأملية. وكانت بابا جالسة بعيدة عنه ورأيت أنّها قد أعادت ارتداء سترتها. وسرعان ما قالت لي:

ـ إذا كنت تريد أن تتحدّ مع أخيك، فسنذهب أنا وبوبي إلى الغرفة المجاورة ونترككما بمفردكما.

ـ هذا صحيح، لقد قلت لي إنّك تريد أن تحدّثني.

ـ أجل، كنت أريد أن أحدّثك على رأسمال للتثمير.

ـ رأسمال للتمثير؟ إنّني رهن أوامرك دوماً.

ـ لا، ليس الآن. لقد تأخّر الوقت. سأعود في يوم من الأيام.

صرخ أخي بلهجة محترفة: كما تريد، لكن لا تتأخّر كثيراً. فالوقت مناسب لإجراء بعض عمليات.

ـ حسناً. إذن إلى اللقاء قريباً. هيّا بنا، يا بابا.

ـ ألم تجد شيئاً أثار اهتمامك في غرفة السطح؟ أتأذن لي بالتخلص من كلّ تلك القذارة؟

ـ تستطيع أن ترمي بها كلّها، على الأقل من ناحيتي أنا.

وغادرنا أربعتنا الصالون. وتعانقت المرأتان وكررنا العناق. وشدّ أخي على يدي، وربت على خد بابا، ثم دفع بإحدى يديه أبواب المصعد بينما كانت الأخرى تشد على الغليون. ودلفنا، وأغلقت بابا الأبواب وضغطت على الزر، وبدأ المصعد يتحرّك نازلاً. وقالت لي بابا:

ـ أتعرف، ما كدتما أنت وبوبي تخرجان، حتّى سحب أخوك الستارة وهجم عليّ.

بأي طريقة؟

ـ أواه! بالطريقة المعتادة.

ـ وماذا فعلت؟

ـ أنا، حتّى أفت في عضده، رح أصفر صفيراً خفيفاً.

ـ وهل فت في عضده؟

ـ على الفور. بل إنّه اعتذر منّي. لكنّه لمّا رأى أنّني لم أغضب غضباً شديداً، ضرب لي موعداً في مكتبه.

ـ وهل ستذهبين؟

ـ كلا.

توقف المصعد، وغادرناه، واتجهنا نحو سيّارتي. وقلت:

ـ آسف. لقد قلت لك إنّه مسخ.

ـ لا، إنّه ليس مسخاً.

ـ وما هو إذن؟

ـ رجل مثل كثيرين غيره من الرجال.

ـ ستقولين لي إنّه محبّب إلى النفس أيضاً!

ـ على رسلك! أجل، بما فيه الكفاية.

ـ يا إلهي، وما الشيء المحبّب الذي تجدينه لدى شخص كهذا؟

ففكّرت بابا لحظة من الزمن بينما كنت أدير المحرّك، ثمّ قالت لي:

ـ إنّه محبّب في نظري لأنّه هو ما هو.

ـ ماذا تعنين؟

ـ ما قلته.

ـ أي؟

- إنّه محبّب في نظري لأنّه هو ما هو.
- لكنّنا جميعاً نحن ما نحن. نحن ما نفعله. لقد غزالك أخي...
- لقد فكّ أزرار بنطاله، وأخذ يدي وسحقها على أسفل بطنه.
- إذن، ليس أخي ما هو عليه، وإنّما ما فعله.
- أي الرجل الذي فكّ أزراره وأخذ بيدي وضغطها على أسفل بطنه.
- ماذا تعنين؟
- بالضبط ما قلته أنت نفسك لتوّك لكن بعبارة أخرى. صحيح إنّنا ما نفعله. لكن صحيح أيضاً أنّ ما نفعله هو ما نفعله.

وأخذت أضحك محتداً:

- حقاً إنّك لا تشجعين الفضيلة! إذا كان أخي ما هو عليه، وإذا كان ما فعله هو ما فعله، وبالتالي لا ينبغي أن نحكم عليه، فإنّني لأتساءل عندئذ لمَ أستمر أنا في التصرّف كما أتصرّف.
- أي؟
- أي، أنت تعلمين ذلك حق العلم، بطريقة مغايرة لمشاعري الحقيقية.
- لكنّنا، أنت وأنا، ابن وابنة.
- إذن؟
- على الأب والابنة أن يتصرّفا بطريقة معينة.
- والعم مع ابنة أخيه؟
- إنّ العم يستطيع حتّى أن يتزوج ابنة أخيه.
- آه! هو ذاك! الأب يلعب دوره كأب، والابنة دورها كابنة، والعم دوره كعم، وابنة الأخ دورها كابنة أخ. وأمّك، أفترض أنّها لعبت أيضاً دورها وما تزال كأم!؟
- أجل.
- أأنت واثقة من ذلك؟

ـ إنّني واثقة من أنّ كورا أمي ومن أنّني ابنتها.

ـ بصدد هذه النقطة لا مجال للشك. فكورا أمّك وأنت ابنتها. لكن ينبغي أن نرى أي نوع من الأمهات والبنات.

ـ لماذا؟ ليس هناك من شيء يُرى.

ـ في هذه المرّة التزمت الصمت، ثمّ استأنفت:

ـ بالمناسبة، لمَ لم تقولي لأخي إنّك مخطوبة لسانتورو؟

ـ هذا صحيح. ربّما لأنّ خطوبتي ليست رسمية بعد.

ـ ماذا تقصدين بهذا؟

ـ لا خطوبة بدون خطوبة رسمية، أي بدون دعوات وهدايا واستقبالات إلخ... وإلّا...

ـ وإلّا؟

ـ وإلّا، فلا خطوبة، وإنّما حب أو صداقة. لقد سألني أخوك عمّ إذا كان لي خطيب. فأجبت بالحقيقة قائلة إنّه ليس لي خطيب.

السبت ٢٨ تشرين الثاني

هذه الليلة حلمت الحلم التالي: خيّل إليّ أنّني مع بابا في حديقة بديعة شبيهة بحدائق النعيم الموجودة في إيران، في أصفهان أو شيراز: أشجار مثمرة بأعداد كبيرة تشكّل غابات صغيرة مظللة، جداول من الماء السلسبيل تجري بين الحواشي المزهرة، أشجار صفصاف مستحٍ، أشجار سرو، أشجار رمان، مساكب ورد. حقاً إنّها لحديقة رائعة شبيهة بتلك الأماكن المعجزة والسحرية التي تمثلها البساتين المزروعة بأكبر جهد ومشقة وسط رمال الصحارى. لكنّني أعرف أنّ هذه الحديقة تمتد في نفس المكان الذي كان فيه في الماضي معسكر اعتقال نازي. وبالفعل بينما كنت أتنزه مع بابا بين تلك الممرات الساحرة الفاتنة، لمحت فجأة عند تخوم مظلة كثيفة من أشجار البرتقال الفتحة السوداء، الباب المصفح، المحمل الحديدي

لفرن إحراق الجثث. كانت بقايا من عظام تلمع بكلّ بياضها حول التراب الأسود الدسم. وفي الأعلى، بين جذوع أشجار البرتقال، تتشعّب ندوب طويلة شرسة من الأسلاك الحديدية الشائكة. وفي نهاية ممشى تحف به أشجار السفرجل، حيث يتوقع المرء أن يشاهد جناحاً شرقياً رائعاً، يرتفع برج الحراسة، المستدير والمربوع، مع ظل الحارس الأسود الذي يذهب ويجيء على القمة.

وقلت لبابا:

ـ ماذا ينتظرون حتّى يهدموا نصب الهمجية هذا؟

فأجابت:

ـ إنّهم لا يهدمونه لأنّه ما زال يعمل.

ونظرت من جديد إلى الفرن، فماذا رأيت على المحمل الحديدي الذي يستخدم في شي الجثث؟ بابا راقدة على ظهرها، وذراعاها مصلبتان على صدرها، وشعرها متدلٍ. ومن يراقب العملية؟ كورا أو بالأحرى رأس كورا الذي يبدو معلقاً بين أغصان أشجار البرتقال، وقد غطي بقلنسوة عسكرية تحجب العينين وتحمل شارة الصليب المعقوف، الشيء الذي يبرز المظهر الجرماني لأنفها الطويل المستقيم. وألقيت بنفسي آنذاك على المحمل، وأمسكت ببابا من كتفيها، وشددتها نحوي، وساعدتها على النزول. ثمّ هربنا، ونحن متماسكان بالأيدي، عبر ممشى مستقيم لامتناهي الطول، في اتجاه معاكس لاتجاه برج الحراسة. وركضنا حتّى لهثت أنفاسنا وانبهرت، وفجأة وجدنا أنفسنا أمام بوابة مفتوحة. واخترقنا هذه البوابة ووجدنا أنفسنا أمام بوابة مفتوحة. واخترقنا هذه البوابة ووجدنا أنفسنا في ساحة واسعة ترتفع حولها، في شكل نصف دائري، كتلك التي تشاهد أحياناً مرسومة في التصاوير ـ الأحاجي: مسبعات من طابقين مع سطح مستطيل، وعلى كلّ واجهة، تماماً كما في التصاوير ـ

الأحاجي، رسم حرف كبير أسود وتوقفت بابا وأشارت إلى المنازل، داعية إياي إلى القراءة. وقرأت من اليسار إلى اليمين، منزل بعد منزل: ترميم.

تبدّل مفاجئ في المشهد: أنا مع بابا في ملعب رياضي. أمامي تمتد خشبية فاتحة اللون، مشمعة لماعة، مدوخة، شبيهة بجسر سفينة. في إحدى الزوايا طاولة كبيرة، من تلك التي يستخدمها المهندسون المعماريون ليرسموا عليها. بابا واقفة أمام هذه الطاولة، عارية تماماً، وفي يدها مسطرة، وعلى أنفها نظارتان. وبمسطرتها أشارت لي إلى الأشياء التي على الطاولة، الواحد تلو الآخر، كما في درس لأطفال المدرسة الابتدائية: «هذا قلم».

فرددت: «هذا قلم».

«هذه محبرة».

«هذه محبرة».

«هذا فرجار».

«هذا فرجار».

«هذا قرطاس».

«هذا قرطاس».

«هذه ريشة».

«هذه ريشة».

إنّها أشياء مكتبية صرفة، ومع أنّ هذا الدرس بدا لي غريباً بعض الشيء لأنّني لا أشعر بأنّني في حاجة إليه، إلّا أنّني لا أستطيع أن أقول إنّني حضرته من دون لذة. ومن الجهة الأخرى، صحيح أنّ بابا عارية، لكن نظارتيها وحدهما تكفيان على ما بدا لسترها، جاعلتين منها مدرسة جادة صارمة دوغمائية.

لكنّي دهشت أكثر أيضاً عندما لفظت بابا وهي ما تزال تتابع الإشارة لي بعصاها إلى سطح الطاولة: «هذه جيفة». فقد نظرت ورأيت بالفعل أنّ جزءاً كاملاً من الطاولة مغطّى بجيفة مائل لونها إلى الحمرة، جيفة معزة، نفس الجيفة (تذكّرت ذلك فجأة) التي لمحتها نصف مطمورة في الرمل على شاطئ سيركيو، قبل بضعة أيام لا أكثر. وهممت بالاعتراض: «ماذا جاءت هذه الجيفة تفعل على هذه الطاولة؟»، لكن لم يتح الوقت لي للكلام لأنّ بابا رددت بصرامة: «هذه جيفة». وتفاجأت إذ وجدت نفسي أردّد وراءها: «هذه جيفة».

انتهى الدرس. سبقتني بابا على رؤوس أصابعها فوق تلك الخشبية التي كانت تهرب تحت أقدامنا، تحت ضوء المصابيح الكهربائية الباهر. واتجهت نحو باب صغير في آخر قاعة الرياضة، وفتحته، وأزاحت، فانحنيت لأنظر. وتبيّنت آنذاك أنّ قاعة الرياضة تقع في أعلى مبنى كبير شاهق متداعٍ، وأنّه يمتد تحتنا حتّى الأفق البعيد منظر غير محدود، مزروع بالخرائب والحطام والنفايات، وكلّ تلك الفسالات التي تثب إلى العين في مدينة دمّرها زلزال أو حريق أو أي كارثة مشابهة. لكن هذه الخرائب هي، إذا جاز القول، في حالة ممتازة، فهي غير مغبرة، غير مدخنة، غير متعفنة، وإنّما صقيلة، لماعة، واضحة المعالم، مصطفة على طول شوارع طويلة نظيفة صقيلة مثل اللآلئ على صينية من معدن لماع. وفيما كنت أتأمل هذا المشهد بدا لي وكأنّه تضيئه أشعة حمراء أفقية لشمس غير مرئية ساعة أفولها، إذا بي أنزلق وأسقط في الهاوية. لكن سقطتي كانت قصيرة، لأنّني، بعد ثانية من الزمن، مثل مظلي انفتحت مظلته أثناء هبوطه، بدأت أحلق، في منتصف الطريق، حول المبنى الذي كانت بابا ما تزال واقفة على قمته، متردّدة في إلقاء نفسها في الفراغ. ونفذت حركات بلهوانية بارعة، مزهواً بإظهار مهارتي لبابا، ورحت أنعطف وأنزل

وأصعد وأندفع وأتوقف، وأعاود الانطلاق بإرادتي. فجأة، تبيّنت أنّ بابا هي هنا أمامي، وقد راحت تطير بدورها، فتبعتها. وأخذنا نحلّق على علو منخفض أكثر فأكثر، ونرسم دوائر واسعة في هبوطنا نحو المدينة، نحو الساحة التي في قلب المدينة، نحو سرير عريض في قلب الساحة. وها نحن ممددان على السرير، جنباً إلى جنب. ثمّة خرائب قادحة شرراً تحدّق بالساحة، وغني عن البيان أنّنا هنا، أنا وأبابا، لفعل الحب. لكنّي أقرّ بأنّني شعرت ببعض الحرج في فعل ذلك تحت السماء العارية، وقد لفتت بابا انتباهي إلى أنّ المكان قفر من بني آدم، وإلى أنّ المدينة فارغة ميتة مثل محارة متحجرة. إذن فقد رميت بنفسي على بابا. لكنّي واجهت مشكلة خطيرة، إذ لم أتوصل إلى امتلاكها. ففي كلّ مرّة كنت آخذها بين ذراعي، كنّا نتزلق نحن الاثنين خارج السرير ونضطر إلى النكوص عن عناقنا حتّى نعتلي السرير من جديد. كانت حوافي السرير مرنة ورخوة أكثر ممّا ينبغي. أو لعلنا لم نكن نعرف نحن كيف نثبت عليه. على كلّ حال كان في هذا الفشل شيء سحري، قدري، قصدي، يمت إلى الشيطنة بأكثر من صلة. واجتاحني شعور مبهم بالحنق لأنّني كنت أشتهي بابا وكان هذا السرير اللعين يمنعني من قضاء أربي. ثمّ جاءت فجأة الضربة الأخيرة لشهوتي المتلظية: اليقظة.

استيقظت غاضباً، حانقاً، ساخطاً، وفي الوقت نفسه مصمماً. وفكّرت: ينبغي أن أنتهي من الأمر مرّة واحدة ونهائية، ولا سيما أنّ بابا لا تطلب خيراً من ذلك. فلمَ الاستمرار في التردّد؟ ونهضت، ومشيت على أطراف أصابعي في الظلام، وخرجت إلى الممشى، وأضأت النور، ثمّ اتجهت إلى باب بابا وأدرت القبضة. وبعد لحظة من التردّد، وبصورة شبه آلية، عدت أدراجي إلى غرفتي، واندسست تحت اللحاف ونمت على الفور تقريباً. في الصباح تذكّرت حلمي ولم

أستطع أن أفهم إذا ما كنت قد استيقظت حقاً أم أنّ يقظتي وتسللي إلى الممشى كانا هما أيضاً جزءاً من حلمي.

الأحد ٢٩ تشرين الثاني

أعدت قراءة تلك الصفحات من يومياتي، التي تسرد زيارتنا، لأخي ماسيميليانو. ومن واجبي أن أنوّه هذه المرّة أيضاً (حتّى أتذكّر ذلك عندما سأحاول تحرير روايتي) بأنّني أجريت بعض إضافات وتطويرات أفلتت منّي رغماً عنّي، إن جاز التعبير، عندما دبجت تقرير هذه الزيارة.

هذه الإضافات والتطويرات تتعلق بالمشهد بيني وبين بوبي في غرفة السطح. والواقع أنّ الأمور جرت بصورة مغايرة. فقد ذهبت لأشاهد تلك الغرفة مع بوبي لأنّ ماسيميليانو أعلمني بهدف البقاء بمفرده مع بابا، بأن بوبي تمارس الرسم: فلمَ لا أذهب معها لرؤية لوحاتها في مرسمها على السطح؟ إنّ بوبي ستسعد باطلاعي عليها. وهكذا خرجنا أنا وهي لنذهب إلى المرسم الذي لم يكن يحتوي بالفعل على الأشياء التي كانت تخصّ والديّ، وإنّما فقط على رسوم بوبي التي هي عبارة عن لوحات صغيرة غير تشخيصية إلى حد يسترعي الانتباه، أرتني إياها الواحدة تلو الأخرى بوضعها على منصب بينما كنت أنا أجلس بكلّ راحة على ديوان في إحدى زوايا المرسم المفروش بذوق وعناية وكأنّه غرفة استقبال. وقد أهدتني بوبي لوحتين، واحدة لي وواحدة لبابا. وقد قبلتهما ووعدتني بأن ترسلهما إليّ في أقرب فرصة لأنّها تريد قبل ذلك أن تؤطرهما. ثمّ تحدّثنا بهدوء وتعقّل عن هوس أخي الجنسي، لكن من غير أن أقوم بأي محاولة للاقتراب منها، ومن غير أن تعرض بوبي نفسها وتستسلم لهستيريتها. وفي النهاية خرجنا من المرسم، وجرى كلّ الباقي كما سردت في يومياتي.

إذن، فقد اختلقت اختلاقاً، أوّلاً تفاصيل الأشياء التي كانت تخص والديّ، ثمّ حفلة هستيريا بوبي وعرضها نفسها. وقد فكرت بالدوافع التي أملت عليّ هذه التخيلات، وهي ذي نتيجة تفكيري.

أوّلاً، لمَ وضعت في المرسم الأشياء العائدة لوالديّ بدلاً من لوحات بوبي؟ كنت أعرف أنّ هذه الأشياء لا يمكن أن تكون موجودة في هذه الحجرة، وبالأصل ما كان أخي ليحتفظ بها بعد هدم المنزل القديم وبناء الجديد مكانه. وبعد طول تفكير تذكّرت أنّني، عندما كنت طفلاً، لاحظت تلك الأشياء التي كانت متناثرة في مختلف غرف منزلنا وقلت في نفسي إنّها ستكدس في يوم من الأيام بعضها فوق بعض، فيختلط الحابل بالنابل بلا رحمة أو احترام، في سقيفة تعجّ بالغبار، فتكتسب ذلك المظهر الموحش المنفر وتمثّل يومها كلّ ما تبقى من أبي وأمي. إذن، لم يكن المشهد المتخيل سوى امتداد لما فكّرت به وأحسست به في الماضي حيال والديّ. وبعبارة أخرى، كنت قد تخيّلت شيئاً، نظراً إلى أنّ الأشياء كانت على ما كانت عليه أو على الأقل على ما كانت تبدو عليه، أقول كنت قد تخيلت شيئاً لم يكن ممكناً فحسب بل مرجحاً أيضاً.

أمّا نقلي هذه الصورة القديمة القاسية التي تخيلتها في أيام مراهقتي إلى صفحات يومياتي، فإنّ تفسيره هو التالي: حيال اختفاء المنزل الوالدي الذي هدمه أخي وجدت نفسي، إن جاز التعبير، معلقاً في الفراغ. وبالفعل، لقد تزوجت من كورا التي كنت أحسبها أصيلة حتّى أهرب من لاأصالة أسرتي. لكن المنزل الذي كان في وسعه، بنتيجة فرشه ومظهره، أن يبرهن على تلك اللاأصالة، قد زال من الوجود. وبالتالي، لم يعد في وسعي أن أثبت أنّه كانت لي أسبابي الموجبة، بعد كلّ شيء، الزواج من كورا، أن أثبت بكلمة واحدة لاأصالة العالم الذي رأيت النور فيه. وهكذا استبدلت لوحات بوبي

غير التشخيصية التي لا تضيف شيئاً في الواقع إلى شخصية خليلة أخي، بكلّ الأشياء التي كانت تخصّ والديّ، نظراً إلى أنّ وصفها يفيدني في شرح قصتي الشخصية وتكملتها.

أمّا هستيريا بوبي وعرضها نفسها؟ لقد وقعت هنا حقاً، رغماً عنّي، في الافتراء على حساب تلك الفتاة الطيبة الوفية التي لم تفكّر قط بعرضها نفسها عليّ، ولا البكاء والندامة. لقد كان هذا الاختلاق بغيضاً، لكن دافع الاختلاق كان أقل شناعة. والحقيقة أنّ ما أوحى إليّ بتلك الفكرة الانتقامية من خيانة بوبي هي الغيرة والقلق ممّا يمكن أن يحاوله أخي في الصالون بينما أنا أتفحص تصاوير المرسم.

وقد قرّرت بالطبع أن أحذف مشهد الإغراء البعيد حقاً عن مشاكلة واقع بسبب توازيه المؤسف مع محاولة أخي المماثلة. لكنّي غير نادم، بعد كلّ شيء، على سردي وكتابتي إياه لأنّه يشهد، على كلّ الأحوال، على قوّة عواطفي تجاه بابا. وبالمقابل لم أحزم أمري بعد بصدد نقل اختلاقي الأشياء الموروثة عن والديّ من يومياتي إلى روايتي. فهنا ليس ثمّة من افتراء، وإنّما تطويل وتطوير للحقيقة. لقد كان والديّ ما كانا عليه، والأشياء التي تخيلتها مكدسة في غرفة السطح ليست، في الحقيقة، مختلقة، وإنّما هي انبثاق من شخصهما. فلمَ لا أستفيد منها وأستخدمها في مثل هذه الحال؟ لقد طرحت على نفسي هذا السؤال، لكنّني أرجأت الجواب إلى يوم انتهائي من روايتي. فيومذاك فقط سأنظر فيما إذا كان المناسب حذف هذا الحادث أو إبقاؤه مع تعديله قليلاً.

الإثنين ٣٠ تشرين الثاني

انتهيت من الآن فصاعداً من العمل في تحرير مقالاتي عن إيران. وقد بعثت بالمقال الأخير منذ بضعة أيام، على إثر زيارتي لماسيميليانو. والآن أجلس ليلاً في مكتبي وأتصفح يومياتي محدثاً هنا

وهنا بعض التصحيحات ونصب عيني دوماً الرواية التي أزمع استخلاصها منها.

هذه الليلة بينما كنت أعمل، تسلّلت بابا كالعادة إلى غرفتي بدون نأمة أو حس ووضعت راحة يديها على عيني سائلة إيّاي:

- من؟ احزر...

فأجبت بشيء من الغيظ:

- ممثلة رديئة تمثّل دور الابنة الطيبة المليئة بالعطف على والدها.

فرفعت يديها عن عيني، ودارت حول المكتب، وانتصبت أمامي. ثمّ قالت لي:

- عندي فكرة: لو نمثّل...

نظرت إليها بانتباه. كانت عيناها الجميلتان للغاية جامدتين ناعستين مداهنتين كعادتهما:

- ماذا؟

- لنمثّل دور الأب والابنة.

- وهل نفعل من شيء آخر؟

- رويدك. لنمثّل دور زوج الأم الواقع في غرام ابنة زوجته، وابنة الزوج الواقعة في غرام زوج أمّها.

- وكيف تنتهي القصة؟

- تنتهي بإعلان زوج الأم عن طبيعة عواطفه تجاه ابنة زوجته وبسعيه إلى فعل الحب معها.

- وابنة الزوجة؟

- يكون ردّ فعل ابنة الزوجة، بالطبع، على أقصى ما يمكن من الحزم، وتأمر زوج أمّها بأن يتركها في سلام.

- ماذا تعنين بـ: أقصى ما يمكن من الحزم؟

- ضربات باليدين، بالرجلين، خدش، لكم.

نظرت إليها: كانت سيماؤها هادئة ومرحة، كسيماء طفل يصف لعبة. وقلت:

- لكن ما الفائدة من تمثيل دول كهذا شبيه كلّ الشبه بالواقع؟

- كلا. هذا لا ينبغي ولا يمكن أن يحدث في الواقع. أقصد: لا ينبغي ولا يمكن أن يحدث أن تهجم عليّ وأن أجد نفسي مكرهة على صدّك. ولو حدث هذا، لكان أمراً غير مستحب بالمرّة، ولساءت العلاقات بيننا نهائياً. وبالمقابل، يمكن أن يحدث هذا في التمثيل بشرط أن نقرّر مسبقاً شروط هذه اللعبة.

- وما هذه الشروط؟

- أن تسعى إلى مضاجعتي وأن أصدّك.

- بمختصر الكلام، أنت تريدين أن تمتحني طبيعة حبّي، وتريدينني أن أمتحن ما سيكونه رفضك العنيف.

- كلا، أنا أريد أن أمثّل فقط.

- لكن لنفترض أنّ اللعبة فشلت، أي أنّك لم تصديني على سبيل المثال.

- هذا مستحيل.

- لماذا؟

- لأنّ أحد شروط اللعبة هو، على وجه التحديد، أن أصدّك.

- فهمت. حسناً! أفضل ألا نلعب هذه اللعبة.

- لكن لماذا؟

- لأنّني لا أحب التمثيل. وإذا شئت تشبيهاً فسأقول إنّ اقتراحك هذا أشبه باقتراحك على لص أن يمثّل دور سطو على صندوق حديدي. فهناك احتمالان، وكلاهما غير مستحب: إمّا أن يمثّل اللص الدور أي يكتفي بالسطو على الصندوق الحديدي تمثيلاً، وبالتالي لا

يسرق، لكنّه سيتألم، نظراً إلى أنّه لص، من أنّه لم يسرق، وإمّا أن يهرب بالمال، وآنذاك السلام على اللعبة.

فابتسمت وقالت ببطء، وفي صوتها حسرة مبهمة:

ـ لعلك على حق. هذا مؤسف. فقد كنّا سنتسلى لو مثّلنا هذه اللعبة.

الأربعاء ٢ كانون الأوّل

عندما صعدنا إلى السيّارة قالت لي بابا:

ـ قلي لي، من هو كونسولو هذا الذي نحن ذاهبان إليه؟

فأجبت:

ـ إنّه صديق قديم لي لم أره منذ سنين عديدة. صحافي مثلي. لكنّي لست إلّا مراسلاً في البلدان الأجنبية، أمّا هو فمحترف. ومنذ خمسة عشر يوماً أصبح رئيس تحرير صحيفتي. إنّه رئيسي المباشر الآن.

ـ ماذا ستفعل لديه؟

ـ سأتناقش معه حول رحلتي القادمة.

ـ إذن ستسافر؟

ـ أعتقد أن نعم.

فلزمت الصمت لحظة من الزمن، وعيناها شاخصتان إلى الأمام، محتارة، ثمّ قالت:

ـ وأنا، ماذا سأفعل مع كورا؟

ـ ماذا تعنين؟

ـ البارحة كانت مريضة طوال اليوم. وقد انتابتها حمى: ثماني وثلاثون درجة. وقد قلت لها إنّ نزلتها الصدرية لم تبرأ وإنّ عليها أن تستدعي طبيباً ليصف لها علاجاً ثمّ تغادر روما وتقضي بضعة أشهر في الجبل. إنّ صحتها بالفعل متدهورة منذ بعض الزمن، وأنت لا تنتبه إلى ذلك لأنّك لا تعيش معها، لكنّني متأكدة، أنا

التي دوماً إلى جانبها، ممّا أقوله: إنّها مريضة وإنّني لأتساءل أحياناً عمّا إذا لم يكن مرضها شيئاً أخطر من نزلة صدرية.

- أي؟

- لست أدري، أنا، شكل من السل الرئوي. هذا على الأقل ما يقوله سانتورو.

- أفحصها سانتورو؟

- كلا، لكنّي وصفت له الأعراض.

- وبمَ ينصح؟

- بالطبع إنّه يقول إنّ على كورا، قبل كلّ شيء، أن تصوّر نفسها بالأشعة. ولهذا على وجه التحديد يحرجني سفرك.

- لكن لماذا؟ لا أرى ما دخل سفري بصحة كورا؟

- مع ذلك، كما أقول لك. هذا الصباح كنت ما أزال نائمة عندما رأيت كورا واقفة أمام سريري، ووجهها مريع: أحمر، شديد النحول، غائر، وعيناها تحيط بهما خطوط عميقة. وقد تأمّلتني طويلاً ثمّ قالت: تريدان، أنت وفرانشيسكو، أن أغادر روما، تريدان الخلاص منّي، إرسالي للموت في مصحّ. لكنّي لن أرحل، سأبقى هنا. إذا لم يكن من الموت بد، فإنّني أفضّل أن أموت في بيتي، عندئذ أجبتها: «هدئي من روعك. عليك قبل كلّ شيء أن تري طبيباً، ما من أحد يريد الخلاص منك. وإذا كان ذهابك إلى الجبل واجباً، فقد قرّرنا أنا وفرانشيسكو الذهاب معك والبقاء بجانبك حتّى شفائك التام».

- قلت ذلك؟

- نعم، قلته، لأنّني أعلم مدى الأهمية التي تعلقها كورا على كلّ ما يخصك وعلى كلّ ما تفعله من أجلها. وبالفعل، سرعان ما سكن روعها. وقد تابعت النقاش قليلاً، وكررت على مسامعي بأنّها

ليست مريضة ولن تذهب لرؤية دكتور. لكن عنادها تزعزع في الحقيقة بعض الشيء. وهأنتذا تقول إنّك راحل. هذا يحرجني كثيراً لأنّها ستعتقد أنّني كذبت عليها، وعلى كلّ سيكون اعتقادها في محله.

أمسكت عن الكلام هنيهة من الزمن. ومن سلوك بابا. فصحيح أنّ في كذبتها حباً بنوياً مدروساً، لكن فيها أيضاً شيئاً آخر. إنّ الصور الجذابة التي أوحت لي بها كذبتها قد جعلتني أفهمها: مصيف جبلي، كورا حبيسة غرف في المصح، نحن الاثنين بالقرب من كورا بالتأكيد، لكن أكثر قرباً إلى بعضنا بعضاً واحتججت بغضب:

- كان في وسعك على الأقل أن تستشيريني قبل أن تتصرّفي بي على هواك.

فأجابت بكلّ اطمئنان وكأنّها تريد توكيد ظنوني:

- الحق أنّني إذا كنت قد وعدتها بما وعدتها فهذا أيضاً لأنّ فكرة قضاء بعض الوقت في الجبل معك ليست بالفكرة الكريمة على قلبي. أحقاً أسأت التصرّف إلى هذا الحد؟

- كلا، لم تسيئي التصرّف. كلّ ما هنالك أنّ عليّ أنا أن أرحل مهما كلّف الأمر.

فلم تبد أي امتعاض وكأنّها كانت تتوقّع العقبة. وبعد هنيهة قالت:

- بالطبع، إنّ هذا كلّه غير مؤكد. أوّلاً لأنّ كورا ترفض، حالياً على الأقل، أن تفحص نفسها، وثانياً ليس محتماً أن يأمرها الطبيب بالذهاب إلى الجبل لكن على فرض أنّ الشيء حدث، فربّما كان في وسعك أن تقبل بتسوية.

- أي؟

- تستطيع مثلاً أن ترافقنا نحن الاثنين لمدّة أسبوع، ثمّ تسافر. إنّ

المهم في الحقيقة هو أن تذهب كورا إلى الجبل. وبعدها يصبح كلّ شيء سهلاً.

وأمسكت عن الكلام لحظة ثمّ ختمت كلامها:

- كما ترى، أنا لا أسألك شيئاً كبيراً. إذا كنت لا تريد أن تفعل ذلك من أجل كورا، فافعله على الأقل من أجلي.

لم أحر هذه المرّة جواباً، فقد خطرت لي فكرة مداهنة ماكرة، فكرة أنّ بابا قد لمحت، تحت قصة الجبل هذه، إمكانية علاقات غرامية، مختلسة، عابرة، عارضة، لكن تامّة كاملة. وبكلمة مختصرة: علاقات تندرج في مجرى الأفعال البلهاء المجانية التي يتألف منها الوجود اليومي: فأنا سأذهب معها إلى الجبل متوهماً أنّني أفعل ذلك من أجل كورا، ثمّ، في اللحظة الأخيرة، ربّما في الليلة السابقة لرحيلي مباشرة، سأبقى مدّة أطول من المعتاد في غرفة بابا وأصبح عشيقها من غير مشيئتي تقريباً، كما لو بعامل الصدفة، الشيء الذي لن يمنعني من الرحيل مع ذلك في صباح اليوم التالي إلى بلد ثانٍ. وبذلك يكون كلّ شيء قد تلاشى وتوارى تحت السطح اللاامتمايز الوحيد النسق لما هو عادي تافه المعنى ما أزال أعاند في تسميته فساداً. وتكون كورا قد ماتت من مرضها كما أنا متأكد من الآن فصاعداً من حصول ذلك، وتكون بابا قد تزوجت من الطالب سانتورو كما أنا مقتنع أيضاً من أنّها ستفعل ذلك، وأكون قد عدت إلى روما لأغادرها من جديد. وفي خاتمة الأمر أكون قد عرفت، مرّة أخرى، أنّ العمل ليس بضروري لأنّ الحياة اليومية تتكفل بذلك من تلقاء نفسها، وما علينا إلّا أن نتركها على مجراها، وعندما تعجز عن ذلك في النهاية تخرج «Deus ex Machina» الموت فيعود كلّ شيء إلى سابق نظامه.

كنّا قد وصلنا إلى شارع لومبارديا حيث مقر صحيفتي. وبينما كنت أناور لأصفّ السيّارة، قلت لبابا:

ـ أتعتقدين حقاً أنّك ستتزوجين في يوم من الأيام من سانتورو؟
ـ لِمَ تسألني هذا؟
ـ لأنّ... أجيبيني: أستتزوجين منه في النهاية؟
ـ أجل، ربّما... من يدري؟
ـ هل سانتورو على علم بمهنة كورا السرية؟
ـ نعم.
ـ ألأنت التي أطلعته على ذلك؟
ـ نعم.
ـ وماذا قال؟
ـ إنّه يحبّني، إذن فلا أهمية لذلك في نظره.
ـ ممكن... هذا لا يمنع في الواقع ألا تكون كورا مخطئة كلّ الخطأ.
ـ ماذا تقصد؟
ـ إنّها غير مخطئة إذ تعتقد أنّ موتها سيسهل الأمور بالنسبة إلى البعض.
ـ إلامَ تلمح؟
ـ أقصد أنّه يناسبكما، أنت وسانتورو، أن تموت كورا.

تكلمتُ بخفّة. ولم تحر جواباً. لكنّي بعد أن أطفأت المحرّك، وتهيّأتُ للنزول من السيّارة، لبثت هي ساكنة وعيناها شاخصتان إلى بلور السيّارة. فقلت:

ـ لقد وصلنا. فلننزل.

فاستدارت نحوي، وللمرّة الأولى رأيت على وجهها تعبيراً حزيناً حقيقياً:

ـ كيف يمكنك أن تتفوّه بشيء كهذا؟
ـ أي شيء؟
ـ أنّني أرغب في موت كورا.

- لم أقل إنّك ترغبين في ذلك. إنّما قلت إنّه يناسبك.

وتردّدت وأضفت:

- سيكون أشبه بما يسمّى Deux ex machine.

- لم أفهم.

- حل خارجي، لكن مناسب تماماً.

ولزمتْ الصمت وقد بدا عليها الاستغراق والتعاسة. فقلت لها:

- هيّا بنا، تعالي، افترضي أنّني لم أقل شيئاً.

- كلا، لن آتي. اذهب بمفردك. سأنتظرك.

- لكن ما بك؟

- لا شيء، أريد فقط أن أبقى وحدي قليلاً.

- لكنّي لم أكن أريد أغضابك!

- لست غاضبة. اذهب، إنّني منتظرتك هنا. اعذرني.

فلم ألحّ. ونزلت من السيّارة واتجهت نحو مدخل الجريدة. كان المكان عبارة عن مبنى قديم من القرن الماضي، له واجهة مكتظة بالأعمدة والأفاريز والقناطر والمشاكي، بهت لونها بفعل الأمطار وغطّاها غبار شبه أزلي. لكن شقة التحرير التي وضعني المصعد أمامها كانت على أحدث ما يمكن. وعبرت من بهو ذي سقف أزرق وجدران صفر إلى ممشى ذي جدران زرق وسقف أصفر، وقرعت باباً أحمر مؤطراً بمعدن مذهب، وصاح بي صوت مذكر رنان أعرف صاحبه: «ادخل»؛ ودخلت إلى حجرة خضراء الجدران وسوداء السقف. كان رجل طويل ضخم الجثة، ذو شاربين ووجه يذكر بوجه قرصان، جالساً إلى طاولة صنعت من الخشب الفاخر المتين ومن الحديد المطرق. ولما رآني نهض قائلاً:

- أنت تعرف بلا شك قصة لقاء ستانلي مع ليفينغستون في الغابة الأفريقية؟

كنت أعرفها، لكنّني أجبت مجاملاً:

ـ لا أذكرها جيّداً...

ـ نظم ستانلي حملة للبحث عن ليفينسغتون الذي انقطعت أخباره منذ بعض الوقت. وبعد مسيرة رهيبة عبر الغابة الأفريقية، ظهرت فجأة جماعة من الزنوج تحمل على نقالة رجلاً أبيض. فدار آنذاك الحوار التالي: ـ الدكتور ليفينغستون، على ما أعتقد؟ ـ إنّه هو بشخصه ـ حسناً! اليوم، أفعل الشيء نفسه معك، يا فرانشيسكو. لقد انقطعت أخبارك عنّي وكنت أبحث عنك، فإذا بي أصادفك في غابة الحياة وأقول لك «الدكتور ميريغي، على ما أعتقد؟» فتجيبني...

ـ إنّه هو بشخصه.

ـ مرحى... إنّني أرى أنّ عشيرة أعوام لم تبدّل شيئاً بيننا وأنّنا ما زلنا نتفاهم أحسن التفاهم. اجلس، لِمَ أنت واقف؟ يا عزيزي فرانشيسكو، لكم أنا مسرور برؤيتك!

ـ أنا أيضاً.

ـ دعني أنظر إليك. أجل، أنت لم تتبدّل.

واستفدت من الصمت الوجيز الذي تلا عبارته هذه لأتملاه بدوري. وقد بدا لي كونسولو، على العكس، مختلفاً كثيراً عن عهدي به. لا من حيث أنّه شاخ كما هو محتوم، بل بصورة أكثر جذرية بكثير. لقد بقي وجهه أشبه بوجه القرصان في كتب المغامرات للأطفال، لكن هذا الرأس المتطاول بشاربيه المتهدلين، وأنفه المعقوف كأنف النسر، وحاجبيه الكثين، الذي كان قبل عشرة أعوام يضفي عليه سيماء حية وإن مبتذلة، قد أخذ الآن مظهراً خفيفاً فارغاً ومصطنعاً وكأنّه قناع. إنّ العينين بوجه خاص هما اللتان تبدّلتا ففي الماضي كانت نظرة كونسولو نضرة، مرحة، ساذجة، مجنونة بعض الشيء، أشبه بنظرة

كلب أمين أمّا الآن فإنّ العينين تبدوان، تحت الحاجبين الكثين المقطبين، شاخصتين، زجاجيتين، كعيون الطيور المحنطة. وفيما أنا أنظر إليه طفحت صداقتنا القديمة من قلبي فجأة، فقلت بوداعة:

- روزاريو، كيف حالك؟

يبدو أنّ بعضاً من انفعالي انتقل إليه، لأنّه نظر إليّ بدوره، وهمّ بالكلام، ثمّ عدل، ومرّر يده على شاربيه، ورنا إليّ من جديد بصمت. وسعل قليلاً وقال بجهد:

- اعذرني... لحظة من العاطفية. إنّ كلّ الأشياء التي فعلناها معاً، كلّ الآمال المشتركة التي داعبتنا، قد عادت إلى ذاكرتي، وتركت الانفعال يسيطر عليّ... حالي بخير. أتعلم، لقد فكّرت بك مراراً عدّة، طوال كلّ هذه السنين!

- بمَ كنت تفكّر؟

- قبل دخولك إلى الجريدة، أعترف لك بأنّني، في كلّ مرّة كنت أفكّر بك، لم أكن أستطيع منع نفسي من الإحساس ببعض الانزعاج. وربّي هذا لأنّك كنت... كيف أقول... قدوة بالنسبة إليّ. ثمّ ابتعدت عنك، وذهبت إلى ميلانو لأعمل في المجلة، ولم أكن واثقاً من أنّني اتّخذت قراراً صحيحاً أتعلم بمَ كنت أفكّر؟

- قل!...

- كنت أقول في نفسي: إنّ فرانشيسكو رجل جاد يؤمن بما يفعله ولا يفعل شيئاً بدافع المصلحة أبداً، وعلى العكس منك، لا أؤمن أنا بشيء، وأتصرّف دوماً بدافع المصلحة... إنّني رجل متقلب...

- لكن بعد عام، عندما صرت أعمل بدوري في المجلة، فكّرت في نفسك بلا شك بأنّ المتقلب إنّما هو أنا.

- كلا، إنّما فكّرت على العكس بأنّه يمكن لي إلى حد ما أن أعتبر نفسي رجلاً جاداً.

ـ لماذا؟

ـ لأنّني (كما قلت لك) كنت أعلم أنّك لا تفعل شيئاً بدافع المصلحة، وأنّك إذا كنت بالتالي قد فعلت شيئاً كهذا، فهذا معناه أنّ لديك أسبابك الموجبة. وبالفعل...

ـ وبالفعل؟

ـ وبالفعل، كانت لك أسبابك الموجبة. إنّ أحداث المجر قد أثبتت أنّك كنت سديد النظر.

لم أجرؤ على مصارحته بأنّ أحداث المجر لم تلعب أي دور في انتقالي من الصحيفة اليسارية الصغيرة إلى الجريدة المحافظة الكبيرة، ذلك الانتقال الذي لم يكن له من دافع غير رغبتي الآسرة في السفر. وتابع كونسولو:

ـ كان بودّي، أيام الاضطرابات في المجر، أن أكتب لك، أن أراك، أن أكلمك، لكنّك تعلم كيف تسير الأمور: لقد افتقرت إلى الشجاعة والوقت والمناسبة. وقد أرجأت الأمر إلى ما بعد ثمّ لم أفعل شيئاً بالمرّة. وعلى كلّ، كان طريقانا قد افترقا: فأنت تسافر لحساب الجريدة، وأنا مقيم في ميلانو على رأس المجلة. وما كان ليخطر ببالي قط أنّنا سنلتقي ثانية ضمن هيئة تحرير صحيفة يومية واحدة.

ـ وعلاوة على ذلك، أنت كرئيس تحرير، وأنا كمحرّر بسيط. اسمح لي بأن أهنئك. لقد كان عليّ أن افعل ذلك قبل الآن.

فرسم حركة تريد أن تقول «دعك...»، لكن خيّل إليّ أنّني لمحت على أساريره وميض زهو بالنفس لا يقاوم مشوباً بتبكيت الضمير، ثم قال من غير أن أسأله:

ـ لعلك علمت أنّني، أنا أيضاً، قد تزوجت. إنّ زوجتي لن تتأخر في المجيء. إنّها عظيمة الرغبة في التعرّف إليك: لقد حدثتها عنك.

ـ ألك أولاد؟

ـ أبن واحد.

وأمسك عن الكلام ثمّ تابع بعد لحظة بلهجة متبجحة لكن كئيبة:

ـ ينبغي أن أقول إنّني، من زاوية الوضع المادي، لا أشكو من شيء. فلي في المدينة شقة كبيرة، لا بأس بها، في بناية فاخرة في حي أرستقراطي في ميلانو، ولديّ فيلا على شاطئ البحر، فيَ ليريشي، وسيارتان، واحدة لي وواحدة لزوجتي. ولدينا طاهية، ووصيفة، ومربية للطفل... وهذا كلّه على نحو نظامي.

ـ إنّني سعيد لك.

ـ سعيد بأنّني نظامي؟

ـ كلا، سعيد لأنّ ما تسمّيه بوضعك المادي جيّد جدّاً.

ـ آه! حسبت أنّه سرّك أن أكون في وضع نظامي.

وفجأة شرع يضحك مهتزاً وكأنّه ينتحب. وحدقت فيه، ورحت بدوري أضحك وكأنّ العدوى انتقلت منه إليّ. ثمّ على حين غرّة، وكما تتوقّف نافورة الماء عندما يغلق الصنبور، كف كونسولو عن الضحك على نفس النحو الميكانيكي المفاجئ، وعدت أنا إلى حدّيتي. وقال كونسولو:

ـ حسناً... هذا يكفي. إنّ الصديق يخلي الآن الساح لرئيس التحرير. قبل كلّ شيء، يا فرانشيسكو، يجب أن أقول لك شيئاً.

ـ ما هو؟

ـ إنّك في الوقت الراهن من خيرة الصحافيين العاملين هنا.

ـ شكراً.

ـ لا تشكرني ليس هذا بمديح، وإنّما الحقيقة. أنا أفهم في الصحافة، ولهذا أكرّر: أنت اليوم من خيرة الصحافيين العاملين هنا.

وبعد لحظة صمت تابع كلامه وهو يحدق فيّ بعينيه اللامعتين الزجاجيتين الشبيهتين بعيني طير محنط:

- بودّي فعلاً لو أعرف كيف تفعل لتكتب بهذه الطريقة.
- أي طريقة؟
- بطريقة حديثة تماماً.

وأدركت أنّ كونسولو يتملقني كما كان يفعل بالأصل قبل ستة أعوام. ولكنّه كان يفعل ذلك في الماضي بتجرّد، في حين أنّه ليس من المستبعد اليوم أن يلجأ إلى مثل هذا النوع من التملّق المميز لعلاقات العمل التي يتملّق فيها المرؤوس رئيسه ليفوز بالتقدّم وزيادة الراتب، ويتملّق الرئيس مرؤوسيه ليحثّهم على زيادة مردودهم. وعلى هذا فقد قلت بجفاء:

- ماذا تقصد بـ: حديثة؟

فلم يجب كونسولو حالاً. إنّما تناول بيده الضخمة الكثة الشعر المزينة أصبعها الوسطى بخاتم ذهبي كبير ثقيل سيجارة من العلبة الموضوعة على الطاولة وأدخلها في مشربه العاجي الطويل وأشعلها بلهبة ولاعة ضخمة لها شكل وحجم جهاز الترانزستور. ولاحظت أنّ حركاته متكلفة مقلدة، وفجأة فهمت: لم يكن كونسولو رئيس تحرير جريدتي، وإنّما يتظاهر بأنّه كذلك، أي يمثّل هذا الدور. لكن ما هو في هذه الحال؟ إنّ نظرة إلى عينيه الشاخصتين والزجاجيتين أوحت لي بفكرة غريبة، لكن صحيحة على الأرجح: إنّ كونسولو ليس سوى هذا السراب، غير توهّمه بأنّه رئيس تحرير، وخارج هذا الوهم، ليس لكونسولو وجود، ليس له كنه، أي أنّه يجد مبرّر وجوده في اللاكينونة مع تظاهره بأنّه كائن.

بيد أنّ كونسولو بعد أن استنشق نفساً من الدخان ثمّ نفثه جزئياً

من فمه وجزئياً من منخريه المدببين المتشنجين الشبيهين بمنخري قرصان، قال لي في النهاية:

- أتعلم يا فرانشيسكو، ثمّة رجال يتحدّون، بصورة عارضة وأحياناً متهربة، بعصرهم ويصبحون راهنين، إن جاز التعبير. وأنت واحد من هؤلاء الرجال في عالم الصحابة. قد يتجاوزك أحدهم غداً ولا يعود الناس يتكلمون عنك، لكنّك تكون، أثناء ذلك، قد وجدت الصيغة.

- أي صيغة؟

- صيغة المقال الحديث.

سمعت من خلفي صوت الباب يفتح. ورفع كونسولو عينيه قائلاً: «آه! هي ذي جيويا». فاستدرت ووقفت وأجرى كونسولو التعارف بحفاوة مليئة بالمغزى وكأنّه يريد أن يقول: «هوذا فرانشيسكو ميرّيغي الذي طالما حدثتك عنه، والذي كنت بأشد الرغبة في التعرّف إليه، والذي كان يرغب هو أيضاً في التعرّف إليك، هذا هو».

نظرت إلى جيويا وأنا أشد على يدها: إنّ البون الشاسع بين رحابة وجهها العريض جدّاً وبين نعومة تقاسيمها الدقيقة ذكرني ببعض الصور البدائية التي تصوّر العذراء منتفخة الخدين وكأنّها مصابة بورم في أسنانها وناعمة التقاطيع في آن واحد. كان كلّ شيء في هذا الوجه العريض صغيراً، الأنف، الفم، الذقن، بل وحتّى العينان كانتا أشبه بشقّين ترنو إليّ من خلالهما الحدقتان الصافيتان، الخضراوان من الجائز، بفضول عنيد. كانت جيويا صهباء الشعر بلون شجرة البلاذر. وكانت تصفّف شعرها عالياً ومجعداً كما تريد الموضة، على شكل تاج، وهذا ما كان يوسع ويطيل بيضوية وجهها الشاحب الملطخ بالكلف والمختل التناسب أصلاً. وكانت كتفاها ضيقتين، وصدرها مسطلحاً تقريباً، وردفاها وساقاها ثقيلة مليئة. وكانت تصلب ساقيها،

والتنورة مسحوبة إلى ما فوق ركبتيها، في فوضى قد تكون مقصودة تكشف عن برقشة قميصها الداخلي الأبيض المرغية وحاشية الجراب الكتيمة، ورباط المخدم، وعن جزء من فخذها العارية. وتناول زوجها يدها ورفعها إلى شفتيه ثمّ وضعها على الطاولة محتفظاً بها في يده. وسألها:

ـ كيف حالك؟ أحسنة؟

ـ حسنة تماماً.

وارتفعت اليدان من جديد إلى شفتي كونسولو، ثمّ حطتا على الطاولة مرّة أخرى وهما متعانقتان. وحدجت جيويا زوجها بنظرة جانبية وابتسمت له: فبانت أسنانها الصغيرة المشدودة إلى بعضها بعضاً. وحفرت ابتسامتها في وجنيتها نقرتين عميقتين خبيثتين زادتا من عرض وجهها. وفيما أنا أنظر إلى جيويا وزوجها بينما هو يقبل يدها وهي تبتسم لي، خالجني من جديد، كما منذ قليل عندما أشعل كونسولو سيجارته، إحساس غريب بوهم يشكل بالنسبة إلى جيويا وكونسولو الواقع الوحيد الذي يملكانه. إنّ جيويا وكونسولو ليسا خليلاً وخليلة، وإنّما يتظاهران بأنّهما كذلك. وعلى هذا ليس هما ما هما، أو بالأحرى إنّهما نتيجة تظاهرهما بما ليسا عليه.

واستأنف كونسولو كلامه وهو ما زال يشدّ على يد زوجته في يده:

ـ تسألني ما هي صيغة المقال الحديث. وسأجيبك بصورة: أنت تعرف الأدراج الدوارة في المخزن الكبرى، والناس الذين يصعدون وينزلون وهم واقفون بلا حراك عليها؟ حسناً لقد خلقت أنت ما سأسميه المقال الصحافي العصري.

لم أتفوّه بشيء، إذ في هذه اللحظة بالضبط تلقى افتراضي عن وهمية العلاقات بين جيويا وكونسولو توكيداً غير منتظر. فقد كانت

جيويا، كما ذكرت، جالسة بين كونسولو وبيني على الحافة الأضيق من المكتب. وفيما كان كونسولو يتكلم، لاحظت أن جيويا، بعد أن حدقت فيّ بإلحاح وكأنّها تدرسني دراسة دقيقة مفصلة، قد أطرقت عينيها، وتركت جفنيها مسبلين وقد بدا عليها أنّها تنظر إلى شيء ما بمحاذاة قدمي. فنظرت بدوري ورأيت قدم جيويا المحتذية تاسومة مدببة تتحرّك باتجاه ساقي اليسرى التي كنت قد صلبتها على اليمنى. لكنّها كانت تتحرّك ببطء شديد حتّى إنّه ما كان يبدو عليها أنّها تتحرّك، واضطررت إلى تركيز انتباهي حتّى أقنع نفسي بأنّها تتحرّك فعلاً. ومع ذلك، وفي اللحظة التي خيّل إليّ فيها أنّني ما عدت أستطيع أن أشك في مناورة قدم جيويا، رفعت عيني بتردّد نحو كونسولو لأفهمه أنّني مصغٍ إليه. وقلت بلهجة غير ودية بعض الشيء:

ـ مقال دوار، لا أفهم ماذا تعني بذلك؟

ـ دوار، مماثل للأدراج الدوارة. هدف الأدراج الدوارة، شأن كلّ آلة أخرى بالأصل؟ توفير الوقت والتعب. ومقالاتك توفّر على القرّاء الوقت والتعب. إنّهم يقفزون إلى السطر الأوّل، ثمّ، ومن غير أن يبذلوا أدنى جهد، بل من غير انتباه، تقريباً، يجدون أنفسهم كما لو بسحر ساحر عند السطر الأخير. إنّهم لم يتحركوا، إنّما المقال هو الذي سار بدلاً منهم. بل إنّهم لم يقرأوا المقال، إنّما المقال هو الذي انقرأ أو بالأحرى قرأ نفسه بنفسه، وبكلمة واحدة، دار على نفسه.

وقلت بإبهام:

ـ رأي مثير للاهتمام، لكن غير دقيق على الأرجح.

ثمّ خفضت عيني: كانت قدم جيويا تبدو الآن ساكنة مثل بعض الحشرات التي تتنقل ببطء شديد والتي لا يمكن قياس تقدّمها إلّا

بالساعات، لكنّني تأكّدت بمقارنة وضعها الحالي مع وضعها السابق من أنّها تحرّكت. وتابع كونسولو:

ـ إنّ عالمنا يتهيأ لأن يصبح أكثر فأكثر عالم آلات، آلات للإلباس، آلات لأداء الخدمات المنزلية، آلات للجري، آلات للسرقة، آلات للملاحة. ومقالاتك، يا فرانشيسكو، حديثة لأنّها آلات صغيرة، آلات صغيرة مناسبة تماماً للقراءة.

شعرت بالحرج. فإطناب كونسولو لي أكد نقطة فنقطة الفكرة السلبية التي كوّنتها عن نفسي وعن مقالاتي الصحافية. لكن ما يزعجني وينفرني أنا ككاتب، أو على الأقل كطامح إلى أن أكون كاتباً، يبدو قيّماً لكونسولو، الصحافي المحترف. وقلت بشيء من المرارة:

ـ ليس ما تقوله مرضياً للكبرياء. فالمقال لا يجب أن يكون البتة ميكانيكياً.

ـ خطأ، يا فرانشيسكو، فكلّ شيء في مكانه وزمانه. إنّ ما يحتاج إليه عصرنا هي مقالات كمقالاتك. لقد فهمت على نحو يستحق الإعجاب أن القارئ اليوم لا يحرص على القراءة بقدر ما يحرص على إيهام نفسه بأنّه قد قرأ. ومقالاتك تعطيه هذا الوهم.

ـ لكن القراءة تعني، أو بالأحرى كانت تعني تفكيراً، فهماً.

ـ خطأ ثانٍ. القراءة تعني قراءة، أي إنجاز عملية القراءة المادية. وعملية القراءة ليس لها كبير دخل بالتفكير والتفهم.

لم أجب هذه المرّة، ونظرت إلى كونسولو في صمت. كنت أشعر بأنّ شيئاً ما قد علق بحاشية بنطالي وراح يشدّه إلى الأعلى وفهمت أنّه طرف حذاء جيويا المدبّب. كان كونسولو منهمكاً في الكلام، وقد استفدت من اللحظة التي مثّل فيها دوره المعتاد كمدير باختياره سيجارة وبإدخالها في المتسرب وبإشعالها، لأنظر إلى قدمي. فرأيت آنذاك أنّ رأس حذاء جيويا قد علق، كما توقعت، بحذاء بنطالي.

وراحت تشدّه إلى الأعلى كاشفة عن كعبي، ثمّ، بضربة عنيفة، عن الجزء الأسفل من ربلة ساقي. ونظرت إلى جيويا التي كان وجهها يبدو أكثر عرضاً وتسطيحاً بسبب جفنيها الطويلين المسدلين تحت حاجبيها الكثين اللذين على شكل زاوية حادّة. وكان في تعبير وجهها شيء ما تأمّلي، لكنّه تأمّل داخلي ذكّرني بوجه بوذا المستغرق كما تصوّره بعض التماثيل. وقال لي كونسولو بعد أن انتهى من تمثيلية سيجارته الإيمائية:

- أرى أنّك لا توافقني.
- إنّني أوافقك بشرط قلب حكمك.
- أي؟
- إنّني موافقك على أنّ مقالاتي آلات للقراءة، لكنّها كذلك لأنّها مقالات رديئة.
- خطأ، خطأ جديد. إنّ الأديب هو الذي تكلم الآن. ذلك أنّني أعرفك، يا فرانشيسكو، أعرف أنّك أو بالأحرى تريد أن تكون أديباً قبل كلّ شيء، وبعد ذلك صحافياً. لكن الأدب، اعذرني، قد أمسى شيئاً بالياً. إنّه من نتاج الصناعة اليدوية، شأن تلك المقالات الأدبية التي يكتبها معظم زملائك بالأصل. والحال أنّنا نعيش في عصر صناعي بكلّ ما في الكلمة من معنى، ومقالاتك، حمداً لله، نتائج صناعي حقيقي ممتاز.

ومن جديد أطرقت عيني. كانت قدم جيويا قد عادت ساكنة، لكن متوترة متحفزة لشدّ حاشية بنطالي بسكون وتوتر الحشرة التي بعد أن تقفز وتمسك بفريستها تمكث هنيهة من الزمن بلا حراك قبل أن تلتهمها. ونظرت إلى جيويا، وللحظة من الزمن التقت أنظارنا، أو، إن جاز التعبير، اندمجت كما تندمج أشعة عاكسي نور عندما يلتقيان، وانتابني إحساس غريب فج بأنّ المدى كلّه قد تلوّن، لثانية من الزمن،

بلون حدقتيها الأخضر وبأنّ عيني تضيعان في نور مرنق كنور حوض السمك. ثمّ ابتعدت نظرة جيويا عن نظرتي، وشعرت في الوقت نفسه بانفراج توتّر بنطالي حول ربلة ساقي، ثمّ بسقوط الحاشية على كعبي. ونهضت جيويا: «روزاريو، إنّني ذاهبة، لديّ عمل. سنلتقي في الفندق».

وتعانق الزوج والزوجة على مرأى منّي ولاحظت من جديد تباهيهما المصطنع الخارجي بموقفهما. لكنّني شعرت في الوقت نفسه بأنّ العناق كان سيحدث حتّى لو لم أكن حاضراً وعلى نفس النحو المصطنع والخارجي. وما كانت زوجة كونسولو تختفي حتّى استدار نحوي:

- لنعد إلى عملنا، أتعرف لمَ امتدحت لك مقالاتك؟ أوّلاً لأنّني أحبّها صدقاً، وثانياً وعلى الأخص لأنّني قرّرت، بالاتفاق مع مديرنا، إرسالك في رحلة طويلة لإجراء تحقيق في الخارج جدير بك.

- أين؟

- في الولايات المتحدة.

لقد لفظ هذا الاسم بكرم وأبوية رئيس يبشّر مرؤوسه بترفيعه. وقد أحسست بأنّه من واجبي أن أظهر عرفاني بالجميل فقلت:

- هذه المهمة ترضي غروري. لكنّني متخصّص، كما تعلم، في قضايا البلدان المتخلفة.

- على رسلك! ستبدّل. ستكرس آلاتك القارئة الصغيرة لبلد آلات الحياة.

وضحك ضحكة صغيرة، مسروراً بما قاله، ثمّ تابع:

- هذه المرّة سيكون غيابك أطول من المعتاد: سنة.

وحتّى قبل أن أفكّر انتفض فيّ شيء ما:

ـ سنة، لا، هذا مستحيل عليّ.

ـ لماذا؟

فكّرت بالأسباب التي جعلتني أنتفض على هذا النحو. وفهمت، بدون أدنى شك، أنّ هذه الانتفاضة سببها النفور العميق البالغ العارم الذي أيقظته فيّ فكرة البقاء مثل هذه المدّة الطويلة بعيداً عن بابا. وقلت في نفسي إنّني لن أستطيع أن أتحمّل قضاء عام كامل من غير أن أراها وإنّني سأقترح على كونسولو القيام بسفرة لمدّة ستة أشهر، لكنّني سرعان ما عدلت المدّة في ذهني: ثلاثة أشهر ستكون كافية. وقلت في النهاية: اسمع، لديّ أسباب جدية تحول دون ابتعادي أكثر من... لنقل شهراً ونصف شهر.

ـ ما أسبابك؟

فتردّدت: ماذا ينبغي أن أقول له؟ إنّني واقع في غرام ابنتي؟ وأجبت:

ـ لعلك تذكر أنّني كنت أطمح فيما مضى من الزمن إلى كتابة رواية. وهذا الطموح ما يزال يراودني. لقد... لقد جمعت مستندات غزيرة وأعتقد أنّ عليّ، في أقرب فرصة ممكنة، أن أقيم مدّة طويلة في روما لأكتب هذه الرواية.

ـ رواية؟ أي رواية؟

ـ قصة رجل يقرّر فجأة أن يكون منتبهاً.

ـ منتبهاً لماذا؟

ـ لكلّ ما يحدث أمام ناظريه.

ـ وماذا يحدث؟

ـ أواه! أشياء كثيرة!

ـ هي؟

ـ زوجته، مثلاً، قوادة.

ـ وهو لا يعرف ذلك؟

ـ كلا.

ـ أيعيش معها؟

ـ يعيش معها ويجهل أنّها قوادة؟ مستحيل.

ـ لمَ مستحيل؟

ـ لأنّ بعض الأشياء المعينة ترى، بل تشم...

ـ لكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ إنّ أزواجاً كثيرين، على سبيل المثال، لا يرون ولا يشمون أنّ زوجاتهم تخونهم.

ـ ليس الأمر متماثلاً. فمهنة القوادة شكل من النشاط أبرز وأكثر ظهوراً من الخيانة الزوجية. وفي الحال، كيف يتوصّل هذا الرجل إلى اكتشاف مهنة زوجته؟

ـ إنّه يكتشف ذلك لأنّه يقرّر فجأة، كما قلت لك لتوّي، أن يكون منتبهاً.

ـ وماذا يفعل عند ذاك؟

ـ لا شيء.

ـ أي؟

ـ لا شيء، يكتفي بأن ينظر.

ـ وإلامَ ينظر؟

ـ إلى الأشياء التي يراها.

ـ لكن النظر لا يكفي.

ـ لمَ لا يكفي؟

ـ لأنّ بطل الرواية لا بد أن يتصرّف ويعمل.

ـ إنّ بطل روايتي لا يريد أن يعمل.

ـ ولمَ لا يريد أن يعمل؟

ـ لأنّه لا يجد من داعٍ للعمل، في حين أنّ دواعيه للنظر كثيرة.

ـ وما هذه الدواعي؟

ـ دواعٍ قيّمة.

ـ وما سيكون اسم هذه الرواية؟

ـ «الانتباه».

ـ الانتباه... لماذا؟

ـ لقد لبث البطل حقبة طويلة من الزمن غير منتبه. وفجأة يصبح منتبهاً. ومن هنا كان العنوان: الانتباه.

ـ الانتباه! ليس هذا بالعنوان السيء! لكن أتعرف ما رأي أنا، يا فرانشيسكو؟

ـ ما رأيك؟

ـ إنّ هذا كلّه كان سيكون مثيراً للاهتمام قبل عشرين عاماً. ففي ذلك الوقت كانت تكتب روايات كروايتك.

ـ ماذا تقصد بهذا؟

ـ أقصد روايات تطرح مشكلات اجتماعية، أخلاقية، بسيكولوجية. أمّا الرجل الذي يعيش ورأسه في الغيوم، والمرأة التي تعمل أثناء ذلك كقوادة، واكتشافه من ثمّ الفضيحة، فهذا كلّه هذر.

ـ لمَ هذر؟

ـ لأنّ هناك اليوم مشاكل أخرى، وعلى الأخص لأنّه لم تعد هناك من ضرورة لكتابة روايات، حتّى من زاوية نقد التقاليد والأعراف. عندما تمارس امرأة ما مهنة كتلك التي تتكلم عنها، ينحل كلّ شيء بدون رواية: عن طريق مداهمة الشرطة، وإغلاق الماخور، والبطاقة الصفراء للمومسات، وببضع سنوات من السجن للقوادة. إنّ هذه الأشياء تحدث يومياً.

ـ بالفعل، إنّها أشياء تحدث يومياً.
ـ أمّا من حيث الإعلام فما حاجة الجمهور إلى روايات؟ إنّه يريد تحقيقاً صحافياً مكتوباً ببراعة، دونما زخرفة أدبية، دونما زركشة، مع إحصائيات وأماكن وأسماء ووقائع إلخ...
ـ لكنّني لا أنوي كتابة رواية عن قوادة.
ـ عمَّ إذن تريد أن تكتب؟
ـ أريد أن أكتب رواية عن الانتباه.

كان كونسولو قد تلهى بقصة روايتي كما يتلهى الطفل بلعبة جديدة. فجأة أصبح أكثر جداً:

ـ الاعتراض الوحيد الذي ما زلت أريد أن أبديه يتعلق بعنوانك.
ـ وماذا عنه؟
ـ إنّ عنوانك، أي الموضوع الذي يشير إليه هذا العنوان، «الانتباه»، لا يبدو لي البتة حجة ذات طابع راهن. لو كنت مكانك، أتعلم عمّا كنت سأتكلم؟ عن اللاانتباه.
ـ اشرح فكرتك.
ـ أقصد قصة رجل لا يتوصّل، بالرغم من جهوده كافة، إلى أن يكون منتبهاً.

ونظر إليّ وتحت شاربيه المتهدلين نصف ابتسامة. وقلت بصورة شبه لاإرادية:

ـ أهي قصتك؟
ـ إنّها قصة الناس جميعاً. ماذا تظن؟ ليس هناك اليوم شخص واحد يعي ما يفعله.
ـ عفواً، هل تريد أن تقول إنّه يستحيل اليوم على الإنسان أن يكون منتبهاً، أن يشحذ انتباهه؟
ـ نعم، هذا ما أردت قوله. وعلى هذا عندما تقول لي إنّ بطلك

يتوصل إلى أن يكون منتبهاً، فإنّني أحذرك: صحيح أنّ المسألة مسألة رواية، عمل خيالي، لكلّ مثل هذه الأشياء لا تحدث في الحياة.

- ما الذي يحدث في الحياة؟

- ليس في حياتي فحسب، بل أيضاً في حياة الكثيرين من الناس الذين أعرفهم، يحدث فقط ألا يتوصّل المرء إلى أن يكون منتبهاً حتّى ولو أراد ذلك. إنّ كلّ شيء يفلت منه، بهذه الصورة أو تلك.

- تريد أن تقول إنّ كلّ شيء يفلت منك.

- كلّ شيء يفلت من كلّ الناس، يا فرانشيسكو. أتعرف بمَ أحسّ أحياناً؟

- قل...

- يصعب عليّ التعبير عن ذلك. يخيّل إليّ أنّني خارج الزمان، خارج المكان، قبل ألف عام أو بعد ألف عام، لا في ميلانو ولا في روما، لكن لست أدري أين. أحياناً تسألني جيويا، وهي تعرفني، لتمتحنني. «ماذا فعلت عصر اليوم؟». وأكون قد أمضيت العصر معها، لكنّي لا أتوصّل إلى تذكّر ذلك، لأنّني حين كنت معها لم أكن منتبهاً، كما تقول، وإنّما لا متنبه. إذن، إنّني أكرّر: سيكون من المفضل بالطبع، لصالح الجريدة، ألا تكتب تلك الرواية، لكن إذا كنت تعتقد نفسك ملزماً بكتابتها، فليكن عنوانها في هذه الحال «اللاانتباه» وليس «الانتباه».

كان يمزح، لكنّني فهمت أنّ هذه طريقة للجم الانفعال الذي يخالج الشخص الذي يتكلم عن الداء الذي يشكو منه. وأضاف بسرعة:

- بالطبع، إنّ هذا كلّه لا يمنعني البتة من العمل ومن أداء واجبي. إنّني أعمل، وكيف! والآن، وبعد، هذا الحديث المعترض

الأدبي، لنعد إلى ضالتنا. إذن، تقول لي إنّك لا تستطيع أن تقضي أكثر من شهر ونصف شهر في الولايات المتحدة. فلنقل ثلاثة أشهر ولا نعد إلى الحديث في الموضوع. اتفقنا؟

ـ متى يجب أن أرحل؟

ـ في أقرب وقت.

ونهضت:

ـ اتفقنا: في أقرب وقت.

ونهض كونسولو بدوره. وبعد أن كان قد تردّد أثناء زيارتي بين موقف رئيس التحرير وموقف الصديق، اختار الموقف الأخير لحظة انصرافي، وفيما كان يرافقني إلى الباب مرّر ذراعه بودّ حول كتفي:

ـ أبلغني بأسرع ما يمكن بموعد سفرك. إنّني راجع إلى ميلانو غداً. اتصل بي هاتفياً إلى هناك. يا عزيزي فرانشيسكو، أتعلم، لقد سررت حقاً بلقياك!

ـ أنا أيضاً.

وتعانقنا، وربت كونسولو على كتفي، ثمّ خرجت وأغلق الباب. لكنّه سرعان ما أعاد فتحه، وصاح بي من العتبة:

ـ دعك من روايتك عن تلك المرأة القيمة على الماخور. وتذكر ما قلت لك: لقد مات الأدب، وولدت الصناعة. شياو، يا صاحِ.

غادرت الدار بعجلة، فقد تقت إلى لقيا بابا. لكنّني عندما وصلت إلى حيث سيّارتي تبيّنت أنّ بابا ليست هناك. ومكثت برهة من الزمن ساكناً بلا حراك، قرب السيّارة، محتاراً. ثمّ فكّرت بأنّه من الممكن أن تكون بابا قد ابتعدت وبأنّه من الأنسب أن أنظر قليلاً. وجلست في سيّارتي وتناولت صحيفة كانت موجودة في داخلها وفتحتها. وفي هذه اللحظة سمعت الباب يفتح، وجلس أحدهم بجانبي وسألت من غير أن أدير رأسي:

ـ أين ذهبت؟

كان الصوت الذي أجابني مختلفاً كلّ الاختلاف عن صوت بابا: صوتاً حادّاً، غير متساوٍ، جازعاً، في حين أن ابنة زوجتي تتكلّم بلهجة خافتة هادئة وقور:

ـ كنت مختبئة في المدخل. وقد مررت من غير أن تلحظني. فلنرحل بسرعة، أتريد؟

أدرت رأسي ورأيت بالطبع (كيف أمكنني ألا أتوقع ذلك مع كلّ إحساسي بحتمية الأشياء؟) إلى جانبي جيويا وليس بابا. ومن غير أن أبدي تفاجؤاً سألت:

ـ إلى أين تريدين الذهاب؟

ـ أقلع أوّلاً، ثمّ نقرّر.

كانت تبدو، هي المستبدّة الطباع الساخطة، فريسة استعجال محموم كشخص وضع نصب عينيه هدفاً واضحاً محدداً وثارت أعصابه لأنّه يضيع وقته في البحث عن وسائل إدراكه. لم أقل شيئاً، وإنّما ناورت لأخرج من المكان الذي صففت فيه السيّارة وصعدت باتجاه شارع فينيتو وجريت بأسرع ما أمكنني على طول كورسو إياليا.

ـ أين تريدين الذهاب؟

ـ حيث تشاء. إنّني أفضّل أن يكون عندك. أليس لديك عنوان فندق أو غرفة مفروشة؟ حتّى في الريف، إذا شئت. المهم أن نرجع بعد ساعتين كحد أقصى.

ـ بعد ساعتين؟

ـ أجل.

ـ وماذا سنفعل خلال هاتين الساعتين؟

ـ كيف، ماذا سنفعل؟ هيّا، أسرع، انعطف من هنا نحو شارع سالاريا.

ـ أتعرفين روما؟

ـ بديهي، إنّني رومانية.

ـ رومانية؟

ـ أجل.

ـ أيقطن أهلك في روما؟

ـ أجل. إنّ أبي أستاذ في جامعة الحقوق. ولي شقيقان، واحد طالب، والآخر مهندس، ولي جدّة، وعدد من الخالات وأبناء العم. ماذا تريد أن تعرف غير ذلك؟

ـ لمَ فراغ الصبر هذا؟

ـ ما حاجتك إلى كلّ هذه المعلومات حتّى تفعل ما سنفعله؟ هيّا بنا بأسرع ما يمكن إلى حيث يجب أن نذهب، وأرجوك، دعنا من الكلام أثناء الطريق.

ـ وما الداعي لأن نمتنع عن الكلام؟

ـ هل من ضرورة له؟ لا حاجة للكلام؟

ـ لا حاجة له؟

ـ أجل، إنّ كلّ شيء يكون أفضل إذا لم نتكلم عنه.

كان الاضطراب البادي عليها، وهي جالسة جانبياً، يتعاظم، وكانت تتكلم بعصبية وبعبارات مقطوعة. وكانت السيّارة تجري بنا على طول شارع سالاريا. وفجأة أحسست بيدها وقد حطّت على ساقي، وأطرقت عيني بقدر ما تسمح لي القيادة. وفيما كانت جيويا تتابع النظر قدامها عبر بلور السيّارة، مدّت يدها الطويلة، العصبية، الدقيقة، الخفيفة. ثمّ مررت أصابعها بحذاقة دقيقة وغير واثقة معاً، مثل الأعمى الذي يرسم في الظلام حركات مستوثقة من نفسها ويعيشها بكلّ حرارتها عن طريق اللمس، على طول عرى بنطالي،

وفكّت الأزرار الواحد تلو الآخر، ببطء، بنعومة، وكأنّها تتذوق هذا البطء وهذه النعومة. وقلت:

ـ انتظري. إنّني لا أعرف أي فندق ولا أي غرفة تستأجر بالساعة.

ـ إذن، هيّا بنا إلى الريف، تابع في هذا الطريق إلى أن أطلب إليك الانعطاف.

ـ لكن أنت، أين تقيمين في روما؟

ـ أفٍ! ما أكثر أسئلتك! إنّني أقيم في الفندق، أين تريدنيَ أن أقيم؟ أنت لا تريد على كلّ حال أن تذهب إلى فندقي؟

فلم أحر جواباً. وعادت يد جيويا إلى مكانها بالقرب من يدها الأخرى على ركبتيها. وفي النهاية قالت:

ـ ألا تريد؟

ـ كلا.

ـ لا تريد لأنّك صديق روزاريو؟

ـ كلا.

ـ أتحب امرأة أخرى؟

ـ كلا أيضاً.

ـ إذن، ألا أعجبك؟

ـ ليس هذا السبب.

ـ ما السبب إذن؟

ـ إنّني لا أشعر بالحاجة إلى ذلك.

فلزمت الصمت برهة من الزمن. ثمّ قالت بلا جفاء وكأنّها تلاحظ ملاحظة وهي مندهشة:

ـ إذن، كثيراً ما يحدث لك أن تفعلي ما تفعلينه الآن؟

ـ أجل.

ـ متى؟

ـ في كلّ مرّة أشتهي فيها ذلك.

فترددت ثمّ قالت بلهجة حردة وكأنّها تخاطب نفسها:

ـ أفترض الآن أنّه لم يبق أمامنا غير الكلام. إذن فلنتكلم. حسناً! أجل، إنّني أشتهي ذلك كثيراً.

ـ في أي مناسبات؟

ـ مناسبات كمناسبة اليوم.

ـ فصلي في كلامك.

ـ أبدأ بالتفكير بأنّني أحب لو أتكلم، لو أعرف الناس ويعرفوني. ثمّ، في اللحظة التالية، وطالما أنّ الأمر ينتهي دوماً على هذا النحو، أختصر.

ـ تختصرين؟

ـ أجل، إنّ الأمر لأقوى منّي. إنّني أشعر بأنّني سأفعل ذلك الشيء، ولما كنت قليلة الصبر فإنّني أفضّل ألا أنتظر. هذا منطقي، أليس كذلك؟

ـ بلى، هذا منطقي.

ـ لِمَ لا يبدو لك ذلك منطقياً؟

ـ على العكس، منطقي جدّاً، بل أكثر ممّا ينبغي. ثمّ؟

ـ ثمّ ماذا؟

ـ بعد أن. . . تختصري؟

ـ تنتهي المسألة. لا أعود أشعر بالحاجة إلى أن أتكلم، إلى أن أعرف الناس ويعرفوني. ينتهي كلّ شيء.

وساد الصمت بيننا لحظة من الزمن. وفجأة تابعت الكلام بقوّة:

ـ مهما يكن، فإنّني مسرورة بلقياك. كان روزاريو قد حدّثني عنك، وكنت تائقة إلى معرفتك، والآن تمّ ذلك.

فهززت برأسي علامة على الموافقة. وفكّرت بيني وبين نفسي: إنّ

كلّ شيء يجري حسب إيقاع محدّد مسبقاً وطقسي بنوع ما: أوّلاً الشهوة، ثمّ ما تسمّيه بالاختصار، ثمّ التأكد من الصلة الجنسية الوشيكة، ثمّ الرفض، وأخيراً العدول. وفكّرت ايضاً: أو ربّما اتخاذ قرار بإرجاء كلّ شيء إلى وقت أفضل. وبالفعل أضافت:

- سيكون لنا عمّا قريب شقة في روما، عدني على الأقل بأنّك ستأتي للقائي فيها.
- حتّى نفعل ماذا؟
- حتّى نفعل ذلك الشيء عندما نشعر بالحاجة إليه، كما قلت لتوّك.
- لا أعتقد بأنّني سأشعر بالحاجة إليه أبداً.
- أنت لا تستطيع أن تقول ذلك سلفاً.
- لكن أتستحيل معرفتك بطريقة أخرى؟
- جرّب إذا شئت، لكنّي مقتنعة من ناحيتي أنا بأنّه لا وجود لشيء آخر يعرف.
- لماذا؟
- ليس هناك لماذا، إنّما الأمر هكذا!
- ماذا تعنين؟
- إنّني أعرف حسن المعرفة أنّني لست سوى ذلك الشيء، وفيما عداه لست شيئاً.
- لست شيئاً؟
- لست شيئاً. بالتأكيد، إنّني زوجة صالحة، أم ممتازة، ربّة بيت محنكة، صديقة عطوف. وأتكلم لغتين، ولديّ دبلوم في التمريض، لكن هذا كلّه ليس بشيء، في نظري على الأقل.
- إنّني أفهم.
- لم تضفِ شيئاً هذه المرّة. وقدت بصمت عائداً نحو ساحة فيوم. وعندما وصلنا انتزعت نفسها من سباتها وقالت لي.
- قف سأنزل هنا.

وما كدت أقف حتّى نزلت بسرعة، وحيّتني بابتسامة أظهرت، للحظة من الزمن، نقرتيها في خديها الواسعين الشاحبين. ونظرت إلى ساعتي. لم تكن العملية كلّها قد استغرقت أكثر من نصف ساعة.

الجمعة ٤ كانون الأوّل

الدرج الدوار، لا أقصد تشبيه كونسولو التمثيلي بصدد مقالاتي، وإنّما الدرج الحقيقي لمخزن كبير، نقلنا اليوم، أنا وبابا، من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى، من طابق إلى آخر لشراء حاجيات منزلية عديدة لمنزل سانتورو الذي ما يزال فارغاً. فصاحبنا الطالب لا يملك الوقت للاهتمام بهذه الأشياء. وقد تكلفت بابا بفرش الشقة، مصطحبة إياي، الشيء الذي لم يكن سوى ذريعة جديدة من ذرائع مخططها عن علاقاتنا كأب وابنة.

وصعدنا إلى السيّارة وأذرعنا موسوقة بالعلب والصرر. وسألتني بابا:

- أيزعجك أن ترافقني إلى شقة سانتورو؟ ستستطيع، بهذا الشكل، أن تراها.

- إنّني لا أحرص على ذلك البتة.

- على كلّ الأحوال، يجب أن أذهب إليها لأضع فيها كلّ هذه الأشياء. ألديك وقت لأخذي إليها؟

- بالنسبة إلى هذا، أجل.

وهكذا انطلقنا من ساحة فيوم لنذهب إلى ساحة بولونيا التي على بُعد خطوتين من منزل سانتورو. ولم أفتح فمي طوال الرحلة. كنت أشعر بالتعب والنرفزة من كثرة ما ذهبنا وأتينا داخل المخزن. وكنّا قد وصلنا إلى شارع نومنتانا عندما سألتني بابا فجأة:

- ما مآخذك على سانتورو؟

فأجبت بجفاء:

ـ لا مآخذ لي.

ـ ... لكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ لكأنّك لا تستلطفه.

ـ هذا غير صحيح.

ـ على كلّ، ستكون على حق.

ـ لمَ سأكون على حق؟

ـ إنّ أباً يحبّ ابنته لا يستطيع، في صميمه، أن يرحب بزواجها ومغادرتها البيت.

ـ آه! أهكذا تقولين؟

ـ أجل، هكذا.

ـ إذن على الأحماء أن يبغضوا أصهارهم كما تبغض الحموات كناتهن؟

ـ تقريباً...

ولزمت الصمت من جديد. وقطعنا كلّ شارع نومنتانا الطويل المستقيم، المنقط، على مد البصر، في الظلمة المدخنة، بومضات متحرّكة. وعند أحد المفترقات انعطفنا ووصلنا إلى ساحة بولونيا، وتقدّمنا في شارع جانبي، وتوقّفنا أمام بناية كريهة المنظر فستقية اللون. وقالت لي بابا فيما نحن ندلف إليها:

ـ هناك ستة طوابق، لكن المصعد معطوف.

ـ إذن؟

ـ أيناسبك أن ترتقي ستة طوابق أم تريد أن نترك هذه الصرر لدى البواب. سيتدبّر سانتورو أمره ليصعدها بنفسه.

ـ أليس هو الآن في البيت؟

ـ كلا.

ـ حسناً! فلنترك الصرر للبواب.

ولم تقل شيئاً، ورأيتها تذهب إلى آخر الدهليز، وتدق على زجاج مقصورة البواب، وترنو إلى الداخل، وتدق من جديد. ثمّ رجعت أدراجها نحوي:

البواب غائب. ولن نستطيع أن نترك صررنا. يجب أن نصعد بها. معي المفتاح، وبهذه الصورة سأريك الشقة.

ـ هيّا بنا.

وشرعنا نرتقي، الواحد تلو الآخر، الدرج الذي يحول ضيقه دون صعودنا معاً. بابا أمامي، وأنا خلفها، من طابق إلى آخر، من قرص درج إلى آخر. كانت بابا تصعد ببطء، متلبكة بالصرة الكبيرة التي تحملها بين ذراعيها. وكنت أحمل أنا نفسي صرة مشابهة. وأدركت أنّني أنظر بانتباه فائق، أو بالأحرى أرى بوضوح غير مألوف جميع تفاصيل الدرج الذي نرتقيه. كان الدرابزون مصنوعاً من مجموعة من القرميد الملون المثبت بالإسمنت، وكانت الجدران صفراء فاتحة بأساسها الصفر القريبة من لون الخردل، وكانت الدرجات من الرخام الأبيض الوسخ والمغبر. كان الدرابزون على شكل زاوية قائمة. وعند كلّ قرص درج كان هناك بابان وسلتا قمامة. وكانت الأقراص مبلطة بنفس قرميد الدرابزون الملون. وبالرغم من أنّ الوقت كان غسقاً لم تكن المصابيح قد أضيئت بعد، وكان الدرج غارقاً في ملس من الظلام. وقلت في نفسي إنّني إذا كنت أنظر حولي بمثل هذا الانتباه وإذا كنت أرى الأشياء كلّها بمثل هذا الوضوح، فهذا لأنّ نظري الثاقب الشديد الانتباه كان مركزاً في البدء على بابا التي كانت تصعد أمامي، ثمّ حرفته عنها لأركزه على شيء آخر. وبعد هذا التفكير، صعدت طابقين آخرين، ثمّ رفعت نظري إلى بابا ولمحت، في الظلمة شبه الليلاء، ردفها وذراعها ويدها الموضوعة على الدرابزون، وأخيراً

وجهها نصف المستدير نحوي لتنظر إليّ خلسة من فوق كتفها، وقرأت في نظرتها نفس الفكرة التي راودتني، أو بتعبير أدق، نفس الإحساس المسبق بما سيحدث. وقلت في نفسي عندئذ إنّني كنت أخاف دوماً وفي الوقت نفسه أتمنى أن ألقي نفسي في العدم. والحال أنّ هذه السقطة في العدم على وشك أن تحدث الآن، بأبسط صورة دراماتيكية ممكنة، كما تحدث الأشياء في الحياة اليومية: في سياق ظرف تافه الأهمية، يقبل به المرء بسرعة، ومن غير سابق تصميم، تحت وخز إغراء مفاجئ، بلا تهيئة مسبقة، على محمل الصدفة، بصور سلبية صرفة.

ووصلنا إلى النصف الأوّل من درج الطابق السادس، ثمّ إلى النصف الثاني وقرص الدرج غارق في عتمة شبه تامّة. وصلت بابا إلى القرص قبلي ثمّ استدارت. وارتقيت الدرجة الأخيرة، وكما توقّعت وأملت وخشيت، سقط كلّ منّا بين ذراعي الآخر.

انسحق فم بابا على فمي، وانفتح وتلوّى مثل جرح فاغر الشفتين انسحق على سطح صلب. ثمّ دار في فمي، وغاص وهو يدور، وفيما هو يتابع غوصه ودورانه انفتح على رحب مثل فكي حيوان زاحف، مشكلاً قمعاً فارغاً، أسود، حاراً، جافاً طفحت حوافه بلعاب بلل ذقنينا وخدودنا. وتابع القمع دورانه وانفتاحه وكأنّ بابا تريد ابتلاعي، وفي قراره الذي كان يزداد اتساعاً وحرارة وفراغاً وسواداً أحسست بلسانها المدبب، القاسي المبرود، الذي كان يتقدّم بين الفنية والفينة وينسحب بسرعة تشنجية.

وانتهت القبلة لأنّ مصباح الدرج المطمئن الأصفر أضاء فجأة وكأنّه يريد حرماننا من حماية الظلام وتواطئه. وعلى الفور انفصلنا. ومالت بابا نحو الباب، ربّما لتخفي وجهها الملطخ بأحمر الشفاه والمبلل باللعاب، وفتشت في الوقت نفسه عن المفتاح في جيوب

سترتها. وبقيت أنا بعيداً عنها بعض الشيء، وشاهدتها تنقب في الحقيبة المتدلية من كتفها، ثمّ تتخلص من الصرة التي كانت ما تزال تمسك بها تحت ذراعها، وتضعها في زاوية، وتقلب محفظتها لتسقط كلّ ما فيها أرضاً. ورنت أشياء عدّة على البلاط، لكن لم يكن بينها مفاتيح الشقة. وقرفصت بابا، وبحثت بين الأشياء المبعثرة، ثمّ نهضت على مهل، ونظرت إليّ من جديد، وفي النهاية أخذت تضحك بتباهٍ وإلحاح. وكما حدث قبل يومين مع كونسولو، انتقلت إليّ عدوى ضحكها وانفجرت مقهقهاً بدوري. ضحكنا معاً مدّة لا بأس بها، ثمّ توقّفت بابا وعدت إلى جدّي، وقرفصت من جديد أرضاً، وأعادت كلّ أشيائها إلى حقيبتها، ونهضت وقالت لي:

ـ العناية الإلهية شاءت، أليس كذلك، أن أنسى مفتاح الشقة؟

ـ العناية الإلهية، بالفعل.

ـ اعذرني، لم أكن أضحك منك، وإنّما من نفسي.

ـ لماذا؟

ـ أواه! هأنذا عدت إلى «الماذا». لأنّني حريصة على أن نكون أباً وابنة. إنّني لا أريد شيئاً آخر، أقسم لك. فلأمت إن لم يكن ذلك صحيحاً! لكنّي، على العكس، سقطت في ذراعيك عند أوّل مناسبة، وعلاوة على ذلك، عند باب خطيبي. إنّ في هذا ما يضحك، أليس كذلك؟

ـ بلى، إنّ فيه ما يضحك.

ـ لست بحاجة إلى أن أقول لك إنّ هذه القبلة يجب أن تبقى الأولى والأخيرة؟

ـ كلا، لست بحاجة إلى أن تقول لي ذلك.

ـ والآن، قل لي شيئاً يقوله أب لابنته.

ـ ماذا تعنين؟

- قل لي شيئاً أبوياً.

كنّا نهبط الآن، لكنّني كنتُ أنا الأوّل هذه المرّة. وفكّرت لحظة، ثمّ قلت بلطف:

- بابا، كفّي عن التفوّه بالحماقات، اسكتي.

فأخذت تضحك، ووضعت يديها على كتفي، وجعلتني أتدحرج تقريباً إلى أسفل الدرج بدفعها بي وبقفزها ورائي. وكان البواب موجوداً هذه المرّة، فتركنا عنده صررنا، ثمّ صعدنا إلى السيّارة، وأدرت زر الراديو بأعلى صوته، وعدنا إلى البيت من غير أن ننبس ببنت شفة.

لكنّي بعد أن دخلت إلى غرفتي وجلست أمام آلتي الكاتبة، ورحت أنظر متردّداً إلى الورقة البيضاء التي وضعتها على الآلة، شرعت فجأة، بصمت، أشد على شعري بشراسة وأصفع نفسي، وفي النهاية توقّفت ولبثت مخبولاً: لقد قبّلت بابا وأنا نادم على ذلك، هذا شيء يمكن فهمه، لكنّي لا أتوصّل إلى فهم السبب الذي يجعلني أعلق هذا القدر من الأهمية على تلك القبلة التي آسف لها في الوقت نفسه عميق الأسف.

فكّرت ملياً، وفي النهاية نفضت عن نفسي ذهولي، وأشعلت سيجارة، وضربت يومياتي على الآلة بتدقيق، بأمانة، من غير أن أضيف شيئاً ومن غير أن أحذف شيئاً من كلّ ما حدث في عصر اليوم، بدءاً من اللحظة التي خرجت فيها من المخزن الكبير إلى حين عودتي إلى البيت بعد الزيارة المخفقة لشقة سانتورو.

ثمّ أعدت قراءة ما كتبته وفهمت آنذاك دافع ثبوط همتي. فهو يعود مباشرة إلى الطريقة التي وصلت بها قبلة بابا.

لقد حللت هذا الوصف الطويل (١٥ سطراً) وبدت لي كلّ كلمة تقريباً معبّرة عن إحساس بالقرف والخوف والشناعة. والحال أنّ هذه

القبلة كانت على العكس، بالنسبة إليّ كما بالنسبة إلى بابا في الواقع، قبلة حب سوي تماماً، كلّها استسلام وعذوبة إلى حد التلاشي والنشوة.

لكن ما وصفته في يومياتي لم يكن القبلة بقدر ما كان الشعور الذي سبقها وتلاها. قبل القبلة، شعور بانجذاب مأتمي وبعدها، شعور بتبكيت فظيع. انجذاب وتبكيت: إذن لم تترافق هذه القبلة لا بعذوبة ولا باستسلام، وإنّما بقرف وخوف وشناعة.

إنّ ما يثبت لي تحوّل القبلة هذا من الشيء البريء الذي كانته إلى شيء فظيع هو اختيار الألفاظ والاستعارات. ففم بابا هو «جرح فاغر الشفتين»، وفكاها «فكا حيوان زاحف» مثل «قمع فارغ، أسود، حار وجاف». وصورة الثعبان الذي يبتلع فريسته تعاود ظهورها في وصف اللسان «المدبب، القاسي والمبرود، الذي يتقدّم بين الفينة والفينة ثمّ ينسحب بسرعة تشنجية».

وبتعبير آخر، إنّني بالتأكيد أحب بابا، لكن ليس في صميم حبي لها دافع طبيعي فائق الوصف، وإنّما فكرة السفاح من حيث إنّها اغتصاب ومن حيث إنّها عدم. وهذه الفكرة، أو بالأحرى هذه الأيديولوجيا، لا تقل عدم أصالة عن الأيديولوجية التي حفزتني في الماضي على حب كورا والزواج منها. والحق أنّ بابا، عند إمعاني في التفكير، ليست تلك التي يحلو لي أن أتصوّرها، تماماً كما أنّ كورا لم تكن في الواقع لا ابنة شعب ولا بغياً ولا سارقة. وبالفعل، فور زواجي من كورا اكتشفت أنّها بكلّ بساطة: كورا. تماماً مثل تأكدي من أنّه يكفيني أن أصبح عشيق بابا لأكتشف أنّها: بابا.

لكن عاطفتي إزاء بابا تغذّيها في الوقت الراهن وتلهمها وترعاها فكرة السفاح بوصفه انتهاكاً لمبدأ وقفزة في العدم. وعلى هذا فاللاأصالة تنتقل من هذه الفكرة إلى حبي، ومن حبي إلى وصفي

القبلة، أي الحب العملي. لكنّي نقلت إلى يومياتي، بخلاف حقيقة القبلة، زيف عاطفتي، هذا الزيف الذي لن يكون هناك مناص، فيما بعد، من انتقاله إلى روايتي.

إذن يبدو أنّ اللاأصالة كانت كامنة في العمل بالذات، في لحظة الفعل. وهكذا يتضح مرّة أخرى أنّ اللاأصالة هي في لب الأشياء بالذات، في تركيبها، أي في المادة المنسوج منها الواقع بالذات. ولم يكن يمكنني إلّا أن أتصرّف بصورة غير أصيلة، تماماً كما أنّه لا يمكن للمرء إلّا أن يكتب روايات غير أصيلة ما دامت الرواية التي لا فعل فيها ليست برواية. لكن بين الفعل في الرواية والفعل في الواقع يوجد فرق محدّد وهو أنّ الفعل في الواقع، حتّى وإن كان غير أصيل، هو فعل «فاعل»، في حين أنّ الرواية غير الأصيلة هي رواية رديئة غير «فاعلة».

وفجأة طرحت على نفسي السؤال التالي: «لكن هذا كلّه ليس في خاتمة المطاف سوى عاصفة في فنجان. إنّ عليك أن تضرب مثالاً أكثر أهمية وإقناعاً من المثال الذي تستخدمه». وأشعلت سيجارة، وفكّرت ملياً وأنا أدخن، وقلت في نفسي: «هوذا رجل جدير بكلّ ازدراء، حقير من وجهة النظر الأخلاقية والفكرية، مخلوق سوقي، مدعٍ، كذاب، حقود ماجن، منكد، قاسٍ، عديم الشفقة، دموي، مسخ وضيع، لكنّه يتمتع بقدرة خارقة على الديماغوجية، أشبه بمحرّك طائرة قوي مركّب على هياكل سيّارة بائس. وقد جنى هذا المسخ طوال سنوات القمامات الأيديولوجية في الحانات والمقاهي والمهاجع العامّة في فيينا، ومزج هذه النفايات بحقد السلطة وفجورها ليستخلص منها ماهية رسالة سياسية مضللة، أي غير أصيلة بالمرة، وبفضل التبشير المحموم بهذه الرسالة استولى على السلطة، وجرّ في إثره أمّة بكاملها، وحوّلها إلى جمعية من آكلي اللحوم البشرية،

وأفلتها على العالم بأسره، وجعلها تقترف باطمئنان ضمير أفظع الجرائم، ليلقي بها في خاتمة المطاف في أكبر فاجعة عرفها تاريخها، فمات منها الملايين، ودمرت مدن لا يحصى لها عد، وكابدت من آلام وأحزان لامتناهية. هي ذي إذن اللاأصالة على مستوى التاريخ، اللاأصالة وقد أصبحت هي نفسها التاريخ، وبقيت، بالرغم من تحوّلها إلى تاريخ، على ماهيتها التي ليس في وسعها ألا تكونها. هذا ما غيّر وجه العالم بالنسبة إلى قرننا على الأقل، تشنج الفساد هذا، تقيؤ اللاواقع هذا، دوار اللاأصالة هذا».

وتساءلت عن السبب الذي جعل وجه هتلر يحضر إلى ذهني لحظة تفكيري ببابا. وتذكّرت آنئذ أنّ بابا نفسها قد شبهت التجربة التي جعلتها كورا تكابد منها وهي في الرابعة عشرة من العمر بتجربة المعسكرات النازية. وكانت قد قالت لي إنّ بعض الأشياء هي من الضخامة بقدر إلى حد لا يمكن معه استخلاص شيء منها وأنّه لا مفر من اعتبار أنّ الآخرين هم الذين عاشوها. وآنئذ فهمت معنى ذلك كلّه: فاللاأصيل هو ما يفعل، ما ينفعل، ما حكم عليه بأن يفعل، لكن من غير أن ينظّم نفسه ويطوّر ذاته في الديمومة، فتراه ينحل في ما هو يومي، أي في سلسلة عبثية من أحداث لم يعد لموت هتلر في برلين في سياقها من أهمية تتجاوز أهمية توثب كرة أطلقها طفل يلعب في باحة.

وهنا عاد بي فكري إلى بابا التي كانت السبب الأوّل لهذا التأمّل الطويل، وقلت في نفسي: أليس من العبث، بل من السخف، أن يتملك البأس إنساناً فعل شيئاً لم يكن يريد فعله (تقبيل ابنة زوجته على سبيل المثال)، لا لأنه أتى أمراً كان ضميره يحرم عليه أن يأتيه، بل لأنّ الرواية التي يفترض فيه أن يروي فيها تفاصيل هذه القبلة ستتأذّى بنتيجة ذلك؟

لكن الجواب جاء بسرعة: «كلا، ليس في ذلك لا عبث ولا سخف، لأنّ ضميري وروايتي شيء واحد أوحد على الأقل في حالتي، ولأنّه يستحيل عليّ أن أفرّق بينهما».

الإثنين ٧ كانون الأوّل

رغبة في إرضاء بابا التي تلحّ على أن أخاطب كورا لإقناعها بفحص نفسها من قبل طبيب، خرجت من بيتي هذا المساء لأذهب سيراً على قدمي إلى محل الخياطة. وكنت أنوي أن أنتظر أن تنتهي كورا من عملها، ثمّ أرافقها لأحدّثها عن صحتها أثناء الطريق.

لكنّي عندما وصلت إلى الشارع حيث محل الخياطة رأيت كورا تخرج منه. لم تكن بمفردها، وإنّما كانت ترافقها فتاة صغيرة، واحدة من أولئك المستخدمات الصغيرات اللواتي ينفذن مختلف المهام، بدءاً من حمل الملابس إلى البيوت إلى الذهاب لشراء سجائر للزبونات. كنت قد وصلت إلى مقربة من باب المنزل، فاختبأت خلف جذع شجرة دلب، ونظرت إلى المرأتين اللتين توقفتا على حافة الرصيف بانتظار توقف موجة السيّارات على الطريق الرياضي. كانت كورا ترتدي طقماً أحمر داكناً، لونها المفضّل، وكانت تسند يدها على كتف الفتاة الصغيرة، يداً بدت لي امتلاكية ومهددة معاً مثل يد جزار يمسك برقبة النعة التي يتهيّأ لنحرها، ولم تكن الفتاة تتجاوز الرابعة عشرة من العمر. كان شعرها أسود بهياً يتلألأ تحت انعكاس نور لافتة النيون التي تعلو مخزناً قريباً. وقد استدارت هنيهة من الزمن لتراقب السير، ورأيت وجهها الزيتوني اللون، الجنوبي، الأشبه بوجه غلام، يشعّ منه بياض عينيها الداكنتين، المؤنثتين للغاية، المحاطتين بدائرتين بنفسجيتين ومجوفتين، وكأنّهما تشكوان من تعب لا يطاق. نظرت إليها بانتباه ولم يفلت من نظري شيء منها: الطريقة اللاشعورية التي تنهّدت بها على حين فجأة وشدّت بيديها كنزتها المحاكة على

صدرها الصغيرة، تنورتها الضيقة القصيرة التي تنتفخ بدءاً من الردفين وتكشف عن ركبتيها العاريتين، جوربيها القصيرين الأسودين كالجوارب التي ترتديها الفتيات اللواتي في عمرها، وحذاؤها بكعبه العالي كذاك الذي تنتعله المرأة البالغة. وبصورة آلية انتقلت يد كورا من كتف الفتاة إلى رقبتها. وانحنت الأخيرة إلى الأمام لتنظر إلى أضواء السير. وكلمتها كورا، المنتصبة باستقامة وبلا حراك، وعيناها شاخصتان إلى قارعة الطريق، وأجابت الفتاة ملتفتة إليها، فظهر بياض عينيها في وجهها البرونزي. ثمّ انقطع تدفق السيّارات، فعبرتا الشارع، الواحدة بجانب الأخرى، لكن يد كورا كانت قد تحرّكت مرّة أخرى وأمسكت بذراع الفتاة من تحت إبطها كأنّها تسندها وتحملها إن جاز التعبير فوق قارعة الطريق.

واتجهتا نحو موقف السيّارات المواجه وتعرّفت فيه سيّارة كورا. وفتحت هذه الباب ودارت الفتاة بسرعة حول السيّارة وصعدت. وصعدت كورا بدورها، ولمحت لهنيهة من الزمن جانب وجهها الصارم وقد تدلّت عليه خصل مشعثة من شعرها الأسود، ثمّ شرعت السيّارة تتحرّك وأخذت مكانها في موج السيّارات على الطريق الرياضي وتوارت.

لبثت هنيهة من الزمن واقفاً بلا حراك خلف جذع شجرة الدلب وعدت أدراجي على مهل إلى بيتي. ورحت أقول في نفسي إنّ ما رأيته طبيعي عادي: امرأة وفتاة، وربّما أم وبنت أو سيدة وخادمة أو أيضاً مربية وتلميذة. لكنّني كنت أعلم في صميمي أنّ هذا غير صحيح أو أنّه لا يمكن أن يكون هكذا، وأنّ ما رأيته يمكن أن يكون (بيد أنّني لست متأكداً من ذلك) مشهد إغراء. ولا ريب في أنّ اختيار كورا وقع، من بين عاملات المحل، على بنت الأربعة عشر ربيعاً لتقودها إلى منزل شارع كاسيا حيث ينتظرها زبون من زبائن مهنتها الثانية. بالضبط ما فعلته قبل ستة أعوام مع بابا.

بيد أنّ الحقيقة تجلّت لي فجأة. فما رأيته كان بالفعل مشهداً عادياً، حتّى في الواقع الذي يختفي خلف الظواهر. حقاً لم يكن هذا المشهد غير تفصيل تافه في المجرى الدائم الوحيد النسق للحياة اليومية ففي تلك اللحظة، على الرصيف نفسه، وجد مارّة لا يحصى لهم عد. وكان في وسعي أن أفترض، بكل منطق، الأشياء نفسها عن الجميع كما في وسع أي امرئ أن يفترضها في كورا، وليس هذا لأنّ حياة هؤلاء المارّة تشبه في تفاصيلها حياة كورا، بل لأنّه لم يكن هناك من شيء قادر على التمييز بين هذه الحيوات (ولو كان بريئة) وبين حياة كورا، لا شيء جوهري ومتمايز. وبالفعل، إنّ جميع هذه الحيوات تساهم بصورة أو أخرى في ما لا أستطيع أن أمسك نفسي عن تسميته بالفساد والذي ليس هو، على العكس، سوى المسار الطبيعي اللامنقطع اللامحسوس للحياة اليومية العبثية اللاأصيلة.

الأربعاء ٩ كانون الأوّل

اليوم، بعد الظهر، في وقت لم تكن فيه بابا في البيت، خرجت بلا تفكير تقريباً، وبدافع لا يقاوم، من غرفتي ومضيت مباشرة نحو باب كورا وقرعت.

سمعت صوتها يقول لي أن أدخل، فدفعت الباب ورأيتها جالسة على سريرها، جذعها خارج اللحاف، مستندة إلى الوسائد، ومتدثرة بروب دي شامبرها الأحمر المعتاد. ولاحظت أنّها لم تكن تفعل شيئاً، لا تدخن، لا تتصفح مجلات، لا تقرأ صحفاً. وكان الهاتف على طاولة سريرها، بجانب المصباح، يمكن أن يوحي بأنّها تتابع، وهي على فراش المرض، تسوية شؤون مهنتها السرية. لكن لم يكن هذا سوى افتراض ليس إلّا. والواقع أنّها كانت جالسة بلا حراك، وكأنّها تفكّر أو تتأمّل في شيء خارج عنها لا يدع وسيلة لفهمه ولا لنسيانه.

ومن العتبة سألت:

ـ هل أستطيع أن أدخل؟ أريد أن أكلمك.

فأدارت رأسها، ونظرت إليّ ملياً ثمّ قالت:

ـ تريد أن تكلمني؟

فدخلت وأغلقت الباب وتقدّمت لأجلس على الأريكة الموضوعة قدام السرير. وقلت على سبيل التمهيد:

ـ البارحة، ذهبت إلى ورشتك. لكنّني في اللحظة التي وصلت فيها بالضبط كنت أنت تخرجين. لم تكوني بمفردك إنّما كان معك بنت صغيرة.

ـ آه! أجل، موريليا.

ـ من هي موريليا؟

ـ فتاة تعمل عندي في حمل الملابس للزبائن.

ـ ما عمرها؟

ـ ستة عشر عاماً.

ـ تبدو أصغر بعامين.

ـ أجل، إذا رأيتها في ثيابها، خيّل إليك أنّها ضعيفة النمو. لكن هذا الظاهر ليس إلّا. لو رأيتها عارية، لذهلت! إنّ لها صدراً يتدلّى من الآن مثل صدر امرأة في الأربعين.

ـ أهي فتاة شريفة؟

ـ ماذا تعني بشريفة؟

ـ ألا تعرفين ماذا تعني هذه الكلمة؟

ـ ما يهمّك أن تعرف أهي شريفة أم لا؟

ـ أواه! مجرد فضول...

ـ الفتيات جميعاً يدعين أنّهن شريفات. لكن ضعهن على المحك، وسترى أنّهم كالكستناء، جميلات من الخارج وفاسدات من الداخل.

كانت تتكلم من بين أسنانها، بلهجة ازدراء وتهجّم، ولم أستطع منع نفسي من التفكير بأنّ هذه اللهجة هي فعلاً لهجة القوادات اللواتي يحططن من قيمة بضاعتهن، بعكس باقي التجار، ليمارسن مهنتهن بقلب خفيف، نافيات عنها بشراسة وإصرار كلّ كرامة إنسانية. ولزمت الصمت برهة من الزمن ثمّ خطرت لي فكرة غريبة: ما دامت كورا تخفي مهنتها وراء مهنة الخياطة، فسوف أحدثها عن ورشتها ملمحاً في الواقع باستمرار إلى مهنتها الثانية. كنت أريد أن أرى ما وقع ذلك عليّ، وبخاصّة ما وقعه عليها. وقلت:

- لنتكلم قليلاً عن مهنتك. فالنساء عادة، على الأقل هنا في إيطاليا، لا يفعلن من شيء البتة. أمّا أنت على العكس فتعملين. أيزعجك أن أطرح عليك بعض الأسئلة بصدد مهنتك؟
- لكن ليس ثمة من مجال للحديث عنها. فهي مهنة كغيرها.
- صحيح إنّها مهنة كغيرها. بيد أنّها تختلف أيضاً عن غيرها.
- تختلف، لمَ تختلف؟
- في شتّى مظاهرها الفنية والتجارية والإنسانية...
- جائز...
- إذن، أيزعجك أن أكلمك عنها؟
- كلا، ولمَ سيزعجني ذلك؟ لكنّي أكرّر عليك بأنّها مهنة كغيرها.
- معك حق. لكن قولي لي، هل لديك زبائن كثيرون؟
- بين بين...
- لمَ بين بين؟
- لأنّ الأيام ليست طيبة، ليس هناك مال...
- بيد أنّني كنت أعتقد أنّ في مهنة كمهنتك ليس هناك من أيام غير طيبة. فسواء أكان هناك مال أم لم يكن، يظل الناس بحاجة إلى البضاعة التي تقدمينها.

ـ بالتأكيد، لكن المادة الأوّلية غالية الكلفة. والمفلسون لا يقدّمون على شرائها.

ـ كيف تنظمين عملك مع زبائنك؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ أنت تسجلين جميع الأسماء مع العناوين وأرقام الهاتف، أليس كذلك؟

ـ بالطبع.

ـ أين تسجلين هذا كلّه؟

ـ يا له من سؤال! في دفتر.

ـ صفي لي هذا الدفتر.

ـ أنت مجنون!

ـ لست مجنوناً، وإنّما فضولي.

ـ إنّه دفتر كغيره.

ـ ابذلي جهداً...

ـ حسناً! إنّه دفتر كالآلاف غيره، من تلك التي تسجل عليها العناوين. أعتقد أنّ ظهره أسود، وغلافه معرّق.

ـ واللون؟

ـ لا أدري: أحمر وأبيض، على ما يخيّل إليّ...

ـ هل الأسماء مسجلة فيه حسب الترتيب الأبجدي؟

ـ بالتأكيد.

ـ أي أسماء؟

ـ لا أدري، أسماء عاملات، موردين...

ـ بمختصر الكلام، إنّه دفتر عناوين لامرأة أعمال، كما أنت بالأصل.

ـ وعندما يصبح الثوب جاهزاً، تتصلين بالزبونة هاتفياً لتأتي وتقيسه؟

ـ أجل.

ـ كيف تقولين لها ذلك؟

ـ على رسلك! دوماً الشيء نفسه: ثوبك جاهز للقياس. تعالي في يوم كذا الساعة كذا.

ـ أهذا ما تقولينه؟

ـ إنّها مصلحتهن.

ـ كم من الوقت يستغرق القياس؟

ـ القياس يمكن أن يدوم خمس أو عشر دقائق، كما يمكن أن يدوم نصف ساعة.

ـ أو ساعة؟

ـ ساعة، كلا.

ـ لِمَ لا؟

ـ لأنّ لدي عملاً ولا أستطيع أن أضيّع وقتي مع زبونة واحدة.

ـ كيف هنّ زبوناتك؟

ـ كيف هنّ؟ ماذا تقصد؟

ـ أسهل إرضاؤهن أم صعب، أصاحبات مزاج ونزوات أم قانعات؟

ـ فيهن من جميع الأجناس. البعض منهن يفقدك الرشد، والبعض الآخر لا.

ـ آه! يفقدك الرشد، لكن ماذا يردن؟

ـ ماذا يردن... لكنهن لا يعرفن حتّى ماذا يردن.

ـ انتظري... إنّهن يردن ثوباً من نوع معين لأنهن يشعرن، من غير أن يعين ذلك، أنّ هذا النوع يناسبهن، أي أنّه سيكون مصدر سرور ورضى لهن شأن كلّ ثوب يعجب ويلبق، أليس كذلك؟

ـ تفسيرك لفظي، لكنّه صحيح.

ـ وأنت، من جهتك، تحاولين أن تؤمني لهن الثوب الذي سيعجبهن

ويقع منهن موقعاً حسناً، حتّى وإن كن عاجزات عن أن يشرحن بوضوح كيف يردن ذلك الثوب.

- بالطبع.

- خلاصة القول إنّهن لا يطلبن إلّا أن يقتنعن، أليس كذلك؟

- في صميمهن، بلى.

- تختارين نموذجاً لم يلاحظنه أو لم ينظرن إليه إلّا سطحياً فاستبعدنه، وتقرظينه لهن.

- بالفعل...

- تمدحين لونه، رسمه، تفصيله، طرافته، نعومة النسيج، متانته، أليس كذلك؟

- بلى.

- لكن الأذواق تختلف ولا بد من تلبيتها جميعها.

- بديهي!

- أتصوّر أنّ زبونات كثيرات يرغبن في ملابس تجدّد شبابهن. وبصورة عامّة، تكون هذه الزبونات أكبرهن سناً، أليس كذلك؟

- بلى.

- وبالمقابل، فإنّ اللواتي يرغبن في النماذج الجديدة، المتينة، السليمة: هن الشابات اللواتي لا يحتجن إلى التصنّع لإظهار مفاتنهن.

- بالتأكيد.

- لكن هناك أيضاً الزبونات اللواتي يبحثن عن الغرابة، عن الشذوذ، عن الأشياء غير المألوفة. وعليك أيضاً أن ترضي هؤلاء الزبونات؟

- هذا بديهي.

- خلاصة القول إنّ الخياطة مهن صعبة.

- إنّها ليست بالمهنة السهلة.

ـ ومع ذلك فإنّني متأكد من شيء.

ـ ما هو؟

ـ أنّك لا تمتهنين هذه المهنة لأجل المال، وإنّما حباً. أو بالأحرى ليس لأجل المال وحده، لكن أيضاً حباً وهوساً. أهذا صحيح؟

ـ لنقل إنّه صحيح.

ـ أتربحين كثيراً من الثوب الواحد؟

ـ أقل ممّا يُظن.

ـ إنّني مقتنع (قولي لي إن كنت مخطئاً) بأنّك لن تهجري هذه المهنة، حتّى ولو لم تدر عليك ربحاً. وهذا، كما قلت لك، لأنّك تمتهنينها حباً وهوساً قبل كلّ شيء، ومن ثمّ بدافع المصلحة.

ـ يقيناً، لولا الحب والهوس لما فعل المرء شيئاً.

ـ معك، بدون حب وهوس لا يفعل المرء شيئاً. لنحلل قليلاً هذا الهوس. ألديك وقت لسماعي؟

ـ أجل.

ـ أنت تهوين اللبس، الموضة، شراء الثياب، بيعها، توفيرها للآخرين، معرفة الملابس التي تقع من الآخرين موقع الإعجاب والتقدير والرغبة. هذا الهوى، شأن كلّ الأهواء، يتأتّى جزئياً عن ميل طبيعي، وجزئيات من الفراغ التي أوجده في النهاية في حياتك، شأن كلّ ما يستأثر بحبّ الإنسان وولعه. أنت تعيشين من أجل الملبس، ويخيّل إليك أنّه من المستحيل أن تعيشي من أجل شيء آخر غير الملبس. بل سأقول أكثر من ذلك: إنّ الملابس والزينة والمهنة التي تقوم على صنع الملابس وبيعها تظهر لك سائر النشاطات الإنسانية وكأنّها تافهة، عديمة الطعم والكنه، كاذبة، مرائية. ولو فسرنا الأمور قليلاً لأمكننا القول إن الملبس يمثّل، بالنسبة إليك، مفتاح الواقع. وفي وسعك، في هذه الحال، أن

تقولي: «قل لي كيف تلبس، وسأقول لك من أنت». إنّ الناس، في نظرك، لا يفكرون في غير الملبس: الفقراء والأغنياء، الشيوخ والشباب، العلماء، الفنانين، السياسيين، أصحاب المهن الحرّة، إلخ... ولا مجال للشك في أنّه لو أمكن رؤية ما في رؤوسهم، لما وجدنا، في رأيك، سوى شاغل واحد: الملبس. وهذا، بالفعل، لأنّ زبائنك يختلفون عن غيرهم، لا يبدون حماسة إلّا عندما يتم التطرّق إلى مشكلة اللبس. أنت تعرفين كلّ هذه الأشياء وتدركين أنّك لا تقصرين على تقديم نوع معين من البضائع، وإنّما أنت أيضاً كاهنة دين شائع بقدر ما هو منفي ومخفي. أنت تعلمين أنّ هذا الدين موجود، وأنّ الناس جميعاً يضحون على مذابحه، وأنّ سلطته أعظم من أي قوة، تعلمين هذا كلّه وتفكرين بأنّك تؤدّين وظيفة ليست ضرورية فحسب، بل أيضاً إيجابية، وأنّك تعيشين منها كما تعيش النباتات من نور الشمس. وبعبارة أخرى، ليست الخياطة مهنة بالنسبة إليك، وإنّما دعوة، وهذه الدعوة مرتبطة بأهم شيء في الحياة البشرية، فما رأيك؟

في البداية أجابت كورا، وقد اعتادت على مبالغاتي اللفظية، بصراحة وإن باختصار كما هي عادتها. وظاهر أنّها كانت تعتقد أنّني أتكلم عن مهنتها كخياطة. لكنّها أدركت، في لحظة معينة، أنّني أتكلم عن مهنتها الثانية، وبالرغم من أنّها استمرّت في الإجابة على أسئلتي بإيجاز وتحفظ، فهمت من جحوظ حدقتيها أنّها مبلبلة مضطربة، أو على الأقل محتارة. بيد أنّني عندما انتهيت من خطابي اكتفت بأن تقول بلهجة صادقة:

- لا أدري عمّ تتحدّث، فأنت تقول أشياء بالغة التعقيد! أنا لا أفهم.

- معك حق، إنّها غلطتي. إنّني لا أستطيع مع الأسف منع نفسي من تعقيد الأشياء.

ـ إنّني لا أفهم بالأصل لِمَ تقول لي هذا كلّه.

ـ سآتي إلى لب المسألة. أتعرفين لمَ أتكلم عن هذه الأشياء؟ هذا لأنّني حريص على أن تعرفي إلى أي حد أدرك أهمية مهنتك في حياتك. ومع ذلك، جئت لأقول لك إنّه ينبغي عليك أن تتركيها.

كنت قد تكلّمت بلهجة عادية، لكن عينيها جحظتا فجأة غضباً:

ـ ماذا تقول، بحق الشيطان؟

ـ بمختصر الكلام، هذا: إنّك مريضة يا كورا، مريضة أكثر ممّا تعتقدين. ينبغي أن تحزمي أمرك مرّة واحدة ونهائية على أن تفحصي نفسك لدى طبيب. ثمّ عليك، حسبما ستكون نصيحته بالتأكيد، أن تذهبي بأسرع ما يمكن إلى الجبل، إلى مصح، لمعالجة نفسك.

ـ أنت مجنون!

ـ لست بمجنون: إنّها الحقيقة. أنت لا تكفين عن السعال، ودوماً محمومة، وتضطرين إلى لزوم الفراش يوماً كلّ يومين، وبكلمة واحدة: أنت مريضة وينبغي أن تعالجي نفسك.

ـ أتتكلم بالجد! لن أذهب لرؤية طبيب ولن أتحرّك من هنا. كلّ ما بي نزلة صدرية خفيفة لا تستلزم لا طبيباً ولا راحة. سوف أعالج نفسي هنا وعلى النحو الذي يحلو لي.

ـ وأنا، أقول لك بأكثر ما يمكن من الرسمية: كورا، أنت مريضة.

وأمسكت عن الكلام لحظة، من دون أن أدري السبب، ثمّ أكدت لها من جديد:

ـ كورا، مرضك خطير.

ـ من قال لك هذا؟

ـ وجهك.

ـ وكيف هو وجهي؟

ـ بالضبط وجه شخص مصاب بمرض خطير.

فلزمت الصمت، ثمّ قالت بتحدٍّ وهي تشخص بعينيها إليّ:

ـ اصغ إليّ جيّداً: حتّى لو علمت أنّني أحتضر، فلن أفعل ما تقوله لي.

وفجأة، وحتّى قبل أن أدرك ما أنا فاعله، نهضت، وانحنيت فوق سريرها، وأمسكت بها من ذراعيها، وهززتها بعنف متظاهر بالاشمئزاز، وصحت:

ـ يجب أن تعالجي نفسك وترحلي. ستعالجين نفسك وترحلين.

نظرت إليّ من غير مقاومة، وقد نفرت عيناها من محجريهما. ثمّ شرعت تسعل سعالاً جافاً غاضباً، لا يقاوم وانتصب جذعها على سريعها، وغطّت فمها بيدها، وراحت تتنشق الهواء بين كلّ نوبتين من السعال كشخص يختنق. وتذكّرت مشهد روايتي المتخيل، الذي تصوّرت فيه موتها، واستولى عليّ الخوف فخليت سبيلها للحال. لكن غضبي لم ينطفئ نهائياً. وبصورة لاشعورية تقريباً، درت مرّتين أو ثلاثاً حول الغرفة، ووجدت نفسي أمام طاولة الرخام المكتظة بالترهات. وآنئذ فهمت أنّ الكلمات التي تفوّهت بها قبيل لحظة من الزمن لم تكن مجرد تعبير مجازي: فكورا هي حقاً كاهنة، وهذه الطاولة هي هيكل دينها. وكنت أبغض في آن واحد الكاهنة والدين. وكما أنّني هززت كورا مدفوعاً بنوع من حنق مجرم، كذلك كانت كلّ الترهات التي على هذه الطاول تحرّك فيّ جنون تحطيم الصور والأيقونات. وقلت بصوت خافت حتّى لا تسمعني زوجتي:

ـ ماذا فعلت ببابا؟

ثمّ انهالت ذراعي على رخام الطاولة، وبضربة واحدة كنست كلّ تلك الترهات وكأنّها تمثّل أصنام معبود كريه لا يطاق. وحدثت ضجة كبيرة عند سقوط الأشياء على الأرض وتحطمها تحطيماً. وعلى حين فجأة، سكن روعي، فأسندت ظهري إلى الطاولة وقلت لاهثاً:

- سامحيني.
- بمثل هذه الطرق لن تحصل منّي على شيء، إنّني أحذّرك.
- سامحيني!
- إنّني أعرف بالأصل لمَ أنت حريص إلى هذا الحد على ذهابي للمعالجة في الجبل.
- لمَ؟
- لأنّك تريد أن تبقى وحيداً مع بابا. ألعلك تظنّ أنّني عمياء؟
- لكن، ما هذا الكلام الذي تتفوهين به؟
- أتظن أنّني لم ألمح أنّك تتحرّق إلى بابا، الحقيقة، هي أنّك تريد البقاء وحيداً معها!
- أنت مجنونة!
- كلا، لست بمجنونة. لكن إذا كان هذا صحيحاً، فإنّني أقول لك على الفور إنّه ليس عليك أن تشغل بالك بي. إنّ ما تفعله بابا لا يخصني، فهي راشدة، وتستطيع أن تفعل ما تشاء.

كانت تتكلم بطمأنينة مهنية وكأنّ بابا ليست ابنتها، وإنّما واحدة من المترددات الكثيرات على منزل شارع كاسيا. وأضافت بعد هنيهة من الزمن:

- على كلّ، إذا كنتما تريدان، أنت وبابا، أن تقيما معاً، فلا حاجة بكما إلى البحث عن ذريعة للتخلص منّي. إنّ هناك أشياء أفهمها.

نظرت إليها وفهمت آنذاك من جديد أنّها كورا نفسها، كورا الأزلية، كورا التي أخذت بيدها بابا الأربعة عشر ربيعاً وقادتها إلى منزل المواعيد، كورا التي رأيتها البارحة مساء تعبر الشارع ويدها مستندة إلى رقبة فتاة صغيرة. إنّ الدليل على أنّها لم تتغيّر لهجتها الحكيمة، هذا الاعتدال المحتقر المميز للقوادات. من الآن فصاعداً لم يعد بيني وبينها سوى قناع شبه غير موجود، وإسقاطه نهائياً مسألة

تتعلق بي أنا وحدي. ولو فعلت ذلك لوجدت نفسي فجأة غارقاً حتّى عنقي في عادية الفساد مع كورا الموافقة على حبّي لبابا بل المستعدّة لتحبيذه وتشجيعه. وأجبت بسرعة:

- إنّ مسألة بابا لا وجود لها. وبالأصل، أنا على وشك السفر من جديد. سوف أحصل على التأشيرة غداً. وفي غضون بضعة أيام سأكون في الولايات المتحدة.

فأشرق وجهها:

- اسمع...
- تكلمي...
- عندي فكرة: لمَ لا تأخذ بابا معك؟ إنّها بعد كلّ شيء ابنة زوجتك ستريها العالم قليلاً. ويمكنك أن تستفيد منها كسكرتيرة.

وهكذا لم تنكص عن أن تكون ما كانته، أي عن عرض نفسها كوسيطة بيني وبين بابا. وأجبت بجفوة وأنا أنظر إلى ساعتي:

- سأفكر في الأمر. والآن إنّي مغادرك إذ لدي عمل.

وسمعتها تصيح بي:

- فكر! إنّها فكرة...

الخميس ١٠ كانون الأوّل

طرحت اليوم أيضاً: فيما أنا أنتزه في الحي، هذا السؤال على نفسي: لِمَ لجأت، عندما كنت أتحادث مع كورا، إلى تورية الخياطة، بدلاً من أن أسمّي مهنتها الثانية باسمها الحقيقي؟ وبتعبير آخر ومختصر، لِمَ أنا عاجز عن مواجهة أهم مسألة في حياتي بصورة صريحة ومباشرة؟

وبالطبع أجبت على تساؤلي بالجواب نفسه: إنّ التكلّم بصراحة مع كورا يعني إمّا إدانتها نهائياً، وإما التواطؤ معها، وأنا أريد تجنّب كلا الاحتمالين. لكنّني فهمت أنّه يوجد مظهر آخر للمشكلة، مظهر لم

أفكّر فيه بعد وهو التالي: إنّ التكلم بصراحة مع كورا يعني السقوط في فساد الذوق، في الابتذال المرذول، وبكلمة واحدة، في اللاأصالة التي ليست كامنة فيّ، وإنّما في الأشياء بكلّ موضوعية.

وبعبارة أخرى، إنّ موقفي يشتمل على جميع عناصر ما يسمّى عادة «دراما صارخة الألوان». تلك العناصر التي تهتف من تلقاء نفسها: «لكن هذه أشياء مفتعلة، ميلودرامية، وفي الحياة لا تحدث مثل هذه الأشياء ولم تحدث قط!». والحال أنّ هذه الأشياء تحدث على العكس في الحياة التي تكشف النقاب بالتالي عن لاأصالتها التكوينية، أي يحدث بالضبط عكس ما كان يحدث، على ما يبدو، في الماضي: ففي الماضي كانت الرواية الميلودرامية، رواية التسلية تستخلص من حياة واقعية فيها كلّ خصائص الأصالة الفائقة الوصف، أمّا اليوم فعلى العكس، إذ إنّ الحياة الواقعية تقدّم مظاهر مشابهة تماماً لما يحدّه المرء في رواية تسلية، والروائي يجد نفسه ملزماً بأن يستخلص منها، إذا كان قادراً على ذلك، شيئاً شاعري الأصالة.

وتساءلت عندئذ لِمَ تحدث الأشياء على هذا النحو. وجاءني الجواب بصورة غير متوقعة، لأنّني، في تلك اللحظة بالضبط، رفعت عيني بينما كنت أشعل سيجارة.

كنت في شارع جانبي غير بعيد عن بيتي. صفان من الواجهات، وفي الوسط، مثل فجوة سن ناقصة في فك كامل، فراغ كبير بين بنايتين، إمّا لأنّه لم يبنَ فيه بعد، وإمّا لأنّ المنزل الذي كان يشغله قد هدم.

والحال أنّني رأيت أنّه قد علقت لافتتان إعلانيتان ضخمتان على الواجهة العرضانية لأحد المنزلين المطلين على الأرض البور، واجهة عالية عارية بلا نوافذ.

كانت الأولى إعلاناً لصنف من خلاصة اللحم يستخدم في صنع

المرق. وكانت تمثّل طاولة صفت على سماطها فوطات وصحون وملاعق وسكاكين، وجلست حولها أسرة مؤلفة من أب وأم وابنة. كان الرجل متوسط العمر، يرتدي بذلة رمادية داكنة، مصفف الشعر بعناية لامتناهية، حليق الخدين، لكن هذا النمط الأميركي النموذجي كانت قد أجريت له بعض رتوش حتّى لا يبدو أجنبياً أكثر ممّا ينبغي في نظر المستهلك الإيطالي. وكانت المرأة أصغر سناً بقليل من زوجها، وكانت هي أيضاً من النمط الأميركي الذي أجريت عليه بعض تعديلات ليبدو إيطالياً، وكانت تضع مئزراً ظريفاً مزركشاً بالتخاريم. وأخيراً البنت التي كانت ترتدي ثوباً بلا أكمام، من نسيج اسكوتلندي، وشعرها مرسل على كتفيها، وفي قمة رأسها عقدة شريط ضخمة، وكانت الوحيدة من بين الثلاثة التي لا يبيّن وجهها لأنّها كانت تدير لي ظهرها. وكانت الأم واقفة، منحنية على الطاولة، وعلى شفتيها ابتسامة سعيدة، ترفع غطاء قدر حساء. وكان الزوج والابنة ينتظران، وفي يد كلّ منهما ملعقة، بنفاد صبر، أن تصب لهما الحساء.

كانت اللافتة الأخرى إعلاناً عن فيلم. والشيء الغريب أنّها كانت تبدو وكأنّها قد رسمتها نفس اليد التي رسمت إعلان خلاصة اللحم. وتشاء الصدفة الغريبة أيضاً أن يبدو الأشخاص وكأنّهم هم أنفسهم رجل متوسط العمر، وامرأة أصغر منه سناً، وفتاة صغيرة. لكن أسرة خلاصة اللحم السعيدة الوادعة كانت تختلف كلّ الاختلاف في إعلان الفيلم: فالمرأة نصف عارية، قابعة على فراش مشعث، وقد حجب فخذيها العارمتين قميص داخلي أسود مخرم، وبان جزء من صدرها المليء الناهد، وامتدّت يدها إلى أمام، وجحظت عيناها رعياً؛ وكان الزوج يقف على العتبة، في الهندام الكلاسيكي الرمادي الداكن، مزبئر الشعر، مهدداً إيّاها بمسدس، ومن خلف كان يلمح وجه الفتاة

المذعور، ويدها على فمها لتكتم صرخة، مثل شخص يقف عاجزاً أمام مأساة دامية.

كان الإعلانان، بعبارة مقتضبة، يمثل أسرة واحدة في موقفين مختلفين: الأوّل موقف الدعة السعيدة، والثاني موقف النزاع الدراماتيكي. وبالطبع كانت اللاواقعية في كلا الإعلانين هي الطابع السائد، وكان إناء الحساء الذي يتعالى منه البخار والمسدس المشهور رمزين للاأصالة واحدة، لكن لب المسألة ليس هنا.

فالمسألة تكمن في أنّ الإعلانين ليسا رسمين مزورين ومصطنعين لواقع غير أصيل، وإنّما تصويران أمينان صحيحان لواقع غير أصيل برمته من الأصل. فليس الرسام هو الذي تخيّل الطمأنينة العائلية والمأساة على نحو غير أصيل، لكن الطمأنينة العائلية والمأساة هما اللتان مثلتا أمام الرسام بكلّ صفات اللاأصالة.

وقلت في نفسي على سبيل الاستنتاج النهائي: «الواقع أنّ الإعلان هو فولكلور الحضارة الصناعية. وهل يمكن، والحالة هذه، أن يكون هناك شيء أكثر أصالة من الفولكلور؟».

الإثنين ١٤ كانون الأوّل

باتت كورا تكثر، عند عودتها من الورشة، من استلقائها على السرير وتناولها فيه العشاء مع بابا. وتجنّباً لهذه الوجبات المحرجة المزعجة عند رأس سرير بابا، في تلك الغرفة التي تتقزز منها نفسي، اعتدت على تناول طعام العشاء خارج البيت بحجة أو أخرى.

أذكر هذا لأشرح سبب عدم عودتي إلى المنزل، هذا المساء، بعد تناولي طعام العشاء بمفردي في مطعم من مطاعم الحي. وكان أوّل ما أثار استغرابي هو أنّني لم أجد باب المنزل مغلقاً لكن منفرجاً. ودخلت، وكان ثاني ما استغربته أنّ المصابيح كانت مضاءة كلّها في البهو والممشى على حد سواء. وبعد لحظة تردّد اتّجهت نحو غرفة كورا.

لم أكن أدري ما أنوي فعله، لكنّي كنت أشعر بالقلق وكأنّ لهذين التفصلين، باب المنزل المنفرج والمصابيح المضاءة معنى يقضي عليّ واجبي بأن أفكّ لغزه. لكنّي عندما مررت في الممشى لاحظت من الباب المنفرج أنّ المطبخ مضاء، فدلفت إليه.

لا ريب في أنّ كورا شعرت بأنّها أحسن حالاً هذا المساء، ففضلت ألا تتناول طعام العشاء في الفراش. كان المطبخ خاوياً، لكنّه كان يحمل جميع آثار الوجبة التي استهلكتها المرأتان فيه؛ بيد أنّني لحظت، عند النظرة الثانية، واقعة تسترعي الانتباه: إنّ العشاء، لسبب من الأسباب، قد أوقف في منتصفه.

على رخام المائدة رأيت صحنين صغيرين مع بيض بالزبدة. وفي أحد الصحنين كان مُحّ البيضة قد فقئ وانداح. وفي الصحن الآخر كانت البيضة ما تزال سليمة، وكانت قطعة الخبز التي يفترض فيها أن تغمس فيها موضوعة بجانبها، على الطاولة. وكان في الصحنين سلطة خس. وكانت كؤوس الماء والنبيذ مليئة. وكانت زبديتان موضوعتان في إحدى زوايا المائدة ما تزالان تحتويان على قليل من الحساء والأرز. وكان الكرسيان قد أبعدا عن المائدة، على أحدهما فوطة مدعوكة، وكانت الفوطة الثانية موضوعة بجانب أحد الصحنين. وأخيراً، وهذا دليل قاطع على أنّ العشاء قد قطع فجأة ومنذ وقت ليس بطويل، سيجارة ما تزال تدخن، وعقبها مصبوغ بأحمر الشفاه احترق أو كاد على حافة المنضدة.

من المطبخ إلى غرفة بابا. كانت مضاءة، ومرتبة حسب العادة باستثناء الخزانة التي كانت مفتوحة. لا ريب في أنّ بابا أخذت منها معطفها ونسيت في عجلتها أن تغلق بابها. على المكتب كان الراديو المتنقل يذيع بصوت مخنوق أسعار البورصة. لم أكن أجهل أنّ بابا تترك عادة الراديو مشغولاً، حتّى عندما تكون غائبة عن الغرفة. لكن

ذلك الصوت الذي كان يهمس في الفراغ أكد لي إحساسي بهجران مفاجئ غير متوقع.

ذهبت إلى غرفة كورا. هنا أيضاً كانت تجتمع جميع علائم رحيل مباغت: المصابيح المضاءة، جوارير الخزانة المفتوحة، الروب دي شامبر المرمي على السرير. وكانت سماعة الهاتف مرفوعة وموضوعة بجانب الجهاز وكان يسمع منها صوت إشارة «مشغول». ووضعت السماعة على الهاتف وخرجت.

عدت أدراجي، على مهل، إلى غرفتي، وتمددت على سريري، وأشعلت سيجارة. سوف أنتظر هنا عودة بابا وكورا من غيابهما الذي لا تفسير له. وسوف يتاح لي، إبان ذلك، أن أتأمل، كما أفعل أحياناً في مناسبات مشابهة، في تحرير روايتي الوشيك. لكن أفكاري أخذت على الفور تقريباً اتجاهاً مغايراً.

لقد عادت إلى ذاكرتي، على نحو غامض ذكرى محدّدة ففي أثناء رحلتي إلى إيران نزلت في أحد فنادق أصفهان، وفي مساء يوم كنت متحرراً فيه من كلّ شاغل أو عمل، تناولت من على طاولة في بهو الفندق، عدداً قديماً من مجلة أميركية للأسفار والسياحة. وجلست على أريكة متداعية من العصر الفكتوري، وتصفحت المجلة على ضوء مصباح السقف الخافت. ومن بين المقالات العديدة التي كانت منشورة فيها قرأت واحداً خلّف في نفسي انطباعاً خاصاً. كان عنوانه «سر ماري سيليست». وكانت ماري سيليست سفينة ذات سوارٍ ثلاث أقلعت في شهر حزيران من أحد أعوام النصف الأوّل من القرن التاسع عشر من هاليفاكس في كندا. وكان على ظهر ماري سيليست، بالإضافة إلى البحارة وضباطهم، أسرة القبطان، أي زوجته وطفلاه، أحدهما في الثالثة من العمر والآخر ما يزال رضيعاً. وكانت ماري سيليست تقصد فرنسا باتجاه ميناء الهافر، لكنّها لم تصل قط. وبعد

بضعة أشهر وجدت السفينة الشراعية في عرض الأطلسي، على بحر من الزيت، تعوم جانحة، تتعاورها تيارات المحيط الكسلى، بكلّ سواريها المحملة بالأشرعة. واقتربت منها السفينة التي شاهدتها، وأرسلت باتجاهها الإشارات المتعاهد عليها بل أطلقت عدّة طلقات مدفعية. لكن ماري سيليست ظلّت تسير جانحة. وعندئذ أنزل زورق إلى الماء باتجاه السفينة الشراعية. لكن وعلى دهشة من الجميع، وجدت خاوية تماماً: الضباط، البحارة: أسرة القبطان، الجميع قد اختفوا. لكن في كلّ رجو من أرجائها كانت تشاهد علامات انقطاع مباغت عن الشواغل والاهتمامات العادية المطمئنة. ففي حجرة الأكل التابعة للضباط كانت المائدة ممدودة مع الطعام في الصحاف، والملاعق والسكاكين المتناثرة على السماط، كما تركها الآكلون. ولم يكن كرسي الطفل العالي قد تحرّك من موضعه تقريباً. وكانت الكراسي الأخرى قد أزيحت بما يكفي بالضبط للنهوض عن المائدة بلا عجلة. وبمقتضب الكلام، كان المدعوون قد انصرفوا في منتصف الوجبة، بهدوء وبلا خوف ولا فوضى. وقد وجدت في أجزاء أخرى من السفينة، آثار هجران مماثل، فالبحارة قد كفوا ثم أيضاً عن مشاغلهم على نحو مفاجئ، لكن بدون أي نوع من أنواع الإكراه على ما يبدو. ومن جهة أخرى، كان أولئك الناس قد رحلوا بصورة لا تفسير لها، إن لم أقل غامضة، لأنّ زوارق النجاة كانت كلّها في مواضعها. رحلوا من غير أن يمسوا أو يحملوا شيئاً: فمن كان يأكل ترك لقمته على شوكته، ومن كان يرفأ الأشرعة لم يسحب الإبرة من القماش. لقد طاروا كطيور تركت الغصن الذي كانت تجثم عليه.

إنّ سر ماري سيليست لم يكشف النقاب عنه قط: فالضباط والبحارة وأسرة القبطان والجميع قد تبخروا. في حين استمرّت السفينة الشراعية الكندية في التأرجح على البحر الهادئ، الوادع، بانتظار أن

يسمح لها حل السر باستئناف الرحيل. وفكّرت آنذاك وما زلت أفكّر بأنّ الحلّ لا بدّ أن يكون بسيطاً للغاية، بل طبيعياً، من تلك الحلول التي تمرّ تحت أنفك كما يقال وتفلت، من هنا بالذات، من انتباهك. وتذكرت أنّني بعد أن قرأت ذلك المقال أمضيت ساعة أو ساعتين وأنا أشيد فرضيات قادرة على تفسير اللغز. وفي النهاية أخذتني سنة النعاس، فرميت بالمجلة وذهبت لأنام.

واليوم، بعد أن جلت في الشقة الخاوية، لكن المضاءة، التي كانت تعجّ بآثار الحياة اليومية، عاد إلى ذاكرتي سر ماري سيليست مثل لغز منسي عاود ظهوره عندما وجد توكيداً له في الواقع من جديد. كانت التشابهات كثيرة: نفس الجو المنزلي العادي الذي اضطرب حبل هدوئه على نحو مفاجئ وغامض، نفس العجز من إيجاد تفسير يقبل به العقل، نفس الجهل المطبق بالشخص أو الأشخاص الذين كانوا السبب في هذا الانقطاع والهجران. وكما أنّ ماري سيليست شردت جانحة خاوية فوق البحر الخضم المليء بالوحوش والمهالك، كذلك بقيت شقتي الفارغة الخاوية هي الأخرى معلقة فوق مهاوي الوجود اليومي، المدلهمة، العامرة هي أيضاً بمخلوقات ممسوخة.

وشعرت أنّي قلق بما فيه الكفاية لأحاول تفسير هذا الغياب. وقلت في نفسي أخيراً إنّ عليَّ أن أنتظر حتّى منتصف الليل، وآنذاك فقط يمكن أن أواجه احتمال البدء بالتفتيش عن المرأتين. ولم تكن الساعة قد تجاوزت التاسعة، وكانت أمامي ثلاث ساعات قبل منتصف الليل: فما العمل؟ فكّرت بأنّ إقامتي في روما على وشك الانتهاء، وبأنّني سأغادرها في مدى بضعة أيام في رحلة طويلة، وبأنّ اليوميات التي قرّرت أنّ أكبتها طوال إقامتي في روما تشارف هي الأخرى بالتالي على الانتهاء، وكذلك، ضمنياً، الرواية التي أنوي استخلاصها من يومياتي. فلمَ لا أستفيد في هذه الحال (ولو كان من

قبيل اللعب) من اختفاء كورا وبابا هذا المساء، أو بالأحرى من التفسير الذي أستطيع أن أجده لهذا الاختفاء، لأختتم به يومياتي وروايتي على حد سواء؟

لكن، ما دام المطلوب ليس تفسير غياب المرأتين فحسب، بل أيضاً تخيّل خاتمة الرواية، أفليس من الأفضل أن أسجّل على الفور كلّ ما توحي به إليّ مخيلتي بدلاً من الاعتماد على أوهام لا منطق لها ولا نظام؟ وستكون هذه طريقة، على كلّ حال، لتمضية الوقت فيما أنا أنتظر. وهكذا غادرت سريري، وجلست إلى طاولتي، ووضعت ورقة بيضاء في دولاب آلتي الكاتبة وبدأت أدق. وهوذا ما كتبت:

«تقع خرائب مدينة فارس وسط سهل شاسع أخضر شاحب كابٍ، اخضراره من اصفرار الشجيرات الشائكة الكسيحة التي لا يحصى لها عد والتي طأطأها الريح والجفاف. سماء الهضبة العالية، شبه السوداء من شدّة زرقتها الداكنة، تطل على هذا السهل وتعكس خواءه. في هذه السماء يرسم عقاب دوائر طيرانه الكسول، باحثاً عن فريسة بين الشجيرات. في هذا السهل فلاح وحيد، صغير ضائع في ذلك المدى اللامحدود، يدفع بمحراثه في أخاديد حقله. عند تخوم السهل ينتصب حشد من الصخور الحمر الصهباء، المعرقة بحفر بنفسجية عميقة. ولما اقتربت السيّارة ميّزنا، فوق سطح مستطيل فسيح، صفاً من أعمدة غير متساوية بدت لنا وكأنّها نحتت من دخان، يرتكز إلى الصخر. إنّها أنقاض فارس، ما تبقى من قصور داريوس بعد الحريق الذي أشعله فيها الإسكندر إبان وليمة. وكانت الآثار، كلّما تقدّمنا، تأخذ أشكالاً أكثر وضوحاً، وتزداد واقعية، ويبدو السطح مبنياً من كتل ضخمة هائلة من الحجر، وتتجلّى الأعمدة التي بدت لنا في غاية النحافة والضمور في مطلع السهل، كثيفة، ثقيلة، ماردة. وبين الأعمدة المنتصبة هنا وهناك على نحو غريب، ترتفع أفاريز النوافذ والأبواب

العالية والواطئة التي يلمع من خلالها لازورد السماء. لقد التهم الحريق السقوف الخشبية وأسوار الوحل المجفف الممزوج بالتبن، ولم يوفر غير الأفاريز الحجرية.

خرجت، ذات صباح، من الفندق الذي لا يبعد كثيراً عن الآثار، وصعدت حتّى السطح، وجلست تحت الشمس على تاج عمود مقلوب تجاه السهب اللامحدود المسطح الوضاء. واسترعى انتباهي نقش محفور على حجر التاج بواسطة مسمار. كان موقعاً باسم ل. لوغان ويحمل تاريخ ١٧٢٤. وكان النص هو العبارة اللاتينية التالية: Vae, vae Babilon civitas illa fortis. وتفحصت النقش، ثمّ نظرت من جديد إلى الآثار التي كانت تحلق فوقها العقبان المعتادة وهي تنعق في السكون العميق. وفكّرت بأنّ التأمّل، في مكان مثل فارس، في قدم الأشياء البشرية، في الأسباب التي أدّت إلى اختفاء العديد من الحضارات الرائعة إلى الأبد، في الفساد المتعدّد الأشكال الذي سبق وسبب هذه الخصوب، هو شيء محتم نوعاً ما. ومكثت برهة من الزمن، وعيناي نصف مغمضتين، تحت الشمس، ثمّ سحبت من جيبي جريدة إيطالية كنت قد وجدتها في طهران وأعدت، بانتباه آلي، قراءة كلّ المقال المكرّس لموت كورا وبابا الوحشي الغامض.

لقد اكتشفتهما صباح عاملة قدّمت إلى الورشة ووجدت الباب منفرجاً. وبالإضافة إلى المعلومات الدقيقة غير المجدية (سيلويا فيراري، ٢٢ سنة، تقطن شارع غليسين، ١٩، الشقة ١٣) التي لا بدّ أن توردها الصحافة في باب «أحداث مختلفة»، كان المقال مكتوباً بلغة مليئة بالأوصاف القوية (مشهد رهيب، رؤية فظيعة، وحشية مرعبة، جريمة شنيعة، إلخ...)، وكان يروي أنّ الفتاة وجدت بابا في غرفة النوم ممددة على السرير ميتة، ثمّ كورا في غرفة العمل، ميتة أيضاً. والطريقة التي قتلت بها المرأتان تكشف النقاب عن طباع القاتل

وتفسح المجال في الوقت نفسه للتكهن بدوافع الجريمة. فالقاتل الذي هو بلا ريب زوج امرأة كانت تتردّد على منزل كورا (هذه هي الفرضية التي قدمتها الجريدة)، اجتذب كورا وبابا إلى الورشة بحجة ما أو بالتهديد في ساعة لم يكن فيها أحد، وطبق شريعة الثأر بامتلاكه بابا كما امتلك زبائن كورا زوجته، ثمّ قتل بابا وكورا. لكن فلنعد تكوين الجريمة. فقد وجدت بابا عارية تماماً، لكن لم يكن يبدو عليها أنّها اغتصبت، ويظهر أنّه كانت لها، قبل أن تلفظ أنفاسها، صلة جنسية طوعية مع قاتلها لم يفرضها عليها فرضاً. وكان سبب الموت الخنق بجورب نايلون، ولا بد أنّه كان شديد الإيلام، لأنّ القاتل حسبما تقول الصحيفة، أطال مدّة الاحتضار عن طريق مناوبة الخنق والتنفس كما في التعذيب الإسباني بواسطة المضغطة. أمّا كورا فقد طعنت في ظهرها بمدية أو خنجر قدام السرير الذي كانت بابا ممددة عليه، على الأرجح في نفس اللحظة التي اكتشفت فيها جثة ابنتها وقد دفع بها القاتل إلى الغرفة. وقد سقطت أرضاً، ملطخة بدمها سجادة السرير والحافة السفلى من اللحاف. ثمّ جرّها القاتل (كما جاء في رواية الجريدة) من شعرها على طول الممشى حتّى غرفة العمل: وبالفعل كانت آثار الدم تخطط بلاط الممشى على طوله. وفي حجرة العمل رفع القاتل جسم كورا ووضعه على الطاولة الكبيرة التي تستخدم في رسم النماذج وتفصيلها. وعلى تلك الطاولة، كما لو على طاولة تشريح، فصل القاتل، بواسطة فأس صغيرة أو مدية رهيفة، الرأس عن الجذع، مجتزاً إياه من الرقبة إلى النحر. ثمّ جرّ الجثة التي بلا رأس حتّى الطرف الآخر من الغرفة، وأجلسها باستقامة على إحدى الأرائك، وصلب اليدين على البطن. وبجانب الأريكة كان ثمة مانيكان بلا رأس تجرب عليه العاملات الملابس (تجازف الجريدة بفرضية تقول إنّ القاتل أراد، بوضعه الجثة المفصولة الرأس بجانب

المانيكان، أن يشبع في نفسه دافع السخرية المتوحشة والإهانة، وكأنّه أراد أن يشير إلى أنّ كورا لا تساوي أكثر من دمية بلا رأس، محشوة بالخرق).

كان في الصحيفة مقال أوّل عن اكتشاف الجريمة، كما تبدت لعاملة كورا، ثمّ رجال الشرطة الذين وصلوا إلى الورشة. لكن كان فيها أيضاً مقال آخر، كتب بلا ريب بعد بضع ساعات، يحتوي على كثير من التفاصيل: على سبيل المثال، إنّ بابا لم تكن تلبس جورباً من النايلون بل جورباً قصيراً من الغزل، فمن أين أتى في هذه الحال الجورب الذي استخدمه القاتل في خنقها؟ تقول الجريدة إنّ إحدى العاملات كانت قد علقت في اليوم السابق على حبل صغير ممدود أمام النافذة زوجاً مغسولاً من الجوارب لتجففه. والحال إنّ أحد الجوربين كان ناقصاً، وهو على وجد التحديد الذي استخدمه القاتل. كانت الجريمة، كما أعادت الصحيفة بناءها، مقنعة: فبينما كانت بابا تخلع ثيابها في غرفة النوم ذهب القاتل إلى المرحاض ليبول؛ ولمح، وهو واقف أمام المرحاض، الجوربين معلقين أمام النافذة، ففصل أحدهما ودسّه في جيبه. ثمّ عاد إلى الغرفة حيث كانت بابا تنتظره بعد أن تعرّت. وأرغم القاتل بابا على التمدّد على بطنها، وألقى بنفسه عليها، وامتلكها، وعلى إثر جماعه بها أخرج الجورب من جيبه من غير أن تراه بابا لأنّ وجهها كان مدفوناً في الوسادة، ولفّه بسرعة حول عنق الفتاة، وأفقدها كلّ قدرة على الحراك تحت ثقل جسمه، وشدّ الخناق وأرخاه بالتناوب إلى أن لفظت الروح.

كان مقال الصحيفة الثاني يقدّم أيضاً تفاصيل مثيرة عن موت كورا. فقد وجدت الجثة بلا رأس، جالسة، ويداها مضمومتان على بطنها. لكن الرأس لم يعثر عليه، فأين يمكن أن يكون؟ إنّ الجريدة تقول إنّ الأمور جرت على النحو التالي: فالقاتل بعد أن أجرى

اللمسات الأخيرة على مسرحيته الدراماتيكية أمسك بالرأس من شعره وذهب من جديد إلى المرحاض، لكن هذه المرّة ليغسل يديه ويمسح بقع الدم التي تلطخ ملابسه. وآنذاك وضع رأس كورا في المرحاض مؤقتاً، لكن ليس من قبيل الصدفة، ولم تعد تبين منه سوى الجبهة. وغسل الرجل يديه، ولا شك في أنّه حاول تنظيف هندامه. وقد تمّت عملية الاغتسال بسرعة، ووجدت بقع دموية على المغسلة وعلى المنشفة وعلى قطعة الصابون. وبعد انتهاء القاتل من تطهره صبّ اهتمامه على الرأس الغاطس في المرحاض. وحتّى يغسله من الدم المتخثر، لكن رغبته في المزيد من الإهانة بوجه خاص، شد على سحاب الماء فانهال على رأس الميتة. لكن خزان الماء لم يكن ممتلئاً بكامله، أو لعله كان معطوباً، وهكذا وجد الكثير من الدم على حوافي الحوض وفي داخله.

وحمل الرأس من ثمّ بطريقة بالغة البساطة. فرجع القاتل إلى الورشة، وفتح الخزانة، ووجد، بين أشياء أخرى كثيرة، علبة من الورق المقوى الأبيض، عالية وبيضوية، من تلك التي توضع فيها القبعات. لكنّها كانت تحتوي على العكس على شرائط ومساطر من النسيج. وقد أفرغ القاتل محتوياتها أرضاً ووضع فيها رأس كورا. ثمّ ربط العلبة بأحد الأشرطة، وانصرف بكلّ وداعة حاملاً إياها معلقة من عقدتها بإصبعه الصغيرة.

وطبيعي أنّ القاتل لم تعرف هويته. وقد افترضت الشرطة ألف فرضية، وكانت الفرضية القابلة للتصديق أكثر من غيرها، كما ذكرت آنفاً، هي فرضية انتقام زوج مخدوع من القوادة التي خرجت بزوجته عن جادة الصواب وقد عرضت حياة كورا، بالطبع، بتفاصيلها كافة، لكن المقال كان يشير إلى أننا افترقنا، أنا وكورا، منذ عدّة سنوات،

وإلى أنّني كنت موجوداً في إيران لحظة اقتراف الجريمة كمبعوث خاص لجريدتي».

وهنا توقفت وأعدت ببطء قراءة ما كتبته. وسرعان ما طرحت على نفسي السؤال التالي: لمَ نسبت غياب كورا وبابا إلى جريمة، وعلى وجه التحديد إلى جريمة من هذا النوع؟

أشعلت سيجارة ورحت أفكّر. بديهي أنّ تفسيري أسباب غياب بابا وكورا يرجع في أصوله إلى أنّ مخيلتي تستثيرها الفاجعة الغنية بالمعاني أكثر ممّا تجتذبها عادية الحياة اليومية اللاغية. والأرجح أنّني لم أستسلم لفكرة أنّه لا يحدث في الحياة شيء، أو على الأقل لا يحدث فيها شيء ذو دلالة وأنّني أفضل، على لغو الرتابة اليومية، وبصورة شبه غريزية، إيقاع الدراما وتناغمها.

بعد التنويه بهذه النقطة البالغة الأهمية يبقى عليّ أن أفسّر لِمَ تخيلت أنّني موجود في فارس، في إيران (التي عدت منها قبل شهرين والتي أستبعد الذهاب إليها ثانية)، ولِمَ كانت للجريمة تلك الصفات المحددة. وتناولت الصفحات المضروبة على الآلة الكاتبة، وأعدت قراءتها مرّة أخرى، وتذكرت أنّني كتبتها كما يكتب المرء تحت تأثير المخدر اعترافاً بشيء يحتل منذ زمن طويل أظلم منطقة في وجدانه. وبعبارة أخرى، أنا لم أتصوّر في هذه الصفحات خاتمة ممكنة لروايتي فحسب، وإنّما سجلت أيضاً شيئاً ما صميمياً وسرياً كنت أنا نفسي غير واعٍ له حتّى الآن.

هناك أوّلاً إيران. وكما سبق وذكرت، كنت راجعاً منها. وعلى هذا كان من المستغرب أن أتخيل أنّني عدت إليها لأعلم فيها بموت كورا وبابا. ولقد كان المنطق يقضي بأن أعلم بهذا النبأ في الولايات المتحدة، لأنّني كنت أعرف أنّني سأذهب إليها في الأيام القريبة القادمة. ومن المستغرب، من جهة أخرى، أن أكون قد تخيلت أنّني

موجود في إيران في اللحظة نفسها التي قتلت فيها كورا وبابا، في حين أنّه إذا كان غياب بابا وكورا نتيجة لجريمة (وهذا محتمل إن لم يكن مرجحاً) فإنّ هذه الجريمة ارتكبت، في الواقع، في اللحظة نفسها التي كنت أصفها فيها في يومياتي.

إذن، فتفسير حادثة إيران يكمن في أنّه كان آخر بلد رحلت إليه. لكن آثار فارس، وتاج العمود المقلوب الذي جلست عليه، ونقش ج. لوغان (الذي لحظته فعلاً أثناء رحلتي الأخيرة)، كيف أفسّرها؟ بما كان لدي من حاجة صريحة إلى الإعلاء من شأن شخصي، إلى أن أرى في نفسي بطلاً بايرونياً غريباً عن مغامرة كورا الدنسة وسامياً عليها في الوقت نفسه. أجل، إنّني نفس مرهفة، رجل مثقف، شاعر، رحالة بلا هدف جالس على خرائب مدينة عظيمة يتأمل في قدم الأشياء الإنسانية، بينما كانت كورا وبابا تغتالان بشناعة، بوحشية، في مدينة أخرى كبيرة ما تزال سليمة لم تمس بأذى، لكن مقضي عليها هي أيضاً بلا ريب، بسبب فسادها، بدمار مماثل، أقصد روما.

لكن تبقى مسألة تخيلي جميع تفاصيل الجريمة وتقديمي فرضية، قابلة للتصديق بعد كلّ شيء، عن تطبيق نوع من شريعة الثأر من قبل زوج مخدوع ينتقم لشرفه. وهذا المنتقم لم يكتف بامتلاك بابا كما امتلك زبائن كورا زوجته، لكنّه ما كاد ينتهي من امتلاكها حتّى قتلها وقتل كورا. وإذا أمكننا، والحالة هذه، أن نفهم اغتيال كورا على أنّه عاقبة الحقد، فكيف يمكننا تفسير اغتيال بابا؟

الواقع أنّ هذه الجريمة الوحشية وغير المجدية ظاهرياً تفضحني بوصفي أنا نفسي فاعل هذه المجزرة، ولو على صفحات رواية فحسب. فأنا من يحقد على كورا، وأنا من كان يهوى بابا، ولا أحد غيري! وفي قرارة نزوات خيالي كان هناك الحب السفاح، أي العدم. فبعد أن قبلت به ومارسته، كان رد فعلي أنّني قتلت، جزاء وقصاصاً،

كورا التي شجعت عليه وبابا التي كابدته. أمّا بصدد الزوج المنتقم لشرفه فلم يكن القاتل الحقيقي غيري أنا. وبذلك يتفسّر تخيلي، بعد أن نسبت الجريمة إلى شخص غامض مجهول الهوية (غامض ومجهول الهوية على وجه التحديد لأنّني أختفي وراءه)، أنّني كنت في إيران لحظة الجريمة، جالساً على أنقاض فارس، أتملاها معجباً وأتأمل في قدم الأشياء الإنسانية. والواقع أنّ فارس كانت دليلاً على غيابي عن مسرح الجريمة التي تمّت بوحي منّي. لكنّه دليل أدبي بالطبع، لأنّ المسألة كلّها مسألة رواية لا مسألة حياة واقعية، بيد أنّ هذا لا يبدّل شيئاً من كونه مرائياً غير أصيل.

وبالفعل، إنّ الخفية الكامنة وراء هذا كلّه هي اللاأصالة المميزة للعمل، وبالتالي لتخيّل العمل. فأنا باستمرار أفعل شيئاً آخر غير ذاك الذي أعتقد أنّني فاعله. فقد كنت أعتقد أنّني قتلت المرأتين على يد زوج منتقم، وإذا بي، على العكس، أنا الذي قتلهما. قد نسبت الجريمة إلى حقد معنوي دفين فائق، وإذا بالدافع الحقيقي هو جاذبية الحب السفاح، أي العدم، وفي الوقت نفسه التقزز منه وهكذا وجدت نفسي من جديد حيال اللاأصالة التي لا يمكن إلّا أن تميز كلّ عمل قائم على العدم، محدد بالعدم.

هنا طرحت على نفسي السؤال التالي: أينبغي عليّ أم لا ينبغي عليّ أن أجعل من هذه الجريمة المزدوجة خاتمة روايتي؟ لقد تردّدت طويلاً، وفي النهاية وقع اختياري على الصيغة السالبة. فالحقيقة، مهما تكن، مفضلة دوماً على الكذب. وعندما ستعود بابا وكورا وأعرف سبب غيابهما، سأتبين إذا ما كان لقصة هذين الشهرين من إقامتي في روما خاتمة حقيقية أمّ أنّها ستبقى بلا رأس ولا ذنب كما يحدث غالباً في الحياة اليومية. وعلى كلّ الأحوال، لا مجال لاختتامها بجريمة.

بيد أنّني لا أستطيع، من جهة أخرى، أن أؤكد بيقين مطلق أنّ

الجريمة التي تخيلتها ليست سوى كذب ووهم. فصحيح أنّها لم تحدث في الحياة ولا في روايتي، لكنّها تفيد في كشف النقاب عن إحدى إمكانياتي النفسية، وتحدّد طباعي، وتسلّط بوجه خاص الضوء على طبيعة علاقاتي مع بابا وكورا. إنّ أصالتها تكمن، هي غير الأصيلة على صعيد الواقع كما على صعيد الفن، في أنّني تخيلتها. ولهذه الأسباب كافة لن يكون لحذفها من معنى سوى الكذب من جديد، أي بتر جزء كامل من نفسي يعبر عن نفسه على وجه التحديد في التخيلات وفي الرغبة اللاشعورية في الإجرام.

وفجأة شعرت بالكلل والسأم. وبعد أن نظرت إلى ساعتي ولاحظت أنّ منتصف الليل قد مضى، نهضت آلياً واتجهت إلى سريري واستلقيت بثيابي فوق اللحاف وأخذتني سنة الكرى على الفور تقريباً.

استيقظت مرتجفاً تحت وطأة الشعور بأنّني لم أغف سوى دقيقة واحدة من شدّة ما كان سباتي عميقاً، لكنّني عندما نظرت إلى المنبّه الموضوع على طاولة سريري رأيت أنّه يشير إلى الواحدة والربع. وفي الوقت نفسه فهمت أنّ ما أيقظني هو وقع خطى بابا وكورا في الممشى.

أرهفت السمع لحظة، ثمّ قفزت من الفراش إلى الأرض، وفتحت الباب، ووقفت مشدوهاً على العتبة.

كان الممشى قفراً، وكانت بابا وكورا قد توارتا. فتقدّمت في الممشى حتّى انعطافه على شكل زاوية قائمة ونظرت: كان باب غرفة كورا منفرجاً وكان يأتي منه صوت نحيب وكلام متقطع.

فتقدّمت ملتصقاً بالجدار حتّى فرجة الباب ونظرت إلى الحجرة. كان وضعي الجيّد يتيح لي أن أرى السرير من زاوية منحرفة، وكورا الممددة على الفراش، وبابا التي تدير لي ظهرها وهي منحنية على كورا.

كانت بابا هي التي تنتحب وقد أدركت ذلك إذ رأيت على الوسادة رأس كورا المشعث ساكناً وعينيها مغمضتين. وكان هذا النحيب يعبر بلا جدال عن المرارة والقلق والألم. والحق أنّه لم يسبق لي قط أن تصوّرت أنّ بابا، الجلمودية القلب عادة والموضوعية، قادرة على الانتحاب على هذا النحو. ومن خلال نحيبها كانت تصل إلى مسمعي عبارات متقطعة: «لا عليك، يا ماما، لا عليك... لا تهتمي يا ماما، كلّ شيء سيسوى، سترين...» وبينما كانت بابا تتكلم وتبكي كانت تسوي الوسادة تحت رأس كورا وترفع شعرها فوق جبينها. وفي النهاية قالت كورا بلطف، من غير أن تفتح عينيها:

- إذا لم يكن للأمر من أهمية، فلمَ تبكين؟
- لأنّني بلهاء، لا تعيريني انتباهك... قولي لي بالأحرى كيف تشعرين...
- تعبة...
- إذن نامي واستريحي.
- أنت تعلمين أنّي لا أستطيع نوماً....
- خذي منوماً.
- المنومات لا تؤثّر فيّ.
- سأبقى بجانبك، سأسهر معك.
- لا، لا حاجة إلى ذلك. يكفي أن تساعديني على خلع ثيابي.
- أحقاً؟
- أجل، حقاً.
- حسناً! سأساعدك.

وعادت بابا تنتحب بصوت عال حتّى إنّ كورا قالت لها بقسوة واستياء:

- كفي عن البكاء، أيتها الغبية! ما بك؟ أتستطيعين أن تقولي لي؟
- سامحيني، إنّ أعصابي متوترة قليلاً، لا تهتمي بي..

وسكتت كورا هذه المرّة ومالت عليها بابا وبدأت تنزع عنها ثيابها وتركتها كورا تفعل، ورأسها مدفون في الوسادة وعيناها مغمضتان. وخلعت بابا منها حذاءيها ووضعتهما بعناية تحت السرير. ثمّ أمسكت بيديها الاثنتين بطرف تنورة كورا ورفعتها بلطف حتّى ركبتها. ورأيتها تفك الحمالة وتسحب الجورب بخفّة ومهارة، ممرّرة يديها حول الساق، وممسكة في النهاية بالكعب في راحة يديها لتنزع الجورب نهائياً. وكرّرت العملية مع الجورب الثاني. ثمّ سحبت التنورة على الركبتين، وفتحت سحاب الخصر، وزلقت التنورة على طول الساقين، وسحبتها من عند القدمين، ووضعتها على الأريكة بجانب الجوربين. وبقيت كورا في نصيفها الأخضر المشوف بتخاريم صفر. وجردتها بابا منه من رأسها. ولهنيهة من الزمن ظهرت كورا في «السليب» والمشدّ الأسودين. وأمكنني عندئذ أن أتبين مقدار هزالها منذ آخر مرّة رأيتها فيها. إنّ كورا لم تكن نحيفة قط، وكان جمالها متيناً، عضلاً. أمّا الآن فإنّني ألمح على العكس، عظام خصرها ونتوءات أضلاعها المتوازية وتجويف كتفيها. وتذكّرت سرّتها التي كانت أشبه بنقرة بيضاء صافية في لحم وضاء. أمّا الآن فلم تعد سوى لطخة داكنة مشرشة ضائعة في العكن المصفرة لبطن متهدلة. وكانت الساقان متباعدتين على سعة من الوركين حتّى الكعبين. وبدت الردفان منكمشتين منكفئتين على نفسهما، وبياض الفخذين كابياً يتغضن عليه الجلد المتهدل وترتسم ظلال العضلات الرخوة. وتتبعت بنظري يدي بابا حتّى صدر كورا. ورأيتها ترفع كرتي المشد النصفيتين السوداوين، وفي اللحظة نفسها لمحت الثديين المتطاولين المسطحين المتهدلين بعد أن فقدا متانتهما كجيبين فارغين تشدّهما إلى الأسفل حلمتان سمراوان ضخمتان. ووضعت بابا المشد على الأريكة ثمّ سألت بصوت حزين متهدج:

ـ أين قميصك؟

ـ في الجارور.

ـ أي جارور؟

ـ الجارور الأوّل من الخزانة.

واستدارت بابا لتتقدّم نحو الخزانة، فقفزت إلى الوراء وعدت نحو غرفتي على أطراف أصابعي. لكنّني دخلت على العكس، في منتصف الطريق، إلى غرفة بابا، وأشعلت الكهرباء، وجلست على الأريكة بجانب المكتب. وأدرت الأريكة تجاه الباب، وتناولت سيجارة، ورحت أنتظر.

لم يطل انتظاري. ففي غضون عشرين دقيقة دخلت بابا من غير أن تقول شيئاً ومن غير أن تظهر أي دهشة لوجودي. واتجهت نحو الخزانة وشرعت تخلع كنزتها من الرأس أمام المرآة. وسألتها:

ـ ما الذي حدث؟ لمَ أوقفتما فجأة عشاءكما وغادرتما بمثل تلك العجلة؟

فتركت كنزتها تسقط أرضاً، واقتربت من المرآة، وتفحصت بانتباه وجهها ولامست بأصابعها عينيها الحمراوين المنتفختين. ثمّ قالت لي:

ـ حدث شيء مزعج. فقد جاء شرطيان واقتادانا إلى المخفر وهناك تركونا ننتظر أكثر من ساعتين، ثمّ استدعيت كورا إلى مكتب المفوض ولا أدري ما حدث. لعل الأمر يتعلق بمنزل شارع كاسيا، وربّما بشيء آخر. وقد رفضت كورا أن تطلعني عليه. إنّ ما أعرفه هو أنّها انزعجت في النهاية وسقطت أرضاً وحُملت إلى غرفة أخرى. وآنذاك استدعيت وانتظرت بجانبها إلى أن عاد إليها وعيها. وفي النهاية أمكننا أن نرجع إلى البيت.

شعرت بنوع من الخيبة وأنا أستمع إلى هذه القصة المتقطعة الكثيرة الفجوات. إنّ الشيء الأكثر طبيعية وبساطة ومنطقية، أي تدخل

الشرطة، لم يخطر لي ببال، وإنّي لأتساءل لماذا. وبالمقابل تصوّرت الجناية والوحشية والإهانة والموت وقلت:

ـ أتعرفين، لقد رأيتك تعرين كورا من ثيابها.

ـ أين كنت؟

ـ وراء الباب. كنت تبكين. لمَ كنت تبكين ما دامت المسألة انتهت على خير؟

فأجابت بتؤدة بعد هنيهة من الزمن:

ـ لقد خفت كثيراً.

ـ ممَ خفت؟

ـ في المخفر، عندما رأيت كورا ممددة على ديوان، خالجني إنذار بأنّها ستموت.

ـ ولمَ الموت؟ لقد انزعجت، هذا كلّ ما في الأمر. والحقيقة أنّ إغماءها كان، إن جاز التعبير، تدبيراً من العناية الإلهية.

ـ لا تمزح...

ـ في مثل تلك الظروف، كلّ إنسان قابل لأن ينزعج...

ـ ليس كورا!.

ـ لمَ تعتقدين بأنّها ستموت؟

ـ آمل أن أكون مخطئة. لكنّني شديدة الخوف من أن تموت!

لم أقل شيئاً، وقمت عن الأريكة، واقتربت من بابا التي كانت ما تزال واقفة أمام المرآة. ولفت ذراعيها حول عنقي، ومكثنا متعانقين أمام المرآة التي كانت تعكسنا وتؤكد الطابع البريء هذ المرّة لعناقنا. ولم أستطع إمساك نفسي، بينما أنا مشدود إليها، أربت بلطف على كتفها كما يفعل الإنسان مع الأشخاص الذين يثقل عليهم الألم، عن التفكير بأنّ كلّ شيء يتطوّر طبقاً لقانون العادية اليومية: فبدلاً من التهديد والفخ المنصوب وانتقام زوج مهان في شرفه، كان تدخّل

الشرطة؛ وبدلاً من القتل، الموت على فراش مرض يمكن أن يلم بأي شخص كان. لا مجال للشك: إنّ «ex machine dues» تفعل فعلها. فكورا ستموت، وسأتحرّر، بدون أي جهد، من علاقات جليدية ثقيلة الوطء، وستتمكن بابا، تلك الابنة المخلصة المتفانية الرؤوم، من الزواج بشرف ولن تعود مكرهة على حب أمّها التي ليس لديها أي داعٍ لحبّها.

كان فكاك عناقنا نهاية هذه التأملات. فقد تمنّيت ليلة سعيدة لبابا وعدت إلى غرفتي. كانت الساعة الثانية صباحاً. واستلقيت على سريري وتناولت كتاباً عن الولايات المتحدة اشتريته أثناء النهار وقرأت فيه ساعة قبل أن أغرق في النوم.

الثلاثاء في ١٥ كانون الأوّل

فهمت أنّه لم يبق أمامي غير الرحيل. وعلى هذا، فإنّ خاتمة يومياتي، وبالتالي خاتمة روايتي، ستكون مؤقتاً سفري. لكن إذا ما صدق إنذار بابا وتحقق، كما هو مرجح، فإنّ الخاتمة الحقيقية لا يمكن أن تكون غير موت كورا: خاتمة جليلة للتناوب النموذجي للرتابة اليومية، ذلك التناوب الذي لم يحدث فيه من شيء والذي لم يصدر فيه أي فعل عن أي شخص كائناً من كان.

نهضت كورا بالطبع هذا الصباح، وخرجت، ثمّ اتصلت هاتفياً لتقول إنّها لن تأتي لتناول طعام الغداء. ومن المرجح أنّ هذا الانشغال غير المعتاد ليس غريباً كلّ الغربة عن زيارة الشرطيين مساء البارحة لقد خرجت كورا تحاشياً للتهديد بالاعتقال، وربّما لتغلق مؤقتاً منزلها في شارع كاسيا، وعلى كلّ الأحوال لتبرهن لنفسها ولتثبت لنا أنّ صحتها على ما يرام وأنّها ليست مريضة، وأنّها ليست بحاجة إلى المعالجة ولا إلى الإقامة في الجبل، مثل الملاكم المنهك القوى، المتحوّل

وجهه إلى طبيخ دامٍ، الذي ينتصب على قدميه ويحاول أن يسدّد لكمة أخيرة إلى خصمه.

تساءلت عمّا إذا كان احتمال اعتقال كورا، مع الفضيحة التي ستتبعه واسمي الذي سيلوكه الجمهور، يخيفني. وتبيّنت بشيء من الرضى وانشراح الصدر أنّني لا آبه لذلك البتة. فالمسألة بعد كلّ شيء لن تكون سوى «حيلة مسرحية» أخرى، مشابهة لحيلة موت كورة، تأخذ شكل قصاص يصيبني أنا نفسي علاوة على بابا، وربّما ليس ظلماً بعد كلّ شيء.

ولم ترجع بابا هي الأخرى لتناول طعام الغداء. والأرجح أنّها رافقت كورا، أو خرجت مع سانتورو. وأكلت وحدي، ثمّ ذهبت إلى غرفتي، وجلست إلى مكتبي، ورحت أتصفح يومياتي.

أعدت قراءة الصفحات الأولى التي نبهت فيها إلى أنّني أحتفظ لنفسي بالحق في أن أضيف إلى الوقائع الواقعة فعلاً وقائع أخرى مختلفة تكون بمثابة مستندات للرواية التي أزمع كتابتها فيما بعد. وهويت في تأمّل عميق.

لمَ كتبت هذا التنبيه؟ لمَ أردت أن أحتفظ لنفسي بالحق في إنشاء روايتي في الوقت الذي كنت أسجل فيه يومياتي؟ أليس ذلك لأنّني أريد أن أقول بعض الأشياء التي لا وجود لها في الحياة الواقعية؟ أم لأخفي عن نفسي أشياء أخرى موجودة فيها على العكس؟

الحق أنّني إذا كنت أستعد فعلاً لكتابة رواية ذات يوم من الأيام، فعليّ في هذه الحال أن أقبل لا بكل ما أضفته إلى يومياتي بهدف تكميل الواقع، لجعله أكثر واقعية إن جاز التعبير فحسب، بل عليّ أيضاً أن أحذف كلّ ما أفادني في تقنيع الوجه الحقيقي لهذا الواقع في كلّ مرّة بدا لي فيها هذا الأخير مشيناً لا يمكن الإقرار به حتّى على صفحات يوميات ذاتية. والحال أنّ عمل التنقيح والتشذيب والصقل

هذا تبدّى لي أصعب ممّا كنت أتوقع: فكلّ تلك الإضافات، تلك التي أفادت منها في تعميق الواقع وتكميله وتلك التي ساعدت على العكس على تقنيعه، لم تثبّت لأسباب أدبية صرفة تتعلق بآلية الرواية، وإنّما لدوافع غريبة عن الأدب يصعب عليّ، إن لم أقل يستحيل، أن أوضحها حتّى أمام وجداني. وبموجز القول، لم تكن يومياتي يوميات حياتي فحسب، بل كانت أيضاً المرآة السرية لروحي. ولقد رويت فيها بالفعل، بالإضافة إلى بعض أحلامي التي بدت لي أعمق دلالة من غيرها، أحداثاً وشخصيات أعرف أنّها مختلفة لكنّها أفادت، شأن أحلامي الليلية، لحظة اختلاقي إياها، في إخفاء بعض الأهواء أو كشفها.

إنّ الإنسان لا يملك إجمالاً غير الأحلام التي يحلمها في نومه والأحلام التي يحلمها في يقظته، أما الروائي فلديه، علاوة على أحلامه، ابتكارات رواياته. وهذه الابتكارات، شأنها شأن الأحلام، ليست في حقيقتها ما تبدو أنّها كائنة عليه. وهي تعني شيئاً آخر غير ذاك الذي تزعم أنّها تعنيه. والحال أنّ هناك نوعين من الروائيين: من يؤمن منهم بابتكاراته ومن لا يؤمن بها. ومن المباح للأوائل أن يكتبوا روايات شبيهة بألغاز يجهلون هم أنفسهم حلّها. ويملك الآخرون على العكس مفتاح ما يكتبونه، فهم قادرون بالتالي على إظهار ما هو مستتر. وواضح أنّني أنتمي إلى الفئة الثانية.

قد يبدو هذا كلّه غامضاً. لكن فليعمل القارئ فكره: إنّ اليوميات الذاتية لا يمكن أن تكون هي الحقيقة لأنّه في اللحظة التي يسرد فيها من يحررها حدثاً يكون هو بطله، يكف عن أن يكون الإنسان الذي عاش ذلك الحدث الذي يرويه. والإنسان الذي عاش الحدث هو على العكس شخص مختلف كلّ الاختلاف ليس لكاتب اليوميات من صلة به غير صلة حكم وتقييم، أو إذا شئتم، صلة تصوّر. وفي حين أنّه

يصح أن نقول إنّ هناك تماثلاً كاملاً في الهواية بين محرر اليوميات وبطل الأحداث المروية في اليوميات، يصحّ أيضاً أن نقول إنّ هذا التماثل في الهواية هو علة جمع التحويرات أو الأكاذيب أو التحفظات التي تعدل أو تخفي أو تبتر الأحداث المروية في اليوميات. والواقع أنّ اليوميات تكون دوماً صادقة، والمطلوب فقط هو البحث عن الصدق والحقيقة فيما وراء الأحداث.

هذا هو السبب الذي يجعل اليوميات الخاصّة والسير الذاتية والاعترافات والمذكرات كاذبة جميعها بهذا القدر أو ذاك من وجهة نظر الوقائع وصادقة من وجهة النظر النفسية. فمثل المرآة التي نتملى فيها أنفسنا والتي لا تستطيع أن تعكس سوى هذه الوقفة أو تلك، كذلك هي الحقيقة التي لا تكمن في الصورة بقدر ما تكمن في طباع الشخص الذي يخلق نفسه، في اللحظة التي تعكس فيها المرآة صورته، كما لو بسحر ساحر. لكن لا يمكن القبول بهذا الشخص كما هو، إنّما ينبغي تأويله، إخضاعه لعملية نقدية. وآنذاك نتبين أنّه حصيلة أكاذيب وتحفظات وتنكرات شبه آلية.

وفي حالتي الخاصّة، عمّ تكشف العملية النقدية؟ إنّها تكشف عن أن بطل اليوميات قد ظهر إلى حيز الوجود وتكوّن بواسطة حذف جزء كامل من الواقع، وعن أن طباعه الحقيقية تحدّد لا عبر الواقع المحذوف فحسب، بل أيضاً عبر واقعة الحذف بالذات.

وبالفعل، إنّ بطل اليوميات روائي يقرّر أن يكتب يومياته عن مرحلة من حياته الخاصّة بهدف استخلاص رواية منها فيما بعد. والحال، وهذا هو الشيء المستغرب، أنّ مشروع الرواية قد قوّض شخصية الروائي بمجرد وصول هذا الأخير إلى خاتمة يومياته. فإذا كنت أريد حقاً أن أكتب ذات يوم هذه الرواية، فإنّ عليّ أن أقرّ بأنّ مشروع الرواية هذا لم يكن الدافع الوحيد الذي حثّني على كتابة

يوميات، أي على الانتقال من اللاانتباه إلى الانتباه، وبالتالي على قرع باب بابا، وبأنّ ذلك المشروع كان شيئاً أقل سمواً بكثير ولا صلة له بالأدب. وقد حذفت «هذا الشيء» لأشيد صورة الروائي. لكن مشروع روايتي يرغمني الآن على الإقرار بوجود ذلك الشيء، بل على اعتباره أساس كلّ هذه القصة.

كنت غارقاً في هذه التأمّلات عندما سمعت الباب يفتح خلفي، وتعرّفت وقع أقدام بابا. وانتظرت، بلا حراك.

جاءت لتنتصب أمامي وسألتني:

ـ ماذا تفعل؟

ـ إنّني أعيد قراءة يومياتي.

ينبغي أن أذكر أنّني حدثت بابا مراراً عن يومياتي وعن مشروعي في استخلاص رواية منها. وعلى هذا فقد سألتني:

ـ أأنت راضٍ عنها؟

ـ من أي وجهة نظر؟

ـ من وجهة نظر ما حدثتني عنه. أتعتقد أنّ هذه اليوميات قادرة على أن تفيدك في كتابة رواية؟

ـ نعم ولا.

ـ لمَ، نعم ولا؟

ـ نعم من بعض النواحي، ولا من نواحٍ أخرى.

ـ مثلاً؟

ـ أنت تعلمين أنّني كنت، أثناء كتاباتي يومياتي، أضيف إليها أشياء متنوعة، أشياء كنت أعتقد أنّها مفيدة لروايتي.

ـ أجل، قلت لي ذلك.

ـ والحال أن بعض هذه الإضافات تجعل الواقع أكثر واقعية، وبعضها على العكس، ذو مفعول معاكس.

ـ حسناً! الأمر في غاية البساطة: احذفها.

ـ أجل، ينبغي أن أحذفها، لكن ليس هذا بالأمر السهل. فهذه الإضافات، في معظمها، تخفي حقيقة. فإذا حذفتها، ظهرت الحقيقة.

ـ حسناً! ألن يكون ذلك أفضل؟

ـ نظرياً، بلى. لكن...

ـ لكن ماذا؟

ـ يصعب عليّ كثيراً أن أقبل بتلك الحقيقة، أن أقرّ بها لذاتي.

ـ لماذا؟

ـ لأنّها حقيقة تخجلني.

ـ إذن فهي شيء رهيب؟

ـ أواه! كلا، ليست رهيبة البتة.

ـ إذن؟

ـ ثمة أشياء يسهل قولها وأخرى يصعب.

ـ ولمَ هذه الصعوبة؟

ـ هنا لب المشكلة. على الأرجح لأنّ تلك الأشياء لم تقل في الوقت الذي كان واجباً فيه قولها.

ـ ماذا تعني؟

ـ إنّ بعض الأشياء يصعب قولها على وجه التحديد لأنّها كتمت في السابق.

ـ لماذا؟

ـ لأنّ الزمن طمرها تحت جبال من الصمت...

ـ إذن؟

ـ ما دام أنّها طمرت فلا بدّ من الحفر لإيجادها، وهنا المشقة والإزعاج.

ـ إذا كان في ذلك مشقة وإزعاج كما تقول فاعدل عن الحفر، واستمرّ في لزومك الصمت.

ـ أجل، لكن في هذه الحالة ما سيحدث للرواية؟

ـ اشرح رأيك.

ـ أقصد: إذا لزمت الصمت عن بعض الأشياء فيستحيل عليَّ كتابة روايتي.

ـ بموجب الكلام، ما المسألة؟

فلم أجب، ونظر كلّ منّا إلى الآخر. وأضافت بابا:

ـ حاول أن تقولها لي، تلك الأشياء، بدلاً من أن تقولها لذاتك. فهناك أحياناً اعترافات، مصارحة الغير بها أسهل من مصارحة النفس.

ـ أنت آخر شخص يمكنني أن أعترف له بها.

ـ لماذا؟

ـ أواه! لسبب بسيط للغاية.

ـ ما هو؟

ـ إنّها تخصّك أنت.

تخصني أنا؟

ـ أجل.

ومن جديد التقت أنظارنا. وأحسست آنذاك بأنّها الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أعترف له بتلك الأشياء التي لا أجرؤ على البوح بها، وهذا بالرغم من أنّ لبابا صلة مباشرة بهذه الأشياء. فلقد أحببتها وما أزال أحبّها وأشعر بأنّ الحب وحده هو الذي يسمح بالإدلاء ببعض الاعترافات. ولا سيما إذا كان حباً كذاك الذي أشعر به تجاهها، حباً يائساً ومرتبطاً نهائياً من الآن فصاعداً بالتخلي والنكوص.

وفجأة قلت بصوت متهدج:

ـ حسناً... سأقول لك، أنت، ما لم أجرؤ على قوله لذاتي. والآن لنفعل قليلاً كما لو أنّنا في جلسة تحليل نفسي: ستكونين أنت الدكتور وأنا المريض. لكن بعكس ما يجري في تلك الجلسات، سأجلس أنا إلى مكتبي وستستلقين أنت على السرير.

ـ لكن لماذا؟

ـ أرجوك، افعلي كما أقول لك.

فتمددت على السرير. ولبثت جالساً إلى مكتبي، مديراً لها ظهري وقلت:

ـ سأكلمك إذن. لقد رجوتك أن تستلقي على السرير لأنّني بهذه الصورة لن أراك بينما أنا أتكلم وستستطيعين في الوقت نفسه أن تصغي إليّ على راحتك.

فلم تحر جواباً وتابعت:

ـ أتذكرين الصورة التي بدأت بها علاقاتنا؟

ـ أي علاقات؟

ـ أقصد: أتذكرين ما جرى بيننا مساء قرعت على بابك، يوم عودتي من إيران؟

ـ لا أذكر جيداً. لقد أريتني رسالة مغفلة تتحدّث عن مهنة كورا وسألتني عمّا إذا كان ذلك صحيحاً. وأجبتك أنّه صحيح.

ـ بالضبط. لكن هل لاحظت تاريخ تلك الرسالة؟

ـ كلا، لا أعتقد... لماذا؟

ـ أتعرفين ما كان ذلك التاريخ؟

ـ كلا...

ـ ٥ تشرين الثاني ١٩٥٢.

ـ آه! إذن فهذه الرسالة لم تصل في نفس اليوم، بعكس ما قلته لي.

ـ كلا. في الواقع، كانت قد وصلت قبل عشرة أعوام. أتفهمين ما يعني هذا؟
ـ ماذا يعني هذا؟
ـ إنّني كنت مطلعاً، بكل بساطة على مهنة كورا منذ عشر سنوات.
ـ لكنّك قلت لي إنّك لم تعرف ذلك ذلك قط قبل ذلك اليوم!
ـ بالفعل. لكنّي كنت أكذب.
ـ لمَ كذبت؟
ـ لمَ كذبت؟ هذا بالضبط ما لم أجرؤ على البوح به وما سأقوله لك الآن إذا كان لديك الصبر لسماعي.
ـ سيكون لديّ من الصبر قدر ما تشاء.
ـ عندما تلقيت تلك الرسالة في عام ١٩٥٢، كنت قد قطعت كلّ صلة جسدية مباشرة مع كورا. أمّا الصلات غير المباشرة، فلا.
ـ ماذا تعني؟
ـ أعني أنّني كففت منذ عشر سنين عن فعل الحب مع كورا لأنّني كنت أمسيت لا أحبّها. والحال أنّني تلقيت في بيتي، في تلك الحقبة ذاتها، بصورة غامضة بعض الشيء، لكنّها عادية في الواقع بالنسبة إلى هذا النوع من العلاقات، زيارة عدد معين من المومسات اللاتي كنّ يزعمن أنّهن صديقات بعضهن بعضاً. ولو كان غيري في مكاني لوضع حدّاً بلا ريب لهذه الزيارات من البداية، لكنّي أنا.
ـ أنت؟
ـ يطول عليّ شرح السبب الذي قبلت من أجله بأن تأتي أولئك المومسات للقياي في بيتي. فلنقل إنّني كنت مغتماً موهناً وإنّهن جئن في الوقت المناسب.
ـ لمَ كنت مغتماً؟

ـ أواه! لأسباب عديدة! إنّ ما ينبغي أن أقوله لك يتعلق بشيء آخر. ذلك أنّني في الحقبة نفسها التي تلقيت فيها الرسالة المغفلة، كان قد راودني شك، فسألت إحدى الفتيات وعرفت الحقيقة.

ـ أي حقيقة؟

ـ لا إنّ كورا تمارس تلك المهنة (وهذا ما كانت الرسالة قد أطلعتني عليه) فحسب، بل عرفت أيضاً شيئاً لم تذكره الرسالة.

ـ أي؟

ـ أي أنّ كورا هي التي كانت ترسل إليّ أولئك البنات. فعن طريقهن كانت كورا تريد أن تتابع صلتها الغرامية بي، وتريد بخاصّة، على الأرجح، أن تبرهن لنفسها على أنّني لم أفلت منها، أو بالأحرى لم أنقض لفكرة التي كوّنتها عن العالم. والحال، استمعي إليّ جيداً، أنّ الفتاة التي أرغمتها على الإقرار بالحقيقة لم تكن لا الأخيرة ولا قبل الأخيرة، بل واحدة من الأوائل.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنّي تظاهرت بأنّني لا أعرف شيئاً، وأنّني تابعت أداء لعبة كورا، تابعت الاستفادة منها، وأنّني لم أفعل شيئاً، اللهم إلّا بعد مدّة طويلة، كيما تنقطع زيارات المومسات.

ـ لِمَ قطعت هذه الزيارات؟

ـ شبعاً، على ما أعتقد.

ـ أهذا ما لم تجرؤ على كتابته في يومياتك؟

ـ كلا، ليس هذا.

ـ ماذا إذن؟

ـ إنّني قادم إلى ذلك. إذن فقد وضعت في النهاية حدّاً لزيارات البنات. ودخلت إلى الجريدة التي ما أزال أعمل لحسابها حتّى الآن، وقمت برحلتي الأولى كمبعوث خاص. لكنّني لم أنفصل عن

كورا بالرغم من كلّ الاسباب التي كانت تدعوني إلى ذلك، وتظاهرت بأنّني لا أعرف شيئاً، وبقيت أقيم تحت سقف واحد معها.

ـ لماذا؟

ـ غيري سيقول لك: لأنّني قبلت بخدماتها: فما دمت قد قبلت بها، لم يعد في وسعي أن... إلخ...

ـ غيرك سيقول ذلك، لكن أنت؟

ـ أنا، سأقول لك على العكس: بعامل اللاانتباه.

ـ أي؟

ـ أي أنّني كنت لم أعد راغباً في أن يكون بيني وبين كورا أي شيء مشترك، لأنّني لم أكن أجد أي دافع ذي قيمة يحتّم عليّ أن أتصرّف تجاهها بهذا الشكل بدلاً من ذاك. وعلى هذا فقد خيّل إليّ أنّ الشيء الوحيد الذي ينبغي عليّ أن أفعله هو أن أوجد في نفسي نوعاً من اللاانتباه المصطنع. وقد نجحت تمام النجاح في ذلك، أؤكد لك.

ـ أنا لا أشك.

ـ نظمت حياتي بالصورة التي تعرفين: ثمانية أشهر خارج بيتي وأربعة أشهر في البيت، سنوياً. وإبان هذه الشهور الأربعة، لا صلة البتة مع كورا، ولا معك، وكأنّني مستأجر لا زوجها وزوج أمّك.

ـ أهذا ما لم تجرؤ على البوح به؟

ـ ليس بعد. لكنّنا قادمان. إذن...

ـ إذن؟

ـ كانت قد مضت أربع سنين على هذه الحياة، عندما طرأ حدث جديد.

ـ أي حدث جديد؟

ـ كنت في روما بين سفرتين. والحدث الجديد هو أنّني تلقيت مكالمة هاتفية من شخص يعلمني أنّ في العنوان الفلاني، في الشقة الفلانية، يوجد شيء لي.

ـ من كان صاحب المكالمة؟

ـ كورا. لم تقل من هي، بالطبع، لكنّي تعرّفت صوتها.

ـ ثمّ؟

ثمّ، بدلاً من أن أرفض بكلّ بساطة، أو أقول لها إنّني تعرفتها، تظاهرت بأنّني لم أفهم شيئاً وقبلت.

ـ وهذا معناه؟

ـ إنّني ذهبت إلى العنوان المذكور.

ـ وماذا حدث؟

ـ حدث أنّني عندما رأيت الشيء الذي قيل لي إنّه لي وليت الأدبار.

ـ ماذا كان ذلك الشيء؟

ـ لَمَ تتظاهرين بأنّك لا تعرفينه؟

ـ لا أتظاهر بشيء، إنّني لا أعرف، هذا كلّ شيء.

ـ أنت تعرفينه، ولقد كنت تعرفينه دوماً.

ـ لكن، في النهاية، ماذا كان ذلك الشيء؟

ـ أنت تعرفينه خيراً منّي: ذلك الشيء كان بابا.

ـ بابا!

ـ أجلّ! بابا... وأنت تعرفين ذلك وكنت دوماً تعرفينه...

ـ هذا غير صحيح. إنّني أعرف ولقد كنت أعرف دوماً أنّ بابا، في المرّة الأولى التي اقتادتها فيها كورا إلى ذلك المنزل، لم تجد فيه أحداً وأنّه لم يحدث شيء. لكنّي لم أعرف قط أنّ الرجل الذي كان يفترض فيه أن يأتي في ذلك اليوم ولم يأتِ كان أنت.

- بيد أنّ لدي البرهان على أنّك عرفت ذلك منذ ذلك اليوم.
- أي برهان؟
- كانت بابا جالسة مديرة ظهرها للباب الذي كان مفتوحاً، وكانت تقرأ مجلة، حانية الرأس، وكان أمامها ديوان وفوق هذا الديوان مرآة كبيرة، أليس هذا صحيحاً؟
- بلى، إنّني أنا نفسي التي قالت لك هذه الأشياء عندما رويت لك قصة ذلك اليوم المشهود، أتتذكر؟
- انتظري لحظة. إنّ ما لم تقوليه، لا أدري لماذا، هو أنّني في اللحظة التي هممت فيها باجتياز العتبة نظرت إلى المرآة لأرى وجه بابا، وعندها رفعت بابا عينيها، بعد أن كانت تطرقهما، ونظرت بدورها في المرآة بحيث إنّ أنظارنا التقت وتعرفتني بدون أدنى شك.
- أأنت متأكد من ذلك تماماً؟
- متأكد تماماً. لقد تعرفتني بابا ولبثت ساكنة بلا حراك ترنو إليّ، منتظرة أن ترى ما سأفعله. وما فعلته، أنت تعرفينه: فقد وليت الأدبار.
- بالمناسبة، لِمَ وليت الأدبار؟
- لأنّني خفت أن أكون قد اجتذبت إلى فخ من قبل كورا وبابا.
- من قبل بابا؟
- أقصد بواسطة بابا. كنت أجهل (وكيف كان يمكنني أن أعرف ذلك؟) إنّها المرّة الأولى التي تذهب فيها بابا إلى ذلك المنزل، وقد حسبت أنّها قدمت إليه مراراً عديدة، وقلت بيني وبين نفسي إنّ كورا تستخدم بابا، بالاتفاق معها، لتجتذبني، لتجرّني، لتورطني، لتربطني بها أو إنّها تحاول أن تبدأ من جديد، بواسطة بابا، ما كانت قد فعلته قبل سنوات بمساهمة مومستها: الحب عن طريق شخص ثالث.

ـ أهذا ما لم تجرؤ على البوح به؟

ـ أجل.

ـ لِمَ لم تجرؤ على البوح لي به ما دمت متقنعاً بأنّ بابا قد عرفتك؟

ـ لأنّني في اللحظة التي رأيت فيها بابا جالسة في ذلك الصالون، في تلك اللحظة المحددة، أولعت بها، وعلى وجه التحديد لأنّني أولعت بها وليت الأدبار. ولم تكن لي الشجاعة لمصارحتك بالحقيقة لأنّني كنت أشعر بالخجل إذ هربت بدلاً من أن أتدخل كما كان واجباً عليّ أن أفعل.

ـ تتدخل بأي طريقة؟

ـ أن أتفاهم مع كورا، وأنقذ بابا من كورا.

ـ اعذرني، لكنّي لا أرى الصلة بين كونك قد أولعت ببابا وبين كونك قد وليت الأدبار بدلاً من أن تتدخل لصالحها. فقد كان المنطق يقضي، ما دمت كنت تحبها، بأن تتدخل.

ـ هذا بالضبط ما عجزت عنه. كنت خائفاً من نفسي على وجه التحديد لأنّني كنت أحبّ بابا. كنت أخشى، في حال التفاهم مع كورا، أن أستسلم للإغراء، وأن أنجرف وأتورط وأنجذب من جديد، وهذه المرّة بصورة نهائية لا خلاص بعدها. لا تنسي أنّني كنت مقتنعاً بأنّ بابا معتادة على هذا النوع من الأشياء. إذن، فأنا لم أفكر ببابا التي كنت أعتبرها ضائعة هالكة إلى الأبد، وإنّما بنفسي. وعلى هذا فقد وليت الأدبار وغادرت روما في اليوم التالي، مقدماً موعد سفري أسبوعاً.

ـ ثم؟

ـ بقيت طوال عشرة أعوام، أحب بابا، مقتنعاً في الوقت نفسه بأنّ بابا تحبّني.

ـ كنت مقتنعاً بأنّ بابا تحبّك؟

ـ أجل. كنت مقتنعاً، وما أزال، بأنّنا، أنا وبابا، في اللحظة التي التقت فيها أنظارنا في المرآة، قد وقعنا في غرام بعضنا بعضاً.

ـ لكن إذا كان هذا صحيحاً، فقل لي لمَ لم تأت إليك، لمَ لم تقل لك: «اسمع، لقد رأيتك وعرفتك، وهأنذا، إنّني أحبّك». ما كانت دواعي بابا لأن تتظاهر بأنّها لم ترك؟

ـ أعتقد أنّ دواعيها كانت كدواعيّ.

ـ أي؟

ـ لم أكن أريد أن أواجه الإغراء، وكذلك هي. أنا لأسبابي الخاصّة، وهي لأسبابها.

ـ لكن ما الأسباب التي أمكن أن تكون لبابا؟

ـ لقد تحدّثنا عن ذلك مراراً عديدة. كانت تريد أن أكون أباً لها، وكانت تريد أن تكون ابنة لي.

وساد صمت طويل. وأخيراً قالت بابا بتؤدة:

ـ كان المفروض فيّ أن أقول لك إنّ بابا لا تستطيع أن تغفر لك عدم تدخلك في ذلك اليوم، عدم سعيك إلى التفاهم مع كورا، عدم سعيك، كما قلت، إلى إنقاذها من كورا، أليس كذلك؟

ـ بلى، هذا ما كان المفروض.

ـ ومع ذلك، على العكس، ليس هذا المفروض.

ـ قولي لي لماذا؟

ـ قبل كلّ شيء، لم تقع بابا فريسة غرامك. صحيح أنّها رأتك وعرفتك، أقرّ بذلك ولا جدوى بعد الآن من نفيه، لكنّها لم تولع بك. فبابا، في ذلك الوقت، كانت كالميتة. وكيف يمكن لميتة أن تعشق؟ كلا، لقد شعرت لحظتئذ بشعور معين، لكنّه ليس شعور الحب.

ـ أي شعور إذن؟

ـ يشق عليّ التعبير عنه. لنقل إنّه كان في صميمه الشعور نفسه الذي كان يخالجها تجاه كورا.

ـ أي؟

ـ لنقل: شعور بعرفان الجميل.

ـ بعرفان الجميل؟

ـ أجل.

ـ كيف أمكن لبابا أن تشعر بالجميل تجاه كورا التي سعت إلى بيعها، وتجاهي أنا الذي أستسلم لإغراء شرائها؟

ـ الشعور بعرفان الجميل جاء فيما بعد. فقد توفيت أوّلاً بابا القديمة، بابا البلهاء الساذجة. ثمّ جاء بعد ذلك بفترة، الشعور بعرفان الجميل.

ـ لكن لماذا؟

ـ حفظت بابا لكما الجميل لأنكما أرسلتما بها إلى العالم الآخر.

ـ ...؟

ـ أجل، لقد ماتت بابا القديمة في نفس اللحظة التي رأتك فيها في مرآة الصالون. وهذا هو السبب الذي جعل بابا لا تخبرك، طوال تلك الأعوام، بأنّها رأتك في ذلك اليوم وعرفتك. إنّ بابا التي رأتك في المرآة ماتت، وبابا التي شعرت بعرفان الجميل تجاه كورا وتجاهك هي بابا جديدة تريد (كما أحسنت التعبير أنت نفسك) أن تكون كورا أمّها، وأنت أباها، وهي ابنتكما.

ـ لكن هل كان يستحيل أن يحدث هذا كلّه بدون ما تسمينه موت بابا القديمة؟

ـ أجل، كان هذا مستحيلاً. أتعلم...

ـ ماذا؟

ـ إنّ بابا تعتبر نفسها شخصاً عادياً تماماً، شبيهاً بكلّ الأشخاص

الذين هم في عمرها، إلّا في شيء واحد: إنّ معاصريها لم يموتوا ولم يبدأوا من ثمّ الحياة من جديد كما فعلت بابا.

- ما معنى هذا؟
- ربّما ليس شيئاً أكثر ممّا أقول.

ولزمنا الصمت هنيهة من الزمن، ثمّ تابعت بابا:

- هناك شيء لم تفسره لي. لمَ قرّرت، بعد ستة أعوام من الصمت، أن تقدّم نفسك لبابا بحجة الرسالة المغفلة؟
- لأنّني نويت آنذاك أن أفعل ما لم تؤاتني الشجاعة لفعله قبل ستة أعوام.
- أي؟
- في المرّة الأولى هربت من منزل كورا. ثمّ وقعت في غرام بابا، ولم أكن لأكفّ عن التفكير بها، لكنّي تمكّنت دوماً من إمساك نفسي عن تلك العلاقات التي كان تثير اشمئزازي. ويوم عودتي من إيران، وربّما لأنّ السفر أتعبني وأهاج أعصابي، استسلمت فجأة للإغراء، هذا كلّ شيء.
- باختصار، يوم قرعت على باب بابا كنت تفكّر بأن تصبح عشيقها.
- أجل.
- ولمَ لم تفعل شيئاً في هذا الصدد؟
- كنت مقتنعاً بأنّ بابا هي في الواقع واحدة من مخلوقات كورا العديدات، تشبه غيرها في كلّ شيء. وعلى هذا عندما قرعت بابها كنت أحاول إيهام نفسي بأنّني أفعل شيئاً عادياً تافه الأهمية. وبالفعل، ما الفساد إن لم يكن نوعاً خاصاً من العادية الباطلة اللاغية؟ كنت أعتقد أنّ بابا تنتمي إلى عادية الفساد هذه، لكنّي عندما قابلتها وجهاً لوجه، للمرّة الأولى، تبيّنت على العكس أنّني

أحبها فعلاً وأنّ هذا الحب لا يسمح لي إلّا بنوع واحد من العلاقة معها.

- وهو؟

- لا تبتسمي الآن، حتّى ولو بدا لك ما سأقوله بعيداً عن الواقع لا يصدق، بل مضحكاً: لم تكن علاقة أب بابنته لأنّني لم أكن أشعر بأنّني أب تجاه بابا، ولا علاقة رجل بالمرأة التي يحب لأنّني كنت أعرف أنّ هذه العلاقة مستحيلة بيننا. أكرّر عليك: لا تبتسمي: كانت علاقة الروائي بشخصيته. إنّ هذا كلّه سيبدو لك للوهلة الأولى أدبياً، لكنّه ليس كذلك.

وأمسكت عن الكلام لحظة، ولبثت بابا صامتة. وتابعت:

- على صعيد العلاقات القائمة في العالم الواقعي، لا توجد علاقة واقعية راسخة كتلك التي تقوم بين الروائي وأشخاصه: حتّى العلاقة الغرامية هي أقل صفاء، أقل شفافية، أقل غموضاً، أقل عجائبية، أقل كمالاً، من هذه العلاقة. أجل إنّني أحبك، وأحبك بالتأكيد حباً تحرر، فيما أنا أكلمك، من آخر خَبَث فيه كقطعة من المعدن بلغت أعلى درجة من الذوبان. ومع ذلك يقل هذا الحب صفاء ويقل واقعية عن الحب الذي سيسمح لي بتصويرك في روايتي، هذا إذا ما أوتيت القوّة على كتابتها. وهذا لأنّ حبّي لك يظل في الواقع ودوماً طريقة من طرق العمل، ولأنّه لا يمكن أن توجد أصالة في العمل. في حين أنّ الحب الذي سيتيح لي أن أصوّرك في روايتي يولد وينتهي في التأمّل من دون أن يتلوّث بالعمل، في حلم العمل أو رفض العمل. إنّما بهذا الحب أحبك وأنا حافظ لك الجميل كما ينبغي على المرء أن يحفظ الجميل لشخص يوحي إليه بعاطفة نادرة، صعبة، ثمينة.

وأخلدت إلى الصمت، منتظراً تعليقاً لم يأت. ثمّ استدرت على

مهل وقد تفاجأت بالصمت الذي طال أمده، ورأيت أنّ السرير خاوٍ. لقد نهضت بابا من غير أن أنتبه إليها، واتجهت نحو الباب، وغادرت الغرفة على أصابع قدميها.

الخميس ١٨ كانون الأوّل

أعدت قراءة الصفحات الأخيرة من يومياتي وشعرت بالحاجة إلى أن أضيف إليها خاتمة، على الأقل مؤقتة، ولا سيما أنّ هذه اليوميات قد انتهت فعلاً هذه المرّة ما دمت سأرحل إلى الولايات المتحدة في غضون خمسة أيام. لكن لأسباب ودوافع ستبدو بديهية جلية في نظر من يطالع هذه الصفحات حتّى النهاية ستكون خاتمتي ذات وجهين، إن جاز التعبير، كلّ منهما صحيح ومقبول وإن كان يختلف عميق الاختلاف عن الآخر، وكلّ منهما صالح لختم الرواية.

هوذا الأوّل: أريد، قبل أن أسافر، أن أسجّل هنا بأنّ المشهد الأخير، مشهد اعترافي لبابا، مختلق من أساسه. وإنّه لشيء مثير للفضول أن أكون قد تركت نفسي أنقاد، كلّما تقدّمت في تحرير يومياتي، أكثر فأكثر وراء اختلاق تفاصيل وأحداث، بل أحياناً مشاهد كاملة. لكن ربّما لم يكن ذلك مثيراً للفضول والاستغراب بالقدر الذي أقول: فهذا في الحقيقة برهان على أنّ مخيلتي، من شدّة تركيز انتباهي على الموقف ذاته، قد انشحذت شيئاً فشيئاً، واختمرت واهتاجت، وانتقلت على نحو غير محسوس من ملاحظة الواقع السلبية إلى تصوّره الحقيقي.

وعلى كلّ الأحوال ليس ثمة من أهمية تذكر لكوني لم أفعل قط في واقع الحياة الأشياء التي اعترفت بها لبابا، وعلى هذا، فإنّ اعترافي نفسه قليل الأهمية، كذلك ليس ثمّة من أهمية تذكر لكون الرسالة المغفلة قد وصلتني حقاً في اليوم المذكور، ولكوني قد جهلت كلّ شيء قبلها عن مهنة كورا الثانية. ليس لهذا من أهمية تذكر لأنّني

لم آبه طوال عشر سنين، مهما كان السبب، لبابا ولمصيرها، في حين أنّه كان ينبغي عليّ أن أهتم بها بوصفها ابنتي ما دمت أحب بابا حقاً، لأن يكون هذا الحب قد دام ستة أشهر أو ستة أعوام.

إنّ المشكلة الوحيدة التي تبقى قائمة هي معرفة إذا ما كانت روايتي ستنتهي على هذا الاعتراف، أم أنّني سأتركها معلقة مع ظهور الشرطة، وعودة كورا وبابا إلى المنزل بانتظار «الحيلة المسرحية» المتوقعة، المحتمة، حيلة موت كورا الطبيعي، الشيء الذي سيمكنني من إنهاء قصتي كما بدأتها، تحت عنوان العادية اليومية.

أمّا الوجه الآخر لخاتمتي فهو على العكس التالي: ثمة شيء عليّ أن أقبل به لأنّني إذا لم أقبل به فإنّني متأكد من أنّني لن أستطيع أن أكتب روايتي، أعني قبولي بأنّ مشهد اعترافي لبابا قد حدث فعلاً بنفس الكلمات وبنفس الحقائق التي تمّ البوح بها. أمّا ما هو مختلق وكاذب فهو، على العكس، الملاحظة التي أضفتها لتوي والتي صرّحت فيها بأنّ هذا المشهد نفسه كاذب وثمرة اختلاق محض. وفي هذه الحال يتوجب عليّ أن أحدّد الآن لما لم أشأ القبول ببعض الأشياء، حتّى تجاه ضميري، لأنّني حتّى عندما قبلت بها ندمت وأسرعت أنفي أن أكون قد قبلت بها. ربّما لأنّني، باعترافي بها، قد اعترفت في الواقع بأنّ الخجل الذي يوحي به وهمٌ تسلط عليك وأسرك، وإنّما الخجل الذي يمكن أن ينشأ عن خطأ دنس به الإنسان نفسه.

لكن من الصحيح أيضاً أنّني بقبولي عرض كورا وبذهابي إلى منزل مواعيدها قد سقطت في فخ وهم. ذلك الوهم الذي كانت كورا موزعته ومثيرته. وبعبارة واحدة، الوهم الذي تتجلى فيه أضغاث أحلام الحياة الشائعة المبتذلة بكلّ ماهيتها وامتلائها. وعلى هذا، فإنّ مشروع روايتي ذاك قد أفادني بوجه خاص في التحرّر من خجلي من أنّني عشت.

هذان هما إذن وجها الخاتمة، الوجهان المناسبان كلاهما لختم الرواية، لكن كلاً منهما من زاوية خاصّة وبطريقة مغايرة.

فالوجه الثاني، الوجه الذي يؤكد واقع الاعتراف، يضفي على الرواية كلّها طابع آلة أُحسن بناؤها. صحيح أنّ هذه الآلة داخلية كلّها إن جاز التعبير، تعالج تطوراً نفسياً أكثر ممّا تعالج أحداثاً واقعية، لكن صحيح أيضاً أنّ الرسالة المغفلة التي اطلعت عليها بابا بعد عشر سنين من تلقيها، والزيارة التي قمت بها لمنزل المواعيد وهربي من غير أن أعلن عن نفسي، ثمّ الصمت الذي لزمته طوال ستة أعوام عن الزيارة وهذا الهرب، أقول صحيح أيضاً أنّ هذا كلّه تفوح منه رائحة التركيب، الحبك، العقدة الروائية، حتّى ولو كان العنصر النفسي هو العنصر المهيمن فيه، بيد أنّه ينبغي أن أقول بأنّ هذا يحدث في الحياة وأشياء أخرى كثيرة غيره أيضاً. وبأنّ الإنسان إذا ما كتب روايات روائية إلى جانب روايات أخرى لا يحدث فيها شيء، فهذا يعني في الحقيقة أنّه حتّى في الواقع المعاش، إلى جانب غياب الأحداث، توجد وفرة من الأحداث. وأخيراً، ينبغي أن أشير إلى أنّ الاعتراف الذي أدليت به لبابا يعطي الرواية مفعولاً مبطلاً لمفعول الكذب والتضليل، مفعولاً يكون معناه: لا وجود لعدم انتباه يدوم عشر سنين من دون أن يكون هناك دافع لمثل هذه الظاهرة. وبذلك أكون قد شرحت هذا الدافع تماماً كما أنّه لا يمكن أن توجد، في «أوديب ملكاً»، أسرار وألغاز لا بالنسبة إلى المؤلف ولا بالنسبة إلى القارئ، إنّما فقط بالنسبة إلى الشخصية ـ البطل.

أمّا الوجه الأوّل من الخاتمة، الوجه الذي ينفي واقع الاعتراف، فهو ينقل على العكس الرواية من صعيد الأحداث الواقعية إلى وعي الروائي. فلا تعود قصة الشعور بالغلطة، المتولد عن الغلطة المقترفة فعلاً، وإنّما قصة الطريقة التي يواجه بها الروائي مشكلة تصوير الغلطة

والشعور بالإثم. إنّ روايتي، مع الوجه الأوّل من الخاتمة، ستكون دراماتيكية، ومع الوجه الثاني ستكون دراما إبداع رواية.

قد يريد قارئ من القرّاء أن يعرف أي الخاتمتين تنطبق على الحقيقة. أي معرفة ما حدث فعلاً. لكن هذا ما لن أقوله، لأنّه ليس من الضروري، في الحقيقة، أن أقوله. وبالفعل، وبعد أن قلت كلّ ما يجب قوله، فإنّ مشكلتي، في خاتمة المطاف، ليست مشكلة اتهام نفسي أو تبريرها أو هتك الحجب عنها، وإنّما هي مشكلة أبسط بكثير، مشكلة كتابة رواية. صحيح أنّه لا يمكن أن تكتب رواية إلّا إذا قيلت الحقيقة، لكن من يستطيع أن ينكر أن خاتمتيّ حقيقيتان كلتيهما، حتّى ولو كانت كلّ واحدة منهما حقيقية على طريقتها الخاصّة؟

الخاتمة

إنّ الـ «deux ex machine»، أقصد موت كورا الطبيعي، فعل فعله بدقة، كما توقّعت. كان قد مضى على وجودي في نيويورك عشرون يوماً عندما تلقيت من بابا رسالة تعلمني فيها أنّ كورا قد قرّرت نهائياً الذهاب لاستشارة طبيب، وأنّ هذا الأخير قد شخّص مرضاً مميتاً. ولم يكن هذا المرض سلاً كما حسبنا، وإنّما سرطان رئوي. كما أعلمتني بابا أنّ الطبيب أعطى كورا من ستة أشهر إلى سنة من الحياة. وعلى هذا ليس هناك من ضرورة عاجلة لعودتي إلى روما.

وتلقيت أيضاً رسالتين متفائلتين بالأحرى: فصحة كورا تتحسّن وحالتها تتقدّم، والطبيب لم يعد يفهم شيئاً وأخذ يتكلم عن معجزة... ثمّ، على حين غرة، تبدّل مفاجئ: برقية تعلمني بأنّ كورا تحتضر.

بينما كنت أحلق فوق الأطلسي، كنت أتساءل عمّا أرغب فيه قبل أي شيء آخر. وتبيّنت أنّني أتمنى على الأخص أن أصل إلى روما بعد وفاة كورا. فقد كانت فكرة احتضار كورا، ونحن، أقصد أنا وبابا، ساهران عند سريرها، كانت هذه الفكرة التي ترضي بكلّ تأكيد بابا المتشبثة ببرنامجها الخاص عن إعادة توطيد العلاقات العائلية، لا تطاق بالنسبة إليّ. فأنا لا أريد أن أعيد توطيد أي شيء. فكورا هي، في نظري، ما هي عليه، كما أنّ بابا هي ما هي عليه وأنا ما أنا عليه. ولا مجال للكلام عن عائلة. وأنا أفضل، شخصياً على الأقل، أن أكون ما أنا عليه على أن أحاول أن أكون ما كان يجب أن أكونه.

لقد استجاب «deux ex machine» لرجائي بكلّ حسن التفات.

فعند وصولي إلى روما لم ألف أحداً في البيت. وأعلمني الخادم أنّ كورا توفيت البارحة عند الفجر، وأنّ بابا موجودة في العيادة من أجل الجنازة. وبعد تردّد وجيز (تساءلت عمّا إذا لم يكن من الأفضل أن أبقى في البيت متظاهراً بأنّني لم أصل بعد) تمسكت بحبل الشجاعة وذهبت إلى العيادة. ولقد وصلت في الوقت المناسب بالضبط لأشاهد القبارين الأربعة يحملون التابوت ويتجهون نحو العربة الجنائزية التي كانت تنتظر في الساحة. كان تابوتاً من خشب فاهي اللون، شبه خام، من الطراز الأكثر شيوعاً. وفيما كنت أسير وراءه، بصحبة والدي كورا وبابا وسانتورو، شدهت بالسرعة، بل، يمكن القول، بالعجلة المحمومة اللامبالية التي كان يحمله بها القبارون الذين نزلوا الدرج ركضاً تقريباً، ورفعوه بخفة وكأنّه تبرة قش نحو فتحة العربة، ودفعوا به إلى الداخل، وأغلقوا الأبواب، وصعد اثنان منهم وثباً إلى العربة، واحد من كلّ جانب، وصعد الآخران إلى سيّارة صغيرة سوداء. وما كاد صوت الأبواب التي أغلقت بعنف يتلاشى في سكون الحديقة حتّى كان المحرّك قد أخذ يزمجر وتحرّكت العربة الجنائزية. وصعدت إلى سيّارتي وجلست بابا بجانبي، وانطلقنا في موكب صغير مؤلف من أربع سيّارات، سيّارة الجنازة وسيّارة أهل كورا وسيّارة سانتورو وسيّارتي، يتبع بسرعة العربة المأتمية التي كانت تجري عدواً في ممرات حديقة العيادة. وعبرنا البوابة، وتقدّمنا باتجاه شارع كاسيا، كان السير كثيفاً، لكن سائق العربة المأتمية كان يسرع كالمجنون من غير إبطاء ويقوم بتجاوزات خطرة. كان، طوال الطريق، يضغط على زمور السيّارة ويتغلغل بين عربتين في خضم السيّارات، ويستفيد من الفسحات الخاوية لينطلق بأقصى سرعة، ويشدّ على الفرامل ويعاود الانطلاق بخشونة. وقلت لبابا التي كانت تدير وجهها بعناد نحو نافذة باب السيّارة:

- ما يهم؟ لمَ يسرعون على هذا النحو؟
- إنّهم على عجلة من أمرهم بلا ريب. لعل عندهم دفناً آخر بعد هذا.

ولم أقل شيئاً. لو كنت تكلمت، لقلت ما كنت أفكر به أو بالأحرى ما كنت أحسّ به. أجل، ربّما كان القبارون على عجلة من أمرهم لأنّ لديهم دفناً آخر، لكن عجلتهم تبدو لي ناجمة عن دافع آخر. دافع التخلص من كورا ودفنها بأقصى سرعة ممكنة حتّى لا يعودوا إلى التفكير بها، لقد كانت كورا شيئاً غريباً، معادياً، سلبياً، هداماً، على الأقل في العالم الذي ينتمي إليه القبارون أنفسهم. ولقد كان من الواجب إبعاد كورا، هي الحضور المزعج المرهب، بأقصى ما يمكن من السرعة كما يبعد الجسم شيئاً ليس غريباً عنه فحسب بل ضاراً به أيضاً: سمّاً أو شظية. لقد آمنت كورا بالعدم، ومثلت العدم، وحبذت العدم. والآن يستعجلون الخلاص منها. وإذا لم يكن جثمانها قد ألقي في حفرة الأقذار، فليس ذلك، بكلّ تأكيد، بعامل الشفقة، وإنّما بحكم المنطق الصلب للعالم الذي رفضته وحاربته.

فيما أنا أفكّر كنت قد وصلت مع الآخرين إلى المقبرة التي دشنت ولا شك منذ عهد قريب، لأنّني تبيّنت، بعد عبور البوابة، أنّ الممشى عارٍ، تحفّه أشجار سرو صغيرة مسنودة بأوتاد، وقد انتشرت هنا وهناك قبور جديدة متألقة برخامها الملوّن ومتلألئة بالنقوش ذات الأحرف المذهبة.

كان النهار بارداً كالحاً مثل غيره من نهارات روما في الشتاء، والمطر رذاذاً متقطعاً، والسماء رمادية صقيلة، لا تخددها تضاريس الغيوم، وكأنّ اللون الرمادي هو لونها المعتاد بدلاً من اللازورد. وكانت العربة المأتمية تدور وتلف حول القبور بنفس السرعة المحمومة، ثمّ توقفت فجأة في فسحة جرداء. كنّا عند سفح تل، وكانت الأضرحة تصطف في أربعة صفوف يعلو بعضها بعضاً على

المنحدر. كان المشهد واسعاً كئيباً: ريف روما باخضراره الشاحب، بلا أشجار، بلا منازل، وخطوط التلال الواطئة المتماوجة ترتسم الواحد تلو الآخر حتّى سمت الأفق. وانفتحت أبواب السيّارات كلّها دفعة واحدة، ونزلنا منها: بابا، والدا كورا، سانتورو، فتاة شابة هي على الأرجح أخت هذا الأخير، وأنا. لكن ما كدنا نهم بالاقتراب من العربة المأتمية حتّى كان القبارون قد أخرجوا النعش وحملوه، بسرعة، خارقة، نحو إحدى الكوى العديدة التي ما تزال فارغة. وكان يتبعهم رجلان يحملان أكاليل صغيرة من الزهر، ثمّ نحن وقد رحنا نحثّ الخطى بأسرع ما يمكننا. كانت الكوة تقع في أعلى صف، وكانت صقالة صغيرة موضوعة أمامها يمكن الصعود إليها بواسطة سلم متحرك. وصعد عليها القبارون الذين كانوا يحملون النعش على أكتافهم، ودفعوا به إلى الكوة، ونزلوا بسرعة. وصعد عاملا بناء بدورهما، أحدهما يحمل سلّة من الآجر، والآخر سطلاً من الكلس ومسجة. وبالسرعة نفسها سدت الكوة من قبل العاملين النشيطين الماهرين المقبعين على الصقالة: صف من الآجر، طبقة من الملاط، ثمّ صف آخر من الآجر وطبقة أخرى من الملاط، إلى أن سدت الفتحة كلياً. كنّا واقفين حول الصقالة، رافعين أنظارنا، وفكّرت فجأة بأنّ كورا التي سدّت عليها الكوة حيّة وليست ميتة، وربّما لأنّه خيّل إليّ أنّ مثل هذه العجلة الكبيرة تناسب عدواً قادراً على الأذى أكثر ممّا تناسب جثماناً خامد الحياة عاجزاً عن الأذى.

بعد أن سدّت الكوة ثبت العاملان على الآجر بالإسمنت اللوحة التي تحمل اسم كورا وتاريخي ميلادها ووفاتها، ووضعا على جانبي اللوحة أكاليل الزهر الصغيرة، ونزلا. ولا ريب في أنّ هذا كلّه دام فترة طويلة بما فيه الكفاية، لأنّ سد كوّة وتثبيت لوحة عليها عملية تستغرق وقتاً طويلاً، لكن خيّل إليّ أنّ المسألة كلّها لم تتجاوز

الدقائق. وفي النهاية، وفي جو محرج مراء من الصمت، تمّت المصافحات المعتادة وهزات الرأس المليئة بتعابير الأسى. وقالت بابا لسانتورو وهي تشير إليّ:

ـ باولو، إنّني ذاهبة معه. سنلتقي فيما بعد.

وصعدنا إلى سيّارتي، وقدتها بسرعة أبطأ بكثير من السرعة التي تبعت بها عربة الموت. وخرجنا من المقبرة، وأخذنا مكاننا في خضم الرتل الطويل من السيّارات المتجة إلى روما. نظرت إلى بابا خلسة. كانت، بثيابها السود، شديدة الشحوب، قد احمرّت عيناها وتورمتا من الدموع. ولم أستطع إمساك نفسي عن التفكير بسخرية: «هي حقاً الابنة التي لا سبيل للعزاء إلى قلبها تبكي موت أمّها. إنّ كل شيء منتظم حسب الأصول». وفي النهاية قالت لي من دون أن تنظر إليّ:

ـ آسفة، لكنّي لن أستطيع، مدّة إقامتك في روما، أن أكون بصحبتك كثيراً. فأنا، منذ حوالي شهر من الزمن، أقيم مع سانتورو.

فلم أقل شيئاً. وأضافت:

ـ سوف نتزوج خلال خمسة عشر يوماً.

ـ أأنت مسرورة؟

ـ أجل... في الحقيقة، هذا ما كنت أرغب فيه.

هكذا فإنّ كلّ ما كان بيننا أو بالأحرى كلّ ما كان يمكن أن يكون بيننا، قد كشفته في هاتين الكلمتين: «في الحقيقة». إنّ «في الحقيقة» هذه تعني: لقد أحببتك، وما أزال أحبك، وكان في وسعي أن أذهب معك حتّى الحب السفاح، لكن من الأفضل أن أتزوج سانتورو من غير أن أحبّه، أن أؤسّس معه أسرة، أن أنجب أطفالاً، وأن نبقى، نحن الاثنين، أو بالأحرى نصبح نهائياً أباً وابنة.

لم أفش شيئاً من هذه الأفكار لبابا، لإحساسي بأنّني لن أستطيع

أن أكون صادقاً معها كلّ الصدق من الآن فصاعداً. وبعد صمت، سألت:

- ماذا سنفعل؟
- سأعاود الرحيل غداً إلى الولايات المتحدة.
- ثمّ؟
- سأستمر في فعل ما فعلته دوماً: الصحافة.
- وتلك الرواية التي كنت تزمع استخلاصها من يومياتك، هل ستكتبها؟
- لا أظن. على كلّ الأحوال، سأكرس اليوم الذي سأقضيه في روما لهذه المشكلة. سأدرس يومياتي وسأرى ما بوسعي أن أفعله بها.

كانت تلك هي آخر عبارات تبادلتها مع بابا. كنّا قد وصلنا إلى ساحة فلامينيو فرجتني أن أتوقف. ونزلنا وتعانقنا، هي باندفاع بنوي، وأنا بسلبية أبوية. ثمّ صعدت من جديد إلى السيّارة وعدت أدراجي إلى بيتي.

كنت أريد دراسة يومياتي، لكن رحلتي الطويلة بالطائرة وجنازة كورا كانتا قد أتعبتاني. ولذلك، وبعد أن قلبت عدّة صفحات، بصورة شبه آلية، قمت لأستلقي على سريري. وسرعان ما سدرت في السبات وشاهدت الحلم التالي: أتت بابا وكورا للقائي، وكلّ منهما ممسكة بيد الأخرى، متقدمتين في ممشى لامتناهي الطول تعرّفت فيه ممشى المقبرة. وبالفعل كان يحفّه على مد النظر صفّان من القبور الجديدة المتألقة، المشادة من الرخام اللماع الذي يقدح شرراً تحت الشمس. وكانت هذه القبور على شكل كنائس ومعابد صغيرة وأجنحة ودور صغيرة. وكنت أقف بقرب واحد من هذه القبور، وبابه البرونزي مفتوح على مصراعيه فيبين فراغه من الداخل. وكان فوق الباب نقش

بأحرف مذهبة، لكن الشمس كانت تسطع فوقه، وكان وهج الذهب يمنعني من القراءة. وكانت كورا وبابا قد وصلتا قدامي. كورا ترتدي كعادتها تنورة وسترة حمراء. أمّا بابا فترتدي، على العكس، وبقلة لياقة، ثوب عروس: برقع أبيض طويل يغطي كالغمام رأسها وكتفيها، وعلى رأسها تاج من زهر البرتقال، ورداؤها الحريري الأبيض مزدان بذيل طويل. نظرت إليهما ولاحظت بذعر أنّ وجه كورا، المؤطّر بخصلتين طويلتين من الشعر الأسود، ليس وجه امرأة حيّة بوجنتين حمراوين وعينين زرقاوين، وإنّما وجه امرأة ميتة، وجه أصفر مظلل بسواد الموتى، وبعينين مطفأتين، كابيتين، شبه بيضاويين لكن لم يكن يبدو على بابا أنّها منتبهة إلى ذلك. فقد رفعت إلى شفتيها يد كورا، يداً صفراء ميتة مثل الوجه، وقبلتها بتفانٍ، وقالت بصوت جهوريّ: «هي ذي أمي كورا التي أدين لها بكلّ شيء لأنّها فعلت في سبيلي ما لم تفعله قط أي أم في سبيل ابنتها وأنا أحبها وعرفاني لها بالجميل لن يكون له أبداً من نهاية». وهزّت كورا برأسها موافقة على هذا الكلام، لكنّها فعلت ذلك كميتة، بطريقة واهنة شبحية. ثمّ اتجهت الاثنتان نحو القبر الذي كنت أقف بجانبه، وبابا ما تزال تمسك بيد كورا وكأنّها تقودها. ودلفت كورا إلى القبر العالي الضيق الذي بدا صغيراً بالنسبة إليها، وانطبق باب البرونز. إنّ بابا تدير لي الآن ظهرها، ويقف بجانبها سانتورو، في ثياب العرس هو الآخر: رداء أسود وباقة من الزهور في يده اليمنى. وأعطته بابا ذراعها وابتعد الاثنان في ذلك الممشى الطويل، الطويل، بين صفين من القبور. وسرعان ما أصبحا مجرد نقطتين سوداوين صغيرتين. وفي تلك اللحظة، استيقظت.

كنت ما أزال مضطرب الجأش لهذا المنام وكأنّني مغتم لخطب عظيم يتهددني. لكنّي فكرت وفهمت أنّني حلمت، في الواقع وبصور الحلم، بما قالته لي بابا ذات يوم بالكلمات: أي أنّها حافظة لكورا

الجميل لأنّها أماتتها وأتاحت لها أن تبعث من هذا الموت، ولأنّه لولا كورا لما كان حدث شيء من هذا ولبقيت شبيهة بالكثيرين من معاصريها الذي يجهلون ما الحياة على وجه التحديد لأنّهم لم يعرفوا تجربة الموت. وأسكن هذا التفكير روعي، فنهضت وغسلت وجهي بالماء البارد، ثمّ جلست أمام طاولتي. كان تعبي قد زال، فتحت يومياتي على الصفحة الأولى وشرعت أعيد القراءة وأعدت القراءة طوال فترة بعد الظهر. وفي النهاية اتضح لي مطلق الوضوح أنّ عليّ أن أعدل عن استخلاص رواية منها كما كان قصدي.

وبالفعل، كانت هذه اليوميات مؤلفة من قسمين متمايزين وغير متعادلين: الأوّل، وهو الأطول، يحتوي على عدد كبير من الصفحات التي كان من الممكن أن تكون صفحات دراسة أو مقالة، وهذا بغض النظر عن الاختلافات العديدة التي لم أستطع إمساك نفسي عن إضافتها كلّما رويت الأحداث؛ والثاني، الأقصر، هو، على العكس، سرد لما حدث فعلاً. والحال أنّني كتبت القسم المتخيل الذي له طابع الدراسة مع العزم المسبق على عدم نقله إلى الرواية، وهو في الواقع تسجيل لكلّ ما يمكن أن يخطر ببال الروائي أثناء تفكيره في الرواية التي يريد كتابتها، لأشياء قد تساعده على كتابة الرواية لكن لا يمكن، بكلّ بداهة، أن تمثّل فيها. بيد أنّني إذا ما حذفت هذا القسم، فلن يبقى شيء كثير للرواية الحقيقية. وبالفعل، لم يحدث من شيء يصلح لأن يكون عقدة قصة. وفضلاً عن ذلك، وبالرغم من انّه لم يحدث شيء، لم أذكر في يومياتي تفاصيل الحياة اليومية التي لا يحصى لها عد كما كنت أزمع في البدء، فقد نهاني عن ذلك الجانب الاستثنائي للموقف الذي وجدت نفسي فيه، لكنّي عندما وصلت إلى هذا الحد من تأملاتي، اكتشفت اكتشافاً أذهلني بل أغضبني تقريباً لأنّه كان في الواقع اكتشافاً لشيء طبيعي وبديهي كان يجدر بي أن أفكر به على

الفور: لا ضرورة لاستخلاص رواية من يومياتي، فروايتي قد كتبتها وانتهيت منها حتّى من دون أن أنتبه إلى ذلك.

إنّ هذه الرواية ليست شيئاً آخر غير اليوميات نفسها، كما كتبتها كلّ يوم بيومه، لا بالأحداث النادرة التي حدثت فعلاً فحسب، بل أيضاً وعلى الأخص بالأحداث التي لم تحدث البتة، والتي حلمت بها أو تخيلتها أو قدمتها فقط كفرضيات.

لقد خيّل إليّ دوماً أنّ الرواية التي سأستخلصها من يومياتي يجب أن تكون رواية عادية لها بطل يكون أنا نفسي وشخصيات كثيرة. والحال أنّ يومياتي، التي هي في الواقع رواية كاملة مكتملة، لها بطل ليس بشخصية وإنّما كيان أدبي، أي بالضبط الرواية التي كنت أزمع كتابتها فيما بعد.

وبمقتضب القول، كانت الرواية هي البطل الحقيقي لليوميات، وليس أنا، كاتب اليوميات. وهذه اليوميات رواية كاملة مكتملة لأنّني لم أروِ فيها قصتي، وإنّما قصة الرواية التي كنت أنوي كتابتها.

وكنت أدرك، من جهة أخرى، أنّ الرواية ـ بطلة ـ اليوميات ليست رواية كغيرها من الروايات، لكن، وكما ذكرت أكثر من مرّة، طريقة في فهم الصلة بالواقع. والحقيقة أنّني رويت في يومياتي كيف تكوّنت هذه الطريقة في فهم الصلة بالواقع ببطء، وتوكدت، وانتظمت، ليكون لها القدح المعلى في النهاية.

وهنا تصوّرت أنّه ربّما وجد قرّاء يعترضون: «إذا كانت أشياء كثيرة قبلت بها في هذه اليوميات هي ثمرة ابتكارك المحض، أي مجرد أضغاث أحلام في خاتمة المطاف، فمن يضمن لنا أنّ الأشياء التي زعمت أنّها واقعية ليست، هي الأخرى، من بنات مخيلتك. من يضمن لنا أنّ اليوميات بكاملها ليست مختلقة وليست، هي الأخرى، حلماً؟».

اعتراض وجيه. والجواب الوحيد الذي أستطيع أن أقدّمه هو أنّ يومياتي حلم، لكنّها أيضاً، وكما يشير عنوان مسرحية درامية إسبانية مشهورة[1]، الحياة بكاملها. وبالفعل، إنّ الفرق بين الأشياء المسماة واقعية والأشياء المحلوم بها فرق تافه ضئيل. فالأحلام تكون أحلاماً من الدرجة الأولى، أو من الدرجة الثانية، أو من الدرجة الثالثة، إلخ... لكن من الصحيح أيضاً أنّه يمكننا القول، إذا عكسنا المخطط، إنّ بعضاً من هذه الأحلام هي وقائع من الدرجة الأولى، وبعضها الآخر وقائع من الدرجة الثانية، وبعضها الآخر أيضاً وقائع من الدرجة الثالثة، إلخ... وبالفعل، وإذا كان صحيحاً أنّ الأشياء المحلوم بها ليست، بمعنى ما، واقعية، فمن يستطيع أن ينفي أو يشك بأنّه حَلَمَ، وعلى وجه التحديد هذا الحلم أو ذاك وليس غيره؟ هل نستطيع أن نقول لشخص يروي حلماً حلمه: «كلا، هذا غير صحيح أنت تكذب، أنت لم تحلم بهذا»؟ وعلى هذا، وعلى فرض أنّ الأشياء المحلوم بها غير واقعية (أو على الأقل غير واقعية على طريقة الأشياء المسمّاة واقعية)، فإنّ عملية الحلم هي بدون أدنى ريب واقعية.

وبعبارة أخرى، إذا كان صحيحاً، كما هي قناعتي، أنّ الرواية لا يمكن إلا أن تكون واقعية، فإنّ يومياتي تبرهن على أنّه لا وجود للواقعية من حدود وأنّه لا يمكن استبعاد شيء من الواقع، ولا حتّى الأحلام، ولا حتّى الأكاذيب، ولا حتّى ذلك الوهم الحيوي الذي أوحى إليّ ذات يوم بالخجل من أنّني عشت.

إنّ الدرس الوحيد الذي استخلصته من مطالعة يومياتي هو أنّ أكثر ما عليّ هو أنّ أجد بقدر الإمكان الوسيلة التي تتيح لي ألا أحلم

---

(١) «الحياة حلم» لكالدرون ديلا باركا.

إلّا أحلاماً معينة أما كيف السبيل إلى ذلك، فهذا ما لا أدريه، لكن يكفيني أن أشير إلى حل المشكلة المرجح. ولقد خيّل إليّ، على كلّ حال، أنّ يومياتي، وإن كان مؤلفة جزئياً من أحلام، أقدر من الرواية التي كان يسعني استخلاصها منها على إعطاء فكرة صحيحة عمّا كان يمكن أن تكونه الرواية ذاتها: شيئاً كنت سأكتبه لأعرف لَمَ أكتبه، شأن الإحساس الذي خالجني دوماً بأنّني أحيا لأعرف لَمَ أحيا.

لقد كتبت يومياتي لأعرف السبب الذي سأكتب من أجله رواية. والأجدر بي أن أحافظ على طابع البحث هذا وألا أعطي شكلاً نهائياً لما لا يمكن على الأرجح أن يكون له شكل نهائي.

لهذا قرّرت أن أنشر يومياتي كما كتبتها، مكتفياً بتغيير أسماء الأشخاص وبعض الأماكن. وهذا ما فعلته. إن ما يظهر اليوم في شكل رواية ليس، بالفعل، من شيء آخر غير يومياتي التي أضفت إليها تمهيداً وخاتمة، لكنّي حافظت على العنوان «الانتباه» الذي هو أيضاً عنوان الرواية التي كنت أزمع كتابتها. إنّه عنوان مناسب، على الأقل هذا ما أعتقده. وفضلاً عن ذلك أخشى أن تبدو القصة مشوشة بعض الشيء، وبذلك يكون حفاظي على العنوان أشبه بدعوة إلى القارئ لكي يخص هذا الكتاب بالانتباه نفسه الذي يعيره عادة (ينبغي أن نأمل ذلك) لأحداث حياته الخاصّة.

هذا الكتاب

لهذا قرّرت أن أنشر يومياتي كما كتبتها، مكتفياً بتغيير أسماء الأشخاص وبعض الأماكن. وهذا ما فعلته. إن ما يظهر اليوم في شكل رواية ليس، بالفعل، من شيء آخر غير يومياتي التي أضفت إليها تمهيداً وخاتمة، لكنّي حافظت على العنوان «الانتباه» الذي هو أيضاً عنوان الرواية التي كنت أزمع كتابتها. إنّه عنوان مناسب، على الأقل هذا ما أعتقده. وفضلاً عن ذلك أخشى أن تبدو القصة مشوشة بعض الشيء، وبذلك يكون حفاظي على العنوان أشبه بدعوة إلى القارئ لكي يخص هذا الكتاب بالانتباه نفسه الذي يعيره عادة (ينبغي أن نأمل ذلك) لأحداث حياته الخاصّة.

ISBN 978-9933353599

9 789933 353599